

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



مجلد صالح النقيو

٢٢٢٧٣

نَارِخُ الْحِكْمَةِ الْقَوْمِيَّةِ

وَتَطَوُّرِ نِظَامِ الْحُكْمِ

فِي مِصْرَ

بِقَلَمِ

عَبْدِ الرَّحْمَنِ الرَّافِعِيِّ

الجزء الثاني

(من إعادة الديوان في عهد نابليون إلى انتهاء الحملة الفرنسية)
(ومن جلاء الفرنسيين إلى ارتقاء محمد علي أريكة مصر بإرادة الشعب)

الطبعة الثالثة

١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م

ثمان ٢٠

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة النهضة المصرية

للأستاذ إبراهيم دويوف محمد وأهله

٩ شارع عدلي بامش

مطبعة السعادة مصر

مقدمة الطبعة الثالثة

ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب (الجزء الثاني من تاريخ الحركة القومية)
سنة ١٩٢٩ ؛ والطبعة الثانية سنة ١٩٤٨ ؛ وها هي ذى الطبعة الثالثة أخرجها سنة
١٩٥٨ ؛ وهي لا تختلف عن الطبعتين السابقتين ، بل هي طبق الاصل من الطبعة الأولى
والطبعة الثانية
والله ولي التوفيق ؟

عبد الرحمن الرافعي

يونيه سنة ١٩٥٨

مقدمة الطبعة الثانية

هذه هي الطبعة الثانية للجزء الثاني من « تاريخ الحركة القومية وتطور نظام
الحكم في مصر » ، والجزء الأول يتناول ظهور الحركة القومية في تاريخ مصر
الحديث ، وبيان الدور الأول من أدوارها في عهد الحملة الفرنسية ، وتاريخ مصر القوي
في ذلك العهد ، ويشتمل الجزء الثاني على تطور التاريخ القومي وحوادثه من إعادة
« الديوان » في عهد نابليون إلى انتهاء الحملة الفرنسية ؛ وفترة الانتقال من جملاء
الفرنسيين إلى ارتقاء محمد علي أربكة مصر بإرادة الشعب

وقد أخرجتُ بعد ظهور هذين الجزئين كتاب « عصر محمد علي » ، ثم كتاب
« عصر اسماعيل » في جزئين ، أولهما عن عهد عباس الأول وسعيد وأوائل عهد
الحديو اسماعيل . والثاني وفيه ختام الكلام عن عهد اسماعيل

يلي ذلك كتاب « الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي » . ويتضمن أسباب
الثورة العرابية ومقدماتها ، التي ترجع إلى أواخر عهد اسماعيل ، وما كانت ترمي
إليه من تحرير البلاد من التدخل الأجنبي ومن الحكم المطلق معا ، ووقائع الثورة
ومراحلها ، وما ناله من نجاح في الدور الأول من أدوارها ، ثم إخفاقها في الدور
الثاني ، ووقائع الاحتلال الإنجليزي الذي رزئت به البلاد في أعقابها

وأفردت للسنوات العشر الأولى من الاحتلال كتاب « مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال » ، ويتناول تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢ ، وما أصاب البلاد في خلالها من عدوان الاحتلال ، ووقائع هذا العدوان وترادفها في شمال الوادى وجنوبه ، وتراجع الروح القومية في تلك الفترة من الزمن .
يلي ذلك كتاب « مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية » ، ويتناول عهد البعث الوطنى وتاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨

يليه كتاب « محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية » ، ويشتمل على تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩

ثم كتاب « ثورة سنة ١٩١٩ » في جزئين ، يشتمل أولها على تاريخ مصر القومى في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) ، وبيان الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة ، وتطور الحوادث من بعد انتهاء الحرب إلى اندلاع هيب الثورة في مارس سنة ١٩١٩ ، ووقائع الثورة وحوادثها في القاهرة والأقاليم ، ويتناول الجزء الثانى الحديث عن مهادنة الثورة ، واستمرارها ، ومحاکمات الثورة ، ولجنة منازع الحوادث التى لا يستها ، ومفاوضات سنة ١٩٢٠ . واستشارة الأمة في مشروع منازع . والتبليغ البريطانى بأن الحماية علاقة غير مرضية . ثم نتائج الثورة في حياة مصر القومية

يلي ذلك كتاب « في أعقاب الثورة المصرية » وقد أخرجت الجزء الأول منه في يولييه سنة ١٩٤٧ ويشتمل على تاريخ مصر القومى من ابريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة المغفور له « سعد زغلول » في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧
والله أرجو أن يوفقنى إلى إتمام الجزء الثانى ثم الثالث من هذا الكتاب . وبهمة تكتمل هذه المجموعة بمشيئة الله

عبد الرحمن الرافعى

ابريل سنة ١٩٤٨

مقدمة الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الجزء الثاني

تقدمت في العام الماضي لمواطني الأعزاء بالجزء الأول من تاريخ الحركة القومية ،
واليوم أتقدم بالجزء الثاني . حامداً الله على ما أسدى ويسر ، وعلى ما أعان ووفق .
وله الحمد أولاً وآخراً

أفردت الجزء الأول لدراسة الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث . ومبدأ
ظهورها ، فرجعت بها إلى عصر المقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر .
وبسطت الكلام في تأييد هذه الحقيقة وشرحها على ضوء الوقائع التاريخية .
وسردت حوادث تلك المقاومة في مختلف أنحاء البلاد . من الاسكندرية إلى أسوان .
وانتهيت إلى بيان وقائعها في الوجه القبلي . ثم وعدت القارئ في ختام الفصل السابع
عشر أن تنتقل إلى القاهرة والوجه البحري ، لتتابع الحوادث التي وقعت فيهما بعد
إخماد ثورة القاهرة الأولى

وها هي تلك الحوادث مبسطة في الجزء الثاني . فهو يتناول الكلام عن إعادة
الديوان في عهد نابليون ، ونظامه في دوره الثاني . ثم حملة نابليون على سورية .
وحوادث المقاومة الشعبية التي وقعت في مصر أثناء غيبته . ثم سياسته لإزاء الشعب
حين عودته إلى مصر . حتى رحيله عنها . واستخلافه الجنرال كليبر في القيادة العامة ،
ووصف حالة مصر السياسية والاقتصادية والشعبية على عهد كليبر . ثم إبرام معاهدة
العرش ونقضها . ونشوب ثورة القاهرة الثانية وإخمادها . ثم مقتل الجنرال كليبر ،
وتطور نظام الحكم على عهد الجنرال منو ، وترادف الحوادث إلى جلاء الفرنسيين عن
البلاد . وإلى هنا انتهينا من الكلام عن نتائج بزوغ العامل القومي في أفق الحوادث

السياسية خلال الحملة الفرنسية . ثم أفضينا إلى الكلام عن نتائجه بعد انتهاء الحملة واستطردنا إلى ترجمة حياة زعماء الشعب في ذلك العصر ، مبتدئين بالسيد عمر مكرم ، الذى نعدّه أكبر شخصية ظهرت بين رجالات مصر في فجر النهضة القومية ، وبيننا وجه الارتباط بين ظهور تلك النهضة وظهور محمد على باشا ، وبسطنا الحوادث التى تعاقبت على البلاد فى السنوات التى أعقبت بجلاء الفرنسيين ، وتأثير العامل القومى فى تطورها ، وما كان من ثورة الشعب على حكم المماليك ، ثم ثورته على والى التركى ، وبها ختام الجزء الثانى . وبتامه تتم الحلقة الأولى من الكتاب ، ومن الجزئين الأول والثانى تألف صفحة كاملة من حياة مصر القومية فى تاريخها الحديث . بدأت بظهور الحركة القومية ، وختمت بارتقاء محمد على أريكة مصر بإرادة الشعب

ولمناسبة ظهور الجزء الثانى أرى حقاً على أن أدون فى مقدمته آية الشكر لمن تفضلوا بتعزيدي فى العمل ، وأخص بالشناء الصحافة وأعلامها ، فإن ما تفضلوا به على من التنويه بكتابى والعناية به ، وبحبّه وتحليله ، وما أسدوه إلى من العطف وجميل الرعاية ، كان له أحسن الوقع فى نفسى ، فلهم على بذلك فضل لا أنساه ، وإنى لأعده منهم أكبر مشجع لى على المضى فى عملى ، ولا غرو فالصحافة من أكبر دعائم الحركة القومية وأقوى أركان النهضة السياسية والعلمية فى البلاد

وكذلك أقدم شكرى للذين تفضلوا على وشجعوني برسائلهم الخاصة التى لم تنشر فى الصحف . وأحفظ تلك الرسائل ذخيرة عندي وتذكراً لشريف عواطفهم وكريم إحساسهم

وإذ يظهر هذا الجزء فى يوم الذكرى الثانية لانتقال فقيد الوطن المرحوم أمين بك الرفاعى إلى الرفيق الأعلى ، فانى أحى ذكره المجيدة وأرسل من أعماق قلبى إلى روحه الطاهرة آيات المحبة والإخاء ، فلندم ذكراك العزيزة يا أمين ، يجدها مر الأيام وكر السنين ، ولنخلد أعمالك فى مآثر قومك ، ولتطمئن نفسك فى السماء ، بين الصديقين والشهداء « وحسن أولئك رفيقا . ذلك الفضل من الله وكفى بالله علماً »

خلاصة الجزء الأول

نذكر هنا خلاصة فصول الجزء الأول لنضع أمام القارىء صورة موجزة منه قبل قراءة الجزء الثانى :

مقدمة الكتاب واهدأؤه

الفصل الأول — يتناول الكلام عن نظام الحكم فى عهد المماليك . وفيه بيان لنظام الحكم السياسى ، ونظام الملكية والضرائب ، والنظام القضائى ، ونتائج تلك النظم فى حالة مصر من الوجهة السياسية والاقتصادية والصحية ، والكلام فى العلوم والآداب ، والحالة الاجتماعية والاقتصادية فى مصر عند مجئ الحملة الفرنسية .

الفصل الثانى — تطور نظام الحكم فى عهد الحملة الفرنسية ، وفيه بيان أسباب الحملة ومقدماتها وتطورها فى خلال العصور ، وإنقاذ الحملة على يد نابليون بونابارت ، وموقف إنجلترا ، ومعدات الحملة ووقائعها الأولى ، وسياسة نابليون لإزاء الشعب ، وقاعدة الحكم التى وضعها فى منشوره إلى المصريين ، والمفاوضات بين نابليون وزعماء الشعب غداة معركة الأهرام

الفصل الثالث — نظم الحكم التى أسسها نابليون فى مصر ، ديوان القاهرة ، دواوين الأقاليم ، الديوان العام

الفصل الرابع — المجمع العلمى ، نظامه وأعضاؤه وداره ، طائفة من أعضاء المجمع ولجنة العلوم والفنون . علماء الرياضيات والمهندسون . علماء الطبيعيات . الاقتصاديون . القواد والضباط . الأطباء والجراحون . الأدباء والمترجمون والفنانون . أعمال المجمع العلمى ، نظرة عامة فى نظام الحكم الذى أسسه نابليون فى مصر

الفصل الخامس — المقاومة الأهلية فى عهد الحملة الفرنسية ، كبة عامة . المقاومة فى الاسكندرية . الحالة النفسية للشعب عند مجئ الحملة الفرنسية . دفاع أهالى الثغر واحتلال الاسكندرية . سياسة نابليون فى الاسكندرية وأوامره وتعليماته قبل مغادرته إياها . موقف الجنرال كليبر فى الاسكندرية . مسألة السيد محمد كريم والتقبض عليه ومحاكمته ثم إعدامه

الفصل السادس — فى البحيرة . معركة شبراخيت . نهب القرى

الفصل السابع — فى القاهرة . حالة الأفكار فى القاهرة عند مجئ الحملة للفرنسية
والنزفير العام . سوء استعداد المماليك وضعف وسائل الدفاع . واقعة امبابة أو معركة
الاهرام ونصيب المصريين فيها

الفصل الثامن — عود إلى الاسكندرية . واقعة (أبو قير) وتأثيرها فى مركز
الفرنسيين . ديوان الاسكندرية

الفصل التاسع — فى رشيد . احتلال رشيد . حادثة السالمية . حادثة شباس عمير
الفصل العاشر — عود إلى البحيرة ورشيد . الاضطرابات فى البحيرة . حول
رشيد وفى دمنهور

الفصل الحادى عشر — فى القليوبية والشرقية . توزيع القوات الفرنسية فى
الوجه البحرى المعارك بين الخانكة وأبى زعبل . انسحاب الفرنسيين من الخانكة ثم
احتلالها . احتلال بلبيس . معركة الصالحية . عودة نابليون إلى القاهرة . الاضطرابات
فى الشرقية

الفصل الثانى عشر — عود إلى القاهرة . سياسة الحفلات . مهرجان وفاء النيل .
حفلة المولد النبوى . تعيين أمير الحج . عيد الجمهورية الفرنسية
الفصل الثالث عشر — ثورة القاهرة الأولى

الفصل الرابع عشر — فى المنوفية والغربية . المقاومة فى غمرين وتنا . المحلة
الكبرى . الثورة فى طنطا . احتلال عسما

الفصل الخامس عشر — فى الدقهلية ودمياط . واقعة المنصورة . الحملة على سنباط
وميت غمر . فيضان الثورة . الحملة على البحر الصغير . حسن طوبار . سير الحملة
على البحر الصغير . معركة الجمالية . فى دمياط . واقعة الشعراء . تفاقم الثورة
وفظائع الجنرال فيال . الحملة الثانية على البحر الصغير . سير الحملة والاستيلاء على
المنزلة . احتلال المطرية . تحصين منطقة دمياط

الفصل السادس عشر — المقاومة فى الوجه القبلى . احتلال بنى سويف . احتلال
الهنسا ، تعقب أسطول المماليك إلى أسيوط . واقعه سدمنت . حادثة الفقاعى .

احتلال أسيوط . الثورة فيما بين أسيوط وجرجا . معركة سوهاج . معركة طهطا . معركة سمهود ، وصول الفرنسيين إلى أسوان . المقاومة في جزيرة فيله . تجدد القتال بين جرجا وأسوان . معركة الرديسة . معركة قنا . معركة (أبو مناع) . معركة اسنا .

الفصل السابع عشر — استمرار المقاومة في الوجه القبلي . موقف الممالك . معركة الصوامعة ، كارثة السفن الفرنسية في النيل . من أسوان إلى قوص . معركة قفط . معركة أبنود . حالة الشعب النفسى . رجوع ديزيه إلى قنا . معركة بئر عنبر . تجدد الثورة بين قنا وجرجا . واقعة برديس . واقعة جرجا . واقعة جيهنة . الثورة في بني عدى . في المنيا وبني سويف . واقعة (أبو جرج) . الثورة في المنيا . الثورة في أطفيس . حركات الجنرال ديزيه . مشروع الحملة على القصير . تنظيم البريد . اعتقال الرهائن . واقعة أسوان . احتلال القصير . الحالة النفسية للشعب .

الفصل الثامن عشر — وثائق تاريخية

الفصل التاسع عشر — مراجع البحث

تمت خلاصة الجزء الأول ، ويلها الفصل الأول من الجزء الثانى

الفصل الأول

إعادة الديوان

تعطل الديوان بعد إخماد ثورة القاهرة ، واشتدت وطأة الإرهاب فيها ، فضجَّ الناس بما أصابهم من ترادف المظالم وتوالي المحن ، فكسدت الأسواق ، وبارت التجارة ، وانقبضت أيدي الناس عن العمل ، وبدأ نابليون يفكر في عواقب إلغاء الديوان واستمرار حكم الأدهاب وما يفرض إلية من تعطيل دولاب الحكومة وشلل الإدارة

كان من نتائج حكم الارهاب أن شجَّ المال وأخذ معينه ينضب في خزانة الحكومة والجيش ، وبدأ الارتباك يظهر في الادارة وفروعها

كتب المسيسوسوى Sucy مدير مهمات الجيش إلى الجنرال (منو) Menou في هذا الصدد يقول : « إن الحوادث الأخيرة قد حبلت ضرائب البيوت ، وصار لإيراد الجمارك في حكم العدم » ، فهذه العبارة منبئة بما صارت إلية حالة الخزانة من الارتباك ، وبديهي أن هذه النتيجة لم تسكن لترضى نابليون أو تحقق آماله ، فأدرك أن استمرار حكم الارهاب لا يضر الشعب وحده بل يعود بالوبال والخسران على المصالح الفرنسية ، وعلم من جهة أخرى أن تركيا تعني جيشاً الزحف على مصر ، فرأى من الحكمة أن يعمل من جديد على استرضاء المصريين وأن يعيد إلى البلاد حالتها الطبيعية بقدر المستطاع ، وأدرك أن استمرار حكم الفزع والارهاب في القاهرة يجعل البلاد كلها في هرج الثورة ومرجها ، ويزعزع الاحتلال الفرنسى ، ويصمه بالعجز عن إقرار الخواطر وتهديتها ، ورأى بثاقب نظره أن ليس في مقدوره حكم البلاد بقوة السيف والنار ، وتبين له من تجربة تعطيل الديوان أن لا سبيل إلى حكم الشعب دون وساطة زعمائه وكبرائه ، فعاد يفكر في إعادة الديوان بعد أن استمر معطلاً أكثر من شهرين

على أن إرجاع الديوان لم يكن من شأنه إعادة السكينة والرجوع بالبلاد إلى حالتها الطبيعية ، لكنه كان بلا جدال وسيلة تخفف من هياج الخواطر وثورة النفوس قال (ريبو) في هذا الصدد : « لقد تجدد الشعور بضرورة إحداث هيئة نيابية تكون

سبيل التفاهم بين الفرنسيين والشعب المصري ، وظهر خطأ الفكرة القائلة بإبطال الديوان ، وكان نابليون أول من شعر بضرورة إعادته ، لقد تردد في إرجاعه أملا في أن يعود المصريون اتصال علاقتهم مباشرة بالسلطات الفرنسية ، ولكنه لاحظ أن شعور العداء والكرهية لا يزال بطنى ويزداد كل يوم قوة فيفسد العلاقات بين الفرنسيين والآهالى ، فعزم من ثم على الرجوع إلى برنامج القديم وإعادة الهيمنة النيابية المصرية ، ولم يشأ أن يفهم الشعب أنه مكره على إعادة الديوان ولا أنه قد أعاده من ضغط واضطرار ، فاجتهد في أن يصيغ عمله بصيغة الكرم والسخاء « (١) »

هذا ما يقوله (ريبو) تعليلا لإعادة الديوان . ونزيد عليه أن نابليون كان لا يفتأ يفكر في تحقيق مشروعاته العظيمة التي كانت الغرض من الحملة الفرنسية . وأهمها ضرب السياسة الانجليزية في الهند . وإنشاء دولة عربية عظيمة تحقق أحلامه في الشرق ، وبالرغم مما أثارته ثورة القاهرة في نفسه من الحق وخيبة الرجاء فانه لم يفقد الأمل في أن يجتذب إليه قلوب المصريين . وكان معتقداً أنه في حاجة إلى اكتساب رضاهم ليضئ مطمئنا في تحقيق مشروعاته الكبيرة . وأول ذلك الحملة على سورية . فلما اعتزم إنفاذها رأى من الحكمة أن يتقرب إلى المصريين بإعادة الديوان قبل أن يغامر بجيشه في حملة بعيدة المدى منهكة للقوى . وإذا قابلت تاريخ تلك الحملة بتاريخ إعادة الديوان وجدت بين الحادثتين تقاربا تستلج منه أن نابليون أعاد الديوان اجتذبا لقلوب المصريين بعد أن اعتزم الزحف على سورية حتى لا يدع وراءه أمة غضبي . فقد أمر بإعادة الديوان في ٢١ ديسمبر سنة ١٧٩٨ في الوقت الذي كان يعد فيه معدات الحملة . ثم ارتحل إلى السويس في ٢٤ ديسمبر لاكتشاف موقعها وارتياش شعب جزيرة سيناء . وكانت فكرة الزحف على سورية قد اختمرت في ذهن نابليون قبل رحلته إلى السويس بوقت طويل . قال الجنرال (برتنيه) رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية في كتابه (٢) : « إن معدات الحملة على سوريا دخلت في دور التنفيذ قبل رحلة نابليون إلى السويس » ، ويقول الجنرال كليبر في يومياته لمناسبة رحلة السويس هذه واستخلافه على القيادة العامة مدة غيبة نابليون : « لقد دار الكلام حول الحملة على سورية والاستعداد لها . وكانت الفكرة السائدة أن قيادتها مستعجلة . لكن نابليون عزم على أن يتولى قيادتها بنفسه . وقد عرض على الجنرال (كافريلى) يوم ٢ نيفوز (٢٢ ديسمبر سنة ١٧٩٨)

(١) التاريخ العالمى والحربى للعملية الفرنسية الجزء الرابع

(٢) ذكر حروب الجنرال بوناپارت في مصر وسوريا

قيادة تلك الحملة فأجبت بالقول « . ثم ذكر كليبر أن نابليون دعاه قبل رحيله إلى السويس أن يصحبه إليها ، فأجابه كليبر بأن الجنرال كافري يلى أخبره بقرب سفره إلى دمياط وقطية للزحف على سوريه . فكان جواب نابليون أن في الوقت سعة بعد عودتهم من السويس . ثم رجاء كليبر في أن يبقى هو بالقاهرة إلى أن يرجع من رحلته ، فأقره نابليون وأنا به عنه في القيادة العامة (١) . ويقول الكولونيل جاكوتان Jacotin إن الحملة على سوريه كانت تمياً معدتها قبل تحركها بنحو شهرين (٢) . كل هذا يدل على أن نابليون قد أعاد الديوان بعد أن اعتزم تجريد الحملة على سوريه . وأنه أمر بإعادته قبل رحلته إلى السويس . فلنقل إذن كلمة عن هذه الرحلة وعن أهمية السويس وعلاقتها بمشروعات نابليون .

احتلال السويس ورحلة نابليون إليها

كانت للسويس أهمية حربية كبيرة لم تفت نابليون . وبخاصة لأن لها صلة وطيدة بمشروعاته في الشرق . فقد كان بالرغم من تحطيم أسطوله في واقعة (أبو قير) لا ينفك يبتكر الوسائل ويرسم الخطط لينال من انجلترا عدوته اللدودة . ولم يفقد الأمل في تجريد حملة برية تخترق آسيا وتصل الهند . وكان يرى من جهة أخرى أن السويس تصلح لأن تكون قاعدة بحرية على شاطئ البحر الأحمر . يصل منها إلى الهند . وفكر كذلك في وصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر بقناة تجرى بينهما . وجد في انفاذ هذا المشروع ، وكان غرضه منه محاربة انجلترا وزعزعة قوائمها في الهند ، لكنه لم يفلح في تحقيق فكرته وصرفه عنها سير الحوادث وتقلب الأحوال . فالسويس كانت إذن قاعدته ومشروعات جهة طافت برأس نابليون . ولا غرو أن وجه عنايته إلى احتلالها عسكرياً واكتشاف موقعها وارتياذ الجهات المجاورة لها ، فعمد إلى الجنرال (بون) Bon أن يحتلها (٣) فسار هذا إليها من القاهرة سالكا طريق الحجاج وعسكر بها في أوائل شهر ديسمبر سنة ١٧٩٨

(١) يوميات الجنرال كليبر

(٢) كتاب « تخطيط مصر » الجزء السابع عشر

(٣) أمر نابليون المؤرخ أول ديسمبر سنة ١٧٩٨ . مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم

رواية الجبرقى

قال الجبرقى عن احتلال السويس : إن أهل السويس لما بلغهم مجيء الفرنسيين هربوا وأخلوا البلدة فذهبوا إلى الطور . وذهب البعض إلى العرب بالبادية . فذهب الفرنسيون ما وجدوه بالبندر من البن والتاجر والامعة وغير ذلك . وهدموا الدور وكسروا الأخشاب وخوابى الماء فلما حضر كبيرهم وكان متأخراً عنهم كله التجار الذاهبون معه وأعلموه أن هذا الفعل غير صالح ، فاسترد من العسكر بعض الذى أخذوه ووعدهم باسترجاع الباقي أو دفع ثمنه بمصر وأن يكتبوا قائمة بالمنهوبات »

وهذه الرواية تؤيدها رسالة الجنرال (بون) التى بعث بها من السويس بتاريخ ٧ ديسمبر سنة ١٧٩٨ إلى نابليون يبلغه فيها نبأ احتلاله إياها ، فقد ذكر فيها « أن بعض أغنياء المدينة قد هجروها عند اقترابنا وانسحبوا إلى السفن التى فى الميناء وعددها تسع » ، وقال فى موضع آخر من رسالته إنه أمر قومه بسير الحرب « أن يفتش بيوت البكوات والأغنياء الفارين وأن يأخذ ما فيها من مواد الوقود وينقل ما بها من الدقيق والغلل إلى مخزن الجيش » ، وهذا هو النهب الذى أشار إليه الجبرقى ، وقال فى موضع آخر من رسالته إن الأخشاب القديمة كثيرة فى المدينة وهى تصلح للوقود ، وأنه أمر قومه بسير الحرب أن يحملها إلى مخزن الجيش وأنه أصدر تعليماته مشددة بعدم التعرض لأخشاب البناء الموجودة بكثرة فى هذا البلد .

اعتزم نابليون أن يرتاد بنفسه تلك المواقع التى كان يبني عليها آمالاً كباراً ، فخرج من القاهرة يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٧٩٨ ^(١) فى جماعة من كبار القواد والمهندسين وبعض الأعيان المصريين ، ذكر (ريبو) أسماءهم وهم : الجنرال برتنيه . وكافريللى . ودومارتان . والسكونتر أميرال جانتوم قومندان البحرية . والقوميسير (دور) مدير مهمات الجيش ^(٢) . والمسيو برتوليه . والمسيو مونج . ولوبير . ودوترتر . وبورين . وديسكوئيل . وكوستاز . من أعضاء المجمع العلمى . والسيد أحمد المحروقى كبير تجار القاهرة . وإبراهيم افندى كاتب جمر ك البهار . فبلغ نابليون وصحبه السويس

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٧٩٠

(٢) عينه نابليون بدلا من المسيو « سوسى » الذى رحل إلى فرنسا مستشفياً من الإصابة التى نالته فى أول عهد الفرنسية (أنظر الجزء الأول ص ٣١٧ من الطبعة الأولى)

يوم ٢٦ ديسمبر ايلا . وجاب نواحي طور سيناء وبرزخ السويس واستطلع آثار ترعة
الفرعنة القديمة وخليج أمير المؤمنين . وعهد إلى المهندس لويس Le Père كبير
مهندسي الطرق والجسور أن يدرس مشروع حفر ترعة تصل البحر الأبيض بالبحر
الأحمر وأن يضع تقريراً عنه ^(١) . وعاد إلى القاهرة في اليوم السادس من شهر يناير
سنة ١٧٩٩

رواية الجبرتي

قال الجبرتي عن رحلة نابليون إلى السويس : « وفي يوم الاثنين سادس عشر رجب
سنة ١٢١٣ سافر ساري عسكر بونا بارتة إلى السويس وأخذ صحبته السيد أحمد المحروقي
(كبير تجار القاهرة) وإبراهيم أفندي كنان (جمر ك) البهار وأخذ معه أيضاً بعض
المديرين والمهندسين والمصورين وجرجس الجوهري (كبير المباشرين) ، وأنطون
أبو طافية ، وغيرهم ، وعدة كثيرة من عساكر الخيالة والمشاة ، وبعض مدافع ،
وعربات ، وتختروان ، وعدة جمال لحمل الذخيرة والماء والقومانية (المؤونة) ،
وقال في موضع آخر : « وفي مدة إقامته بالسويس صار يركب ويتأمل في النواحي
وجمات ساحل البحر والبر ليلاً ونهاراً »

منشور نابليون

بإعادة الديوان

قبل أن يغادر نابليون القاهرة إلى السويس ، أصدر منشوره بإعادة الديوان في ٢١
ديسمبر سنة ١٧٩٨ وبين فيه أنه عطل الديوان منذ شهرين عقاباً لأهل القاهرة على الثورة
التي نهضوا فيها . وأنه رأى بعد أن سكنت الأحوال وهدأت الخواطر إعادة الديوان
سيرته الأولى ، وقد ملأ منشوره بعبارات جوفاء تعود أن يكررها في بياناته ومنشوراته
إظهاراً لسطوته . وأغرق في هذه العبارات حتى ادعى أنه اطلع الغيب وأنه يعلم
أسرار النفوس وما تخفى الصدور ، وزعم أن احتلاله مصر مذكور في بعض آيات
القرآن الكريم . . .

(١) راجع ما كتبناه عن هذا المشروع بالجزء الأول ص ١٢٥ « من الطبعة الأولى »

أراد نابليون بهذا الأسلوب أن يشعر الناس شدة بأسه وقوته ، ويأتهم من ناحية الخوارق التي اعتادوا أن يسمعوها في ذلك العصر . لكنه في الحقيقة لم يؤثر في حالة الشعب النفسية ولم يغير من شعورهم حيال الفرنسيين بل زاد في كراهيتهم ، وهذا يفهم مما ذكره الجبرتي عن هذا المنشور فقد وصفه بقوله :

« وقد أوردت ذلك وإن كان فيه بعض طول للاطلاع على مافيه من الترميمات على العقول والتسلق على دعوى الخواص من البشر بفساد التخيلات التي تنادى ببطلانها بديهة العقل فضلاً عن النظر وهي مقولة على لسان بونا برته كبير الفرنسيين »

أوردنا نص المنشور في قسم الوثائق التاريخية (١) بصيغته العربية نقلاً عن الجبرتي ، وقد رجعنا لمعرفة نظام الديوان إلى الأصل الفرنسي للمنشور الوارد في جريدة (كورييه داليجيت) (٢) التي كانت تصدر على عهد الحملة الفرنسية ، وهو يشمل أمر التأسيس الذي أصدره نابليون ثم المنشور الوارد تعريبه في الجبرتي ونظام الديوان العمومي والديوان الخصوصي وأسماء أعضاء الديوان العمومي ، ورجعنا كذلك إلى مراسلات نابليون (٣) فوجدناها مطابقة لما جاء في جريدة (كورييه داليجيت) غير أنه لم يرد بها أسماء الأعضاء

نظام الديوان الجديد

وضع نابليون للديوان نظاماً جديداً أوسع نطاقاً من نظامه القديم ، لجعله مؤلفاً من هيتين : (الديوان العمومي) ويسميه نابليون الديوان الكبير ، و (الديوان الخصوصي) (٤)

الديوان العمومي

فالديوان العمومي مؤلف من ستين عضواً عينهم الفرنسيون تعييناً من بين أعيان المصريين ومثلي طبقاتهم ، وهؤلاء ينتخبون من بينهم رئيس الديوان واثنين من السكرتيرين ، ويكون انتخابهم بالأغلبية النسبية ، ويجتمع الديوان العمومي بناء على

(١) وثيقة رقم ١ (٢) العدد ٢٣ (٣) الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٧٨٥ (٤) عبارة (الديوان العمومي) و (الديوان الخصوصي) هي التسمية الواردة في الجبرتي أي التي كانت معروفة في عصره فأبقيناها كما هي لأنها صارت من المصطلحات التاريخية لنظام الحكم في ذلك العصر ، وفي الجبرتي أن (الديوان الخصوصي) يسمى أيضاً (الديومي) ، وأما ماخوذة من كلمة دائم لأنه يتعقد دائماً لأنه وهذا يطابق اسمه بالفرنسية Divant permanent أي الديوان الدائم

دعوة حاكم القاهرة ، وموعد اجتماعه كما حدده أمر التأسيس في اليوم السابع من شهر
نيفوز (يوافق اليوم الثامن عشر من شهر رجب — ٢٧ ديسمبر) الساعة التاسعة
صباحاً ، فيبتدىء الديوان جلساته من هذا اليوم ويستمر انعقاده ثلاثة أيام ثم ينفض .
ولا ينعقد بعد ذلك إلا بدعوة أخرى من حاكم العاصمة ، وعين للديوان قوميسير فرنسي
وهو المسيو جلوتيه Gloutier وقوميسير مسلم وهو الأمير ذو الفقار كتنخدا
(وكيل) نابليون

وقد اجتمع الديوان العمومي فعلا يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٧٩٨ ، وإليك أسماء
أعضائه الستين كما هي واردة في الأمر الصادر بتأسيسه :

من المشايخ والعلما : السيد البكري ، الشيخ الدرashi ، السيد حسن الرفاعي ،
الشيخ عبد الله الشراوى ، الشيخ محمد المهدي ، الشيخ مصطفى الصاوي ، الشيخ
موسى السرسى ، الشيخ محمد الأمير . الشيخ سليمان الفيومى ، الشيخ احمد العريشى .
الشيخ إبراهيم بن المفتى . الشيخ صالح الحنبلى . الشيخ محمد الدواخلى . الشيخ
مصطفى المنهورى

من الوجاهة (الجهادية) : محمد أغا شوربجى فلاح . على كخيا المجدلى . خليل
أغا شوربجى فلاح . أحمد ذو الفقار اوضا باشى فلاح

من الإنكشارية : يوسف شوربجى باشجاويش التفكجية . يوسف شوربجى
باشجاويش الهجانة . مصطفى افندى الشركسى . الأمير سليم شراي
من وجاق العزب : مصطفى افندى عاصى . مصطفى كخيا باش اختيار . حسن
شوربجى بركاوى

من تجار الغورية : الحاج محمد العشوبى شيخ الغورية . الحاج محمد ابو النصر .
الحاج سيد شيخ المغاربة

من تجار البهار والبن : الحاج احمد محرم . الحاج احمد المحروقى . ابراهيم افندى
كاتب جمرك البهار . الحاج حسين جاد ابراهيم . المعلم ميخائيل كحيل . المعلم يوسف
فرحات . الحاج احمد حسين

من تجار البضائع التركية : السيد احمد العقاد المحروقى . الحاج مصطفى شيخ
العقادين . الحاج احمد القازانجى

من تجار العطارة : السيد محمد شيخ العطارين

من تجار السكر : درويش عبد القادر البغدادى . ابراهيم قرموط . محمد الهمشرى
 » » النحاس : السيد مصطفى مصباح . الحاج حسين النحاس
 من الصاغة والجواهرجية : الحاج سالم الجوهرى . محمد البغدادى
 من تجار الورق : على بن الحاج خليل الوراق
 » » الأقمشة : الحاج ابراهيم المسيرى ، على السلاطجى
 » » الصابون : السيد احمد الزرو ، السيد يوسف نقر الدين
 » » الدخان والأقمشة السورية : أحمد نظام
 من مشايخ الأخطاط : شيخ جزارى الحسينية ، شيخ العطوف
 من الأقباط : المعلم لطف الله المصرى ، المعلم ابراهيم جر العاط ، الشيخ ابراهيم
 مقار ، الشيخ ابراهيم كاتب البصرة
 من الأجانب : المسيو ولمار Wolmar ، المسيو كاف Caffé ، المسيو بودوف Baudenf
 يتبين من هذا الإحصاء أن الديوان العمومى كان يمثل طبقات الهيئة الاجتماعية
 قنهم :

١٤	من العلماء والمشايخ
٢٦	من التجار والصناع
١١	من رجال العسكرية
٢	من مشايخ الأخطاط
٤	من الأقباط
٣	من الأجانب

٦٠

وكان نابليون يعنى بجعل الديوان العمومى ممثلا لسكان القاهرة على اختلاف
 طبقاتهم ، يدل على ذلك الأمر الذى أصدره بتاريخ ٢٨ يونيه سنة ١٧٩٩ إلى القوميسير
 الفرنسى لدى الديوان بأن يبلغه إذا كانت فى الديوان مراكز خالية ليشغلها بأعضاء
 جدد لأنه يبنى « أن يتألف الديوان من هيئة تكون ممثلة تمام التمثيل لسكان القاهرة
 بحيث إذا خاطبت الحكومة الديوان تتحقق أنها تواجه الرأى العام » (١)

الديوان الخصوصى

قضى أمر التأسيس بأن ينتخب أعضاء الديوان العمومى من بينهم أربعة عشر عضواً يتألف منهم (الديوان الخصوصى) ، ويكون انتخابهم بالأغلبية النسبية ، ولا يكون انتخابهم باتاً إلا بتصديق القائد العام ، وهذا الديوان يجتمع كل يوم « للنظر فى مصالح الناس وتوفير أسباب السعادة والرفاهية لهم ومراعاة مصالح الجمهورية الفرنسية » (١)

وينتخب أعضاء الديوان الخصوصى من بينهم رئيساً وسكرتيراً (كاتم سر) ، ويعينون الترجمة اللازمين لأعمال الديوان من غير أعضائه ، ومحضراً (شاو يشا) ومقدماً ، وعشرة قواصين (حجاب)

ورتب أمر التأسيس لرئيس الديوان الخصوصى وأعضائه رواتب شهرية ، فجعل مرتب الرئيس مائة ريال فى الشهر وباقي الأعضاء ثمانين ريالاً ولكل من المترجمين ٢٥ ريالاً ، والمحضر (الشاويش) ستين بارة كل يوم والمقدم ٤٠ بارة ولكل حاجب ١٥ بارة

أما أعضاء الديوان الخصوصى فهم :

من العلماء — الشيخ عبد الله الشرقاوى . الشيخ محمد المهدي . الشيخ مصطفى الصاوى . الشيخ خليل البكرى . الشيخ سليمان الفيومى
ومن التجار — السيد أحمد المحروقى كبير التجار . السيد أحمد محرم
ومن الأقباط — المعلم لطف الله المصرى . المعلم ابراهيم جبر العايط
ومن السوريين — يوسف فرحات . ميخائيل كحيل
ومن الأوروبيين — المسيو كاف ، المسيو بودوف ، وهما من التجار الفرنسيين
والمسيو ولمار وهو طبيب سويدي الأصل كان يقيم بالقاهرة
وانتخب الديوان الشيخ الشرقاوى رئيساً . والشيخ المهدي سكرتيراً

(١) عبارة « مراعاة مصالح الجمهورية الفرنسية » لم ترد فى الجبرى ، لكنها واردة فى الأصل الفرنسى الذى نشر فى جريدة « كورييه داليجيت » وفى مراسلات نابليون ، والأصل أحق بالثقة من البيان الموجز الذى أورده الجبرى

يتبين من أمر التأسيس أن انتخاب هيئة الديوان (الخصوصى) من حقوق أعضاء الديوان العمومى . ولا ندرى هل جرى الانتخاب بطريقة صحيحة أم أن نابليون هو الذى فرض إرادته على أعضاء الديوان العمومى فى اختيار أولئك الأعضاء . وهذا ما نرجحه لأننا نشك كثيراً لو ترك لهم أمر الانتخاب فى أن يقع اختيارهم على أمثال كاف وبودوف وولمار . إذ ما دخل العنصر الأوروبى فى هيئة نيابية أهلية . لذلك تميل إلى الاعتقاد بأن للسلطة الفرنسية دخلاً فى اختيار أعضاء الديوان الخصوصى وأن نابليون أراد تمثيل العنصر الأوروبى فى الديوان فى أشخاص الأعضاء الثلاثة كاف وبودوف وولمار ليجمع منه هيئة مختلطة . وأراد بتعيين المسيو جلوتيسه قوميسيراً فرنسياً للديوان أن يكون قريباً على الأعضاء الوطنيين كما كان الشأن فى الديوان الأول الذى أسسه فى يولييه سنة ١٧٩٨^(١) . وأغلب الظن أن بعض الأعضاء الأوربيين لم يكونوا معروفين أصلاً لأعضاء الديوان العمومى . يؤيد ذلك أن الجبرى نفسه أخطأ فى كتابه أسمائهم فذكر أنهم رواجه الإنكليزى . وبودنى . وموسى كافر الفرنساوى . أما (رواجه الإنكليزى) فلم نجد له أثراً فى جميع المراجع الفرنسية . وحقيقة الاسم ولمار Wolmar الطبيب السويدي الذى أشرنا إليه . وكلمة رواجه ليست من الاعلام الإنكليزية ولا الأوروبية . وأما (بودنى) فهو تحريف لاسم بودوف Baudouf وهو تحريف يغتفر للجبرى لأنه لا يأنس بالاعلام الأوروبية . وكذلك (موسى كافر) نعتقد أن المراد به المسيو كاف Caffé التاجر الفرنسى . فخره الجبرى من كاف إلى كافر . وربما كان التحريف من ناقل النسخة الأصلية للجبرى

هذا وقد أخذ الديوان الخصوصى يتعقد يومياً للنظر فى مصالح الناس . وصادر بياناً للشعب فى ٢١ شعبان سنة ١٢١٣ (٢٨ يناير سنة ١٧٩٩) يتضمن الحث على الهدوء والسكينة ويعلن أن نابليون قد عفا عفواً شاملاً عما وقع من الثوار وأعاد الديوان الخصوصى « لأجل قضاء حوائج الرعايا وحصول الراحة لأهل مصر من خاص وعام وتنظيمها على أكمل نظام وإحكام » . ونوه أعضاء الديوان فى

(١) انظر الجزء الأول ص ٩٦ (من الطبعة الأولى)

بمائنهم بما عمله نابليون من إيقاع القصاص بمن ارتكب التعديات من الفرنسيين وما
وعدهم من رفع المظالم وإجراء المشاريع التي تزيد من رفاهية البلاد . وذكروا
مشروع نابليون في إيصال البحر الأبيض بالبحر الأحمر وعبروا عنه « بفتح الخليج
الموصل من النيل إلى بحر السويس » . وبينوا مزاياه من تسهيل المواصلات مع
الحجاز وفتح طرق التجارة مع بلاد الشرق . وقد نشرنا هذا البيان في قسم الوثائق (١)
ليرجع اليه القارىء زيادة في البيان

والآن فلندع الديوان يعمل « لاجل قضايا حوائج الرعايا » ولننتقل إلى الكلام
عن الحملة على سورية

الفصل الثاني

الحملة على سورية

مقدمات الحملة

علم نابليون وهو في رحلته بالسويس أن عساكر أحمد باشا الجزائر والى عكا قد احتلت قلعة العريش يوم ٢ يناير سنة ١٧٩٩ ، فكان هذا الاحتلال نذيراً بزحف الجيش العثماني على مصر

لم تكن العريش في يد الفرنسيين من قبل ، ولكنها كانت معتبرة من قديم العهد جزءاً من الأراضي المصرية ، فاحتلال الجنود العثمانية إياها كان عملاً عدائياً بالنسبة للفرنسيين ودليلاً قائماً على بدئهم الزحف على القطر المصري ، لذلك رأى نابليون أن يعجل بإفناذ خطته في الحملة على سورية وأخذ يواصل الليل بالنهار ليأخذ تركيا قبل أن تبغته

كان نابليون يعمل جهده لتجنب الحرب مع تركيا ، وسمى بكل الوسائل في مودتها والتفاهم وإياها واجتذابها إلى صفه ، سعى إلى ذلك قبل أن يغادر فرنسا ، وعهد إلى المسيو (تاليران) وزير الخارجية الفرنسية أن يذهب إلى الإستانة لإقناع الباب العالي بأن الحملة الفرنسية لا تعدو على حقوق السلطان ومصالحه في مصر ، لكن (تاليران) لم يذهب إلى الإستانة وصرفته الحوادث الأوروبية عن القيام بهذه المهمة فعهد بها إلى المسيو (روفين) Ruffin القائم بأعمال السفارة الفرنسية بالإستانة وكلفه التفاهم مع الباب العالي لاستبقاء العلاقات الودية بين فرنسا وتركيا وإقناعه بأن الحملة الفرنسية لا تنطوي على مقاصد عدائية حيال تركيا ، فلم يفاج (روفين) في مهمته ، واعتبر الباب العالي تلك الحملة كإعلان حرب ، واعتقل القائم بأعمال السفارة في قلعة « يدى قلعة » بالإستانة مع باقي موظفي السفارة ، واعتقل كذلك قناصل فرنسا ورعاياها بالإستانة وسائر مدن السلطنة العثمانية ، وصادر أملاكهم ، وبالرغم من ذلك فإن نابليون لم ييأس من التفاهم مع الحكومة العثمانية وأرسل الأدميرال جنرال

(بوفوازان) Beauvoisins (١) إلى أحمد باشا الجزائر برسالة مؤرخة ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٨ (١٠ ربيع الأولى سنة ١٢١٣) يعرب له فيها عن موادته للدولة العثمانية وللسلمين ويؤكد أنه لم يهبط مصر إلا لمحاربة المماليك وأنه يحترم الاهالي والعلماء ثم يدعوه إلى المفاوضة لفتح طريق التجارة بين البلدين مصر وسوريه ، وقد سافر بوفوازان بهذه الرسالة ليقابل بها احمد باشا الجزائر ، ولكن الجزائر رفض مقابلته وردده على عقبه فرجع خائبا إلى مصر (٢) ، ثم أرسل نابليون رسولا آخر (٣) برسالة أخرى يدعوه فيها إلى الصلح ويطلب منه إبعاد ابراهيم بك ومماليكه واحترام حرية التجارة بين مصر وسوريه . ولكن الرسول كان جزاؤه على حمل هذه الرسالة أن اعتقله الجزائر ثم قتله أثناء الحملة الفرنسية على سوريه

وكذلك أرسل نابليون غير مرة إلى الصدر الأعظم بالإستانة يدعوه إلى إعادة العلاقات الودية بين تركيا وصديقتها القديمة فرنسا ، ويؤكد في رسائله أن الجيش الفرنسي لم ينزل مصر إلا لمعاوية المماليك والاقتصاص منهم لمظالمهم وعدوانهم على التجار الفرنسيين ، ويعرب عن نيات الجمهورية الفرنسية الودية نحو تركيا ويدعوه أن يرسل إلى القاهرة مندوبا مفوضا أو يرسل جوازا لمندوب يوفده نابليون إلى الاستانة للاتفاق على مصير مصر وعلى الأمور المتعلقة بما يوافق مصلحة الدولتين

وقد سافر المسيو (بوشان) Beachamps (٤) بأحدى هذه الرسائل (٥) إلى الاستانة على ظهر السفينة التركية التي كانت راسية بالاسكندرية (٦) ، فكان الجواب عنها اعتقاله مع موظفي السفارة الفرنسية

(١) القوميسير لدى الدايون . انظر الجزء الأول ص ١٠١ (من الطبعة الأولى)

(٢) ذكر الجبرتي هذه الواقعة في حوادث شهر ربيع الأول سنة ١٢١٣ بقوله : « وفيه حضر القاصد الذي أرسله كبير الفرنسيات بمكاتبات وهدية إلى أحمد باشا الجزائر بكذا وذلك عند استقرارهم (الفرنسيين) بمصر وصحبته أنفار من النصارى الشوام في صفة تجار ، ومعهم جانب أرز ، ونزلوا من ثغر دمياط في سفينة من سفائن أحمد باشا ، فلما وصلوا إلى عكا وعلم بهم أحمد باشا أمر بذلك الفرنسيات فنقلوه إلى بعض النقاير (المراكب) ، ولم يواجهه ولم يأخذ منه شيئا وأمره بالرجوع من حيث أتى ، وعوق عنده نصارى الشوام الذين كانوا بصحبته »

(٣) هو المسيو ماي Maily

(٤) أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون وكان قنصلا لفرنسا في مقسط

(٥) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٧٤٧

(٦) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٧٤٤ ورقم ٣٧٤٦

لقد وقفت تركيا في بدء الحملة الفرنسية وقفة المتردد فيما تتبعه حيالها ، إلى أن تحطم أسطول الاميرال برويس في واقعة (أبو قير) ورجحت كفة انجلترا في البحر الأبيض المتوسط ، فكانت هذه الواقعة من أهم الأسباب التي حدت بتركيا إلى رفض المساعي التي بذلتها فرنسا في سبيل التفاهم وإياها ، وأعلنت عليها الحرب في ٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، وأخذت تحشد جيشين لفتح مصر ، الأول في سورية ووجهته الزحف على القطر المصري من طريق برزخ السويس ، والثاني في رودس لمهاجمة سواحل مصر الشمالية ، لكن تركيا أبطأت في إنفاذ حملتها إلى مصر وتلكأت بسبب ارتباك أحوالها الداخلية وبعد المسافات ، وأخذت في الوقت نفسه تولى وجهها شطر الدول المعادية لفرنسا لتعاقدهم في محالفة دفاعية ، فتم إبرام المحالفة بينها وبين الروسية في ٢٣ ديسمبر سنة ١٧٩٨^(١) ، وعقدت محالفتها مع انجلترا في ٥ يناير سنة ١٧٩٩^(٢) ، ومنذ علم نابليون بمقدمات هذا التحالف عزم على أن يسبق خصومه إلى العمل ويهاجمهم قبل أن يهاجموه ، ورأى أنه إذا تأخر في إنفاذ الحملة وانتظر اجتياز الجنود العثمانية برزخ السويس تخرج مركزه في وادي النيل بما يتجدد في نفوس الشعب من الأمل في هزيمة الجيش الفرنسي وسقوط هيئته في أنحاء البلاد . فبيت رأيه على مهاجمة الجيش العثماني في سورية

ففرض نابليون من الحملة السورية كان إذن تثبيت قدم الاحتلال الفرنسي في مصر وإبعاد خطر الحملة العثمانية عليها . ولا كراه تركيا على الاتفاق . وكان يرمى كذلك إلى منع العمارة الانجليزية في البحر الأبيض المتوسط من أن تزود من الثغور السورية . ولم يكن يقصد هزيمة الجيش التركي لحسب . بل كان يريد احتلال سورية واتخاذها موقعا حصينا للدفاع عن كيان مصر . وجعلها جزءا من الدولة العربية التي عزم على إنشائها على ضفاف النيل وشواطئ البحر الأبيض المتوسط . فقد رأى بثاقب نظره أن حدود مصر الطبيعية لا تنتهي بشبه جزيرة سيناء بل ببحال طوروس . وهكذا كانت سورية مطمح أنظار كل دولة قامت في مصر . لأن الاستيلاء عليها يضمن سلامة القطر المصري من كل اعتداء أو غارة تأتي من جهة آسيا . وكذلك فعل محمد علي عندما أسس الدولة المصرية . فانه رأى أن لا غنى له عن سورية ليضمن سلامة مصر

وكان نابليون يرمى إلى مظامع أكبر إذا ما نجحت الحملة على سوريه ، بأن يوصل زحفه على الهند . وقد أرسل من قبل كتابا إلى (تيبو صاحب) سلطان ميسور المشهور بعدائه للإنجليز بنمته بأنه جاء إلى مصر في جيش جرار وأنه عازم على إنقاذه من سيطرة الإنجليز ^(١) ويطلب إليه أن يرأسه ليقف على الحالة السياسية في بلاده وأن يوفد إليه رسولا أمينًا لمفاوضه . وفي رواية أخرى أنه كان ينوى إذا فتح عكا أن يزحف شمالا فيحتل دمشق فحلب ثم يزحف على الأناضول ثم يحتل الأستانة ويقوض دعائم السلطنة العثمانية وينشئ على أنقاضها امبراطورية شرقية عظيمة يكون عاقلها ثم يزحف من الأستانة فأدرنه إلى النمسا فيكسحها ثم يعود إلى باريس بعد أن يملك الشرق والغرب . ولم تكن هذه الآمال بعيدة عن نفس نابليون الطموحة . فان حياته الحربية والسياسية تدل على أن مظامعه في الفتح والسلطان لم تقف عند حد

أخذ نابليون يدبر أمر الجنود الذين يزحف بهم على الشام . وكانت فرقة الجنرال (ديزيه) في ذلك الحين منهمكة في الحملة على الصعيد كما فصلنا ذلك في الجزء الأول ^(٢) ، وكان لا بد له من ترك حاميات قوية من الجنود في القاهرة وفي الإسكندرية وفي مختلف العواصم لإخضاع مديريات الوجه البحري . فاختار نابليون قسما من الفرق التي تحت قيادة الجنرالات (رينيه) و (لان) و (كليبر) و (بون) و (مورا) التي كانت موزعة في جهات مختلفة من القطر كالقاهرة ودمياط والصالحية وبلبيس بلغت عدتها نحو ١٣٠٠٠ مقاتل . وتولى بنفسه قيادة الحملة . وعهد بقيادة المدفعية إلى الجنرال (دومارتان) . وبقربه الهندسة إلى الجنرال (كافريلى)

احتياطات نابليون

وسياسته إزاء الشعب

كان نابليون يعلم أن نفوس الأهالي في القاهرة متحفزة [للهياج تنربص للانتفاض

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٩٠١ ، وقد قامت الحرب بين « تيبو صاحب » والإنجليز وأغاروا على بلاده وظهروا عليه وحاصروا عاصمة ملكه وقتل أثناء الحصار في مايو سنة ١٧٩٩

(٢) الفصل السادس عشر والفصل السابع عشر

على السلطة الفرنسية . وأدرك أن قيام ثورة في العاصمة أثناء الحملة على سوريه يشعل نار الهياج في سائر أنحاء القطر المصري ويؤدي الى قطع خط الرجعة على الجيش الفرنسى . لذلك اتخذ الاحتياطات الحربية لمنع وقوع أية ثورة . فأمر بتقوية قلاع القاهرة وإحكام الاتصال بينها وإمدادها بالمدافع والذخائر والمهمات . وجعلها في حالة منيعة من الدفاع . وكلف الجنرال (كافريللى) و (دومارتان) بأن يكتباه تقريراً عن مركز الدفاع عن القاهرة في حالة نشوب ثورة فيها عقب ارتحاله الى سوريه . وعين الجنرال (دوجا) الذى كان قومنداناً لدمياط حاكماً للقاهرة والوجه البحرى ووكيلاً عنه في غيابه (ويسميه الجبرتي القائم مقام دوجا)

ووحّد القيادة في بعض المديرىات، فجعل مديرتى الغربية والمنصورة تحت قيادة الجنرال فوجيير، Fugières (١) . ومديرتى بنى سويف والفيوم تحت قيادة الجنرال زاينوشك (٢)، وجعل البحيرة ورشيد تحت قيادة الجنرال مارمون قومندان الاسكندرية

وعين الجنرال دستنج Destaing قومنداناً لموقع القاهرة ، وعهد الى المسيو بوسليج مدير المالية تولى الشؤون الإدارية للحكومة ، وعين المسيو فورييه سكرتير المجمع العلمى قوميسيراً (مئدوبا) فرنسيا لدى الديوان بدلا من المسيو جلوتيه الذى صحبه فى الحملة على سوريه

وأخذ نابليون يبالغ فى اجتذاب قلوب الأهلئ والتودد اليهم ، فعزم على أن يصطحب معه نفرا من زعمائهم ممن لهم مقام محمود فى البلاد ، فاختر أربعة من أعضاء الديوان، وهم الشيخ سليمان الفيومى ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ أحمد العريشى ، والشيخ محمد الدواخلى ، ومعهم قاضى قضاة مصر التركى ابراهيم أدهم افندى ، وأمير الحج مصطفى بك نائب الوالى التركى ، ولعل نابليون قصد من اصطحابه هذا الوفد أن يفهم الشعب المصرى أن الحملة على سوريه مرضى عنها من أعضاء الديوان، أو لعله أراد أن يكونوا رسل التفاهم بينه وبين الشعب العربى فى سوريه لما لعلباء الأزهر من

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٩٢٢

(٢) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٩٢٣

المقام والنفوذ فى سائر أنحاء الشرق ، وكان يؤمل أيضاً أن يكونوا رسل النفاهم بينه وبين الحكومه العثمانية ، وخاصة لانه صاحب القاضى التركى ونائب الوالى التركى ، على أن منطق الظروف وما جرى بعد ذلك من الحوادث يدلان يقيناً على أن أعضاء هذا الوفد لم يكونوا راضين عن الحملة على سوريه ولا عن سيرهم فى ركبها ، ولذلك اتهمزوا أول فرسه عرضت لهم ليتفصلوا منها كما سيحىء بيانه

اجتماع نابليون بأعضاء الديوان

دعا نابليون قبل أن يغادر القاهرة أعضاء الديوان (الخصوصى) للاجتماع به فلبوا الدعوة ، ولما اكتمل جمعهم (١) أنبأهم بعزمه على السفر ، وأهمهم أن الغرض من الحملة على سوريه هو محاربة المماليك وفتح طريق التجارة بين البلدين

روى الجبرقى ما قاله نابليون فى ذلك الاجتماع « المشايخ والوجاقليه » فى بيان غرض الفرنسيين من هذه الحملة « انهم قتلوا المماليك انصارين بالصعيد وأجلوا باقيهم إلى أقصى الصعيد ، وانهم متوجهون إلى الفرقة الأخرى بناحية غزة فيقصونهم ويمهدون البلاد الشامية لأجل سلوك الطريق ومشى القوافل والتجارات برأ وبحراً لعمار القطر وصلاح الأحوال ، واننا نغيب عنكم شهراً ثم نعود وعندئذ نرتب النظام فى البلد والشرائع وغير ذلك ، فعليكم ضبط البلد والرعية فى مدة غيابنا ، ونهوا مشايخ الأخطاط والحارات أن كل كبير يضبط طائفته خوفاً من الفتن مع العسكر المقيمين بمصر » (٢)

فتعهد له أعضاء الديوان بذلك . وكتبوا فى هذا المعنى منشوراً طبعوه كالعادة وألصقوه بالأسواق . ذكروا فيه أن بونا بارت سيغيب ثلاثين يوماً لمحاربة ابراهيم بك الكبير وبقية المماليك المصرية وأنه يقصد من هذه الحرب استتباب الراحة لمصر وأهلها وتطهيرها من دولة المماليك . ونصحوا فى منشورهم إلى الأهالى بالإخلاص إلى الهدوء والسكينة حتى يعود بونا بارت

وأوصى نابليون الجنرال دوجا قبل سفره أن لا يألو أعضاء الديوان لإجلالا واحتراماً ، لما لهم من النفوذ فى نفس الشعب . وكلفه فى حالة حدوث اضطرابات فى

(١) يوم ٨ فبراير سنة ١٧٩٩ — ٤ رمضان سنة ١٢١٣

(٢) الجبرتى الجزء الثالث

القاهرة أن يستعين بأعضاء الديوانين الخصوصي والعمومي وأن يضع فيهم ثقته ويكل
إلهم تهديته الخواطر . وألا يدع اتخاذ الاحتياطات العسكرية في المدينة . وأوصاه في
رسائله أن لا يلجأ إلى ضرب المدينة بالمدافع إلا في حالة الضرورة القصوى . قال في
هذا الصدد (١) : « يجب أن لا تأمر بضرب المدينة بالمدافع من طابية ديوى والقلعة
إلا حين تعجزك الوسائل كلها . فانك لتعلم مبلغ الأثر السيئ الذي يحدثه هذا العمل
في مصر وفي وسائل أنحاء الشرق »

الاحتفال برؤية رمضان

وفي غضون ذلك حل موسم الرؤية لإثبات شهر رمضان (سنة ١٣١٣) ، فانتزها
نابليون فرصة طيبة وكانت قبل سفره بأيام . فأمر بالمبالغة في الاحتفال وتفخيم
موكب الرؤية تمليقاً لإحساس الاهالي . وكان الاحتفال عظيماً بالغا . سار فيه طوائف
الصناع كالمعتاد وذهب المحتسب بهذا الموكب إلى بيت نابليون بالازبكية وأبلغوه
رؤية الهلال . فبالغ في الحفاوة به .

قال الجبرتي يصف ذلك : « وفيه (٢٦ شعبان سنة ١٢١٣) عرض حسن أغا محرم
المحتسب لسارى عسكر أمر ركوبه المعتاد لإثبات هلال رمضان . فرسم له بذلك على
العادة القديمة . فاحتفل لذلك المحتسب احتفالاً زائداً . وعمل وليمة عظيمة في بيته
أربعة أيام . أولها السبت وآخرها الثلاثاء دعا في أول يوم العلماء والفقهاء والمشايخ
والوجاهة (الجهادية) وغيرهم . وفي ثاني يوم التجار والأعيان . وكذلك ثالث يوم ،
ورابع يوم دعا أيضاً أكابر الفرنسيين وأصاغرهم وركب يوم الثلاثاء بالابهة الكاملة
زيادة عن العادة وأمامه مشايخ الحرف بطبولهم وزمورهم وشق القاهرة على الرسم
المعتاد . ومر على قائممقام وأمير الحج وسارى عسكر بونا باراته . ثم رجع بعد الغروب
إلى بيت القاضي بين القصرين فأنبتوا هلال رمضان ليلة الاربعاء (٢) ثم ركب من هناك
بالموكب وأمامه المشاعل السكثيرة والطبول والزموور والتقاير والمناداة بالصوم »
ولم يفتر الجبرتي ملاحظة تودد الفرنسيين إلى الشعب في خلال تلك الأيام وانحناؤه

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٩٥٠

(٢) أول رمضان سنة ١٢١٣ (٦ فبراير سنة ١٧٩٩)

باللائمة على عامة الناس الذين غفلوا عما هم فيه من الضيق ورجعوا إلى البدع القديمة التي كانوا عليها ، وفي كلام الجبرتي في هذا الصدد عظة وعبرة ، وفيه إشارة إلى ضعف أخلاق لا يزال شيء منه مع الأسف موجوداً فينا إلى اليوم ، فتأمل فيما يقول : « وانقضى شهر شعبان وحوادثه فيها أن أهل مصر جروا على عادتهم في بدعهم التي كانوا عليها وانكشوا عن بعضها خوفاً من الفرنسيين فلما تدرجوا فيها وأطلق لهم الفرنسيون القيد ورخصوا لهم وسابروهم رجعوا إليها وانهمكوا في عمل موالد الأضرحة التي يرون فرضيتها وأنها قرينة تنجيهم بزعيمهم من المهالك وتقربهم إلى الله زلفى في المسالك . فرحوا في غفلتهم مع ما هم فيه من الأسر وكساد غالب البضائع وغلوها وانقطاع الأخبار ومنع الجالب . ووقوف الانكاز في البحر وشدة حجزهم على الصادر والوارد حتى غلت أسعار جميع الأصناف المجلوبة من البحر الرومي (البحر الأبيض) وانقطع أثر كثير من أبواب الصنائع التي كسدت لعدم طلابها واحتاجوا إلى التمسك بالحرف الدينية كبيع الفطير وقل السمك وطبخ الأطلعمة والمأكولات والاكل في الدكاكين وإحداث عدة قهاوى ، وأما أبواب الحرف الدينية الكاسدة فأكثرهم عمل حماراً مكارياً حتى صارت الأزقة خصوصاً جهات العسكر مزدحمة بالخمر التي تكثرى للتردد في شوارع مصر » ، وفي هذا الوصف صورة لناحية من نواحي الحياة الاجتماعية في ذلك العهد . وفيه أيضاً بيان جلي لسوء الحالة الاقتصادية وتقهرها في عهد الحملة الفرنسية

سير الحملة

بدأت الحملة تتحرك نحو الحدود السورية قبل أن يغادر نابليون القاهرة . فقد عهد إلى الجنرال (لاجرانج) Lagrange حذ قواد فرقة الجنرال (رينيه) المعسكرة بالشرقية باحتلال « قطية » في شبه جزيرة سيناء ونحسينها لتكون نقطة ارتكاز وتموين للجيش الزاحف . فاحتلها الجنرال لاجرانج وقضى نابليون بقية شهر يناير يتم معدات الحملة ويصدر تعليماته لقواد الفرق بالزحف ، فسبقت قوات الجنرال «رينيه» و «كليب» وارتحل هو من القاهرة يوم ١٠ فبراير (٥ رمضان سنة ١٢١٣)

قال الجبرتي عن سفر نابليون والترتيبات العسكرية التي أقرها قبل سفره : « وفي يوم الأحد خامس رمضان ركب سارى عساكر الفرنسيين وخرج إلى العادلية وذلك في الساعة الرابعة وأبقى بمصر عدة من العسكر بالقلعة والأبراج التي بنوها على التل . وقام مقام دوجا وبوسليك (المسيو بوسليج مدير الشؤون المالية) وسارى عسكر

ديزيه بجملته من العسكر في الصعيد . وكذلك سوارى عسكر الأقاليم كل واحد معه عسكر في جهة [من الجهات] . وأخذ معه المدبرين وأصحاب المشورة والمترجمين وأرباب الصنائع منهم كالحدادين والنجارين ومهندسى الحرب وكبيرهم أبو خشبة (الجنرال كافريللى رئيس فرقة الهندسة) وأبقى أيضاً بعض أكابرهم ثم ترأس المتخلفون في الخروج كل يوم تخرج منهم جماعة »

احتلال العريش

كانت القوات العثمانية والماليك متمتعة في العريش ، فزحف عليها الجيش الفرنسى وواجه الجيش العثمانى بها ودار قتال شديد بين الفريقين انتهى بهزيمة العثمانيين ليلة ١٥ فبراير . واستمرت قلعة العريش تقاوم مقاومة شديدة إلى أن سلمت يوم ٢٠ فبراير سنة ١٧٩٩

احتلال يافا

ثم تابع الفرنسيون زحفهم على سورية . فاحتلوا (خان يونس) وهى أول بلدة فى فلسطين وساروا منها قاصدين (غزة) واستولوا عليها دون مقاومة تذكر . واستراح الجيش بهامدة أيام ثم استأنف سيره يوم ٢٨ فبراير فاحتل (الرملة) ثم (اللد) ووصل تجاه يافا يوم ٣ مارس ، وكان الجيش العثمانى بقيادة عبدالله باشا متمتعاً بها فحاصرها نابليون بجنوده واستولى عليها يوم ٧ مارس بعد معركة شديدة قتل فيها من الجنود العثمانية نحو ٢٠٠٠ قتيل ودخل الفرنسيون المدينة وأعملوا فيها السيف والنار

نهب الجنود الفرنسية يافا ، وارتكبوا فيها من الفظائع ما تقشعر منه الأبدان باعتراف المؤرخين الفرنسيين واستمر النهب والقتل يومين متواليين واضطر الجنرال روبان Robin الذى عينه نابليون قومندنا للمدينة أن يقتل بعض الجنود لإعادة النظام . فذهب جهده عبثاً : ولم يقطع النهب إلا بعد أن كل الجنود من الاعتداء وسفك الدماء ، ويقول بعض المؤرخين إن الدماء التى سفكت فى يافا واشلاء الجثث التى تركت بها عدة أيام كانت من أسباب انتشار الوباء بين العسكر ، وهو الوباء الذى كان من العوامل الرئيسية لإخفاق الحملة على سورية .

ظهرت أعراض هذا الوباء فى دمياط بين جنود الفرقة المرابطة بها التى اشتركت فى الحملة على سورية . ثم أخذت عدواه تنتقل إلى الفرق الأخرى إلى أن تفشى بعد دخول

الفرنسيين يافا . وأحدث فرعا بين الجنود . وبذل نابليون قصارى جهده لمحاربته ، فذهب جهده سدى وعجز عن مقاومة تلك الآفة الرهيبة التي ألقت الرعب في جيشه . واضطر ليرد إلى الجنود شجاعتهم أن يزور المرضى الذين أصيبوا بالوباء ويغاطبهم ويواسيهم ويعرض نفسه لخطر العدوى ليشدد عزائمهم ويقنع الجنود بأنه لا خوف عليهم من سريان العدوى إليهم

لم يكد ينقطع النهب حتى أعقبته مأساة أخرى أشدّ هولاً وفظاعة ، ذلك أنه بعد انتهاء المعركة ودخول الفرنسيين المدينة كان بها من الجنود العثمانية نحو ثلاثة آلاف مقاتل أثروا التسليم وإلقاء السلاح في يد الفرنسيين بشروط انفقوا عليها مع اثنين من ياوران نابليون وهما بوهارنيه Beauharnais وكروازيه Croisier ، ومن هذه الشروط أن تضمن لهم أرواحهم بعد التسليم ، وتعهد الياوران بذلك باسم القائد العام وتلقاهم الفرنسيين كأسرى حرب ، ولكن نابليون بعد أن فكر طويلاً في أمرهم وتردد في شأنهم أمر بإعدامهم جميعاً رمياً بالرصاص ، وحيثه في ذلك أنه كان عاجزاً عن إطعامهم وحراستهم في بلاد نائية لم يستتب له فيها الأمر ، وهي حجة واهية تنطوى على نقض العهود وتنكرها المبادئ الإنسانية وقواعد الحروب ، فسبق أولئك الأسرى إلى شاطئ البحر وأعدموا جميعاً رمياً بالرصاص ، وكان إعدامهم بهذه الطريقة الوحشية من أسباب فشل الحملة الفرنسية في سورية لأنه أثار في نفوس الجنود العثمانية عوامل السخط وحب الانتقام وأدركوا أن مصيرهم إلى الإعدام إذا هم سلخوا ، فاستبسلوا في الدفاع عن عكا : وردوا هجوم الجيش الفرنسي وأرجعوه عن أسوارها خائباً : وبذلك أخفقت الحملة على سورية ، قال (ريبو) في هذا الصدد : « إن ثلاثة آلاف من الأعداء قتلوا مرة واحدة ولكن الجنود الباقين قد زاد عددهم وتضاعفت جهودهم الأخذ بالثأر ورأوا في مصير إخوانهم الذين ذبحهم الفرنسيون نموذجاً للإنسانية الفرنسية ، فأصبح القتال بينهم وبين الجيش الفرنسي صراعاً إلى الموت ، وحصد نابليون تحت أسوار عكا ما غرسه على شاطئ يافا (١) »

المصريون في يافا

وكان في (يافا) عند احتلالها نحو أربع مائة من المصريين استثناهم نابليون من القتل ،

ومن بينهم السيد عمر مكرم نقيب الأشراف الذى هاجر من مصر بعد معركة الأهرام . فأكرم نابليون مشواه وأعادته إلى القاهرة . قال الجبرتي فى هذا الصدد (١) ما خلاصته « أن السيد عمر افندى نقيب الأشراف حضر إلى دمياط وصحبته جماعة من أفندية الروزنامة وغيرهم وذلك أنهم كانوا بقلعة ياقا فلما حاصرها الفرنسيون وملكوا القلعة والبلد لم يتعرضوا للمصريين وطالبهم (نابليون) إليه وعاتبهم على نقلهم وخرجهم من مصر وأنزلهم فى مركب وأرسلهم إلى دمياط من البحر »

وقال فى حوادث شهر صفر سنة ١٢١٤ لانه فى اليوم الثالث منه حضر السيد عمر افندى نقيب الأشراف سابقا من دمياط إلى القاهرة « فحضر بعض الأعيان لملاقاته وركبوا معه بعد أن مكث هنية بزاوية على بيك التى بساحل بولاق حتى وصل إلى داره وتوجه فى ثانى يوم مع الشيخ المهدي وقابل سارى عسكر فبش له ووعدته بخير ورد إليه بعض تعلقاته ، واستمر مقيا بداره والناس تغدو وتروح إليه على العادة » . وهذا يدل على ما كان للسيد عمر مكرم من المنزلة فى قلوب الناس . نقول هذا تهيمداً للكلام عما صار له من الشأن العظيم فى سير الحوادث بعد جلاء الفرنسيين كما تراه فى الفصل الرابع عشر

وقد سعى نابليون فى إلحاق المصريين الذين أسره فى ياقا بصفوف جيشه ، ولكنه أخفق فى سعيه ورفضوا الالتحاق بالجيش الفرنسى . فأمر بإعادتهم إلى مصر

غنم الفرنسيون فى ياقا كثيراً من الذخائر والمهمات والآفات والمدافع . واستخدموا المدافع فى حصار عكا . وبادر نابليون بإرسال نبأ استيلائه على ياقا إلى الجنرال (دوجا) ليخبر به الديوان ويذيعه فى البلاد . فوردت هذه الأخبار إلى القاهرة فى ١٣ شوال . فانهقد الديوان وتليت رسالة نابليون وأصدر الديوان منشوراً بذلك إلى الأهالى . ويلاحظ أن نابليون فى رسالته للديوان أشار إلى قتل أربعة آلاف من عسكر الجزائر فى المعركة . فهو إذن قد كتم عن المصريين ما أمر به من قتل أسرى الحامية بعد التسليم . وفى هذا شعور منه بفضاعة إعدامهم بعد أن آمنهم على أرواحهم وقد كان لاستيلاء الجيش الفرنسى على ياقا تأثير معنوى كبير فى مصر لأن الناس

لم يكونوا يتوقعون أن يتم للفرنسيين هذا النصر بهذه السرعة . ولكنهم قابلوا الخبر بالسكوت والتسليم

حصار عكا

والارتداد عنها

استأنف الفرنسيون زحفهم شمالا واحتلوا (حيفا) دون مقاومة : ثم وصلوا تجاه (عكا) وهى بلدة محصنة . عزم الجنود العثمانية بقيادة أحمد باشا الجزار (١) على الدفاع عنها بكل ماديهم من قوة . فجعلها نابليون هدفا لهجومه إذا كان الاستيلاء عليها يفتح أمامه طريق سورية ويقضى على نفوذ الجزار فى تلك الجهات . وبدأ يضرب عليها الحصار يوم ١٩ مارس سنة ١٧٩٩ . ثم جعل يعد المعدات لأخذها عنوة . فضرب أسوارها وأبراجها بالمدافع ودارت معركة طاحنة بين الفرنسيين وجنود الحامية ارتد على أثرها الفرنسيون بعد أن نالهم خسائر فادحة . وكان نابليون يعتقد أن الاستيلاء على عكا لا يكلفه أكثر من أخذ يافا . ولكن تبين له من ارتداده عنها أنها ممتنعة حصينة وأنه فى حاجة إلى جهود كبيرة لفتحها . وكان ارتداده عنها أول هزيمة مُنى بها جيشه فى الحملة على سورية . فأثرت فى نفسه تأثيراً كبيراً ورشى عواقبها فى مصر . فشد الحصار على المدينة وأعد المعدات لهجوم ثان أقوى من الأول

(١) ترجمة الجبرتي فى وفيات سنة ١٢١٩ هجرية ، فذكر عن تاريخه ما خلاصته أن أصله من بلاد البوشناق (البوسنة) وخدم عند على باشا حكيم والى مصر وحضر معه إلى الديار المصرية سنة ١١٧١ هجرية (١٧٥٧ ميلادية) فتشوقت نفسه إلى الحج واستأذن مخدومه فأذن له فى ذلك وأوصى به أمير الحج صالح بك القاسمى ، وأخذ معه وأكرمه رعاية لعلى باشا ، ورجع معه فوجد على باشا قد أقفل عن ولاية مصر ، فاستمر الجزار فى مصر وترى بزي المصريين وخدم عبد الله بك تايى الأمير على بك الكبير وتعلم الفروسية على طريقة المالك وحدث أن على بك أرسل عبد الله بك بتجريدة إلى عرب البحيرة فقتلوه ، فرجع المترجم مع باقى رجاله إلى القاهرة فقلده على بك كشوفية البحيرة وطلب منه أن يثار لأستاذه ممن قتلوه لايهم وخادعهم وجمعهم فى مكان واحد وقتلهم وهم نيف وسبعون رجلا ، ومن ذلك لقب بالجزار ، فالجزار هو لذن من أتباع على بك الكبير وكانت نشأته الأولى فى مصر ، وذكر الجبرتي أن على بك طلب منه أن يعاونه على الغدر بصالح بك القاسمى فلم تطاوعه نفسه وخرج من مصر هاربا ، ثم عاد إلى البحيرة وأقام مع عرب الهذلى وتزوج هناك ، ثم سار إلى بلاد الشام واشتهر أمره فى تلك النواحي وقلد الوزارة وأقام فى حصن عكا وعمر أسوارها وقلاعها واستكثر من شراء المالك ، واشتهر بالقسوة والظلم ومات سنة ١٢١٩ هجرية (١٨٠٤ ميلادية) .

وحاول اقتحامها بقوة المدفعية والجنود يوم أول ابريل . واستطاع أن يفتح ثغرة في أسوارها ولكن جنود الحامية دافعوا عنها دفاع المستميت ، فأمر نابليون جيشه بالارتداد عنها ، وخاب في اليوم مثل خيبته في هجومه الأول .

قاومت عكا هجمات الجيش الفرنسي مقاومة شديدة ، واشتهر أحمد باشا الجزائر بحسن بلائه في الدفاع عنها ، وكان يظاھر من البحر الأسطول الإنجليزى بقيادة الكومودور السرسدنى سميث Sidney Smith ، فكان لمعاونيه أثر أى أثر ، كما أنه منع وصول مدافع الحصار إلى الفرنسيين بطريق البحر . وما يؤثر عن نابليون أنه قال يوماً عن السرسدنى سميث : « لقد حرمنى هذا الرجل من حظى » . وساعد الجزائر رجل آخر لا يقل كفاءة عن السرسدنى سميث وهو ضابط فرنسى من ضباط المدفعية اسمه السكولونل فيليبو Philipeaux كان زميلاً لبونابرت فى الدراسة وكان ملكياً وخصماً للجمهورية الفرنسية . فهاجر مع من هاجروا من فرنسا فراراً من فظائع اليقوبيين ، وكان هذا الضابط على جانب عظيم من الكفاية الحربية ، فقدّمه السير سدن سميث إلى الجزائر ليشدّ به أزره فى الدفاع عن عكا ، فادّى له أحسن الصنيع فى أثناء الحصار ، ومات قبل ارتداد الفرنسيين عنها

ومن الحوادث التى ساعدت الجزائر على الدفاع عن المدينة أن نابليون أصدر تعليماته بأن تنقل مدافع الحصار بحراً على السفن الفرنسية التى نجت من كارثة « أبوقير » إلى يافا ، وكانت هذه المهمة شاقة تكسّتها المخاطر ، لأن بوارج الأسطول الإنجليزى ما فتئت تراقب الشواطىء مراقبة دقيقة ، فسارت السفن على فرقتين أبجرت إحداهما من دمياط إلى شواطىء سورية ففاجأتهما المراكب الحربية الإنجليزىة تجاه (حيفا) يوم ٢٢ مارس ، فأسرت منها سبعة كانت تحمل مدافع الحصار والذخائر واقتادتها إلى عكا فاستولى عليها الجزاروا استخدموها لمحاربة الفرنسيين ، وغنم الإنجليز السفن المسورة ، ويقول نابليون فى مذكراته : « إن فقد هذه السفن كانت له عواقب وخيمة ولو أنها نجت وأزيلت مدافع الحصار إلى شاطئ حيفا لاستولى على عكا قبل أول أبريل ولخلص لهم طريق (دمشق) وكان فى استطاعتهم احتلالها فى منتصف أبريل واحتلال (حلب) فى أول مايو » .

أما الفرقة الأخرى فقد أقفلت من الإسكندرية بقيادة الكونت الميرال بيرى Peerrée ، وهذه سلبت من الأسطول الإنجليزى ورست فى يافا ثم أنزلت ما كان على ظهرها من مدافع الحصار والذخائر . وتسلمها الجيش الفرنسى واستعملها ، ولكنها لم

نجيد في متعة عكا ، وفي غضون هذه الحوادث أنفقد نابليون بعض قواته للإيغال في سورية فاحتلت (صفد) و(صور) و(طبرية) وأمكنه أخرى ، وانتصر الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال كليبر على الجيش التركي في واقعة جبل طابور (أبريل سنة ١٧٩٩) ، ولكن هذا النصر لم يغير الموقف الحربي لأن نجاح الحملة على سورية كان معلقاً على فتح عكا .

استمر الحصار أكثر من شهرين وعجز نابليون عن اقتحام عكا ، فعقد مجلساً حربياً من قواده وتداولوا في الأمر فاستقر رأيهم على رفع الحصار عنها ، وهكذا انتهى حصار طويل دام ٦٢ يوماً (من ١٩ مارس إلى ٢١ مايو سنة ١٧٩٩) بالإخفاق والفشل ، وكانت أهم الأسباب التي دعت إلى الارتداد عن عكا فداحة الخسائر التي نزلت بالجيش الفرنسي من المعارك ومن فتك الوباء ، وفقد عدد كبير من الضباط والقواد ، واستحالة انتظار المدد من مصر ، ونقص الذخائر والمؤونة ، ووصول المدد إلى الجزائر ، واجتماع إلى هذه الأسباب وصول الأنباء المقلقة إلى نابليون عن شروع تركيا في تجريد حملة كبيرة على مصر ، فقد علم أن المدد العثماني الذي جاء إلى عكا لم يكن سوى جزء يسير من الحملة التي أعدها الباب العالي ليقذف بها إلى الإسكندرية ، فتحارب الجنود الفرنسية الباقية بمصر ، في الوقت الذي يحارب فيه الجزائر جيش نابليون بسورية ، وأن معظم الجيش العثماني قد احتشد في رودس وفي شواطئ الأناضول ينتظر الأمر ليتحرك صوب الشواطئ المصرية ، وجاءته فوق ذلك من القاهرة رسائل الجنرال دوجا والمسيو بوسليج تحمل إليه أنباء اضطراب الأحوال في مصر وتجدد المعارك في الصعيد وانتفاض أمير الحج وثورة المهدي في البحيرة وظهور البوارج الإنجليزية في البحر الأحمر واقترباها من السويس ، ووصلته كذلك أنباء مزعجة عن الحالة في أوروبا ، فتبين له من اجتماع ذلك أن الحالة أصبحت تختم عليه الارتداد عن عكا والرجوع إلى مصر مهما كان في ذلك من الغضاضة على نفسه وتصدد هيبته العسكرية .

وهكذا صار لعكا شأن كبير في مصير الشعوب ؛ لأنه لولا ثباتها في وجه نابليون لاستطاع مواصلة زحفه في سورية ولأجبر تركيا على أن تعقد الصلح معه وأن تذن لشروطه ، ثم لأمكنه الزحف برأ إلى الهند أو الوصول إلى القسطنطينية لاسكن عكا قضت على أحلامه في إنشاء دولة شرقية عظيمة ، ولقد روى نابليون أنه قال عن هزيمة أمام عكا : « لم أكن أعلم عند ما أقلمت في السفينة إلى مصر إذا كان

وداعى لفرنسا ميكون أبديا ، لكنني ما شككت لحظة في أنها استدعوني يوما ما إليها ، على أن آمالي قد اتجهت إلى الشرق واستهوئني فتوحاته العظيمة وصرفتني عن التفكير في أوروبا ، ولكن هذه الأحلام والآمال قد دُفنت تحت أسوار عكا .

إن عكا كانت المدى الذي وصلت إليه فتوحات الفرنسيين في آسيا ، والقلعة التي ارتدوا عنها منهزمين ، فهذه الهزيمة قد بحث ما تركته انتصارات نابليون من الأثر في النفوس ، وتبين للناس أن الجنود الفرنسية التي تعودت الانتصار في المعارك الحربية قد تلاشت قوتها بازاء مدينة صغيرة لم يكن لها شأن يذكر .

فالآثر المعنوي الذي أحدثته هزيمة نابليون أمام أسوار عكا كان عظيما ومن شأنه أن يضعضع هيبة فرنسا في نظر المصريين والشرقيين عامة ويبعث في نفوسهم روح الأمل في القوة السكائمة في بلادهم ، وليس من المبالغة أن تعد هذه الهزيمة أكبر أثرا في نفوس الشرقيين من كارثة الأسطول الفرنسي في معركة (أبو قير) ، لأن سفن الأدميرال نلسن هي التي حطمت الأسطول الفرنسي في تلك المعركة الكبيرة ، أي أن العاراة الفرنسية إنما حطمتها عمارة أوربية ، أما هزيمة الفرنسيين أمام عكا فكانت هزيمة دولة أوربية أمام قوات شرقية يقودها حاكم عثماني من الطراز القديم ، ولم تسكن كارثة (أبو قير) لتؤثر في هيبة نابليون وعبقريته الحربية بمقدار ما أثرت فيها هزيمة عكا ، لأنه كان يتولى حصارها بنفسه ، فكم كان تأثير هزيمته كبير او وقعها في نفسه أليما وهو ذلك القائد الذي قهر الجيوش في أوروبا وفتح إيطاليا وأملى شروطه على النمسا ولم يألف في الحروب التي خاض غمارها سوى النصر والظفر ! فهذا الفاتح العظيم رأى نفسه مضطرا بعد حصار شهرين أن يتقلب منهزما عن مدينة صغيرة ، تاركا تحت أسوارها عددا لا يحصى من القتلى والموتى .

خسائر الفرنسيين في الحملة على سورية

إن الخسائر التي حلت بالجيش الفرنسي في الحملة السورية تشعر بعظم الهزيمة التي أصابت نابليون وجيشه ، فقد بلغ عدد القتلى الفرنسيين ٢٠٠٠ رجل ، منهم ١٢٠٠ قتلوا في المعارك وخاصة في حصار عكا ، و ١٠٠٠ ماتوا من الأمراض ، وبلغ عدد الجرحى ٢٥٠٠ جريح ومرضى ، وهي خسارة فادحة خصوصا إذا لوحظ أنها أصابت خيرة جنود الحملة الفرنسية . وفقد الجيش نخبة من قواده وضباطه ، منهم الجنرال (كافريلي)

رئيس فرقة الهندسة . قُتل في حصار عكا فكان مقتله من أكبر النكبات التي حلت بالجيش الفرنسي (١) .

وُقُتل أيضاً من القواد الجنرال بون Bon أحد قواد الفرق . والجنرال لوجييه . والجنرال ديتروا . والجنرال رامبو Rambeaud . والسكولوتل هوراس ساي Say رئيس أركان حرب الجنرال كافريللي . وقُتل معظم ضباط فرقة الهندسة فقد كان عددهم في بدء الحملة ١٧ ضابطاً فلم يسلم منهم عند انسحابها سوى ضابط واحد ومات تسعة وجرح سبعة منهم وقُتل ثلاثون من ضباط أركان الحرب ومات معظم أطباء الجيش في مكائهم للوباء . ومات المستشرق فانور Venture كبير ترجمة الجيش ومستشار نابليون في المسائل الخاصة بالشرق والشرقيين وكانت وفاته بالسنطاريا (٢) .

موقف نابليون بعد هزيمة عكا

لم يدع نابليون اليأس يعمل في نفسه وفي نفوس الجند . بل شدد عزائمهم بمشورات الساحة . وهكذا برهن على رباطه جأشه في أشد الأوقات خطراً . وكذلك كان شأنه عندما وصله قبل تسعة أشهر ونيف نبأ الكارثة التي حطمت الأسطول الفرنسي في معركة (أبو قير) ، فقد اعتصم بشجاعته واستمر يعمل ويدير الأمور ويتنكر المشروعات كأن لم تقع كارثة . ولما دفنت آماله تحت أسوار عكا هياً خطة الانسحاب على أن يدخل بجنوده مصر دخول الفاتح المنتصر استبقاء لهيبته في النفوس .

أراد أن يبعث الحمية في قلوب جنده بعد الانسحاب ، فأذاع بينهم نداء أشاد فيه بانتصاراتهم وأطنب في نتائج جهادهم . خاطبهم فيه بقوله (٣) : « أيها الجنود . لقد طوئتم فداقد الصحراء التي تفصل بين أفريقية وآسيا بأسرع مما يطيقه جيش عربي ولد فيها . والآن قد سحقتم الجيش الذي كان يزحف لاحتلال مصر وأسرتم قائده .

(١) انظر ترجمته في الفصل الرابع من الجزء الأول من ١٣٥ (من الطبعة الأولى) ، وقد حزن عليه نابليون حزناً شديداً ونعاه إلى الجيش بقوله . « إنه ذهب إلى القبر يحمل أسف الجميع فقد خسر الجيش في شخصه قائداً من أشجع قواده وخسرت مصر أحد مشرعيها العظام وفقدت فرنسا وطنياً من أخاص أبنائها وخسرت العلوم ركناً من أركانها » ، وعين بدله الجنرال سانسون Sanson

(٢) انظر ترجمته في الجزء الأول من ١٣٩ (من الطبعة الأولى)

(٣) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ١٢٨

وغنمتم مهماته وأخذتم المواقع الحصينة التي تحمي آبار المياه . ومزقتم في جبل طابور تلك الجنود التي أقبلت من سائر أنحاء آسيا لاقتناص مصر . لقد شاهدتم منذ اثني عشر يوماً ثلاثين سفينة أقبلت إلى عكا . فهذه السفن تحمل الجيش الذي كان معداً لاحتلال الإسكندرية : ولكن هذا الجيش اضطر إلى العدول عن مقصده الأول وجاء إلى عكا لنجدتها . وستزين الأعلام التي أخذتموها منه عودتكم إلى مصر .

والآن بعد مواصلة القتال ثلاثة أشهر في قلب سورية وبعد أن غنمنا من العدو أربعين مدفعاً وخمسين راية وأسروا منه ٦٠٠٠ أسير (١١) ونسفنا استحكامات غزه وباقا وحيفا وعكا ، سنعود إلى مصر لأن وقت الرحيل دنا .

« لقد كان أملنا وطيداً في أن نأسر حاكم عكا (الجزار) في عقر داره ، ولكن الاستيلاء على عكا في هذا الفصل لا يساوي ضياع عدة من الأيام تحت أسوارها . وإنني في حاجة إلى الجنود الشجعان الذين يمكن أن أفقدهم في هذا الهجوم ليقوموا بواجبهم في معارك أخرى أهم وأكبر .

« أيها الجنود ، لا يزال أمامنا مهمات شاقة وأخطار نستهدف لها ؛ والآن بعد أن صددنا هجمات الشرق سنقف غداً لشكافح هجمات تأتينا من الغرب ، وستتاح لكم فرص جديدة لاكتساب المجد والفخر ، وإذا كان كل يوم من أيام المعارك يفقدنا بطلاً فمن الواجب أن يحل بدله شجاعان آخرون يتقدمون بدورهم في ميادين القتال بين صفوف الأبطال الذين يواجهون الأخطار ويحققون الفوز والانتصار . »

هذا النداء مؤرخ ١٧ مايو سنة ١٧٩٩ ، وقد أمر نابليون بطبعه على المطبعة التي جالساها معه في الحملة . ولم يذعه بين الجنود إلا يوم ٢٩ مايو بعد أن أتم معدّات الرحيل . وذلك حتى لا يصل خبر رفع الحصار إلى الجزار فيداهم الفرنسيين قبل رحيلهم الأخير .

بهذا النداء البليغ أذكى نابليون نار الحماسة في نفوس الجنود الذين أنهكتهم المتاعب وأذرتهم الأمراض واكتنفتهم الأخطار والأهوال . والحق إنه يصعب على غير نابليون أن يرد الروح المعنوية إلى نفوس الجنود بعد ما حل بهم من خيبة الآمال وما قاموه من الأهوال في حصار عكا .

ولكن نابليون كان يعتمد على تأثيره الأدبي في جنده . فلم يكن يشك في قوتهم المعنوية إذا أذكتهما كلماته الحماسية .

وإذا تأملت في نداء نابليون واستثارتة الحمية جنوده واستفزازهم لخوض معارك جديدة في القارة الأوروبية . رأيت في عباراته ما يدل على شعوره باضطراب الأحوال السياسية في أوروبا . ولا غرو فإن هزيمة فرنسا في الحملة على سورية كانت من الأسباب التي شدت من أزر الدول المملوكية في أوروبا . وحفزتها إلى التحرش بعدوتها القديمة كما سيحىء بيان ذلك فيما يلي .

هذا هو موقف نابليون من جيشه . أما موقفه من الشعب المصري فقد اجتهد في تعميته بستر الفشل الذي أصابه أمام عكا والظهور بمظهر المنتصر الذي أدرك أغراضه من الحملة على سورية . والإعلان عن سطوته وقوته . ولذلك بادر فيها رسالة بعث بها إلى ديوان القاهرة بتاريخ ١٦ مايو . حشاشا بكثير من التموهيات . وخلاصتها الزعم أنه محق دار الجزار بعكا وهدم البلد بالقنابل . وأن أهلها فروا إلى البحر وأن الجزار جريح في خطر الموت . وقد وصلت هذه الرسالة إلى مصر في أول محرم سنة ١٢١٤ . وقرئت بالديوان . فلم يصدقها أحد .

انسحاب الجيش الفرنسي إلى مصر

أنفذ نابليون خطة الانسحاب . وبعث المرضى والجرحى إلى حيفا . ثم رفع الحصار عن عكا فعلا يوم ٢٠ مايو سنة ١٧٩٩ الساعة العاشرة ليلا . وبدأت فرق الجيش في الرحيل ليلة ٢١ مايو . بحيث لم يشعر المدافعون عن عكا برفع الحصار إلا صباحاً بعد أن تم انسحاب الفرنسيين .

وصل الجيش في ارتداداه إلى حيفا بعد منتصف الليل . فمكث قليلا ليحمل جرحاه الذين كانوا بها ، ثم أخلاها ، واضطر إلى ترك الجنود المصابين بالوباء خوفا من انتقال عدواهم إلى الجيش . وكان التراجع محفوفا بالمتاعب والمشاق . واضطر نابليون وقواده وضباطه أن يمشوا في السير على أقدامهم . وترجلوا عن خيلهم ليركبها المرضى والجرحى . ثم تابع الجيش طريقه جنوبا محاذيا شاطئ البحر فوصل إلى الطنطورة ظهر يوم ٢١ مايو وكان بها كثير من مدافع الحصار التي جلبها من مصر

أو غنمها في يافا وأدرك صعوبة نقلها معه في انسحابه . لأن طريق الصحراء وعراً لا يصلح لنقل المدافع الثقيلة ، وطريق البحر معرض لهجمات البوارج الإنجليزية ، فاضطر إلى إتلاف معظم تلك المدافع أو إغراقها في البحر ، وكذلك فعل بالقنابل والذخائر ، واستعمل عربات المدافع في حمل الجنود المرضى والجرحى ، ثم غادر الطنطورة يوم ٢٢ مايو ، وسار الجيش جنوباً فأخلى قبسارية ويافا والرملة وغزة ، وأمر نابليون بنسف حصون يافا وغزة . وإتلاف المدافع والمهمات التي لم يستطع الجيش حملها معه وأحرق القرى الواقعة بين يافا وغزة . ونهب مواشى الأهالي وخرب تلك الجهات تخريباً تاماً ليضعها في زعمه عراقل تعطل زحف الجيش العثماني على مصر .

وبلغ الجيش في تراجعه (خان يونس) يوم ٢١ مايو سنة ١٧٩٩ . وقام منها يوم أول يونيه قاصداً العريش ، وقطع في هذا اليوم المسافة من خان يونس إلى العريش ماراً برفح والشيخ زويل . ووصل إلى العريش الساعة العاشرة ليلاً وعسكر في حدائق النخيل ، وكانت هذه المسافة أشق مرحلة قطعها الجنود من يوم انصرفهم عن عكا ، فأمرهم نابليون أن يستريحوا في العريش يوم ٢ يونيه . وقضى هو ذلك اليوم في تعهد قلعة العريش التي كانت مفتاح مصر من الجهة الشرقية . وكان من يوم احتلاله العريش في بدء الحملة على سورية شديد العناية بتحصينها لأهمية موقعها الحربي ولقربها من دمياط التي كانت ثغر مصر الشرقى . وكانت عنايته بتحصينها دليلاً على نيته احتلال مصر إلى ما شاء الله . ولكن الحوادث أخلفت ظنونه .

كتب المسيو كوستاز أحد مهندسي الحملة الفرنسية (١) الذين رافقوا نابليون في حملته على سورية رسالة (٢) عن أهمية العريش قال فيها : « إن قلعة العريش تسكب من تحتها مزايا عظيمة تضمن له الانتفاع بآبار المياه العذبة التي هي وإن لم تكن في عذوبة ماء النيل أو السين ، إلا أنها صالحة جداً للشرب . ووجود هذه الآبار يسهل إنشاء مخازن ومستودعات للجنود الذين يخترقون الصحراء من مصر إلى سورية أو من سورية إلى مصر ، وقد كانت العريش دائماً جزءاً من مصر ، وهي ضرورية لضمان الدفاع عنها . ولذلك استثنأها نابليون من القلاع التي هدمها أثناء الحملة على سورية . فاستبقاها وأمر بتقويتها ، ولم ينقطع

(١) انظر ما كتبناه عنه بالجزء الأول ص ١٢٤ (من الطبعة الأولى)

(٢) نشرت بمجريدة « كورييه دابيجيت » بالعدد ٣١ الصادر في ٧ يولية سنة ١٧٩٩

العمل فيها منذ أربعة أشهر لجعلها أكثر مناعة . وأنفذ لها أخيرا طائفة من المهندسين وفرقة من العمال لإصلاح استحكاماتها وزيادة قوة الدفاع فيها .

ترك نابليون بالعريش حامية من الجنود وزودها بالمدافع والذخيرة . وسار الجيش يوم ٣ يونيه سنة ١٧٩٩ قاصدا إلى قطية فوصلها يوم ٤ يونيه ومن هناك مضى إلى القاهرة مارا بالصالحية فبلبس فالمرج ، أما فرقة كليبر فسارت إلى دمياط واستقرت بها . وبذلك انتهت الحملة على سورية وقد دامت ١٢٥ يوما . وعادت إلى حيث بدأت دون أن يجنى منها الفرنسيون سوى الهزيمة والخسران .

الفصل الثالث

الحالة في مصر

أثناء الحملة على سورية

كان معظم جنود نابليون موزعين في وقت واحد في ميدانين كبيرين تسكنتهما المشاق والمتاعب ، فكان نصف الجيش بقيادة نابليون منهمكاً في الحملة على سورية ، حين كان جيش الجنرال ديزيه منصرفاً إلى إخضاع الوجهة القبلي (١) ، وكلاهما كان يواجه المصاعب في طريقه ، فجيش الحملة يقاوم جيوشاً عديدة وبطاحن قلاعاً حصينة ، وجيش ديزيه يواجه ثورات ومعارك متتابعة .

حالة الشعب النفسية

ولاجتدال في أن تخيب نصف الجيش الفرنسي عن مصر كان له أثر كبير في حالتها الداخلية ، نعم إن إقدام نابليون على غزو الشام هو في ذاته عمل يدل على القوة والبأس ومن شأنه أن يلقى في نفوس المصريين حذراً وهيبه ، لأن القائد الذي يغامر بجيشه في مثل هذه الحملة الشاقة ويقطع تلك المراحل الطويلة ويمتاز الصحارى والقفار ، لا بد أن يكون معتداً بقوته مستصغراً شأن عدوه ، فهذه الظاهرة كان لها أثرها في الحالة النفسية للشعب ، أضف إلى ذلك أن إخمد ثورة القاهرة (٢) وما شهد المصريون من فتك مدافع الفرنسيين وما أعقب الثورة من إنشاء القلاع المحيطة بالعاصمة لإخماد كل ثورة تقوم فيها ، كل ذلك قد جنح بالشعب إلى الهدوء والسكينة ، هذا فضلاً عن أن قلاع الإسكندرية ورشيد والرحمانية ودمياط والصالحية وبلبيس كانت معدة لقمع الثورات في مختلف البلاد ، وقد ساعد على تهدئة الخواطر وقنما في القاهرة والوجه البحري أن نابليون ترك مقاليد الأمور لرجلين اشتهرا بالحكمة والدهاء ، أحدهما الجنرال دوجا الذي استخلفه في إدارة الشؤون الحربية في القاهرة والوجه البحري . والآخر المسيو بوسليج مدير الشؤون المالية وقد ناط به التدابير الإدارية للحكومة . فهذان الرجلان لم يدخرا وسعاً في اتساع سياسة الحكمة

(١) راجع الفصل السابع عشر من الجزء الأول

(٢) راجع الفصل الثالث عشر من الجزء الأول

والمحاسة لزاء الشعب ومجاملة أعضاء الديوان واحترامهم ورعايتهم مما حببهما اليهم . والمعلوم أن أعضاء الديوان هم كبراء البلاد وزعماء الشعب ولهم من النفوذ الأدبي والديني على الناس ما لا يخفى . وموضعهم ذلك موضعهم ، وكان لبوسليج خاصة الفضل الأكبر في استقبال الهدوء والسكينة في القاهرة ، فقد اكتسب بآناته ورزاقته احترام أعضاء الديوان . فكان له من أنفسهم موقع ، وكان له عليهم نفوذ كبير . وانصل بروابط الود مع المهدي والشرقاوي والسادات (١) والبكري والصاوي والقاضي التركي وحافظ المدينة (الأغا) . وكانوا يلقبونه بالوزير بوسليج ، وهو من جمته لا يألو جهداً في اكتساب قلوبهم بالمودعة والمجاملة والمباينة . ورعاية الحرمات . ومبادلتهم الزيارة . وبجاستهم في أنديتهم واقتباس بعض تقاليدهم وعاداتهم . فقد شوهد مراراً في منزل السادات جالسا على الديوان يشرب القهوة على الطريقة المصرية ويدخن ويطارح جلساءه فنوأم الحديث في شئون العلم والعمران ونظام الحكومات في الغرب والشرق . وكانت له مطارحات طويلة مع الشيخ المهدي الذي يعده الفرنسيون أكثر أعضاء الديوان علما وفهما ومعرفة .

وهكذا اكتسب الديوان نفوذاً كبيراً في إدارة شئون الحكومة بما كانت ترجع إليه السلطة الفرنسية في مهمات الأمور . فلم يكن يبرم الجزرالدوجا والمسيو بوسليج شأنا من الشئون المتعلقة بإدارة الأمن في القاهرة أو بكل ماله مساس بالشريعة وإدارة الضرائب أو بالتقاليد والعادات المرعية إلا بعد مفاخرة أعضاء الديوان واستشارتهم في تلك المسائل ، وكانت تسمع آراؤهم في معظم الشئون ، وهذه ساطة لم يكن أحدهم الحكم الأقدمين على عهد الحكم العثماني يخولها أية جماعة أو هيئة من علماء البلاد وأعيانها . فالبكوات الممالك كانوا يقضون في الأمور بسياسة أهوائهم وإرادتهم ، ولم يكن مع أمرهم أمر . ولا مع سطلتهم ساطة .

وكان المسيو بوسليج يتودد كذلك إلى السيد المحروقي كبير تجار القاهرة ، وهو أيضاً من أعضاء الديوان . فكان الشيخ المهدي بين زملائه والسيد المحروقي بين التجار واسطة التفاهم مع الأهالي . ولا جدال أن هذه الظروف قد جعلت من الديوان أداة لتهذبة الخواطر ، ولكن عامة الناس والسواد الأعظم من الأهالي لم تصف قلوبهم يوماً للفرنسيين ولم يكن يحول دون انتقاضهم على الحكم الفرنسي سوى القوة الحربية المتساطة على المدينة ، وقد انهموا أعضاء

(١) لم يكن السادات عضواً بالديوان ولكن كان له من المسكنة مالم يتوافر لأعضائه

الديوان بموالاته الفرنسيين وعما لاتهم ، وعزوا مسلكهم معهم إلى ما كان ينالهم من المزايا المادية والأدبية .

وكان الأهالى يتوقعون لنا بليون الانكسار فى حماه على سوريه . فلابدوا بالسكينة وتربصوا حتى تتحقق تلك الاماني ، ولكن انتصارات نابليون الاولى ملأت القلوب ياساً وكان نابليون يفهم نفسية الأمة ويعرف أنها لا تصفو للفرنسيين . فاراد أن يؤثر فيها بالمظاهرات والإعلان عن انتصاراته ايشغفها بالامر الواقع . فلما تم له احتلال قلعة العريش أرسل كتيبه من الجنود إلى القاهرة تحمل الاعلام التى غنمها فى تلك القلعة وكلف الجنرال دوجا أن يرفعها على منارات الجامع الأزهر كإعلان لانتصار الفرنسيين فى العريش وكتب اليه فى هذا الصدد يقول (١) : « لى أرى أن تقابلوا الشيخ المهدي وأعضاء الديوان فتتفقوا وإياهم على إقامة حفلة صغيرة لاستقبال الاعلام المرسلة إليكم وإذا لم يكن من حرج فضعوها فى الجامع الأزهر ليداننا بالانتصار الذى حازه جيش مصر على عساكر الجزائر وأعداء المصريين » .

بهذه العبارة الرقيقة أراد نابليون أن يجتذب إليه قلوب المصريين وأن يشعرهم السرور بانتصار الفرنسيين ، ولذلك نراه يعبر عن جيشه بأنه « جيش مصر » وأنه انتصر على الجزائر وعلى « أعداء المصريين » ، ولا يمكن أن يعبر بأحسن من هذا الاسلوب لمحاولة اكتساب قلوب الشعب ، ولكن هيهات أن يتخدع الشعب عن ذات نفس بذات اسان .

وكان ضمن الاسرى فى قلعة العريش بعض المصريين والمماليك فأمر نابليون بإعادتهم إلى مصر صحبة ضابط فرنسى ، وتسريح المصريين حين وصولهم إلى بلادهم ، وأوصى الجنرال دوجا فى شأن المماليك أن يستقبلهم فى القاهرة ويرجعهم إلى منازلهم ويحسن معاملتهم مع وضعهم تحت رقابة المحافظ والديوان .

وفى أول مارس سنة ١٧٩٩ وصل الضابط الذى أوفده نابليون إلى القاهرة ومعه كوكبة من الجنود يحملون أخبار فتح العريش والاعلام التى غنمها الفرنسيون معهم الاسرى والمماليك فاستقبلهم فى اليوم التالى الاغ (المحافظ) وبرنلى الرومى (وكيل المحافظ) وثلة من الشرطة . ودخلوا المدينة من باب النصر وشوا معهم لتقديمهم المطبول

إلى الأذربكيه حيث مقر القيادة العامة ودخلوا بالأسرى المماليك على الجنرال دوجا فأطلق سراحهم بعد أن أخذ أسلحتهم وسمح لهم بالذهاب إلى بيوتهم ، واحتفل الفرنسيون ذلك اليوم بانتصارهم في العريش وأطلقوا المدافع من القلعة والأذربكيه ابتهاجا بهذا النصر ، ثم احتفل الجنرال دوجا برفع الأعلام على منارات الأزهري عصر يوم الخميس ٧ مارس (ليلة عيد الفطر) . فاصطفت شرازم الجنود رجالا وركبانا تلقاء باب الجامع ودعوا الشيخ الشراوى رئيس الديوان وسلوه الرايات التركيه ليرفعها على منارات الأزهري ، فأمر بنصب رايتين على المنارة الكبيرة وراية ثالثة على منارة أخرى . ولما رفعت هذه الرايات أطلق الفرنسيون المدافع من القلعة لإظهار أسرارهم وأطلقوا المدافع كذلك عند الغروب إيدانا بعيد الفطر .

واجتمع الديوان صباح هذا اليوم ، وقرئت عليه رسالة الجنرال (برتييه) رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية باستيلاء الفرنسيين على خان يونس وغزة فأصدر الفرنسيون منشورا بالخبر وأذاعوه على الجمهور .

وانقضى شهر على غياب نابليون والسكينة سائدة في القاهرة
قال الجبرتي يصف حالة العاصمة في خلال هذا الشهر :

« انقضى شهر رمضان (١) ووقع به قبل ورود هذه الأخبار (أخبار انتصار الجيش الفرنسي) من السكون والطمانينة وخلو الطرقات من العسكر وعدم مرور المتخلفين منهم إلا في النادر واختفائهم بالليل جملة كافية وانفتاح الأسواق والدكاكين والذهاب والمجيء وزيارة الإخوان أيملا والمشى على العادة بالفوانيس ودونها واجتماع الناس للسهر في الدور والقهواوى ووقود المساحد وصلاة التراويح وطواف المسحرين والتسلي بالرواية والنقل وترجى المأمول وانحلال الأسعار فيما عدا المجنوبات من الأقطار وصار الفرنسيون يدعون أعيان الناس والمشايخ والتجار الإفطار والسحور ويعملون لهم الولائم ويقدمون لهم الموائد على نظام المسلمين وعادتهم ويتولى أمر ذلك الطباقون والفراشون من المسلمين تطميننا لخواطرهم ويذهبون هم أيضا ويحضرون عندهم الموائد ويأكلون معهم في وقت الإفطار ويشاهدون ترتيبهم ونظامهم ويحذون حذم . ووقع منهم من المسايرة للناس وخفض الجانب ما يتعجب منه والله أعلم »

وذكر الجبرتي أنه لما كان يوم العيد أطلقت المدافع وركب أكابر الفرنسيين وطافوا على أعيان البلد وهنأوهم بالعيد « وجامهم الناس بالمدارة أيضاً » .

وجاءت أنباء احتلال الفرنسيين يافا فعدوا الديوان وقرأوا فيه رسالة الجنرال برتسيه . ونشروا بياناً على لسان الديوان بتفصيل الرسالة وأذاعوها في القاهرة فقبل هذا النبأ بالدهشة لاستيلاء الفرنسيين على يافا بتلك السرعة ، قال الجبرتي في هذا الصدد : « فلما تحقق الناس هذا الخبر تعجبوا وكانوا يظنون بل يتيقنون استحالة ذلك خصوصاً في المدة القليلة . ولكن المقضى كائن » .

واحتفل الفرنسيون برفع الرايات العثمانية التي غنمها نابليون في يافا على باب الجامع الأزهر ليرأها الناس ويتيقنوا صحة الخبر . وسادت السكينة وقتاً ما في أنحاء مصر .

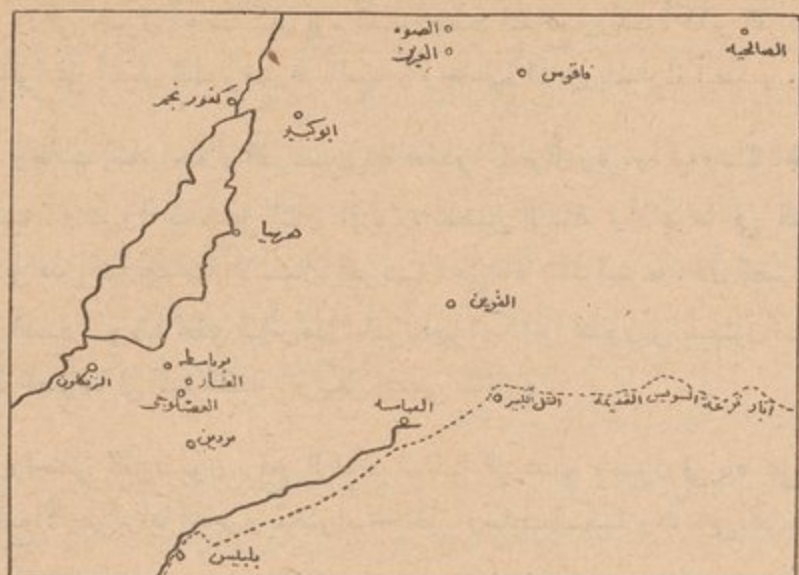
بوادر الثورة

على أن هذا السكون الذي شمل البلاد كان وقتياً . فإلبث أن تزعزت أركانه في الأقاليم . وأخذت بوادر التمرد والانتفاض تظهر من حين إلى آخر وتنتقل من ناحية إلى أخرى . فالنفوس كانت متحفزة للثورة وكانت القوة الحربية هي الركن الركين لتوطيد دعائم السكينة في البلاد . فابتعاد أكثر من نصف الجيش الفرنسي عن مصر وتغيب نابليون الذي كان له من الهيبة ما لم يكن لغيره من قواد الجيش الفرنسي . كل ذلك من شأنه أن يحدث مع الزمن تغييراً في حالة الشعب النفسية ويغري النفوس بالجنوح للثورة . وخاصة إذا وقعت حوادث تشعل نار الهياج والاضطراب .

الثورة في الشرقية

(مارس سنة ١٧٩٩)

بدأ هاتف الثورة يطيف بالنفوس في أواخر فبراير ، فظهرت بوادرها في الشرقية ، وكانت مظالم الفرنسيين سبباً في اشتعال جذوتها ، ذلك أنهم أخذوا يفرضون الإتاوات على البلاد وأخذ جنودهم يخوضون القرى لمصادرة الجبال والخير والماشية ، فثارت نفوس الأهالي ، ووقعت حوادث ومصادمات في جهات عدة وخاصة في بردين



بين بلبس والصالحية (تخطيط سنة ١٨٠٠)
وفيها مواقع البلاد التي ورد ذكرها بالصفحة ٤٧ وما بعدها



مصطفى بك أمير الحج سنة ١٧٩٨ (انظر ص ٤٨)

والمصلوحي والغار والزنكلون^(١) كادت نفى إلى ثورة عامة .

واقعة بردين

خرجت كتيبة من الجنود من بلبس (التي كانت في ذلك الحين عاصمة الشرقية) يوم ٢٨ فبراير سنة ١٧٩٩ ، وأخذت تطوف القرى لمصادرة الجبال والخير . فلما نزلت تجاه بردين حمل الأهالي السلاح استعداداً لمقاومة النهب . وانضم سكان البلاد المجاورة إليهم . فاجتمع مئات من الناس مسلحين متحفزين للقتال .

فلما أبصرهم الضابط قائد الكتيبة أيقن أن من المخاطرة اقتحام تلك الجوع الثائرة ، وأراد مفاوضة شيخ البلد بالحسنى ، فرفض الأهالي كل مفاوضة واستعدوا للكفاح فعدت الكتيبة أدراجها وأبلغ الضابط الذي يقودها قومندان المديرية بما وقع له . فعزيز الكتيبة بقوة أخرى من الجنود ورجعت إلى بردين يوم أول مارس سنة ١٧٩٩ فألفت الأهالي معدن للقتال كما كانوا أول مرة ، فدعا الضابط شيخ البلد إليه ليتفاهم وإياه فتخلف ولم يذعن ، فذهب أربعة من الجنود إلى باب القرية ، ولم يكادوا يقتربون منها حتى انهال عليهم الرصاص ، وعندئذ بدأ القتال من الجانبين ، وأقبلت جموع الفلاحين المساحين تقتحم رصاص الفرنسيين ، واستمر الضرب والقتال مدة ساعتين ، وانتهت الواقعة بهزيمة الفرنسيين فولوا الأدبار ، وتعقبهم الأهالي حتى ردوهم إلى بلبس ، وقتل من الفرنسيين في هذه الواقعة خمسة وجرح اثنان . فذاع في بلاد الشرقية خبر الهزيمة . وانساب روح الثورة إلى القرى دانية وبعيدة ، واعتزم الثائرون الزحف على بلبس للاستيلاء عليها .

ولما بلغت هذه الأنباء إلى الجنرال دوجا في القاهرة عهد إلى السكولونل ديرانتو Durantean أن ينتقم من القرى الثائرة وخاصة بردين والزنكلون ، ويمنع اندلاع الثورة إلى البلاد الأخرى ، فانتقل ديرانتو إلى بردين يوم ١٦ مارس ومعه الجند والأسلحة والمدافع ، فدار القتال بين الفريقين ، وانتهى باستيلاء الفرنسيين على بردين ونهبها وإضرار النار فيها وسفك دماء عدد كبير من أهلها^(٢) ، ورجع ديرانتو إلى

(١) بمر كز الرقازيق الآن

(٢) قدرهم الجنرال دوجا في رسالته إلى نابليون بتاريخ ١٣ يونيو سنة ١٧٩٩ بثلاثمائة قتيل .

بليس وانتقل يوم ١٧ مارس إلى (الزنكون) لينسكل بها مثل ما فعل بريدن ، فوجد أهلها قد أخذوها قبل حضوره تفاديا من أن يحل بهم مثل ما حل بريدن .

كان لواقعة بريدن من الشأن ما جعل الجنرال برتييه Berthier رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية يذكرها في كتابه^(١) ضمن الحوادث الهامة التي وقعت في مصر أثناء الحملة على سورية ، فقال : « ثارت قرية (بردين) بمديرية الشرقية فسار إليها السكولونل ديرنتوا وهو ضابط كفء ، على رأس كتيبة من الجنود فأخذ ثورتها وأضرم النار فيها » .

ثورة أمير الحج

استمرت الاضطرابات بالشرقية إلى أن ظهرت بها ثورة أمير الحج ، وبيان ذلك أن نابليون كما علمت عين في أوائل عهد الحملة الفرنسية مصطفى بك نائب الوالى التركى القديم أميراً للحج وقربه لإليه^(٢) وبالغ في الحفاوة به ليكسب نفوذه الأدبى وينتفع بتأثيره فى الجماهير ، وقد طلب منه قبل ارتحاله عن القاهرة أن يصحبه فى الحملة على سورية كما طلب ذلك من القاضى التركى وأربعة من أعضاء الديوان وهم الفيومى والصاوى والمريشى والدواخلى ، فأذعنوا له وسار مصطفى بك صحبة القاضى وأعضاء الديوان ليلحقوا بالجيش ، فبلغوا ببليس ، وهناك تخلفوا عن السير لأن الفرنسيين احتاجوا إلى جمالهم وأخذوها ، فأقام المشايخ ومصطفى بك بالعرين^(٣) عدة أيام بحجة الزاد والمؤونة ، فأرسل نابليون إلى مصطفى بك من قطية يستحثه على اللحاق به ، فبعث إليه يعتذر بأن جماله فقدت وأن الطريق مخوفة لا آمن فيها ، ولم يلبث أن أعان تمرده وانتفاضه على السلطة الفرنسية . وكشف زملائه أعضاء الديوان والقاضى التركى بعزمه على شق العصا وإعلان الخروج على الفرنسيين . وطلب منهم أن يؤيدوه فى دعوته ، لسكنهم خافوا العاقبة وحسبوا حساباً لا انتقام الفرنسيين منهم كما انتقموا من زعماء ثورة القاهرة فلم يوافقوه على دعوته ، وشذ منهم الشيخ سليمان الفيومى فإنه أقر أمير الحج على رأيه وكذلك القاضى التركى ، ولما رأى أمير الحج ثلاثة من أعضاء الديوان أنكروا عليه تظاهر بالتسليم وفى الوقت نفسه أخذ يعد العدة لنشر الدعوة إلى الثورة فى أنحاء البلاد ، فبدلاً من أن يتابع سفيره إلى قطية حيث كان ينتظره نابليون عاد إلى داخلية

(١) ذكر حروب الجنرال بوناپرب فى مصر وسورية

(٢) ص ٢٧٠ الجزء الأول (الطبعة الأولى)

(٣) بحر كرفافوس بين أبو كبير وفافوس

البلاد فسار من القرين إلى كفور نجم^(١) يصحبه القاضي التركي والشيخ الفيومي .
وأما أعضاء الديوان الثلاثة الدواخلي والساوي والعريشي فقد انفصلوا عنه وذهبوا
إلى القرين (بالقاف)^(٢) ورجع الشيخ محمد الدواخلي إلى القاهرة مريضا .

رواية الجبرتي

ذكر الجبرتي هذه الواقعة في حوادث شوال سنة ١٢١٣ فقال :

« قدم الشيخ محمد الدواخلي من ناحية القرين متهربا وكان بصحبته الصاوي
والفيومي (صح العريشي) متخلفين بالقرين وسبب تخلفهم أن كبير الفرنسيين لما
ارتحل من الصالحية أرسل إلى كتبخدا الباشا (مصطفى بك) والقاضي والجماعة الذين
بصحبتهم يأمرهم بالحضور إلى الصالحية لأنهم كانوا يباعدون عنه مرحلة . فلما
أرادوا ذلك بلغهم وقوف العرب بالطريق فخافوا من المرور فذهبوا إلى القرين
فأقاموا هناك وأخذ عسكر الفرنسيين جماعهم فأقاموا بمكانهم . فقلق هؤلاء الثلاثة
وخافوا سوء العاقبة ففارقوهم وذهبوا للقرين وتخف عنهم الفيومي فأقام مع كتبخدا
الباشا والقاضي فحصل للدواخلي توعك فحضر إلى مصر وبقي رفيقاه في حيرة »

امتداد الثورة

علم المسيو بوسليج بما حدث من أمير الحج ، فالتقى بالجنرال دوجا وتداولوا معا في
اتخاذ الأسباب السريعة لقمع الثورة قبل أن يتفحل أمرها فأرسل إلى أمير الحج
والشيخ سليمان الفيومي يستوضحهما الحقيقة ويطلب منهما بيان الأسباب التي
دعتهما إلى التخلف عن اللاحاق بالقائد العام ، فرد أمير الحج على رسالة بوسليج
مشكرا ما نسب إليه .

ولكنه في الوقت نفسه أخذ يدعو إلى الثورة في الجهات التي مر بها فانضوى
إليها في تحت علم الثورة وعلى رأسهم مشايخ البلاد (العمدة)

(١) بمركز كفر صقر على بحر موسى

(٢) بالقرب من التل الكبير بمركز الزقازيق الآن

بدأت فكرة الثورة الشرقية ، وانتقلت إلى الدقهلية من بلد إلى بلد وانضمت
إليهم من الأهالى إلى أمير الحج فسار من كفور نجم ومعه الآلاف الحاشدة من
الناس ومضى قاصدا إلى دقادوس وميت غمر وكان عدد رجاله يزداد بن ينضم
إليهم فى الطريق من المتطوعين فوصل يوم ٢٥ مارس سنة ١٧٩٩ تجاه ميت غمر .
وكانت فكرة الثورة قد اختمرت فى الأذهان ولم يكن إلا أن تسنح لها الفرصة فتظهر
بشكل فعلى وقد سنحت الفرصة بمرور بعض المراكب الفرنسية فى النيل تحرسها
سفينة حربية ، كانت هذه المراكب قادمة من القاهرة تحمل الذخائر والمدافع لإمداد
الجيش الفرنسى فى سورية بطريق دمياط فهجم أهالى ميت غمر والبلاد المجاورة
على المراكب واستولوا عليها وقتلوا من فيها من الفرنسيين وأخذوا ما بها من الذخائر
والمدافع ، وارتدت السفينة الحربية التى كانت تحرسها إلى القاهرة بعد أن عجزت عن
رد التأثيرين وجرح قبطانها وعدة من رجالها جرحا بليغة

رواية الجبرقى

نقلنا هذه الواقعة عن المراجع الفرنسية ، وإليك ما ذكره الجبرقى فى حوادث
شوال سنة ١٢١٣ عن ثورة أمير الحج : « اجتمعوا بالديوان وتفاوضوا فى شأن
مصطفى بك كتخدا الباشا المولى أمير الحج . وهو أنه لما ارتحل مع سارى عسكر
وصحبته القاضى والمشايخ الذين عينوا للسفر والوجافلية والتجار وافترق منهم عند بلبيس
وتقدم هو إلى الصالحية ثم إنهم انتقلوا إلى العربى فحضر جماعة من العساكر المسافرين
فاحتاجوا إلى الجبال فأخذوا جماهم فلما وصل سارى عسكر إلى قطية أرسل يستدعيهم
إلى الحضور فلم يجدوا ما يحملون عليه متاعهم وبلغهم أن الطريق مخيفة من العرب .
فلم يمكنهم اللحاق به فأقاموا بالعربى (بالعين المهملة) عدة أيام وأهمل أمرهم سارى
عسكر ، ثم إن الشيخ الصاوى والعريشى والدواخلى وآخرين خافوا عاقبة الأمر
ففارقوهم وذهبوا إلى القرين (بالقاف) وحصل للدواخلى توعك وتشويش فحضر
إلى مصر كما تقدم ذكر ذلك وانتقل مصطفى بك المذكور والقاضى وصحبته الشيخ
الفيومى وآخرون من التجار والوجافلية إلى كفور نجم وأقاموا هناك أياما وانفق
أن الصاوى أرسل إلى داره مكتوبا وذكر فى ضمنه أن سبب افراقهم من الجماعة
أنهم رأوا من كتخدا الباشا أمورا غير لائقة فلما حضر ذلك المكتوب طلبه
الفرنساوية المقيمون بمصر وقرأوه وبحشوا عن الأمور الغير لائقة فأولها بعض

المشايع أنه قصر في حقهم والاعتناء بشأنهم فسكتوا وأخذوا في التفحص فظهرت لهم خيانتهم وخمارته عليهم ، واجتمع عليه الجبالي وبعض العرب العصاة وأكرمهم وخلع عليها ، وانتقل بصحبته إلى منية غمر ودقوس وبلاد الوقف وجعل يقبض منهم الأموال ، وحين كانوا على البحر (النيل) مرت بهم مراكب تحمل الميرة والدقيق إلى الفرنسيين بدمياط ، فقاطعوها عليهم وأخذوا منهم ما معهم قهراً ، وأحضروا المراكبية بالديوان خشكوا ما وقع لهم معه ، فأثبتوا خيانتهم مصطفى بك المذكور وعصيانهم وأرسلوا هجاءاً بإعلام ساري عسكرهم (نابليون) بذلك . فرجع إليهم بالجواب يأمرهم فيه بأن يرسلوا له عسكراً ويرسلوا إلى داره جماعة يقبضون عليه ويختمون على داره ويحبسون جماعته .

خطورة الثورة

كان لهذه الثورة خطرهما ، فقد ظهرت أول شرارة لها في الشرقية ، وامتد لها إلى وسط الدلتا بين بلاد أهلة ، بحيث كان من المحتمل أن يتسع مداها وتنقلب إلى حركة عامة تهدد الجيش الفرنسي في وقت انهماك نابليون في الحملة على سورية ، وكانت الشرقية مجردة في ذلك الحين من القوات الحربية الكافية ، لأن فرقة الجنرال (رينيه) التي كانت تحتلها من قبل دخلت في الفرق التي ساقها نابليون في حملته على سورية ولم يترك منها سوى فصيلة من الجنود بقيادة الضابط جوفروا Geoffroy^(١) وسوى الفصيلة الأخرى التي أوقدها الجنرال دوجا بقيادة دبرانتو لقمع ثورة بردين والزسكلون ، فلم يكن في الاستطاعة أن تقمع الثورة بهذا العدد الضئيل من الجنود .

عزل أمير الحج

أدرك الجنرال دوجا والمسيو بوسليح أن الحالة خطيرة وأن الثورة التي شبت في الشرقية قد تجرى إلى عواقب لا يستهان بها ، فاستخدما لمسكافئها كل ما أوتيا من مهارة وحزم ، وارتأى بوسليح أن يستعين بالديوان لتجريد مصطفى بك من إمارة الحج حتى

(١) هو ضابط من ضباط فرقة الهندسة وأخو جوفروا سان هيلير العالم الطبيعي الشهير أحد أعضاء المجتمع العلمي ، وقد مات في معركة استرلر سنة ١٨٠٥ وأسف عليه نابليون أسفا كبيراً

تسقط منزلته التي كانت له في النفوس من توليه اماره الحج ونقل كسوة الكعبة الشريفة ، وكانت هذه الكسوة لا تزال في مصر لدى وكيل مصطفى بك .

فاوض المسيو بوسليج في هذا الشأن الشيخ محمد المهدي سكرتير الديوان وصاحب النفوذ الأكبر بين أعضائه ، وعرض أمر عصيان مصطفى بك على الديوان ، فلم يستطع الديوان أمام البيئات التي قدمها الفرنسيون سوى تجريدته من اماره الحج ، وفي الوقت نفسه ألقي الأغا (محافظ المدينة) القبض على وكيل مصطفى بك الذي كان ناظر الكسوة وعلى ابن أخيه وباقي أتباعه وسجنوا بالجزيرة ، وتمت كل هذه الأحداث في يوم ٣٠ مارس سنة ١٧٩٩ ، وأعلن في اليوم التالي عزل مصطفى بك على أن تستمر مراسم الحج كما كانت

رواية الجبرتي

يقول الجبرتي في هذا الصدد :

« وفي يوم الأحد الرابع والعشرين من شهر شوال عينوا عسكرياً وأرسلوا إلى داره (دار مصطفى بك) جماعة ومعهم وكلاء فقبضوا على كتخداته (نائبه) الذي كان ناظراً على الكسوة وعلى ابن أخيه ومن معهم وأودعهم السجن بالجزيرة . وضبطوا موجوداته وما تركه مخدومه بكر باشا (الوالي التركي) بقائمة وأودعوا ذلك بالقلعة فوجدوا غالب أمتعة الباشا وبرقه وملابسه وعبي الخيل والسروج وغيرها شيئاً كثيراً ، ووجدوا بعض خيول وجمال أخذوها أيضاً ، فانتقبضت خواطر الناس لذلك ، فانهم كانوا مستأنسين بوجوده ووجود القاضي يتوسلون بشفاعتهما عند الفرنسيين وكتبتهما عندهم مقبولة وأوامرهما مسموعة ، ثم إنهم أرسلوا أماناً للباشا (أعضاء الديوان الذين تخلفوا في القرين) والوجاقلية والتجار بالحضور إلى مصر مكرمين ولا بأس عليهم » ، وقال في موضع آخر إنهم بعد أن سجنوا وكيل مصطفى بك الذي كان ناظراً على الكسوة عهدوا بإتمامها إلى السيد اسماعيل الوهي المعروف بالخشاب «أحد العدول بالحكمة» ، فنقلها لبيت أيوب جاويش بجوار جامع السيدة زينب وتمموها هناك ، وقال في ختام كلامه عن حوادث سنة ١٢١٣^(١) : « وانقضت

هذه السنة وما حصل بها من الحوادث التي لم يتفق مثلها ومن أعظمها انقطاع سفر الحج من مصر ولم يرسلوا الكسوة ولا الصرة وهذا لم يقع نظيره في هذه القرون ولا في دولة بني عثمان والأمر لله وحده .

إخماد الثورة

فلما نجح الجنرال دوجا والمسيو بوسليج في تجريد مصطفى بك من إمارة الحج أخذ دوجا يعد المعدات الحربية لقمع الثورة ، فكلف الجنرال لانوس Lanausse قومندان المتوفية بالمسير إلى الشرقية التي كانت منبع الهياج ، فقصده إليها على رأس قوة مؤلفة من ستائة جندي وتعقب مصطفى بك ، وعاونه في مهمته الكولونل ديرانتو والجنرال فوجيير Fugieres الذي كان مرابطاً بجنوده في سمنود ، وأخذوا يطاردون مصطفى بك في مختلف البلاد ، فلما آنس أنه لا قبل له على مقاومتهم زاغ من طريقهم وأخذ يفر من بلد إلى آخر حتى أفضى إلى الجهات الصحراوية بالشرقية ، فغاب فيها ولم يعلم الفرنسيون مقره ، ولم يلبث أن تشتت أنصاره وسقط نفوذه

قال الجبرتي في هذا الصدد إن مصطفى بك « لم تعلم عنه حقيقة حال ، قيل إنه ذهب إلى الشام » ، ويقول نيقولا الترك في كتابه (١) إنه لجأ إلى الجزائر فراه أمره وأمر بقتله

على أن الثورة قد تجددت في أواخر شهر مايو سنة ١٧٩٩ في القليوبية ومنطقة ميت غمر والبلاد المجاورة لها ، فاحتشد بها عدد كبير من الثوار وانضم اليهم جماعة من المماليك وهجموا يوم ٣٠ مايو على سفينة حربية فرنسية قادمة بالنيل من سمنود فاستولوا عليها وغنموا أربعة مدافع كانت بها وقتلوا نوتينها وخمسة من جنودها وجرحوا منهم اثنين .

معركة كفور نجم (٥ يونيه سنة ١٧٩٩)

تعطلت الملاحة في النيل تجاه ميت غمر ، فسارع الجنرال لانوس من منوف إلى ميت غمر لإخماد الثورة ، فانسحب الثوار منها قاصدين إلى كفور نجم ، فحققهم بجنوده ودارت معركة شديدة يوم ٥ يونيه سنة ١٧٩٩ بين الفريقين بالقرب من كفور نجم

(٢) ذكر تملك جمهور فرنساوبة الأنظار المصرية والبلاد الشامية .

على شاطئ بحر موسى انتهت بهزيمة الثوار وخسروا عدداً من القتلى قدرهم الجنرال لانوس بمائة وثلاثين قتيلاً (١)

ولما عاد نابليون من الحملة على سورية أمر بإقامة قلعة في ميت غمر وأخرى في المنصورة لحماية الملاحة في النيل ووقع الثورات في جهات البلدين (٢) ويقول الجنرال (رينيه) في كتابه (٣) إنه قد أقيم فعلاً بالمنصورة وميت غمر ومنوف حصون لحماية الملاحة ووقع الثورات

أخذ الجنرال لانوس يتنقل لإخماد الثورة ، ولما وصل إلى ميت غمر أراد أن يقتصر منها انتقاماً لما حل بالفرنسيين والسفن الفرنسية تجاهها ، فأمر بإحراقها وتدميرها « حتى لم يبق فيها حجر على حجر » كما يقول ريمو (٤) ، ثم سار في البلاد لقمع الهياج وإرهاب الأهالي ، على أنه لم يلبث أن علم بأن الثورة انتقلت إلى غرب الدلتا في مديرية البحيرة ، فاضطر أن يسوق جنوده إليها تاركاً بالشرقية كتيبة منها بقيادة الكولونل ديرانتو

الثورة في غرب الدلتا

كانت الأقاليم الواقعة غرب الدلتا (الإسكندرية ورشيد والبحيرة) مسرحاً للقلاقل والثورات ، فاستهدفت سلطة الفرنسيين فيها للهجمات الخارجية والاضطرابات الداخلية

أخذ الأسطول الإنجليزي من أوائل فبراير سنة ١٧٩٩ يطلق قنابل على مواقع الفرنسيين في الإسكندرية ورشيد ، واستمرت السفن الإنجليزية عدة أيام تضرب قلاع الإسكندرية ومواقع الفرنسيين في رأس التين والميناء الشرقية وما جاورها ، وخفت وطأة الضرب في أواخر شهر فبراير ولم ينقطع إلا في أوائل مارس إذ أقبلت السفن الإنجليزية إلى ميناء سورية لمقاومة الحملة الفرنسية هناك .

(١) رسالة الجنرال لانوس إلى الجنرال دوجا من المهاجرة بتاريخ ٦ يونيو سنة ١٧٩٩ .

(٢) رسالة نابليون إلى الجنرال سانسون بتاريخ ٢٢ يونيو سنة ١٧٩٩ .

(٣) مصر بعد واقعة عين شمس .

(٤) التاريخ العلى والحرب للحملة الفرنسية الجزء الخامس

وكذلك ظهرت السفن الإنجليزية قريبا من بوغاز رشيد وأطلقت قنابلها على البوغاز والجهات القريبة منه ، فكان لهذه الحوادث تأثير فى نفوس الأهالى حفزهم إلى الهياج ، وظهرت أعراض الثورة فى الإسكندرية ورشيد والبلاد المجاورة لها

كتب الجنرال (منو) Menou من رشيد إلى نابليون بتاريخ ٧ فبراير سنة ١٧٩٩ يقول : « إن ظهور السفن الإنجليزية قد أحدث شيئا من الهياج بين الشعب ، واستفاضت الإشاعات بقرب قدوم الأتراك » ، وكتب إليه فى رسالة أخرى بتاريخ ١٥ فبراير يقول : « قد بدأنا نشعر باختار فكرة الثورة فى البلاد المجاورة لرشيد ، وأخذ أهالى بعض القرى الثائرة يتهددون الملاحه فى النيل ، وقد هاجموا سفينة تحمل البريد فاضطرت أن تعود أدراجها ولا بد لنا أن نحميها بسفينة حربية لتستأنف سيرها »

واشتد الهياج فى منطقة رشيد وما حولها فى شهر مارس ، ذلك أن الجنرال (مارمون) قومندان الإسكندرية فرض سلفة إجبارية على مديرية رشيد موزعة على بلادها وقرائها وكفورها ، فدفعت مدينة رشيد قسطها فى السلفة ، ودفعت (قوة) ثلثى المفروض عليها ، وامتنعت باقى البلاد عن الدفع ، فجرد السكولونل جوليان^(١) Julien عليها حملة عسكرية مسلحة بالمدافع لإجبارها على دفع ما خصها فى الأتاوة ، وسمت الثورة جهات (برنبال) و (مطوبس) وكفر (شباس عمير) و (القنى) و (السعده)^(٢) وغيرها، فسارت الحملة من رشيد وأخذت تجوب بلاد هذه المديرية لإخماد الاضطرابات وتحصيل الأتاوات ، وشباس عمير هى التى قاومت الجنرال (منو) فى أوائل عهد الاحتلال الفرنسى^(٣) ، وكانت معقلا للثورة وملجأ للشوار من القرى المجاورة وموقعها على جانب من المتاعة وخاصة بعد أن رمم أهلها السور المحيط بها وأصلخوا الأبراج التى تتخلله ، فلم تستطع الحملة أن تستولى عليها وطلبت المدد من رشيد ، فأجدها السكولونل جوليان بفصيلة من الجنود وعادت القوة إلى قتالها وضربتها بالمدافع ، فهدمت البلدة عن آخرها وجلا أهلها عنها ، وانقلت القوة الفرنسية إلى

(١) عين حاكما لرشيد أثناء الحملة على سورية بدلا من الجنرال منو الذى عينه نابليون قومندان فلسطين لكنه لم يذهب لسورية كما سيجى بيانه بالفصل الحادى عشر .
(٢) هذه البلاد هى الآن فى مديرية الغربية وكانت فى ذلك الحين من أعمال مديرية رشيد وتقع (القنى) شرقى مطوبس و (السعده) جنوبى القنى بشرق . انظر الخريطة ص ٥٦
(٣) انظر الجزء الاول ص ٢٥٠ (من الطبعة الاولى) .

بلده السعدة فضربتها بالمدافع ونخرّب جزء منها وأخلاها أهلها ونجوا بمناعمهم ومواسمهم ، وكذلك أخلى أهل برنبال بلدتهم وأقفرت من السكان

الثورة في البحيرة

في أواخر شهر أبريل سنة ١٧٩٩ شبت في البحيرة ثورة أوسع مدى وأعظم



بین رشید و شبراخیت (تخطیط سنہ ۱۸۰۰)

خطراً من ثورة الشرقية ، ذلك أنه ظهر فيها رجل جاء من (درنه) ^(١) أدعى المهدي

(١) بطرايلس الغرب ،

ودعا الناس إلى قتال الفرنسيين ، فأقبلوا عليه أفواجا ، وضم إليه رجال القبائل من أولادعلى والهندى وغيرهم ، وإنحاز إليه سكان القرى التى مر بها ، فصار بهذه الجموع المسلحة حتى وصل إلى دمنهور ليلة ٢٤ — ٢٥ أبريل ، وكان بها حامية من الجنود الفرنسيين تحت قيادة الضابط مارتان Martin فأمر المهدي رجاله بالهجوم على هذه الحامية فهجموا عليها وقتلوا رجالها جميعا

أشار الجبرقى إلى هذه الحادثة بقوله : « ومن حوادث شهر (ذى القعدة سنة ١٢١٣ - أبريل سنة ١٧٩٩) أن طائفة من عرب البحيرة يقال لهم عرب الغز جاءوا وضربوا دمنهور وقتلوا عدة من الفرنسيين وعانوا في نواحي تلك البلاد حتى وصلوا إلى الرحمانية ورشيد ، وهم يقتلون من يجدونهم من الفرنسيين وغيرهم » .

كان لاتصار المهدي تأثير كبير في مديرية البحيرة فخرج إليه الناس من كل صوب وزاد عدد أتباعه وقوى اعتقاد الناس في قوته وخوارقه ، وسار برجاله قاصداً إلى النيل ليعبره إلى مديرية الغربية .

وكان بالبحيرة في ذلك الحين كتيبة طوافة من الجنود بقيادة الكولونل لفيفر Lefebvre تطوف بالبلاد لجباية الأموال ، فوصلت إلى دمنهور بعد قتل الحامية الفرنسية ورحيل المهدي ، ورأت من المخاطرة أن تتبعه ، فأسرعت إلى الرحمانية وامتنعت بالحصن الذى أقامه الفرنسيون في نقطة تفرع ترعة الإسكندرية (١) من النيل ، وانتظرت وصول المدد المهاجم المهدي ، ولما علم الجنرال (مارمون) قومندان الاسكندرية بنبا الكارثة التى حلت بالحامية الفرنسية بدمنهور أنفذ قوة من الجنود مزودة بالمدافع بقيادة الضابط ريدون Redon لتتبع جيش المهدي وتتصل بكتيبة الضابط لفيفر بالرحمانية

سارت القوة من الاسكندرية يوم ٢٧ أبريل ، والتقت برجال المهدي غير بعيد عن دمنهور قبل أن تصل إلى الرحمانية ، ودار قتال شديد بين الفريقين دام خمس ساعات انتهى بانسحاب ريدون إلى الاسكندرية ، فعهد الجنرال مارمون إلى الكولونل جوليان في إنقاذ الرحمانية بما لديه من الجنود والمدافع فأرسل المدد واستبقى في رشيد العدد الكافي لإخضاع المدينة .

(١) ترعة الحمودية الآن . انظر ما كتبناه عنها بالجزء الأول ص ١٧ (من الطبعة الأولى)

معركة سمنور

٣ مايو سنة ١٧٩٩

وصل المدد إلى الرحمانية وانضم إلى الجنود الذين بها ، وسارت القوات الفرنسية مجتمعة ، فالتقت برجال المهدي يوم ٣ مايو بسمنور البحيرة على مقربة من دمنور ، ودارت معركة من أشد المعارك هولا ، قال ريبو^(١) في وصفها إن عدد رجال المهدي كانوا خمسة عشر ألف مقاتل من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان ، وإن القتال استمر سبع ساعات كان فيها أشبه بمجزرة فظيعة ، وهذه الواقعة من أشد الوقائع التي واجهها الفرنسيون في القطر المصري ، أظهر فيها اتباع المهدي من الفلاحين والعرب شجاعة كبيرة واستخفافا بالموت لا نظير له ، وبذل السكولونل لفييفر أقصى ما أنتجه العلم والفن في القتال ، فجعل جيشه على شكل مربع على الطريقة التي ابتكرها نابليون وهجم على الجموع المقاتلة عشرين مرة ، فكان يحصد صفوفهم حصدا بئيران البنادق والمدافع ، وكان اتباع المهدي قد غنموا في دمنور مدفعا فرنسيا فاستخدموه في المعركة وركبوه على مركبة تجرها الثيران وأخذوا يطلقون منه النار على الفرنسيين ، واستمر القتال حتى جن الليل ، وكان الجنود الفرنسيون قد خارت قواهم من القتال ، ففكر لفييفر في الانسحاب من الميدان والاتجاه إلى الرحمانية ، ولكن جموع المهدي لكثرة عددها كانت تسد الطريق أمامه ، فأمر رجاله أن يضموا صفوفهم ويحترقوا الجموع التي طوقتهم وركب المدافع على رؤوس المربع لاحتحام هذه الجموع ، وانسحبوا من ميدان القتال بعد أن فدحتهم الخسائر ، ويقول « ريبو » إن الفرنسيين خسروا في هذه المعركة ستين قتيلًا بينما يقدر خسائر المصريين بألفي قتيل منهم إبراهيم الشوربجي وعبد الله باشي من مشايخ دمنور ومراد عبد الله شيخ قبيلة الهنادي ، وبالرغم من هذه الخسارة فإن المعركة انتهت بفوز المهدي وارتداد الفرنسيين إلى الرحمانية

وقد أغراء هذا الفوز الجديد بمواصلة القتال وضم إليه أنصارا وأتباعا آخرين سدوا الفراغ الذي أحدثته معركة سمنور ، فسار بجموعه قاصداً الرحمانية ، لكنه

(١) التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية الجزء الخامس

اضطر الارتداد عنها أمام مناعة موقع الفرنسيين فيها وعاد إلى دمنهور التي اتخذها معسكره العام

احتلال الفرنسيين دمنهور

وفي غضون ذلك عهد الجنرال دوجا إلى الجنرال لانوس Lanausse الذي كان يحارب أمير الحج أن يتجه بقواته إلى البحيرة لإخماد ثورة المهدي التي استفحل شأنها، فغادر ميت غمر يوم ٥ مايو سنة ١٧٩٩ وقصد إلى البحيرة ، وفي طريقه إليها ضم جنود الجنرال فوجيير Fugières الذي كان يرابط في الغربية ولما وصل إلى الرحمانية سار بقواته جميعها صوب دمنهور ، فهزم رجال المهدي ودخل دمنهور فاتحاً ، فأعمل فيها السيف والنار ودمرها جنوده تدميراً وحشياً وأبادوا من وجدوه فيها من السكان الأمنين

قال ريبو يصف هذه الفظائع : « بعد أن احتل الجنود دمنهور قتلوا من صادفوه من رجال المهدي جميعاً ، ولما كان أهل دمنهور هم أول من اتبع المهدي من سكان البحيرة فقد أراد الفرنسيون أن يطبعوا هذه المدينة بطابع الغضب والانتقام فأحرقوا مساكنها بالنار ، وقتلوا كل من وجده من الشيوخ والنساء والأطفال بحد السيف وفي اليوم التالي كانت دمنهور ركاما من الأحجار السوداء اختلطت بها أشلاء الجثث ودماء القتلى » (١)

وذكر الجنرال (لانوس) في رسالة بعث بها من الرحمانية إلى الجنرال دوجا شيئاً من الفظائع التي أمر بارتكابها في دمنهور قال : « كانت مدينة دمنهور وأهلها هدفاً للانتقام الجنود ، فقد قتلوا من الأهالي نحو ٢٠٠ أو ثلاثمائة ، وبعد ذلك أمرت بتسليم المدينة لفظائع النهب وسفك الدماء ، والآن لم يعد لدمنهور وجود ، وقد قتل من أهلها نحو ١٢٠٠ أو ١٥٠٠ ماتوا قتلاً أو حرقاً »

وقال الضابط (لفيفر) في رسالة له إلى الجنرال دوجا في ١٠ مايو : « لقد حاصرنا دمنهور وأحرقناها ونهبناها واستولى جنودنا فيها على غنائم وأسلاب عظيمة »

ويقول الجبرتي في هذا الصدد في حوادث شهر ذي الحجة سنة ١٢١٣ : تجمع الكثير من الفرنسيين وذهبوا إلى جهة دمنهور وفعّلوا بها مافعلوا في بني عدى^(١) من القتل والنهب لكونهم عصوا عليهم بسبب أنه ورد عليهم رجل مغربي يدعى المهدي ويدعو الناس ويحرضهم على الجهاد وصحبته نحو الثمانين نفرا فكان يكاتب أهل البلاد ويدعوهم إلى الجهاد ، فاجتمع عليه أهل البحيرة وغيرهم وحضروا إلى دمنهور وقاتلوا من بها من الفرنسيين ، واستمر أياما كثيرة تجتمع عليه أهالي تلك النواحي وتفرق والمغربي المذكور تارة يغرب وتارة يشرق »

تعقب الجنرال لانوس فلول المهدي ولحق بهم في حدود مديرية البحيرة واختلفت الروايات في خاتمة المهدي ، فقال بعضهم إنه قتل في هذا اليوم ، وقال البعض إنه ظهر بعد ذلك في ثورة القاهرة الثانية ، ويؤيد نابليون في مذكراته الرواية الأولى ويقول إن جثة المهدي وجدت بين القتلى في دمنهور

لكن الجنرال رينيه Reynier أحد قواد الحملة الفرنسية يقول في كتابه إن المهدي المذكور ويسميه (مولاى محمد) ظهر في ثورة القاهرة الثانية وكان يحرض الناس على القتال وإنه لحق بجيش الصدر الأعظم بعد إخفاق الثورة ثم عاد إلى مصر في أواخر سنة ١٨٠٠ عند اقتراب الحملة العثمانية الانجليزية على مصر لإثارة الأفكار فيها ، وإن الجنود الفرنسية طاردته في الدلتا فهرب إلى الصعيد ، وقد أشار الجبرتي في حوادث ثورة القاهرة الثانية إلى أمر هذا المهدي وذكر أنه « يقال أنه الذي كان يحارب الفرنسيين بجهة البحيرة سابقا » ، فرواية الجبرتي توافق رواية رينيه في مجموعها ، وتميل كثيرا إلى ترجيح رواية رينيه والجبرتي لأنهما شهدا ثورة القاهرة الثانية ، أما نابليون فقد غادر مصر في شهر أغسطس سنة ١٧٩٩ أى قبل وقوع هذه الثورة بعدة أشهر ، ومهما يكن من مصير المهدي فإن ثورته قد أخذت وتفرق أتباعه في القرى والبلاد وتحولت الثورة العامة إلى اضطرابات محلية قليلة الأهمية ، وتخلص الفرنسيون من خطر كبير كان يهدد سلطتهم فإن انتصارات المهدي الأولى أحدثت في النفوس تأثيرا كبيرا وانتشرت أنبأؤها مبالغيا فيها وذاعت في أنحاء البلاد من الوجه البحرى إلى الوجه القبلى ، وكان رؤساء الممالك مراد بك وحسن بك الجداوى وعثمان بك الطنبورجى وصالح بك لمسا علوا باحتلال المهدي دمنهور قد عزموا على اللحاق به وغادروا الواحة التي كانوا لاجئين إليها قاصدين إلى دمنهور ، فلما علوا ما حل به من الهزيمة عادوا لإدراجهم وانكشوا في الوجه القبلى .

(١) انظر ما كتبه عن ثورة بني عدى بالجزء الأول ص ٤٢٠ (من الطبعة الأولى)

الفصل الرابع

سياسة نابليون في مصر

بعد عودته من سورية

عاد نابليون إلى مصر بعد إخفاق الحملة على سورية ، وأراد أن يستريح بمته بدخوله القاهرة دخول الظافر المنتصر ليؤثر في نفسية الشعب ويشعره قوته ، ولكن هيمت أن يكون الوم وإلا وهما ، فإن الحقائق لا تلبث مع الزمن أن تنكشف وتتغلب على الأوهام والباطيل .

أحاط نابليون دخوله القاهرة بمظاهر النصر والظفر ، وفي ١٣ يونيه سنة ١٧٩٩ بدأت طلائع الجيش الفرنسي تدخل المدينة ومعها جماعة من الأسرى الأتراك ذوي المسكاة وعدة من الرايات التي غنمها الفرنسيون أثناء الحملة ، فاستقبلها على حدود القاهرة الجنرال دوجا والجنرال دستنج والمسيو بوسلج والأغا (المحافظ) وأعضاء الديوان وشقوا المدينة في موكب مهيب إلى ميدان الأزبكية ومنه إلى القلعة ليشاهد الجماهير الأسرى الأتراك والرايات العثمانية كدليل على فوز الفرنسيين ، قال الجبرتي في هذا الصدد في حوادث شهر محرم سنة ١٢١٤ (١) : « وفي يوم الثلاثاء حضر جماعة من العسكر بأئقاهم وحضرت مكاتبه من كبير الفرنسيات (نابليون) أنه وصل إلى الصالحية ، وأرسل دوجا الوكيل ونبه على الناس بالخروج للملاقاة بموجب ورقة حضرت من عنده يأمر بذلك »

وكان يوم الجمعة ١٤ يونيه (١٠ محرم سنة ١٢١٤) موعد دخول نابليون في جيشه إلى القاهرة ، فأعدت السلطة الفرنسية لاستقباله احتفالا كبيرا دعت إليه أعضاء الديوان والأعيان والوجاقلية وغيرهم . ففي صباح هذا اليوم قرعت طبول الحرب في أحياء المدينة وحضر قواد الجيش وكبار موظفي الحكومة وأعضاء الديوان وأعيان القاهرة إلى ميدان الأزبكية بدار القيادة العامة ، ومن هناك ساروا وعلى رأس هذا الجمع الجنرال

دوجا والجنرال دستنج والمسيو بوسليج إلى (القبة) لاستقبال نابليون خارج المدينة والدخول في موكنه الحافل ، فقابل جماعة المهنيين وأهداء الشيخ خليل البكرى جواداً مطمها يقوده المملوك رستم الذى اصطفاه نابليون واستصحبه من بعد فى رحيله إلى فرنسا وصار خادمه الأمين ولازمه فى عهد القنصلية والامبراطورية ، وأهداء المعلم جرجس الجوهري كبير المباشرين هجينين جميلين علمهما سرجان بديعان ، وبعد تلقى التهانى دخل القاهرة من (باب النصر) يتبعه الجيش بنظام عسكري مهيب ، فاخترق الموكب شوارع المدينة حتى وصل إلى ميدان الأزبكية بين قصف المدافع وقرع الطبول ، وكأنما أراد نابليون بهذه المظاهر العسكرية أن يثبت لسكان القاهرة كذب الإشاعات التى ذاعت عن القضاء على الجيش الفرنسى وموت نابليون نفسه فى سورية وأن يبرهن لهم أن الجيش ما زال فى قوته وعنفوانه .

روى الجبرتي أن الموكب استمر خمس ساعات متوالية يسير فى شوارع القاهرة إلى أن وصل إلى القيادة العامة فى الأزبكية .

ويقول المسيو جومار Jomard (١) إنه شهد هذا الموكب «ورأى مرور الجنود متواصلاً طول النهار لأن نابليون أمر بأن تدخل الجنود المدينة من باب وتخرج من باب آخر ثم تعود فتدخل المدينة ثانية من الباب الأول لتؤثر فى نفسية الشعب الذى كان يتحش بالفرنسيين أثناء حصار عكا » .

ولم يفتر الجبرتي ملاحظة ما حل بالجنود من الإعياء وما بدا عليهم من علائم الفشل وفى ذلك يقول : «وقد تغيرت ألوان العسكر القادمين واصفرت ألوانهم وقاسوا مشقة عظيمة من الحر والتعب وأقاموا على حصار عكا أربعة وستين يوماً حرباً مستقيماً ليلاً ونهاراً » .

ملشور أعضاء الديوان

وبعد أن استقر بنا بليون المقام فى القاهرة استكتب أعضاء الديوان منشوراً دعوا فيه الشعب إلى الإخلاد للسكينة ، وهو منشور طويل خلاصة ما احتواه إعلام الناس

(١) عضو المجمع العلمى المصرى انظر ما كتبناه عنه بالجزء الاول ص ١٢٦ (من الطابعة الاولى)

يرجع نابلون وأن رجوعه يكذب الإشاعات التي أذاعها المرجفون عنه وزعمهم أنه مات بسورية ، وتضمن ذكر بعض وقائع الحملة السورية مزورة مشوهة ، وأوضح السبب في عودة نابلون إلى مصر فزعم أن ذلك راجع أولاً إلى وعده قبل سفره « بالرجوع بعد أربعة أشهر والوعد عند الحردين ١١ » ، والسبب الثاني أنه بلغه « أن بعض المفسدين من المماليك والعربان يحركون في غيا به الفتن والشور في بعض الأقاليم والبلدان » فلما حضر سكنت الفتنة ونسكس الأشرار ، وختم المشور بتحذير الشعب عواقب الفتن والانتقاض ونوه بفضل نابلون في احترام القرآن والشعائر الإسلامية وإجراء خيرات الأوقات وعزمه « على إقامة مسجد عظيم لانظير له في الأقطار ودخوله في دين النبي المختار » وغير ذلك من التموهيات التي كان يذكرها في منشوراته تارة على لسانه وطوراً على لسان أعضاء الديوان دون أن يأبه لها أحد .

تغيير نظام القضاء

وانتخاب قاضى قضاة مصر

لما احتل الفرنسيون القاهرة في أوائل عهد الحملة اضطربت الأحوال في العاصمة وكان من نتائج ذلك الاضطراب أن أقفلت بعض المحاكم أبوابها واعتزل القضاة الحكم بين الناس ، ولما هدأت الأحوال نوعاً استأنف القضاة أعمالهم وأقر نابلون السابقين منهم في مناصبهم ، واستمر القضاء على نظامه القديم ، وبقي القضاة السابقون يتولون القضاء وعلى رأسهم القاضى التركى (قاضى قضاة مصر) المولى من قبل السلطان ، فلما خرج القاضى على السلطة الفرنسية أثناء الحملة على سورية وانضم إلى أمير الحج في ثورته (١) عزم نابلون على أن يحدث تغييراً حاسماً في نظام القضاء ، وكان الجنرال دوجا قد أقام ابن القاضى السابق « ملازاده » في مكان أبيه ، فلم يرد ذلك نابلون وأراد أن يقطع كل صلة بين مصر وتركيا ويجعل قاضى القضاة من علماء مصر ، فأمر في ٢٢ محرم سنة ١٢١٤ بالقبض على ملازاده واعتقاله وأبلغ أعضاء الديوان في اليوم التالى نبأ القبض عليه وعزله وطلب اليهم أن « يختاروا شيخاً من العلماء يكون من أهل مصر ومولوداً بها يتولى القضاء ويقضى بالأحكام الشرعية كما كان الملوك المصريون يولون

القضاة برأى العلماء (١) ، فلما قرئت رسالة نابليون بالديوان استاء الأعضاء من اعتقاله «ملازاده» وشفعوا له فى أن يطلق سراحه ، ودافعوا عنه بأنه إذا كان أبوه قد انضم إلى أمير الحج فلا يؤخذ هو بما أخطأ أبوه فقبل نابليون شفاعة العلماء غير أنه طلب إليهم أن ينتخبوا قاضيا غيره فجرى الانتخاب بطريقة نظامية واشترك فيه العلماء مع أعضاء الديوان فقال أغلبية الأصوات الشيخ أحمد العريشى الحنفى أحد علماء مصر فى ذلك العصر وأحد أعضاء الديوان ، قال المسيو فررييه Fouriet القوميدير الفرنسى لدى الديوان وقد حضر عمله الانتخاب إن الاصوات التى أعطيت فى الانتخاب بلغت ٣٣ صوتا نال منها الشيخ أحمد العريشى ١٦ صوتا ، ونال الشيخ مصطفى الجداوى خمسة ونال عالمان آخران كل منهما صوتا واحدا فولى الشيخ العريشى قضاء مصر بأغلبية آراء العلماء وكتب العلماء بذلك إلى نابليون فأمر بإقامة حفلة لتولية الشيخ أحمد العريشى قضاء مصر دعا إليها أعضاء الديوان العمومى والشيخ السادات (٢) وبعض العلماء والاعيان من غير أعضائه ، وخلع على القاضى الجديد خلعاً ثمينة وحفه بموكب حافل سار به إلى دار المحكمة الكبرى بين القصرين ثم أمر نابليون بالإفراج عن «ملازاده» لإجابة لطلب العلماء .

كانت هذه أول مرة ولى فيها قاضى القضاة بانتخاب علماء مصر ، ولا شك أن جعل منصب قضاء مصر بانتخاب العلماء هو خطوة كبرى فى سبيل تقدم النظام القضائى ، لأن حكومة الأستانة لم تكن ترسل إلى مصر سوى قضاة أكثرهم جهلاء لا يعرفون لغة البلاد و ليس لهم قدم راسخة فى العلم ولا فى القضاء ، فانتخاب قاضى القضاة من بين علماء البلاد من شأنه أن يرفع منزلة القضاء ، وهذا إلى أنه يكسب علماء مصر حقاً لم يكن لهم من قبل ، وقد أصدر نابليون أمراً آخر فى ٤ يولييه سنة ١٧٩٩ (٣) بتحديد رسوم التقاضى باثنين فى المائة من قيمة النزاع ، فانتخاب قاضى القضاة مضافاً إلى تحديد رسوم الدعاوى هو تطور فى إصلاح النظام القضائى فى مصر .

(١) الجبرتى الجزء الثالث ومراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٣١٧ المؤرخة ٢٦ يونية

سنة ١٧٩٩

(٢) لم يكن السادات من أعضاء الديوان وقد ذكرنا فى الجزء الأول ص ١٩٨ (من الطبعة الأولى) أنه رفض عضوية الديوان ولكن نابليون كان يجمله ويحترمه فأمر أن يدعى إلى الاحتفال انظر الوثيقة رقم ٤٢٢١ من مراسلات نابليون

(٣) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٢٥١

أراد نابليون أن يستغل هذا الإصلاح ليكسب قلوب الشعب ، فأصدر منشوراً بعث به إلى أعضاء الديوان أوضح فيه موقفه حيال القاضى التركى وابنه ، وسوغ عمله بقوله إنه لم يعزل القاضى واسكنه هرب من مصر وترك أهله وأولاده « وخان عهد المعروف والإحسان » وإن ابنه لا يصلح اتولية القضاء ولصغر سنه وعدم كفايته فأصبح مركز القاضى شاغراً ، ولذلك رأى اتباعا لروح القرآن أن « يعهد إلى العلماء اختيار القاضى من بينهم وأن الشيخ العريشى الذى نال اختياركم أصبح مثقلاً منصب القضاء ولا غرو فإن الخلفاء الذين كانوا يعملون بروح القرآن كانوا يتولون الخلافة بانتخاب جمهور المؤمنين^(١) » وأنه لم يعتقل ابن القاضى التركى إلا منعاً للفتن ، وصارح أعضاء الديوان فى منشوره بأن مظاهر الحكم العثمانى قد انقضت وبطلت ، وهذا المنشور من أهم الوثائق التى أوضح فيها نابليون سياسته فى مصر ورغبته فى التودد إلى المصريين^(٢)

وأرسل أيضاً إلى حكام المديريات يكلفهم أن يبلغوا دواوين الأقاليم نبأ انتخاب جمعية العلماء الشيخ العريشى لتولى قضاء مصر ، وأنه يذبحى أن يتلقى قضاء الأقاليم تقليد القضاء ، من قاضى القضاء ، قال فى هذا الصدد : « على حكام المديريات أن يفهموا أعيان البلاد بأن قد آن لإبطال الحكم العثمانى ذلك الحكم الذى هو أظلم من حكم المماليك وأنه مما ينافى روح القرآن إن يتولى القضاء فى مصر رجال من الأستانة لا يعرفون لغة البلاد ، وأن الأستانة لم تعرف الإسلام إلا بعد ثلاثة أو أربعة قرون من وفاة الرسول ، وأنه لو بعث الرسول من جديد فلا يختار الأستانة لرسالته بل يختار القاهرة تلك المدينة المقدسة على ضفاف النيل وأن الرئيس الدينى للإسلام هو صديقنا شريف مكة ، كما أن علماء القاهرة هم بلا منازع أعلم علماء الإسلام وأن القائد العام ينبغى أن يكون القضاء كلهم من أبناء مصر اللهم إلا أن يكونوا من أشرف مكة والمدينة^(٣) »

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٢٢٤

(٢) نشرنا نص هذا المنشور فى (قسم الوثائق التاريخية) وقد عربناه عن الأصل الفرنسى ونشرنا معه الصيغة الواردة فى الجبرتن لأنها الوثيقة التى نالت فى الديوان

(٣) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٢٣٨

عود إلى المجمع العلمي

تعطلت أعمال المجمع العلمي أثناء الحملة على سورية بسبب انصراف الافكار إلى حركات الحملة وانتظار نتائجها ولغياب جماعة من أقطاب المجمع الذين رافقوا الجيش الفرنسي في سورية أمثال (مونج) رئيس المجمع و (برتوليسه) و (كوستاز) والجنرال كافريلي (الذي مات تحت أسوار عكا) وغيرهم . فلما رجع نابليون إلى القاهرة استأنف عقد جلسات المجمع وعين بعض الأعضاء مكان الذين ماتوا في سورية أو نزحوا إلى فرنسا

وبدأ المجلس أعماله بالبحث في الوباء الذي فثك بالجنود أثناء الحملة وبيان أسبابه ومنشئه وتطوره ووسائل الوقاية منه ، وأبدى أعضاء المجمع نشاطاً في استئشاف أبحاثهم وأعمالهم ، وأخذ نابليون من جهته يستأنف أعمال الاستعمار في القاهرة ، فوجه نظره أولاً إلى إتمام بناء الحصون حتى يطمئن إلى إخضاع المدينة إذا شئت فيها نار الثورة

واستؤنفت الأعمال الصحية بنشاط ، واستؤنفت كذلك العمل في مصنع البارود بالروضة ، وشرع نابليون في تجديد ملابس الجنود واستعمل في ذلك منسوجات البلاد القطنية والأجواخ الواردة من خارجها فاكنتي الجيش إلى حد ما بموارد البلاد بفضل كفاية المسير كوتى والمسيو شامى^(١) وإدارة المسيو دور Daure مدير مهمات الجيش ، وهكذا أثبتت التجربة أن مصر تستطيع في أى وقت أن تسكتفي بمواردها الطبيعية.

خريطة مصر

كلف نابليون في الأشهر الأولى من الحملة الفرنسية بعض المهندسين الجغرافيين وضباط أركان الحرب ومهندسي الري والقناطر والجسور برسم خريطة تفصيلية عن أنحاء القطر المصري ، وعهد إلى المسيو (تستفيود) Testevuide كبير المهندسين الجغرافيين وضع خريطة عامة للقطر المصري واسكنه قتل في ثورة القاهرة الأولى .

(١) انظر ترجمتهما بالجزء الأول من ١٣٢ و ١٣٤ (من الطبعة الأولى)

فبطل العمل فى رسمها ، ولما عاد نابليون من سورية عزم على توحيد جهود المهندسين وضباط أركان الحرب فأصدر أمرا فى ٢٨ يونيه سنة ١٧٩٩^(١) بضم المهندسين الجغرافيين التابعين للجيش إلى هيئة أركان الحرب، وعين السكولونل جاكوتان Jacotin رئيساً للمهندسين الجغرافيين بدلا من تستيفود وعهد إلى رئاسة أركان الحرب وضع خريطة تفصيلية كبيرة للقطر المصرى ، فأخذ المهندسون وضباط أركان الحرب يعملون لها بنشاط ، ومن المهندسين الذين كانت لهم يد طولى فى تخطيطها جاكوتان وسميونيل Simonel وشوانى Schouani وجومار Jomard وكورابوف Corabeuf وجالوا Jallois ودفيليه Devilliers والمسيو لويير Le Père كبير مهندسى الرى

جمعت الرسوم والتخطيطات والبيانات اللازمة لهذه الخطة خلال الحملة الفرنسية ونقلها مهندسو الحملة معهم عند رحيلهم إلى فرنسا (فى شهر سبتمبر سنة ١٨٠١) وهناك أمر نابليون جماعة المهندسين بوضع الخطة التفصيلية لمصر . فتولى السكولونل جاكوتان رئاسة العمل واشترك فيه المهندسون والضباط الذين رسموا وخططوا حين كانوا فى مصر ، وتم وضع الخطة وإفراغها وقدمت إلى نابليون (وكان قنصلا أول) فى شهر أكتوبر سنة ١٨٠٣

١ اكتشاف الآثار المصرية القديمة

وألف نابليون لاجنتين للكشف عن آثار الفراعنة فى الصعيد ورسمها ودراستها ، فاللجنة الأولى برئاسة المسيو فوربيه سكرتير المجمع العلمى الدائم والثانية برئاسة المسيو كوستاز أحد مهندسى الحملة ، وكانت مهمتهما التنقيب عن آثار مصر القديمة فى الوجه القبلى إلى الشلالات ، وقد سبقهما فى تعرف آثار الصعيد المسيو فيفان دينون الذى رافق حملة الجنرال ديزيه والمهندسون جومار وجالوا ودفيليه

سافر أعضاء اللجنتين من القاهرة إلى الصعيد فى ٢٠ أغسطس سنة ١٧٩٩ ، أى بعد يومين من رحيل نابليون إلى الإسكندرية ، ونقبوا على الآثار المصرية وبذلوا جهوداً عظيمة فى اكتشافها ، فأزاحوا الستار عن عظمة مصر القديمة ، ودونوا

أبحاثهم في كتاب تخطيط مصر ، فكانت أعمالهم وأعمال أعضاء المجمع العلى هى الخالدة من آثار الحملة الفرنسية « واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .

الموقف السياسى

وتجدد القتال

شمل السكون الظاهر أنحاء القطرى المصرى فى منتصف شهر يونيه سنة ١٧٩٩ ، وكانت الظواهر تدل على هدوء الحالة واستقرارها ، فقد أخذت الثورات فى الوجه البحرى ، وانتهت المعارك العنيفة فى الوجه القبلى ، وتوطدت السكينة فى القاهرة ، سكن هذه الظواهر كانت تشبه السكون الذى يسبق العواصف ، فقد كانت الافكار فى غليان ، ونفسية الشعب متحفزة للهباج ، واللغة يزداد ويكثر ، والإشاعات عن اكفهرار الجو يتناقفها الناس فى أندية القاهرة وشوارعها وقمواتها ، ومن هناك تستطير إلى القرى والأرياف مكبرة مجسمة ، وكان نابليون يرقب هذه الحالة وهو عالم بأن هذا السكون الظاهر الذى شمل البلاد لم يكن إلا غشاء لا تلبث الحوادث أن تمرقه ، فهو يعلم أن انجلترا وتركيا نعدان المعدات لتجريد حملة كبيرة لإخراج الفرنسيين من مصر ، ويعلم أن سكون الشعب وتربسه لم يكن إلا إذعانا لحكم القوة المسلحة ، فإذا وهنت هذه القوة انفجرت الثورات وتجددت الاضطرابات كدأها وأشد ، وكانت الأنباء ترد من كل مصدر يحشد الجنود التركية فى رودس والنمور العثمانية لتبحر إلى سواحل مصر ، وفى الوقت نفسه كانت قوات تركية أخرى قتهاً للزحف على مصر من طريق برزخ السويس بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا ، وكان نابليون ياحظ تحفزاً من الأهالى للانتفاض ، وعلم أن دعاة الثورة يخوضون القرى والبلاد يستنفرون الناس للهباج .

وقد وقعت حوادث ومناوشات من زعماء الممالك فى تلك الفترة من الزمن ، فتحرك مراد بك من القيوم إلى وادى النطرون قاصداً شمال البحيرة متوقفاً أن يلتقى بالجنود التركية عند نزولها إلى البر ، وتحرك عثمان بك الشرقاوى قاصداً إلى برزخ السويس لملاقاة إبراهيم بك .

سكن نابليون لم يدع للحوادث أن تفاجئه ، بل أسرع فأعد لمقاومة الهجوم المنتظر

فعمد إلى تشتيت قوات مراد بك وعثمان بك وعهد إلى الجنرال (دستنج) والجنرال (مورا) منع مراد بك من التقدم إلى شمال البحيرة ، فخالا دونه ، ولم يلبث أن انقلب إلى الصعيد ، وهاجم الجنرال (لاجرانج) Lagrange عثمان بك في السبع آبار (١) فهزمه واستولى على معسكره .

وناط نابليون بالجنرال (كليبر) قيادة القوات والمواقع السكائنة على السواحل الشمالية ، من الاسكندرية إلى العريش ، واستأنف أعمال التحصين في الصالحية وبلبيس ودمياط ورأس البر وأبو قير والاسكندرية ، وجعل هذه المواقع صالحة للدفاع ، وكان الجنرال كليبر والجنرال مارمون قومندان الاسكندرية ما برحا يحصنان قلاع الإسكندرية وأبو قير من قبل ، فزاد نابليون في تحصينها وخاصة طابية العجمي غربى الإسكندرية وقلعة قايتباى وبرج السلسلة .

وكانت الحاميات العسكرية موزعة على الثغور والمواقع التى تعتبر مفاتيح البلاد فكان بقلعة العريش حامية من ستمائة جندى بقيادة الادجودانت جنرال كامبيس Cambis ، وبقطية حامية من ستمائة جندى بقيادة جونو Junot ، والجنرال ريذيه Reynier يتولى قيادة الجنود فى الشرقية ، والجنرال (منو) فى رشيد ، ولانوس فى المنوفية .

مقتل الجنرال دومارتان

توقع نابليون بشاقب نظره أن ترسو السفن العثمانية الآتية بالجنود على شواطئ (أبو قير) بين الإسكندرية ورشيد ، فأنفذ إليها الجنرال (دومارتان) قومندان المدفعية ليتعمد حالة الدفاع فى تلك الجهة .

غادر دومارتان القاهرة يوم ١٩ يونيه سنة ١٧٩٩ على سفينة مسلحة بالمدافع وعليها جماعة من الجنود ، وانحدرت السفينة ببطء وصعوبة لهبوط النيل ، فلما كانت بازاء طنوب والزعيرة (٢) هجم عليهم جمع من الأهالى المسلحين بالبنادق ودار قتال عنيف بين الفريقين قتل فيه عشرة من الفرنسيين وجرح أربعون ، وكان الجنرال

(١) غربى بحيرة (التماسح) شمالى السويس وتسمى (السبع آبار)

(٢) بلدتان بالمنوفية بالبر الشرقى لفرع رشيد (بمركز تلا الآن)

دومارتان ضمن الجرحى ، فنقل إلى رشيد ومات بها في يولية سنة ١٧٩٩ متأثراً من جراحه ، وعهد نابليون بعد مقتله إلى الجنرال سونجي Songis في قيادة المدفعية

نزول الجنود العثمانية في (أبو قير)

لم تكن استعدادات نابليون لملاقاة الحملة العثمانية على غير جدوى ، فقد أقيمت العمارة لتركية تجاه الإسكندرية يوم ١١ يولية سنة ١٧٩٩ متجه شمالاً بشرق قاصدة شواطئ (أبو قير) لإنزال الجيش العثماني الذي أنفذته تركيا بقيادة كوسه لي مصطفى باشا سر عسكر الروملي ، ثم وصلت إلى خليج (أبو قير) في اليوم التالي ، فأرسل الجنرال (مارمون) إلى نابليون بنبيه بالخبر ويُنظر ما يأمر به .

نزل الجنود العثمانية إلى شاطئ (أبو قير) يوم ١٤ يولية وكان عددهم في أول يوم عشرة آلاف مقاتل فحاصروا قلعة أبو قير^(١) وكانت الحامية الفرنسية ممنعة فيها بقيادة القومندان جودارد Godard .

رُكّن موقع القلعة في ذاته منيعاً لأنها قائمة على صخرة صعبة المثال في رأس شبه جزيرة (أبو قير) تحميها من الداخل استحکامات في مدخل شبه الجزيرة^(٢) فتحصن القومندان جودارد في المدخل وناط بالكابتن فيناش Vinache الدفاع عن القلعة

احتلال الأتراك قلعة (أبو قير)

بدأ حصار (أبو قير) يوم ١٥ يولية ، وكان هجوم العثمانيين شديداً فاحتلوا الاستحکامات وقتلوا الفرنسيين الذين دافعوا عنها وقتل من بينهم القومندان جودارد ثم احتلوا القرية ولم يبق أمامهم سوى القلعة ، فأثر الكابتن فيناش التسليم هو وجنوده فأسره العثمانيون ونقلوا على ظهر بارجة انجليزية من عمارة الكومودور السير مدني سميت الذي جاء صحبة العمارة التركية واحتل الأتراك القلعة يوم ١٧ يولية سنة ١٧٩٩

(١) هي القلعة القائمة إلى اليوم في نهاية شبه جزيرة أبو قير والمعروفة بطايبية البرج ، ولا تزال أبنيتها وأبوابها باقية إلى اليوم كما بنيت ، وبنائها على الراجح في عهد السلاطين البحرية
(٢) تقع قرية (أبو قير) بين الاستحکامات والقلعة

تعليمات نابليون

علم نابليون بهذه الحوادث، فأدرك خطورة الموقف، لكنه كعادته لم تبد عليه علامة الاضطراب وبادر إلى وضع خطة سريعة محكمة التدابير لمواجهة الحملة العثمانية

كان من مواهب نابليون التي أكتسبته النصر في ميادين القتال السرعة في وضع خطته الحربية ومفاجأة خصومه قبل أن يدع لهم الوقت الكافي لمباغتته، بهذه الميزة وبتلك العبقرية، قابل الحملة التركية عند نزولها بأبوقير، لقد هاله احتلال الانراك للقلعة لأنه كان يقدر أنها تستطيع المقاومة مدة طويلة لمناعة موقعها ومابها من المدافع ومعدات الدفاع وحسب أنها تعطل الجيش العثماني وتمتنع عليه طويلا ولم يخطر له قط أن تسقط في يد الانراك بهذه السرعة، على أنه مع ذلك لم يضطرب ولم يضيع الوقت ولم يتردد في وضع خطته الحاسمة، ففي ليلة واحدة رسم خطته وأصدر تعليماته وأرسل رسائله إلى قواده ليلتقوا به بالرحمانية حيث قرر جعلها قاعدة الهجوم على الجيش العثماني، فكلف الجنرال «مورا» بالتحرك من الجزيرة على قوة الفرسان والكشافه لتسكون بمثابة طلائع الجيش

وكلف الجنرال لان Lanne أن يعبر النيل ويسير بفرقة رأسا إلى الرحمانية وأمر بان يلحق به الجنرال رامبون Rampon بخنوده وينقل معه مدفعية الجيش، واستدعى الجنرال لانوس من المنوفيه، وأصدر تعليماته إلى الجنرال دينيه بالصعيد أن يعهد إلى الجنرال فريان Friant بتعقب مراد بك وأن يترك القوة والذخائر السكافية في قلعة قنا وقلعة القصير ويرسل نصف قوته من الفرسان إلى الرحمانية ويحجى إلى القاهرة ليتولى بالانفاق مع الجنرال دوجا إخضاعها في أثناء غياب الجيش عنها

وكلف الجنرال (دوجا) أن يظل بالقاهرة متأهبا للقتال وأن يرسل الكتائب الطوافة لاستطلاع حالة البلاد المجاورة للعاصمة وإمداد الحصون بالذخائر لتسكون على أهبة الدفاع، وأمر إذا جدت به الحوادث أن يتحصن في القلعة

وكلف الجنرال (رينيه) قومندان الشرقية أن يمد قلاع العريش وقطية والصالحية وبليس بالذخائر وأن يقمع بمن معه كل حركات الثورة والاضطرابات التي تقع في أنحاء المديرية ويقاوم كل هجوم محتمل للجنود العثمانية القادمة من سورية، ثم أمره في حالة

اشتداد الهجوم أن يمتنع بجنوده في القلاع وينثنى بالباقي إلى القاهرة ، وأن يكون على استعداد لإرسال قواته إلى الرحمانية ، وكلف الجنرال كليبر قومندان دمياط أن يتجه بجنوده صوب رشيد ليدافع عنها ويصد هجم العثمانيين إذا زحفوا عليها ، وأن يبق الحاميات السكافية لإخضاع الأهليين في مديرتي دمياط والمنصورة ، وكان الجنرال (منو) في ذلك الوقت متغيباً عن رشيد يكتشف جهات وادى النظرون ، فأمره نابليون بأن يعود لفوره إلى الرحمانية ليلتقى به بعد أن يترك بوادى النظرون حامية من الجنود لمنع مراد بك من التقدم شمالاً ، وهذه التعليمات استطاع نابليون أن يحشد جيشاً مؤلفاً من عشرين ألفاً من المشاة وثلاثة آلاف من الفرسان مزودين بالمدافع السكافية

أصدر نابليون هذه التعليمات وأرسلها إلى قواده ، وسار هو قاصداً الرحمانية فبلغها يوم ١٩ يولييه ، أى أنه أعد معداته ووصل إلى قاعدته الحربية بعد خمسة أيام من نزول الجنود العثمانية إلى (أبو قير) ، وهى سرعة ليس لها نظير فى تاريخ الحروب فى ذلك العصر

لم تكن القيادة التركية فى هذا الوقت رسمت أية خطة حربية لمواجهة الجيش الفرنسى . بل كانت جنودهم لا تزال ترسو إلى البر جماعات مفككة لا يربطها نظام ، وكأنما تمل الأتراك بنشوة الانتصار الأول فى احتلال قلعة (أبو قير) فلم يحسبوا حساباً للوقت ؛ ولم يقدرُوا قوة جيش نابليون ، وظلت الجيوش العثمانية تنزل إلى البر حتى بلغ عددهم ١٥٠٠٠ (١) مقاتل ، ولم يفكر مصطفى باشا فى احتلال الإسكندرية أو رشيد ليتخذها قاعدة عسكرية للزحف منها إلى داخل البلاد ، بل ظل جامداً فى شبه جزيرة أبو قير واكتفى بقطع المواصلات بين الإسكندرية ورشيد ، وكانت تنقصه قوة الفرسان والمدفعية ، كما كانت تعوزه السكفامة الحربية للقيادة ، فبقى فى موقف الانتظار والتردد لا يدري كيف يأخذ فى أمره ، وترك لنابليون الفرصة لمهاجمته قبل أن يرسم لنفسه أى خطة حربية

(١) أخذنا هذا الإحصاء عن رسالة الجنرال (برتية) رئيس أركان الحرب إلى الجنرال (دوجا) وهو لإحصاء رسمى عمل عقب الواقعة مباشرة فهو أقرب إلى الثقة ، وقدرهم الجنرال دوجا بهذا العدد فى رسالة إلى أعضاء الديوان بتاريخ ٢ ربيع الأول سنة ١٢١٤ ، لكن نابليون بقدرهم فى مذكراته بـ ١٨ ألفاً ، والظاهر أن فى إحصائه مبالغة .

فلما علم نابليون بجمود مصطفي باشا عزم على مهاجمة الجيش العثماني في شبه جزيرة (أبر قير)، واختار قرية بركة غطاس^(١) قاعدة ليمبدأ فيها الهجوم لأنها نقطة ارتكاز يسهل الوصول منها إلى الإسكندرية ورشيد وأبو قير، وكانت خطته أن يهجم من هذه النقطة جاعلا غاية حصر الجيش العثماني في شبه الجزيرة ومنع اتصاله بالإسكندرية ورشيد وداخلية البلاد، وعهد إلى الجنرال مارمون قومندان الإسكندرية بالاتصال بفرسان الجنرال مورا لاكتشاف موقع الأتراك من أبو قير، فقام الضابط بيكو Picot بهذه المهمة بسهولة تامة، لأن مصطفى باشا حشد جيشه في شبه الجزيرة حشداً دون أن يجعل له نقطا أمامية أو مخافر تمنع اكتشاف مواقعه

معركة أبو قير البرية

٢٥ يولييه سنة ١٧٩٩

علم نابليون بمواقع الجيش العثماني، فأمر جيشه بالانتقال من الرحمانية إلى بركة غطاس، فاستقر بها يوم ٢٣ يولييه، وفي ليلة ٢٤ يولييه انتقل الجيش من (بركة غطاس) وعسكر جزء منه في كفر سليم^(٢) والجزء الآخر في العكرية^(٣)، واتخذ نابليون الإسكندرية مقراً للقيادة العامة، فانتقل إليها في تلك الليلة.

لم يضيع نابليون وقتاً في الإسكندرية، فن ساعة وصوله إليها أنفذ الجنرال دستنج على رأس كتيبة من الجيش ليستطلع الجهات المجاورة التي تفصل بينه وبين أبو قير ويحتل آبار المياه ليرتوي منها الجنود، ثم أصدر أمره بالزحف، فأخذت فرق الجيش تنتقل إلى (البيضاء)، وواصلت السير على السد بين بحيرة أبو قير وترعة الإسكندرية، ثم انعطفت شرقاً متجهة إلى أبو قير، ووردت الأخبار من رشيد بقدم طلائع فرقة الجنرال كليبر قادمة من دمياط، فعهذ إليه بالتقدم ليسكون بمثابة احتياط للجيش المقاتل.

قضى نابليون يوم ٢٤ يولييه بالإسكندرية، وفي مساء هذا اليوم انتقل منها هو وأركان حربه وقوة الفرسان الذين كان يقودهم مورا، واتخذ معسكره على مسافة سبعة

(١) من بلاد مركز أبو حمس

(٢) و(٣) من بلاد مركز كفر الدوار.

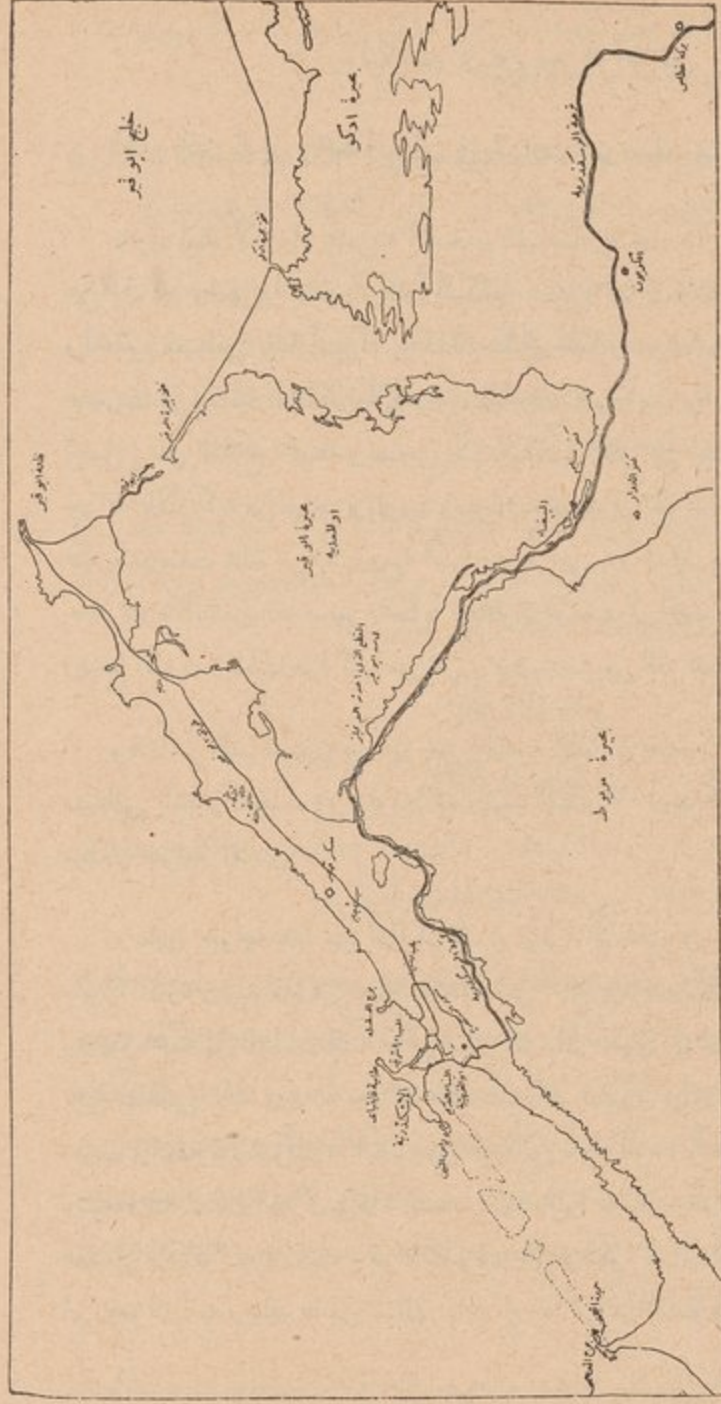
كيلومترات غربى أبو قير ، وقضى الليل يرتب مواقع جنوده استعداداً لخوض المعركة فى صباح اليوم التالى .

نشبت المعركة صبيحة يوم ٢٥ يولييه ، فهجم الجنرال مورا بفرسانه ومعه كتيبة من جنود الجنرال دستنج من القلب ، واندفع الجنرال لانوس من الميسرة ، والجنرال لان من الميمينه ، وفرقة الجنرال كليبر نواف الاحتياطى ، وكان هجوم الفرسان شديداً فى بدء المعركة ، فأحدث ثغرة فى صفوف الجيش العثمانى . واشتد القتال واستبسل الفرقيتان ، وهجم الجيش الفرنسى غير مرة على مواقع الجيش العثمانى ، فأصلاهم العثمانيون تاراً حامية من مدافعهم المركبة فى مواقعهم المنيعه ، ولكن الفرنسيين تفوقوا بتدبير قيادتهم وحسن نظامهم وإحكام هجومهم وكثرة عددهم ولا سيما الفرسان ، فتمكنوا من سحق خطى الدفاع للذين أقامهما الجيش العثمانى ، وفتسكوا بالجنود الذين كانوا يرابطون عليهما ، وبذلك بدأت هزيمة العثمانيين ، فالتجأ مصطفى باشا إلى قرية (أبو قير) ليستند إلى القلعة ، ولكن الجنرال مورا هجم بفرسانه وحال بين القرية والقلعة ، فحصر مصطفى باشا وجنوده فى قرية أبو قير ، وهجمت فرقة الجنرال لان على القرية ، وأقبل مورا بفرسانه مفتحاً معسكر مصطفى باشا فأخذه فى خيمته ، ووقع مصطفى باشا ورجاله فى أسر الجيش الفرنسى

كانت هزيمة العثمانيين فى هذه الموقعة أشبه بكارثة ، فقد فقدوا من القتلى والغرقى والجرحى نحو ثمانية آلاف ، وبلغ عدد الأسرى نحو ثلاثة آلاف ، وغنم الفرنسيون مدافع الجيش العثمانى وذخائره ، وفقد الفرنسيون ٢٥٠ قتيلًا ، وجرح منهم سبعائة وخمسون

حصار القلعة

انتهت معركة أبو قير بهزيمة الجيش العثمانى ، على أن القلعة ظلت تقاوم هجمات الفرنسيين . وامتنع بها نحو ثلاثة آلاف من الجنود العثمانية بقيادة ابن مصطفى باشا الذى أبى أن يسلم كما فعل أبوه ، فهددنا بليون إلى الجنرال لان Lanne فى حصار القلعة ثم جرح « لان » فى معارك الحصار ، فعين مكانه الجنرال منو وعاونوه الجنرال دافو ، واستمر الحصار قائماً والحرب مستمرة ، إلى أن نفذت ذخائر العثمانيين. فاحتل الفرنسيون القلعة يوم ٢ أغسطس



وترى في الخريطة بعض المواقع التي مر ذكرها ، كتقعة الإسكندرية (المحمدية الآن) ، والقطع الذي أحدثه الإنجليز في سد أبو قير بين بحيرة أبو قير وبحيرة مريوط (١٨٠١ سنة) وقري بركة (غفاس) والسكروبول وكفر سليم ، والبيضاء ، ثم موقع الإسكندرية وسورها والبناء الشرقية والبناء الغربية بحسب تخطيطهما في ذلك العهد ، ورأس التين وجزيرة العجمي وبرج العجمي ثم باب رشيد وولييه مسجد سيدى جابر ، ويلييه معسكر قنصر (قصر القياصرة) ، وبحيرة أبو قير وكانوا يسمونها المدينة ، وهي الآن أراض جافة زراعية وفتحها على البحر ، والجسر الذي كان يقبها طليان الأواج وكان يتهدما وبحيرة ادكو وفتحها وقير ذلك

رواية الجبرتي عن معركة أبو قير

أشار الجبرتي إلى واقعة أبو قير في حوادث شهر صفر سنة ١٢١٤ (١) بقوله :

« وفي ليلة الأربعاء عشرينه أسيح أن الفرنساوية تحاربوا مع العساكر الواردين على أبي قير وظهروا عليهم وقتلوا الكثير منهم ونهبوا وملكوا منهم قلعة أبي قير وأخذوا مصطفى باشا أسيراً . وكذلك عثمان خجا وغيرهما ، وأخبر الفرنسي أنه حضرت لهم مكاتبة بذلك من أكابرهم ، فلما طلع النهار ضربوا مدافع كثيرة من قلعة الجبل وباقي القلاع المحيطة وبصحن الأذربكية ، وعملوا في إيلتها أعنى ليلة الأربعاء حراسة بالأذربكية من نفوط وبارود وسوارينغ تصعد في الهواء ، وفي يوم الخميس ثامن عشرينه وصلت عدة مراكب وبها أسرى وجرحى ، وكذلك يوم الجمعة تاسع عشرينه حضرت مكاتبة من الفرنسيين بحكاية الحالة التي وقعت لم أقف على صورتها ، وفي ثاني ربيع الأول وصلت مراكب من بحري وفيها جرحى الفرنساوية »

وقد أسر الفرنسيون من بقى من الحامية العثمانية بقلعة (أبو قير) ، منهم نجل مصطفى باشا وكتخداه (وكيله) ومحمد رشيد افندي (٢) أحد كتاب الدewan الهليون وعثمان خوجه افندي

وعثمان خوجه هذا من المالكين الذين تولوا الأحكام في عهد مراد بك ، وكان متوليا إمارة رشيد من قبل صالح بك (أمير الحج عند قدوم الفرنسيين) وحج معه ورجع صحبته إلى الشام ، فلما توفي صالح بك سافر عثمان خوجه إلى الرومللى وحضر صحبة مصطفى باشا وجيشه ، وقد حقد عليه الفرنسيون وأنى نابليون اعباره أسير حرب واتهمه بالاشتراك في التحريض على الثورة في الوجه البحري ، فأمر بنقله إلى رشيد وقتله ، قال الجبرتي في هذا الصدد : « فدخلوا به البلد وهو مكشوف الرأس حافي القدمين وطافوا به في البلد يزفونه بطير لهم حتى وصلوا به إلى داره ، فقطعوا رأسه تحتها ثم رفعوا رأسه وعلقوها من شباك داره ليراها من يمر بالسوق » ، وكذلك عامل

(١) بولية سنة ١٢٩٩

(٢) الذي صار له شأن في مفاوضات الصلح كما سيجيء بيانه .

الفرنسيون مثل هذه المعاملة عثمان كخيا الشاويش حاكم برنبال ورفض نابليون اعتباره أسير حرب وأمر بضرب عنقه بالاسكندرية

وقد كافأ نابليون الجنرال (مورا) قائد الفرسان على ما أبداه من البسالة وما كان له من الفضل في فوز الفرنسيين ورفاهه إلى درجة قائد فرقة ، وكذلك الجنرال (لان)

وأمر بأن تسمى ثلاث فلاع من فلاع الاسكندرية بأسماء كريتان Crettin ، ودوفيفيه Duvivier ، ولتورك Leturcq ، تذكاراً لأوائل القواد الذين قتلوا في المعركة ، فأطلق اسم « كريتان » على قلعة كوم الدكة ، واسم « لتورك » على قلعة القمرية (غرى القبارية) ، وسميت قلعة الركبة باسم قلعه دوفيفيه

وتعد واقعه أبوقير البريه فوزاً كبيراً لنا بليون لأنها بمثابة فتح جديد لمصر ، كما كانت واقعة الأهرام من قبل ، وقد انتهج لها الفرنسيون ابتهاجاً عظيماً وطربوا لأخبارها وأقاموا الحفلات والزينات في القاهرة ثلاثة أيام متواليات .

حالة الافكار

في القاهرة والاقاليم

عاد نابليون الى القاهرة يوم ١١ أغسطس سنة ١٧٩٩ بعد أن غاب عنها زهاء عشرين يوماً هزماً في خلالها الجيش التركي بسرعة لا نظير لها في الحروب .

كانت القاهرة والاقاليم أثناء هذه المدة في سكون رهيب بعد أن ذاع خبر نزول الجنود العثمانية في (أبوقير) ، وعلمه الناس كافة ، وانصرفت قلوب الشعب تمنى هزيمة الفرنسيين وتوقع انكسارهم في ميدان القتال ، لكن القوة المساحة في القاهرة كانت كافية لقمع كل حركة تحدث فيها ، فضلاً عن أن ذوى الرأي وجمهور الاهالى لم يكونوا يعرفون على من تكون الهزيمة ، فلزم الاهالى الصمت والسكون . وكذلك فعل الفرنسيون المقيمون في القاهرة فأخذوا يرتقبون نتيجة القتال وقلوبهم واجفة ، لأن حياتهم كانت معلقة على انتصار الجيش الفرنسى في المعركة

وكان الفرنسيون قد بالغوا في كتمان خبر قدوم الحملة العثمانية ، وسافر نابليون قاصداً الرحمانية دون أن يعلم الناس السبب ، ولكنهم علموا بقدوم الجيش العثماني من المكائبات والرسائل التي وافى بها السعاة من الاسكندرية وأبوقير وفيها أخبار وجميعة العماراة العثمانية ،

فتناقل الناس هذه الاخبار بسرعة البرق وعلموا السر في سفر نابليون وجنده ، وكانت الاخبار تأتي مبالغاً فيها . فمن ذلك ما رواه الجبرتي في حوادث شهر صفر سنة ١٢١٤ « انه وردت اخبار وعدة مكاتيب لكثير من الاعيان وكلها نسق واحد تزيد عن المائة مضمونها أن المسلمين وعسكر العثمانيين ومن معهم ملكوا الاسكندرية ، فصار الناس يحكي بعضهم لبعض الخ ... » مع أن الجيش العثماني لم يقترب من الاسكندرية كما رأيت

ولما سار نابليون من الجزيرة بعث برسالة إلى أعضاء الديوان يوصيهم فيها بالمحافظة على الأمن وضبط البلد والرعية كما فعلوا في غيبته السابقة (أثناء الحملة على سورية) ، ولم يكتف بذلك بل بعث من الرحمانية برسالة طويلة إلى الديوان من رسائله التي كان يملؤها بالآوهام والمبارات الجوفاء ، ذكر فيها نبأ وصوله إلى الرحمانية وعفوه عن أهالي البحيرة ، وكأنما أراد أن يكتف عن أعضاء الديوان أن الحملة القادمة حملة عثمانية ، مع أن الخبر قد شاع وذاع بوصول الجنود الأتراك ، فذكر في رسالته وصول العمارة المقلدة للجند دون أن يعين جنسية المراكب ولا جنسية الجنود ، وزعم أن العمارة قصدت نهر الاسكندرية وأرادت النزول بها فصدتها قنابل المدافع ، ولم يكن هذا صحيحاً لأنه لم يحصل ضرب ولا قتال بنهر الاسكندرية بل اتجهت العمارة مباشرة صوب (أبوقير) لترسو هناك ، وقال إن السبب في قنوم هذه العمارة « الاجتماع بالمماليك العربان لأجل نهب البلاد وخراب القطر المصري وإن فيها خلقاً كثيراً من الموسكو والأفرنج » مع أنه لم يكن بها جنود من الموسكو (الروس) وقد ضرب على نفمة عداء الروس للمسلمين ليستميل قلوب الأهالي ، وأشار إلى أنه إذا كان بالعمارة جماعة من المسلمين - يقصد العثمانيين - فإنهم يكونون أعداء للإسلام ، وطلب في ختام رسالته من أعضاء الديوان أن يبلغوا هذه الرسالة إلى دواوين الأقاليم ليخمد الناس للهدوء والسكينة ، وحذرهم عواقب الهياج والثورة ، متوعداً كل بلدة ثور بأن يحل بها من القصاص ما حل بدمهور من الإحراق والتدمير

على أن هذه الرسالة لم تتخذ أحداً من الأهالي ، ولم يكن لتلك العبارات الجوفاء التي ملأ بها رسالته أثر ما في أذهان الناس ، وقد اعترض المسيو بوسليج مدير الشؤون المالية على هذه الخطة ونصح لنابليون قبل سفره أن يعدل عنها في رسالته للشعب ، وأوضح له أن هذه الأكاذيب لا يمكن أن تتخذ أحداً وأنها قد تتخذ دليلاً على ضعف الفرنسيين فتكون مدعاة إلى الثورة بدلاً من أن تكون وسيلة لمنعها ، ويقول

ريبو^(١) إن نابليون أوصى لملاحظات المسيو بوسليج وترك له قبل رحيله إلى الرحمانية أن يتخذ في غيابه خير الوسائل بالانفاق مع الديوان لمنع الهياج في العاصمة

استدعى المسيو بوسليج أعضاء الديوان وصارحهم بالأمر فقال لهم : إن الأنراك قد نزلوا في أبو قير ، وأنتم لاشك تعلمون ذلك ، وقد سافر نابليون لقتالهم ، ونحن لانعرف ولا أنتم تعرفون نتيجة المعركة ، ولكني أعتقد أنه في انتظار نتيجة القتال يحسن بسكان العاصمة أن يلزموا الهدوء والسكينة ، لأن النتيجة لانتخلو من واحد من أمرين ، فإما هزيمة للفرنسيين وعندئذ يحلون عن البلاد ، وإما نصر لهم وفي هذه الحالة تستهدف العاصمة لأشد أنواع الانتقام إذا شئت فيها الثورة

وقد أدرك أعضاء الديوان صواب هذا الرأي فأعلنوا أنهم لا يألون جهدا في النصيح للشعب بالإخلاء للسكينة

على أن الخواطر كانت في هياج أثناء القتال ، وبالرغم من أن السكينة كانت مخيمة على القاهرة فإن الشعب قاطبة كان يتظاهر بهواطفه العدائية نحو الفرنسيين ، وبدأت هذه العواطف حتى على أعضاء الديوان الذين كانت مرا كزهم تقتضى منهم بحاملة الفرنسيين وظهرت عليهم علامات الابتهاج عندما وصلت أخبار انتصار العثمانيين في بدء الحملة ، فقد وردت الأنباء باحتلال مصطفى باشا قلعة أبو قير وأسرحاميتها الفرنسية ، فلها تحققت هذه الأخبار كثر اللفظ بين الناس وتجاهروا بالبشر والابتهاج ، ولاحظ الفرنسيون في العاصمة تغير الحالة النفسية لأعضاء الديوان ، بعكس ما كانوا عليه أثناء غياب نابليون في الحملة على سورية ، واستمرت هذه الحالة إلى أن وردت الأنباء بانتصار الفرنسيين في المعركة وأسر القائد التركي مصطفى باشا ، فأطلقت المدافع من قلعة الجبل وباقي القلاع ابتهاجا بهذا النصر ، وكاد الناس لا يصدقون الحسبر لولا أن تواترت الروايات على صحته ، فقابل أعضاء الديوان النبأ بالفتور والإعراض ، وكانوا تبدو منهم من حين لآخر دلائل الروح العدائية للفرنسيين

فمن ذلك أنهم كانوا يعارضون الاغيا (محافظ المدينة^(٢)) في بعض تصرفاته ،

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء السادس

(٢) هو مصطفى أغا الذى عينه الفرنسيون بعد أن عزلوا المحافظ السابق محمد السامانى الذى كان معنا بإشارة أعضاء الديوان انظر الجزء الأول من ٣٠٢ (من الطبعة الاولى)

وكان معروفا عنه أنه نصير للفرنسيين ، قال الجبرتي في هذا الصدد : « إن الأغا كان يريد أن يقتل في كل يوم أناسا بأدنى سبب ، فكان المهدي والصاوي يعارضانه ويتكلمان معه في الديوان ويوبخانه ويخوفانه سوء العاقبة ، وهو يرسل إلى ساري عسكر (بونا بارت) فيطالعه بالأخبار ويشكو منهما »

وقد اشتد الخلاف بين الديوان والأغا حتى اضطر قومندان المدينة الفرنسي إلى التدخل بينهما ، واتهم الفرنسيون أعضاء الديوان بأنهم على اتصال بالجيش التركي ، ونقموا عليهم حالتهم النفسية

قال ريبو في هذا الصدد :

« في كل يوم كانت تقع حوادث تم عن تفسير مسلك الديوان حيال السلطة الفرنسية ، فتارة كان يتعدى اختصاصه ويقف على سلطة الهيئات الأخرى بحالة لا يمكن الصبر عليها ، وطورا كان ينازع رؤساء الشرطة سلطانهم ويشدد الخلاف لإخلاء سبيل بعض الأهلالي المذنبين ، وآونة كان ينقض الضرائب المفروضة على مشايخ البلاد ، وفي كل ظرف كانت تبدو على أعضائه روح جديدة مشربة بالعداء للفرنسيين وكان المسيو بوسليج يرقب بثاقب نظره هذه الأحوال ويطلع بها نابليون أثناء غيابه في معركة أبو قير ، فقد كتب إليه بتاريخ ٦ أغسطس سنة ١٧٩٩ يطمئنه عن الحالة في القاهرة ويقول إنه لاخوف من ثورة تكون بها ، لأن الرهبة تفشاها ، ولا يخشى إلا من وقوع هزيمة ، وكتب له عن مسلك كبار الأعيان وأعضاء الديوان فقال إنه راض عن سلوك السيد السادات ، وإن سلوك السيد عمر مكرم لا بأس به ، وإن السيد البكري متعيب وجل ، والباقون « خونة ومتعصبون » ، وقال عن الشيخ محمد المهدي « إنه رجل يطمع في الشهرة والتزلف للجماهير ، وإنه يضجى بجميع الفرنسيين في سبيل الاحتفاظ بمنزلته بين الناس ، ومع ذلك فإنه مثابر على مقابلتنا ^(١) »

وقد أورد الجبرتي في كتابه موقفاً للشيخ المهدي يتفق ورأى المسيو بوسليج عنه ، فقد كانت الخواطر في هياج أثناء غياب نابليون في أبو قير ، فانهم سكان القاهرة بالعمل على إثارة الفتنة ، واستدعى القائم مقام دوجا الشيخ المهدي وتكلم في

(١) مراسلات بوسليج وبونا بارت الواردة في ريبو الجزء السادس

شأن ذلك ، فحاجه المهدي وانهقد الديون في اليوم التالي « فقام الشيخ المهدي خطيبا وتمكلم كثيرا ونفى الريبة وكذب أقوال الخصوم واشتد في تبرئة المسلمين مما نسب إليهم »

قال الجبرتي : « وهذا المقام من مقاماته المحموده ، ثم جمعوا مشايخ الأخطاط والحارات وحبسوهم »

وهذا يدل على تخوف الفرنسيين من هياج الخواطر في العاصمة وتوقعهم حدوث الاضطرابات فيها ، ولولا ذلك لما لجأوا إلى اعتقال مشايخ الحارات والأخطاط

تلك كانت حالة الأفكار في القاهرة أثناء غياب نابليون عنها إلى أن رجع إليها

رجوع نابليون إلى القاهرة

جاء نابليون إلى القاهرة ونزل بدار الآفني بك بالازبكية ، وكان في ركابه جماعة من أسرى الجيش التركي ، ولما استقر به المقام علم من المسيو بوسليج تفصيل ما أجمله في رسائله من ظهور الروح العدائية على أعضاء الديوان والشعب ، فاستدعى الأعضاء ، واشتد عليهم في الكلام ، وأنجي باللائمة على المهدي والصاوي خاصة لمعارضتهم محافظ المدينة في أحكامه ، ذكر الجبرتي نصر الحديث الذي دار بينهم قال : « ولما استقر ساري عسكر بو نابرتة في منزله ذهب للسلام عليه المشايخ والأعيان وسلوا عليه ، فلما استقر بهم المجلس قال لهم على لسان الترجمان إن ساري عسكر يقول لكم إنه لما سافر إلى الشام كانت حالتكم طيبة في غيابه ، وأما في هذه المرة فليس كذلك لأنكم كنتم تظنون أن الفرنسيين لا يرجعون بل يموتون عن آخرهم فكنتم فرحين مستبشرين ، وكنتم تعارضون (الأغا) في أحكامه ، وأن المهدي والصاوي ما هم بونو^(١) أي ليسوا بطينيين وبحوذلك ، فلاطفوه حتى انجلي خاطره ، وأخذ يحدثهم عما وقع له من القادمين إلى أبي قير والنصر عليهم وغير ذلك »

(١) كذا في الجبرتي ، وكلمة (بونو) مأخوذة من الكلمة الفرنسية bon أي طيب وقد فسرها الجبرتي في سياق الكلام

ولما استفاض خبر حضور نابليون إلى القاهرة وبجيء الأسرى الأتراك ذهب الجماهير إلى الأزبكية ليتحققوا الخبر على جليته ، فشاهدوا الأسرى وهم وقوف في وسط الميدان يستعرضهم الناس ، ثم ساروا بهم في شوارع القاهرة ليؤثروا في نفسية الجماهير ويقنعوهم بفوز الفرنسيين في معركة أبوقير ، ووزعوا هؤلاء الأسرى على أماكن عدة . فأسكنوا بعضهم جامع الظاهر (قلعة سلكوسكى) ، وأصعدوا باقهم إلى قلعة الجبل ، أما مصطفى باشا قائد الجيش فانهم لم يأتوا به إلى مصر بل أرسلوه هو وابنته إلى الجيزة وأحسنوا معاملتهما ، وكان نابليون يريد أن يتخذ مصطفى باشا وسيطاً للصالح بينه وبين تركيا ، وأمر بإقامة الحفلات في القاهرة ابتهاجا بالنصر الذي ناله ، وعرض الجنود في شوارع العاصمة وميادينها ، وكانت الظواهر تدل على أن سلطة الفرنسيين أصبحت راسخة ودولتهم باقية

الفصل الخامس

اضطراب الأحوال في فرنسا

ورحيل نابليون

لكن الظواهر ما لبثت أن تبددت ، وبدأ الجو يكفهر ، والسماء تتلبد بالغيوم ، والانباء ترد من كل صوب باضطراب الأحوال وتجدد الأحداث

إن نابليون قد فاز بسحق الجيش العثماني في معركة أبوقير ، لكن تركيا كانت تحشد جيشا آخر في سورية بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا ، وجاءت الانباء بأن هذا الجيش قد تم استعداده وأن الصدر الأعظم قادم بعدد عظيم من المقاومة لفتح مصر من طريق برزخ السويس ، فلم يكن انتصار الفرنسيين في معركة أبوقير سوى هدنة وقتية سنحت للجيش الفرنسي ليستريح من عناء القتال وأهواله . فأخذ نابليون يستعد لصحيلة العثمانيين القادمة ، وثمت شواغل أخرى أقلقته باله وأقصت مضجعه . ذلك أن الجيش الفرنسي كان ينتظر من يوم لآخر أن تضع الحرب أوزارها أو يصله المدد من فرنسا . وكانت هذه الفكرة تبعث الصبر والامل في نفوس الجنود . وما فتى نابليون يحى هذا الامل في نفوسهم حتى لا يدع للسكلال واليأس سبيلا إلى قلوبهم . لذلك كان في شكره للجنود بعد معركة (أبوقير) يقول لهم في صراحة : « إن النصر الذي ناله الجيش سيعجل بعودته إلى فرنسا وها نحن أولاء قد وضعنا في يد الحكومة الفرصة التي تمكنها من إجبار إنجلترا غم انتصاراتها البحرية على عقد صلح شريف مع الجمهورية »

فنا نابليون إذن كان يعتمد على أن الحوادث في أوروبا تهيم السبيل لصاح مشرف لفرنسا وتضع حدا للحرب في مصر ، لكن الانباء التي تلقاها بعد معركة أبوقير قد أخلفت ظنونه وأوقعته في ارتباك كبير . لقد تلقى هذه الانباء عن طريق السير سميث قومندان الاسطول الانجليزي الذي جاء صحبة العمارة العثمانية . ذلك أنه بعد انتهاء المعركة أرسل نابليون اثنين من ضباطه لمقابلة السير سميث في شأن تبادل بعض الاسرى . فتلقاهما السير سميث على ظهر بارجته الحربية « نايجر » (النمر) . وناولهما في أثناء المقابلة بعض نسخ من الصحف الاوروبية الصادرة لغاية يونيه من تلك السنة . فلما تصفحها نابليون علم منها

أخبار انخزال الجيوش الفرنسية في النمسا وإيطاليا ، وأدرك خطورة الحالة في فرنسا ، وعلم أن لاسبيل إلى تلقي المدد لأن فرنسا نفسها كانت في خطر بسبب تألب الدول الأوروبية عليها ، ولعل السير سدي سميت تعتمد إيصال هذه الصحف إلى نابليون وقواد الجيش الفرنسي ليقطع عليهم كل أمل في انتظار المدد

علم نابليون من مطالعة الصحف أن فرنسا قد تخرج مركزها وتضعضت هيبتها في البلاد التي فتحتها من قبل ، فشبت الثورة في البيمونت وفقدت أملاكها في ألمانيا وإيطاليا ، واشتد السخط في فرنسا على حكومة الديركتوار ، وألقى الشعب على عاتقها تبعه هذه الهزائم المتوالية ، وأخذت انجلترا تشن الغارة في البحار على أملاك فرنسا وتمد حلفاءها بالعون والمساعدة ، فشددت الحصار على جزيرة (مالطة) ، وحاصرت الروسيةا بانفاقها وتركيا جزيرة (كورفو) ، وجلا عنها الفرنسيون ، فكانت فرنسا مهددة من الخارج والداخل ، كان الحلفاء يتوعدونها من الخارج ، والاضطراب الداخلي يهدد كيانها من الداخل ، تلك هي الحالة التي وقف نابليون على حقيقةها عقب انتصاره في معركة أبو قير

ولا جدال أن نابليون كان يعرف شيئاً من هذه الحالة إجمالاً من الرسائل التي كانت تصله بين حين وآخر من فرنسا ، لكن مراقبة الأسطول الانجليزي لشواطئ مصر كانت تحول دون وصول معظم رسائله إليه ، إذ كانت السفن الانجليزية تضبط كثيراً من الكتب المرسلة من فرنسا إلى مصر أو من مصر إلى فرنسا ، ولم يكن يخفى على فطنة نابليون أن الحالة في فرنسا قد اضطربت أثناء غيبته ، لكنه لم يكن واففاً على كل تلك التفاصيل التي قرأها في الصحف أو عرفها من سكرتير السير سدي سميت الذي قابل نابليون بالإسكندرية ، وعلم منه مبلغ ما وصلت إليه الأحوال في فرنسا من الاضطراب ، وبالرغم من أنه كتم عنه ما في نفسه من القلق والشعور بخطورة الحال إلا أنه أخذ يفكر ملياً في تدارك الخطر ، فاستقر رأيه على وجوب الرحيل إلى فرنسا لإنقاذها من الاخطار التي تهددها

كانت هذه الأفكار تساوره بين حين وآخر ، وما فتى منذ عدة أشهر يصرح في رسائله إلى الديركتوار بأنه لا يتردد في العودة إلى فرنسا في حالة وقوع حرب أوروبية فلما علم بحقيقة الموقف السياسي رأى الفرصة سانحة لتنفيذ فكرته القديمة ، والواقع

أن الظروف كانت تدعوه إلى الرجوع لفرنسا ، فقد صارت الجمهورية في خطر ، وأخذ نجمها الحربي الذي نالته بعد جهاد عدة سنوات في الأفول ، ورأى نابليون أنها في حاجة إلى رجل يعيد إليها هيبتها ويرد إليها أملاكها التي فقدتها ، ورأى من جهة أخرى أن إنقاذ فرنسا أهم بكثير من توطيد سلطتها في مصر ، وأن مصير فرنسا هو على شاطئ الرين لاعلى ضفاف النيل ، وأن أوروبا هي الميدان الذي يبت فيه في مصير الجمهورية الفرنسية ، ورأى برغم انتصاره في أبو قير أن آماله الكبيرة في إنشاء دولة شرقية عظيمة قد تبددت يوم أخفقت حملته على سورية وأصبح محصوراً في مصر ، وأن الأحوال تقضي أن يتجه إلى الغرب ، بعد أن فشلت آماله في الشرق

وكانت الأفكار في فرنسا متجهة نحو نابليون ، ناظرة إليه كمنقذ للبلاد من الأخطار المحدقة بها ، ورأت حكومة الديركتوار نفسها عاجزة عن تدارك الحال شاعرة بضعف مركزها أمام الرأي العام الفرنسي ، ففسكرت في استدعاء نابليون ، وكتبت إليه بتاريخ ٢٦ مايو سنة ١٧٩٩ تستدعيه إلى فرنسا ، على أن الرسالة التي بعثت بها إليه لم تبلغه لأن الإنجليز صادروها في البحر ، فلم يكن لها بطبيعة الحال تأثير في اعتزامه السفر إلى فرنسا ، لسكنها تدل في ذاتها على أن الأحوال كانت تؤيد فكرته ، وحسبك أن تتأمل عبارات الرسالة لتعرف مبلغ اضطراب الأحوال في فرنسا ، وإليك ما جاء فيها :

« إلى الجنرال بونا بارت القائد العام لجيش الشرق »

« إن الجهود الخارقة للعادة التي تبذلها فرنسا والروسيا ، والحالة الحرجة الخطيرة التي وصلت إليها ، تستدعي أن تجمع الجمهورية قواتها الحربية . لذلك أصدرت حكومة الديركتوار أوامرها للأميرال بروي Bruix ليتخذ كل الوسائل التي في مقدوره لتسكون له السيادة في البحر الأبيض المتوسط وليصل إلى مصر فيعود بالجيش الذي تحت قيادتك ، وهو مكلف أن يتفق معكم على الوسائل الواجب اتخاذها لنقل الجيش ولكم أن تقدروا يا مواطني الجنرال إذا كان مضمونا أن تتركوا بمصر فيلقاً من الجنود وحكومة الديركتوار تصرح لكم في هذه الحالة بأن تكلوا قيادة هذا الفيلق لمن تختارونه من القواد ، ويسرها أن تراكم على رأس جيوش الجمهورية التي توليتم إلى الآن قيادتها بكل جدارة وفخار » ، وقد وقع على هذه الرسالة رؤساء حكومة الديركتوار

الاستعداد للرحيل

استقر إذن عزم نابليون وهو فى الاسكندرية على الرحيل إلى فرنسا ، على أنه كتم عزمه حتى عن أقرب الناس إليه ، وأخذ يعد معدات الرحيل سرا ويصدر التعليمات ويرتب النظام الذى يتبع فى غيابه دون أن يعلم أحد من صدرت لإيهم أوامره بعزمه الذى أسره فى نفسه

وجسه نابليون عنايته إلى تحصين شواطئه مصر وبرزخ السويس لصد الهجمات المنتظرة ، فكلّف الجنرال (كليبر) العودة إلى دمياط ، والجنرال (رينييه) الرجوع إلى بلبيس ، وأمر بزيادة تحصين برزخ السويس ، وكلّف الجنرال (سانسون) Sanson تعهد أعمال التحصين وخاصة فى قلعتى العريش والصالحية ، وزاد فى تحصين الإسكندرية وأمر بترميم قلعة أبو قير التى خربتها المدافع أثناء المعركة

ولما عاد إلى القاهرة انتهر فرصة الأيام السبعة التى قضّاها بها قبل رحيله ليصدر تعليماته بشأن تنظيم الإدارة العليا للبلاد والقيادة العامة للجيش ، ولم يكن خافياً أن القاهرة كانت مركزاً للإدارة العليا كما كانت مقراً للقيادة العامة

ووجه نظره كذلك إلى الوجه القبلى ، فعين المواقع التى يجب التحصن فيها والحركات التى يقوم بها الجيش فى حالة هجوم العثمانيين من جهة السويس أو على شواطئه البحر الأحمر ، وأوصى الجنرال (ديزيه) فى هذه الحالة بإبقاء القوة السكافية فى القصير لمقاومة نزول أى حملة عسكرية وإبقاء قوة أخرى فى (فنا) للامتناع بها والتوجه بمعظم جيشه إلى القاهرة

وشرع نابليون منذ رجوعه إلى القاهرة يعد سراً معدات سفره دون أن يكشف أحداً حتى ولا الذين اختارهم ليرافقوه فى رحلته ، وكان محققاً فى تسكته ، لأن البوارج الإنجليزية كانت تمخر عباب البحر ، فلو ذاع خبر سفره لاتخذ الأسطول الإنجليزى الاحتياطات السكافية لرمده ، ولوقع أسيراً فى قبضة الإنجليز ، هذا فضلاً عن أن إعلان رحيله يحدث استياء فى نفوس الجنود وربما أدى إلى انتفاضهم وتمردهم فتضعف هيبة الجيش وتتحرك روح الثورة فى نفوس الشعب ، لذلك لم يبد عليه فى الأيام التى

قضاها في القاهرة ما يشير إلى اقتراب رحيله ، وصادف في هذه الفترة يوم المولد النبوى الشريف ١١ ربيع الاول سنة ١٢١٤ (١٣ أغسطس سنة ١٧٩٩) ، فاشترك في الاحتفال كما احتفل به في العام السابق ، وحضر الحفلة التي أقامها السيد خليل البكرى نقيب الاشراف يصحبه مصطفى باشا قائد الحملة العثمانية وباقي كبار الضباط الاترك الذين أسروا في معركة أبو قير ، ولم يعلم أحد من سكان القاهرة بأنه بعد أيام معدودات راحل عن مصر رحيلاً نهائياً ، وأصدر أمراً عسكرياً في ١٦ أغسطس بتكليف القواد في المديرية لإذاعة منشور باللغة العربية على البلاد والقرى لإبلاغ الشعب نبأ احتفاله بالمولد النبوى

قال الجبرتي عن هذا الاحتفال :

« وفي يوم الثلاثاء حادى عشر ربيع الاول سنة ١٢١٤ عمل المولد النبوى بالأزبكية ودعا الشيخ خليل البكرى سارى عسكر الكبير (نابليون) مع جماعة من أعيانهم وتعشوا عنده وضربوا ببركة (ميدان) الأزبكية مدافع وعملوا حرقاً وسواريج ونادوا في ذلك اليوم بالزينة وفتح الأسواق والدكاكين ليللاً وإسراج قناديل واصطناع مهرجان »

سفر نابليون من القاهرة

وارتحل نابليون عن القاهرة نهائياً يوم ١٨ أغسطس سنة ١٧٩٩ ، وأشاع أنه يقصد الذهاب إلى منوف بحجة التفتيش على أحوال البلاد

وفي ليلة سفره ترك رسالة باسم المسيو بوسليج مدير الشؤون المالية ينبئ فيها بأنه مسافر غداً إلى منوف ويوصيه ببذل الجهد في تحصيل الأموال المتأخرة ويطلب منه ان يكتب إليه في منوف ، كتب ذلك وهو يعلم انه ان يصله شيء في منوف لانه إنما اعتزم المضي إلى الإسكندرية ، لكنه أراد أن يبالغ في كتمان رحيله إلى فرنسا حتى عمن كانوا موضع ثقته

وكتب رسالة إلى الديوان يقول فيها :

« إني مسافر غداً إلى منوف ، ومن هناك أذهب إلى بعض بلاد الدلتا لأتحقق بنفسى المظالم التي يشكو منها الناس ، وأتعرف حالة الأهالي والبلاد ، وإني أوصيكم

بضبط الأمن والمحافظة على طمأنينة الشعب ، قولوا لهم إنى أحب المسلمين وأعمل على إسماعدهم ، وعرفوهم إنى قادر على حكم الناس إما بالرضا وإما بالقوة ، فبالرضا أكتب الأصدقاء ، وبالقوة أسحق الأعداء ، وأرجو أن تكتبوا لى دائماً عن أخباركم وأن تطلعوا نى على ما يجرى »

وهكذا اتخذ نابليون كل الوسائل ليسكنم عن الناس مشروع رحيله إلى فرنسا ، واصطحب معه فى سفره من القاهرة الجنرالات (برتنيه) و (لان) و (مورا) ، و (اندريوسى) والعالمين (موج) و (برتوليه) والمسيو (فيغان ديثون) و ٢٥٠ من حرس القائد العام بقيادة قائد اللواء بيسيير^(١) Bessières

وتدل رواية الجبرقى على مبلغ تسكنم نابليون مشروع سفره إلى فرنسا ، قال فى حوادث ربيع الاول سنة ١٢١٤ (أغسطس سنة ١٧٩٩)

« أشيع أن كبير الفرنسيين سافر إلى جهة بحرى ولم يعلم أحد أى جهة يريد ، وسئل بعض أكابرهم فأخبر أن سارى عسكر المنوفية (الجزائر لانوس) دعاه لضيافته بمنوف حين كان متوجهاً إلى ناحية ابوقير ووعده بالعودة إليه بعد وصوله إلى مصر ، وراج ذلك على الناس وظنوا صحته ، ولما كان يوم الاثنين سادس عشر ربيع الاول^(٢) خرج مسافراً آخر الليل وخفى امره على الناس »

عرض الصلح على تركيا

قبل أن يغادر نابليون القاهرة عزم على مفاطحة تركيا فى إنهاء حالة الحرب بينها وبين فرنسا وعقد الصلح ، واتخذ انتصاره فى معركة أبوقير فرصة لطلب صلح مشرف ، وكان مصطفى باشا قائد الجيش العثمانى الذى وقع أسير فى هذه المعركة مقيماً فى الجزيرة يعامل معاملة احترام ، فسكفه نابليون أن يبلغ الصدر الأعظم رسالة مطولة يعرض فيها الصلح على تركيا فأرسلها مصطفى باشا وصحبه محمد رشيد أفندى أحد كتّاب الديوان الهيايوتى الذى كان أسيراً معه ، وهذه الرسالة مؤرخة ١٧ أغسطس سنة ١٧٩٩ ، أعرب فيها نابليون عن مقاصد فرنسا الودية نحو تركيا وذكر الصدر الأعظم بصداقة فرنسا القديمة للباب للعالمى وعداء روسيا والنمسا

(١) هو الذى صادر الدوق ديستري Duc d'Istrie فى عهد امبراطورية نابليون

(٢) يوافق ١٨ أغسطس سنة ١٨٩٩ وهذا يطابق ما ذكرته المراجع الفرنسية

لتركيا وسعيهما المتواصل من قديم الزمن في القضاء على السلطنة العثمانية ، وأوضح أن فرنسا باحتلالها مصر لم تكن ترمى إلى نيات عدائية نحو تركيا . وأنها إنما كانت تحارب المماليك ولم تكن تقصد إلى فصل مصر عن تركيا ، وكانت غايتها السياسية من الحملة محاربة إنجلترا في الهند وأنها كانت من بدء الحملة تحترم حقوق السلطان ورعاياه وسفنه وأعلامه ، وأبدى نابليون أسفه من تعجل تركيا في إعلان الحرب على فرنسا في الوقت الذي أرسلت فيه حكومة الديركتوار سفيرها ديكورش^(١) إلى الاستانة لتسوية كل خلاف بين البلدين ، ولم يفت بونا بارت في رسالته أن يشير إلى قوته الحربية وأنه قادر على صد كل هجوم على مصر ، ولسكنه يؤثر الإبقاء على الصداقة التي تربط فرنسا وتركيا من قديم الزمن وعرض الصلح على الباب العالي ، وطلب في رسالته من الصدر الأعظم أن يفوض لسفيره في باريس المفاوضة في قواعد الصلح أو يوفد مندوبا إلى مصر لهذا الغرض ، ثم سافر نابليون دون أن ينتظر نتيجة هذا السعي في الصلح وقد أرسل كذلك من قبل إلى بعض الملوك والأمراء الشرقيين كسلطان مراكش وحاكم طرابلس وشریف مكة وأمراء دارفور وسنار والحبشه رسائل ودية تتضمن الدعوة إلى توطيد علاقات المودة معهم .

من القاهرة إلى الإسكندرية

وصل نابليون إلى منوف في طريقه إلى الإسكندرية ، فتلقى رسالة من الجنرال (كليبير) ينبئه فيها بأن أربعا وعشرين سفينة عثمانية ظهرت بالقرب من دمياط وأنه يتوقع نزول الجنود التركيبة إلى البر ، فتردد نابليون أمام هذا النبا في أى الطريق يسلكه ، ولسكنه بعد أن فكر مليا اعتقد أن هذه السفن لا بد أن تكون جزءا من العمارة العثمانية التي كانت تقل جنود مصطفى باشا في أبو قير ، وأنها تقل الجنود الذين نجوا من المعركة فلم يحسب لهم حسابا ولم يتوجس من جانبهم خطرا وقد كان حسابه صحيحا ، وكتب إلى الجنرال كليبير يدعو إلى موافاته في رشيد وحدد له يوم ٢٤ أغسطس للمقابلة وقال له في الرسالة : « إن لدى مسائل غاية في الأهمية يجب أن أبحثك فيها »

(١) كان السكرتير (روفين) هو القائم بأعمال السفارة الفرنسية بالاستانة من عهد وفاة سفيرها الجنرال دوباييه Dubayet ، ثم عينت الحكومة الفرنسية السفير ديكورش في سبتمبر سنة ١٧٩٨ وهو الذى يشير إليه نابليون في رسالته إلى الصدر الأعظم وكان على أهبة السفر للاستانة ، لسكن تركيا أعلنت الحرب على فرنسا فمدل عن السفر

والواقع أن نابليون كان قد استقر رأيه على اختيار كليبر ليخلفه في قيادته الجيش وكان يريد الاجتماع به قبل إقلاعه إلى فرنسا ليفضى إليه بآرائه ويصدر إليه تعليماته لسن الظروف حالت دون هذا الاجتماع وذلك أن نابليون تلقى رساله مستعجلة من الكونت راميال جانتوم^(١) Ganteaume بالاسكندرية ينبئه فيها بأن جميع السفن والبوارج التركية والانجليزية قد أفلعت منذ ١٤ أغسطس من مياه الاسكندرية وأن السفن الكشفية الفرنسية قد تجولت في البحر فلم تر أثر أسفن الانجليز والأتراك على بعد عدة أميال ، فأدرك نابليون في الحال أن مثل هذه الفرصة قد لا تسنح في المستقبل القريب وأنه ان تأخر عن السفر فقد تعود السفن الانجليزية إلى شواطئ الاسكندرية فتشدد الحصار عليها ورأى ضرورة الإسراع بالسفر للاسكندرية ليركب البحر في أقرب فرصة فاضطر في هذه الحال إلى العدول عن مقابلة الجنرال كليبر في الموعد الذي حدد له وسار توأ إلى الاسكندرية ولم يدخلها حتى لا يلتفت إلى سفره الأنظار بل نزل بالمكان الذي كان معروفا بقصر القياصرة^(٢) على شاطئ البحر وقضى الوقت في انتظار السفن وهناك وافاه الجنرال (منو) ليفضى إليه بتعليماته الأخيرة فأخبره بعزمه على السفر إلى فرنسا وذكر له الأسباب التي دعت إلى ذلك ، وأنه عين الجنرال كليبر ليخلفه في قيادة جيش الشرق وسلمة عدة رسائل ، منها رسالة للديوان ، وأخرى إلى الجنود والثالثة وهي الأهم للجنرال كليبر ، وثلاث رسائل للجنرال دوجا والمسيو بوسليج والجنرال جونو .

رسالة نابليون إلى الديوان

ذكر الجبرتي مضمون هذه الرسالة بقوله :

« في ٢٨ ربيع الأول سنة ١٢١٤ ورد من بونا بارتة ساري عسكر الفرنسية كتاب من الاسكندرية خطابا لأهل مصر وسكانها فاحضر قائممقام (دوجا) الرؤساء المصريين وقرأ عليهم الكتاب ومضمونه أنه سافر يوم الجمعة حادى عشر من الشهر المذكور إلى بلاد الفرنسية لأجل راحة أهل مصر وتسليك البحر فيغيب نحو ثلاثة أشهر ويقدم مع عساكره فإنه بلغه خروج عمارتهم ليصفوله ملك مصر ويقطع دابر المفسدين

(١) هو رئيس أركان حرب العمارة الفرنسية وقد عهد إليه نابليون بقيادة البقية الباقية منها بعد معركة أبوقير البحرية (مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٦٢٤)
(٢) موضعه الآن بين سيدى جابر وعطلة مصطفى باشا برمل الاسكندرية

وأن المولى على أهل مصر وعلى رئاسة فرنساويه جميعاً كليبر سارى عسكر دمياط»
قال الجبرتي: «فتحير الناس وتعجبوا في كيفية سفره ونزوله البحر مع وجود
مراكب الانجليز ووقوفهم بالشعر ورصدهم فرنساويه من وقت قدومههم الديار المصرية
صيفاً وشتاء ولكيفية خلاصه وذهابه أنباء وحيل لم أقف على حقيقتها»

وقد رجعنا إلى المصادر الفرنسية فوجدنا رساله نابليون إلى الديوان بنصها الفرنسي
تتفق في معناها مع الخلاصة التي نشرها الجبرتي، وقد أثرنا نقل خلاصة انجبرتي لأنها هي
التي تليت في الديوان دون الاصل الفرنسي ولأنها لا تختلف عنه في مجموعها، والرسالة كما
ترى كلها تضليل وإنكار للحقائق فلا عمارة ننظره، ولا هو ذاهب لفرنسا لأجل
راحة أهل مصر ولا هو قادم مع عساكره ولا هو عازم على العودة إلى الديار المصرية.

رسالته إلى الجيش

أما رسالته إلى الجيش فهذا تعريفها :
« المعسكر العام بالإسكندرية في ٥ فركتيدور من السنة السابعة للجمهورية
(٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩)

« أيها الجنود ، إن الاخبار الواردة من أوروبا تحتم على السفر لفرنسا وقد تركت
قيادة الجيش للجنرال كليبر ، وسيتلقى الجيش قريباً أخباري ، ولا أستطيع أن أقول
أكثر من ذلك ، يعز عليّ أن أفارق الجنود الذين ارتبطت بهم بأوثق الروابط ، لكن
هذا الفراق ليس إلا وقتياً ، والقائد الذي تركته لهم حائز لنظام ثقة الحكومة وثقتي
بونا بارت (١) »

رسالته إلى الجنرال كليبر

عن الحالة في مصر

أما رسالته إلى الجنرال كليبر ، فهي وثيقة على جانب عظيم من الأهمية ، كتبها
بإمعان وتفكير ، وصف فيها حالة مصر السياسية وصفاً دقيقاً ، وشرح فيها الخطّة

التي عهد الى كليبر باتباعها ، وهى رسالة مطوثة (١) أشبه بتقرير واف ، لذلك رأينا ان نعرها مع شيء من الشرح والبيان

ذكر في مقدمة الرسالة أنه ترك للجنرال كليبر أمرا بإسناد القيادة العامة إليه وأنه عجل بالسفر بحرا قبل الموعد الذى كان حدده لمقابلته يومين أو ثلاثة تفاديا من عودة السفن الانجليزية إلى الشواطئ ، قبل سفره ، وأنه اصطحب معه القواد (برتنيه) و (لان) و (مورا) و (اندريوسى) و (مارمون) والعالمين (مونج) و (برتوليه) ، وترك له مجموعة الصحف الاوروبية التي تتضمن ماحل بفرنسا من الاحداث والتفكبات ، كضباع إيطاليا وحصار (مانتو) و (نورينو) و (وتورتون) (٢) ، وأن هذه الاسباب قد دعت إلى أوروبا وأنه يأمل أن تستمر مانتو على المقاومة لغاية نوفمبر وأن يصل هو إلى أوروبا قبل أول أكتوبر ، وترك له بياننا بالشفرة ليرسل الحكومة وبياننا آخر لمراسلته وعهد إليه أن يكلف الجنرال (ديزيه) بالسفر إلى فرنسا في شهر نوفمبر مالم تحل دون سفره موانع قهرية وأن يسهل على أعضاء لجنه العلوم والفنون الرحيل بعد أن يتموا مهمتهم التي يؤدونها في الصعيد وهى التنقيب على الآثار القديمة ، وان يستبقى منهم من يرى ضرورة الانتفاع بهم ، وكلفه أن يوفد الافندى (٣) الذى اسر في واقعة أبو قير برسائله التي كتبها إلى الصدر الاعظم في عرض الصلح على تركيا .

وأراد نابليون أن يبعث في نفس كليبر الأمل في إمكان وصول المدد إليه ، فقال في رسالته إن وصول الأسطول الفرنسى من ميناء (برست) الواقعة على الاقياانوس الأعظم إلى طولون (بالبحر الأبيض المتوسط) ووصول أسطول اسبانيا حليفة فرنسا في ذلك الحين إلى قرطاجنة ، كل ذلك لا يدع شكاً في إمكان إرسال الذخائر والمدد من فرنسا إلى مصر بطريق البحر ، ووعد به بأن تبلغه الحكومة مقاصدها وأن يمدد هو بالرسائل والأخبار

(١) واردة في مراسلات نابليون وثيقة رقم ٤٣٧٤

(٢) من المدن الإيطالية

(٣) يريد رشيد أفندى أحد كتاب الديوان الهابونى الذى أسر مع مصطفى باشا في واقعة

أبو قير البرية

رأى نابليون في الجلاء عن مصر

على أن نابليون كان مدركا خرج موقف الجنرال كليبر . فأجازله في رسالته بأن يتفاوض مع تركيا في عقد الصلح ، وأوضح آراءه عن موقف مصر السياسى وموقف فرنسا حيالها ، قال : فإذا حالت ظروف قهرية دون إمدادكم ، وحل شهر مايو المقبل (سنة ١٨٠٠) دون أن تتلقوا المدد من فرنسا أو يصلحكم نبأ منها ، واستمر الطاعون هذا العام يفتك بالجنود رغم الاحتياطات الصحية وزادت ضحاياها على ١٥٠٠ جندي ، فعليك في هذه الحالة ألا تنغم بالجيش في الحرب والقتال ، ولك أن تعقد الصلح مع تركيا ولو كان شرطه الأساسى الجلاء عن مصر ، واسكن في هذه الحالة يجب بقدر المستطاع تأجيل تنفيذ هذا الشرط إلى أن يعقد الصلح العام ، إنك تقدر مثلى أهمية امتلاك فرنسا للديار المصرية ، وتعلم أن السلطنة العثمانية التى تهددها الفناء من كل جانب قد أخذت تنهار دعائمها وتتفكك أوصالها ، فجلأونا عن مصر يكون نكبة ، وسندرك عظم هذه النكبة عندما نرى هذه البلاد الجميلة تحتلها دولة أوروبية أخرى ، ولا بد أن يدخل في حسابك أثناء مفاوضات الصلح أنباء انتصارات الجمهورية في ميادين القتال أو هزائمها ، فإذا لبي الباب العالى دعوة الصلح التى وجهتها إليه ودخلتم في مفاوضات الصلح قبل أن تأتسكم أنباء فرنسا فعليكم أن تصرحوا بأن لديكم السلطة التى كانت فى إجراء المفاوضات وأن زيدوا وجهة النظر التى أبديتها فى دعوة الصلح وأن فرنسا لم تكن تقصد فى أى وقت أن تزاع مصر من السلطنة العثمانية ، وعليكم أن تطلبوا من تركيا أن تخرج من التحالف الانجليزى وأن تجعل لنا حرية الملاحة والتجارة فى البحر الأسود وتطلق سراح الفرنسيين المسجونين فى بلادها وأن تعقد هدنة ستة أشهر يوقف فيها القتال ويجرى فيها تبادل التصديق على معاهدة الصلح ، وإذا رأيتم أن الظروف تقضى بإبرام تلك المعاهدة مع الباب العالى فعليكم أن تبرهنوا أن ليس فى مقدوركم تنفيذ المعاهدة قبل التصديق عليها ، وأنه يجب عقد هدنة بعد إمضاء المعاهدة ريثما يتم التصديق عليها »

رأيه فى حالة مصر الداخلية

ثم تكلم نابليون عن حالة مصر الداخلية ومعالجة الشعب المصرى ، فنصح كليبر بأن يستميل إليه العلماء . قال فى هذا الصدد :

« إن من يكسب ثقة كبار المشايخ فى القاهرة يضمن ثقة الشعب المصرى ، وليس بين رؤساء هذا الشعب من هم أقل خطراً من مشايخه ، لأنهم قوم هيابون لم يألفوا

خوض غمار القتال ، على أنهم رمز للنصب ولو أنهم ليسوا متعصبين ، فهم من هذه الوجهة يشبهون القسس »

حصون مصر

ونوه في رسالته باستحكامات مصر وقال عن مواقع الإسكندرية والعريش إنها مفاتيح البلاد المصرية وإنه كان عازماً على أن يقيم في الشتاء المقبل استحكامات وخطوطاً محصنة من جنود النخيل بحيث يكون بين الصالحية وقطية خطان من الاستحكامات ، وبين قطية والعريش خطان آخران ، وأوصى الجنرال كليبر بالاعتماد على الجنرال (سانسون) قائد فرقه الهندسة والجنرال (سونجي) قومندان المدفعية في إقامة الاستحكامات والاعمال الداخلة في اختصاص كل منهما ، وأوصاه ببناء حصن في البرلس لان البوارج الانجليزية لا يفتوتها أن تقترب من شواطئ الإسكندرية والبرلس ودمياط

الإدارة المالية ومشروعات أخرى

وأوصاه بالاعتماد على المسيو بوسليج في إدارة الشؤون المالية وقال عنه : « إنى عرفت فيه رجل عمل وكفاية جديراً بأن يقدر قدره وقد بدأ يعرف حقائق الامور في فوضى الادارة المصرية »

ونصحه بالتريث والاناة في إصلاح نظام الضرائب وتحصيلها في مصر ، وتعرض في رسالته إلى مشروعات استعمارية ومساائل ثانوية لم يفته التفكير فيها في تلك الاوقات العصبية ، فأوصاه باعتقال خمسمائة أوستمئة من المماليك أو من رهائن العرب ومشايخ البلاد (العمد) وارسالهم إلى فرنسا في حالة استئناف المواصلات البحرية ليقبواها سنة أوستنتين ، وغاية نابليون من ذلك « أن يروا عظمة الأمة الفرنسية ويطبقوا عاداتنا وأخلاقنا وأفكارنا ولغتنا ويعودوا إلى مصر فينشروا هذه المقننات بين مواطنيهم »

ثم وعد الجنرال كليبر بأن يرسل له فرقة من الممثلين كان قد أوصى عليها من قبل « لتسد حاجة الجيش ولتألف البلاد شيئاً جديداً من العادات الغربية »

ختم الرسالة

وختم رسالته بكلمات مؤثرة أراد أن يكسب بها قلب الجنرال كليبر ويرغبه في المهمة التي ألقاها على عاتقه ، قال :

« إن المركز الرئيسى الكبير الذى مشغله سيتيسح لك أن تستخدم مواهبك التى حببتك بها الطبيعة ، فإن مايقع فى مصر سيكون له نتائج عظيمة المدى فى تقدم التجارة وارتفاع المدنية والحضارة ، وسيكون هذا العصر مصدراً للانقلابات الكبيرة . أما أنا فأتى أغادر مصر والأسف يملأ قلبى ، على أنى ما تعودت أن أنتظر الجزاء الأوفى على مناعى وجهودى فى الحياة إلا فى حكم الأجيال المقبلة ، وإن مصلحة الوطن ، ومجده ، وواجب الطاعة لثداته ، والحوادث المحزنة التى وقعت أخيراً ، كل ذلك يلجئنى إلى أن أغامر بنفسى وسط أساطيل الأعداء لأصل إلى أوروبا ، على أنى سأكون معك بقلبي وفكرى ، وستكون انتصاراتك عزيزة فى نفسى أبتهج بها كما لو كانت لى ، وسأعد من أيام النحس كل يوم لا أعمل فيه شيئاً لمصلحة الجيش الذى تركت لك قيادته ولا أبذل فيه جهداً لتوطيد البناء الذى أقيمت قواعده

« إن الجيش الذى عهدت إليك بقيادته مؤلف كله من جنودهم أبناء لى ، وقد شعرت فى كل لحظة حتى أوقات المحن بدلائل تعلقهم بى ، فلتدم هذه العواطف لك ، ولتعمل على توكيدها ، فهذا واجبك حيال مالك فى نفسى من المحبة والاحترام وما بينى وبينهم^(١) من الروابط التى لا انفصام لها « بونا بارت »

بهذه العبارات الرقيقة ختم نابليون رسالته إلى كليبر ، ثم أوردف هذه الرسالة بأمر عسكري واجب الطاعة هذا نصه :

« أمر إلى الجنرال كليبر بأن يتولى القيادة العامة لجيش الشرق بناء على استدعاء الحكومة لإياى لا كون بجانها « بونا بارت »

(١) قوله (وبينهم) يطابق الأصل الفرنسى الوارد فى مراسلات نابليون ، أما الصيغة الواردة فى كتاب (ريبو) الجزء السادس ففيها (وبينك) أى أن الخطاب هنا لكليبر ، ولسكننا اعتمادنا الأصل الوارد فى مراسلات نابليون لأنه أحق بالثقة

أما رسائل نابليون إلى الجنرال دوجا والمسيو بوسليمج والجنرال جونو فلا تخرج عن إنباثهم بسفره واستخلافه الجنرال كليبر في قيادة الجيش

سلم نابليون هذه الرسائل إلى الجنرال (منو) وكلفه توصيل كل رسالة إلى من كتبت له ، على أنه أوصاه ألا يذيع أمر سفره ولا يبعث برسائله إلى الديوان إلا بعد ثمان واربعين ساعة من إقلاع السفن المقلّة له ورفاقه ، وعين الجنرال (منو) قومنداناً للاسكندرية ورشيد والبحيرة

إقلاع السفن

كانت السفن المعدة لسفر نابليون ورفاقه على أهبة الإقلاع ، ففي ٢٢ أغسطس في منتصف الساعة العاشرة ليلاً ركب نابليون السفينة لامويرون La Muiron التي كانت راسية بالقرب من برج السلسلة بطرف الميناء الشرقية وتولى قيادتها السكوتر اميرال جانتوم وأبحرت السفن الأربع^(١) قاصدة شواطئ فرنسا ، وكان رفاق نابليون في تلك الرحلة هم بورين Bourienne سكرتيره الخاص ، ومن القواد برنييه Berthier رئيس أركان حربه واندريوسى Andreossi ومورا Murat ولان Lanne ومارمون Marmont وهم صفوة المخلصين له

ومن أعضاء المجمع العلمى مونج Monge وبرتوليه Berthollet ودينون Denon وبرسيغال دى جرانميرون ، ومن الياوران لافاليت Lavalette وديروك Duroc وبوهارنية Beauharnais (صهره) ومرلين Merlin ولويليه L'Huilier ومونتيسى Montessy

وظلت السفن تمخر عباب البحر المتوسط والخاف تسكتنفها مدة ثمانية واربعين يوما ، إلى ان رست في خليج فريجوس Frejus جنوبي فرنسا يوم ٩ أكتوبر سنة ١٧٩٩^(٢) ، فنزل إلى البر الرجل العظيم الذى كانت تنتظره فرنسا لتسلم إليه مقاليدها

(١) سفينتان حربيتان من نوع الفرقاطة وسفينتان كشافتان

(٢) اعتمدنا في هذا التاريخ على ماورد في مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة ٢٨٣ ، فقد ورد فيها أن رسو السفن يوم (١٧ فاندميز) من السنة الثامنة وهذا بوافق ٩ أكتوبر سنة ١٧٩٩

الاحتفال بوفاء النيل

بعد سفر نابليون

وجرى الاحتفال بوفاء النيل في تلك السنة (أغسطس سنة ١٧٩٩ - ربيع الأول سنة ١٢١٤) بعد سفر نابليون كالمعاد ، ورأس الاحتفال الجنرال دوجا ، ولم يلاحظ أحد غياب نابليون لأن دوجا كان مدروفا بأنه «القائم مقام» ، وكتب الشيخ أحمد العريشى قاضى قضاة مصر حجة الوفاء ، وقد ترجم علماء الحملة الفرنسية هذه الوثيقة إلى لغتهم ونشرت في كتاب تخطيط مصر^(١) Description de L-Egypte وهى لا تخرج عن حجة وفاء النيل التى تحرر كل سنة إلى اليوم ، وقد تضمنت بيان أسماء العلماء والأعيان الذين جرى الاحتفال بحضورهم ، وإليك اسماءهم بترتيب ذكرهم فى الحجة : الشيخ أحمد العريشى قاضى قضاة مصر ، السيد خليل البكرى الصديقى ، الشيخ عبد الله الشرفاوى ، الشيخ محمد الحفناوى^(٢) الشهير بالممدى ، الشيخ مصطفى الصاوى ، الأمير مصطفى أغا عبد الرحمن أغا الانكشارية (محافظ القاهرة) ، الحاج أحمد العقاد الشهير بالمحروقى كبير التجار ، الأمير حسن أغا المحتسب ، الأمير على أغا الشعراوى والى الشرطة ، الأمير يوسف شوربجى باشجاويش التفكجية ، الأمير يوسف شوربجى باشجاويش الهجانة ، الأمير مصطفى أغا باش اخنيار وجاق المتفرقة^(٣) ، الأمير مصطفى أفندى عاصى كاتب أول وجاق المتفرقة ، الأمير إبراهيم كخيا عزبان ، إسماعيل أفندى كاتب الأحوال .

وأضافت الحجة إلى من ذكرتهم بالاسم « وبحضور جمهور كبير عدا هؤلاء من الأعيان ذوى المسكاة والاعتبار بمن لا يتسع المقام لذكرهم » .

وذكر فى الحجة أن الاحتفال جرى بحضور الجنرال دوجا قائممقام القاهرة ، وإليك خلاصة ما ذكره الجبرقى فى هذا الصدد :

(١) الجزء الخامس عشر

(٢) كذا فى كتاب تخطيط مصر ، والصواب الحفى

(٣) باش اختيار هو أقدم ضباط الوجاق (الفرقة) انظر الجزء الأولى ص ١٣ من الطبعة الأولى

« وفي يوم الاثنين رابع عشر بنه (١) الموافق لتاسع مسرى القبطى كان وفاء النيل المبارك فنودى بوفائه على العادة ، وأكثرت الفرنسيس فى تلك الليلة وصباحها من رمى المدافع والسوارىخ من المراكب والسواحل وباتوا يضربون أنواع الطبول والمزامير ، وفى الصباح ركب دوجا قائممقام وصحبته أكابر الفرنسيس وأكابر أهل مصر ، وحضروا إلى قصر السد وجلسوا به واصطففت العساكر بين الروضة وبر مصر القديمة بأسلحتهم وطبولهم وبعضهم فى المراكب لضرب المدافع المتتالية إلى أن انعكس السد وجرى الماء فى الخليج فانصرفوا » .

والتاريخ الذى أورده الجبرتى عن وفاء النيل يختلف عن كتاب تخطيط مصر ، فالجبرتى يقول إن وفاء النيل كان يوم الاثنين ٢٤ ربيع الأول الموافق ٩ مسرى ، لكن حجة الوفاء المترجمة فى كتاب تخطيط مصر تتضمن أنه يوم الجمعة ٢١ ربيع الأول الموافق ١٩ أمشير ، ويلوح لنا أن رواية الجبرتى أحق بالثقة ، فقد رجعنا إلى كتاب (التوقيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنيين الافرنجية والقبطية) لمؤلفه اللواء المصرى محمد مختار باشا فوجدناه قد أثبت أن وفاء النيل سنة ١٢١٤ هجرية كان يوم ٩ مسرى ، وهذا يؤيد رواية الجبرتى ، وأغلب الظن أنه وقع تحريف فى ترجمة حجة الوفاء الواردة بكتاب تخطيط مصر .

(١) ربيع الأول سنة ١٢١٤ الموافق ٢٦ أغسطس سنة ١٧٩٩

الفصل السادس

قيادة الجنرال كليبر

إن الرجل الذي ألقى إليه مقاليد القيادة العامة لجيش فرنسا في مصر واحتمل تبعه مواجهة الشعب المصري ومعالجة الحالة السياسية والحربية في البلاد ، هذا الرجل جدير بأن نذكر شيئاً عنه وعن شخصيته .

شخصية كليبر

ولد الجنرال كليبر في مدينة (ستراسبورج) عاصمة الألزاس سنة ١٧٥٣ ، فهو الألزاسي المولد والنشأة ، ظهرت مواهبه الحربية في حروب الثورة الفرنسية وخاصة في ميادين القتال في (شامبانيا) و (الفانديه) وفي معارك (شارلوا) و (فلوروس) و (ما يسترليك) وغيرها ، وهو معدود من خيرة قواد الجيش الفرنسي وأكفهم ، وله في نفوس الجنود والضباط وقواد الجيش منزلة كبيرة لما اتصف به من الصراحة والشجاعة والإقدام ، إلى ما امتاز به من النزاهة وعلو النفس ، وكان من خاصة أصدقاء نابليون الذي كان يقدر فيه صفاته العسكرية العالية ، وقد اجتمعا في ميادين القتال فارتبطا بأوثق صلات المودة ، وهبطا مصر صديقين حميمين ، غير أن علاقتهما قد اعتراها في عهد من الزمن شيء من الفتور والجفاء ، ويرجع ذلك إلى ما اتصف به كليبر من الأنفة والشمم ، فكان من بين قواد الحملة الفرنسية القائد الوحيد الذي عارض نابليون في بعض أفكاره ومواقفه ، ولم يكن معارضته بل صارح بها قواد الجيش وضباطه .

الجفاء بين كليبر ونابليون

ظهرت هذه المعارضة حينما كان كليبر قومنداناً للاسكندرية ، فكان يعترض على بعض أوامر نابليون ، مما أدى إلى حنقه واستيائه . وتبادل القائدان رسائل في العتاب تجملت فيها نفس كليبر العالية التي لا تحتل الضيم ولا تقيم على الذل . فهو كما

قدمنا (١) لم يرفائدة في إنفاق المال على إحياء البحرية الفرنسية بعد أن اندثرت في واقعة « أبو قير ». وكان يعتقد أن موارد الجيش محدودة وحاجاته كثيرة ومهما أنفق من المال على البحرية فهو عبث ضائع لأن السفن الباقية من العارة الفرنسية لا يمكن مهما زادت قوتها أن تثبت أمام الأسطول الانجليزي ، وكان (قبل أن يتولى القيادة العامة) يكره الالتجاء إلى فرض الغرامات والقروض الإجبارية في تدبير المال . فحدث أن نابليون أرسل مائة ألف فرنك إلى الإسكندرية لينفق منها القوميسير (لروا) مدير مهمات الأسطول على إصلاح البحرية . لكن الجنرال كليبر دفع منها رواتب الجنود وعطاءهم المتأخر . وأرسل بتاريخ ٢٨ أغسطس سنة ١٧٩٨ إلى نابليون يعتذر إليه بأن الضرورة الملجئة اضطرته إلى هذا التصرف لأن خزانة الجيش كانت خالية من المال . ولأنه ليس من حسن السياسة الالتجاء إلى فرض الغرامات أو القروض الإجبارية .

فأرسل له نابليون (بتاريخ أول سبتمبر سنة ١٧٩٨) خطابا شديدا الملحجة يعنفه فيه على تصرفه في المائة ألف فرنك ، وطلب إليه أن يرد لفوره المبلغ إلى مدير المهمات لينفقه في إصلاح البحرية ، وألا يخالف الأوامر التي يصدرها ، لأن لها أسبابا فوق معرفته وأحاطته ، ولم يكف نابليون بذلك بل رماه بأنه ينفق على القوة الحربية في الإسكندرية ضعف ما ينفق على قوات الجيش في المدن الأخرى . وأن نفقات المستشفى العسكري بالشر تزيد عن نفقات جميع المستشفيات ، يريد نابليون التعريض بنزاهة كليبر ، فلم يحاق هذا صبرا ولم يقر على هذه الإهانة ، ورد عليه برسالة يستعفيه بها من منصبه . ويقول فيها :

« لقد كنت أوقع الألف وانصرف في مبلغ المائة ألف فرنك لأسد حاجات الجيش ، مع أن الضرورة الملجئة يمكن أن تبرر عملي ، على إني ما كنت أتوقع أن أستهدف اللوم في إدارة أموال الجيش ، فإذا كان صحيحا أن الإسكندرية قد كلفت الخزانة ضعف ما تكلفه المواقف الأخرى ، وبصرف النظر عن أن هناك غرامات فرضت في جهات أخرى ولم تفرض في الإسكندرية وأن جزءا من نفقات الإسكندرية دفع لقسم الهندسة والمدفعية والبحرية ، فعني ذلك أني متهم بتبديد أموال الجيش . لذلك أبادر بطلب إجراء تحقيق عن تصرفاتي

« إنك نسيت يا مواطني الجنرال عندما كتبت خطابك أنك تمسك في يدك زمام التاريخ . وأنت تكتب إلى كليبر ! على أنى أستبعد أن يكون من قصدك السوء بسمعتي . فليس من أحد يصدقك في طائفة مني . وإنى منتظر يا مواطني الجنرال في رجوع البريد أمراً منك بوقفى عن العمل لافى الإسكندرية فقط بل فى الجيش أيضاً حتى يتبين لك حقيقة ما يجرى وما جرى هنا . لأنى لم أهبط مصر طمعاً فى الثروة ، فلقد عرفت إلى الآن كيف أحترق المال . ولا أقبل أن تحوم حولي أية ريبة »

وصلت هذه الرسالة إلى نابليون ، فتأثر من لهجة كليبر الدالة على التبرم والام فكتب إليه يسترضيه بقوله :

« تلقيت الساعة يا مواطني الجنرال رسائلك الرقيمة ١٩ و ٢٠ و ٢١ (١) ، ولقد عز على أنك أولت خطابي المؤرخ ١٥ إلى غير المعنى الذى يؤديه ، وإذا كنت تمسك بيدي زمام التاريخ فأنت أولى الناس بالألا يضيره ذلك »

على أن كليبر لم يقنع بهذا الخطاب ، وألح فى إقائه من منصبه ، واعتذر بضعف صحته ، وأن الجرح الذى أصابه فى فتح الإسكندرية يحول دون بقائه ، ثم طلب أن يؤذن له بالعودة إلى فرنسا ، ولما بلغ الجلاء هذا الحد دخل الجنرال (كافريللى) بين القائدين لاستلال هذه الضغينة ، وإزالة سوء التفاهم ، وكان نابليون يقدر صفات كليبر ومواهبه ويرى أنه فى حاجة إلى كفاءته ، فكتب إليه بتاريخ ٤ أكتوبر سنة ١٧٩٨ يسترضيه بالخطاب الآتى :

« مواطني الجنرال ، أخبرنى الجنرال كافريللى برغبتكم ، ويسوءنى كثيراً أن حالنك الصحية قد ألم بها الانحراف ، على أنى أرجو أن يكون فى هواء النيل ما يعيدها إليك على ما كانت ، وإنك إذا تحولت عن رمال الإسكندرية فستجد مصرنا (تأمل !) أقل رداءة مما كنا نظنه من قبل ، تقبل منى تمنياتى لك بالشفاء العاجل ، وتأس كد من تقديرى وصداقتى لك ، إنى لأخشى أن يكون قد وقع جفاء بيننا ، وأنتك لتظلمنى إذا شككت فى مبلغ تألمى من وقوع هذا الجفاء ، يقولون إن السحاب إذا تراكم فى سماء مصر لا يلبث أن ينقشع فى ست ساعات ، أما من جهمى فإذا نشأ سحاب يعكر من

(١) من شهر فر كنبور (٥ و ٦ و ٧ سبتمبر سنة ١٧٩٨)

علاقاتنا فإنه ينقشع في ثلاث ، ان تقديرى لك يعادل على الأقل ما أبديته نحوى من العواطف ، فأرجو أن أراك قريباً في القاهرة كما أخبرك الجنرال كافريللى ، وأختم باهدائك تحياتى وعواطف محبتي وإخلاصى . بونا بارت »

هذا هو الخطاب الذى كتبه نابليون إلى كليبر ترصية له ، وهو كما ترى يتضمن أرق أنواع الاعتذار والثناء ، فلم يسع كليبر إلا أن يتقبل هذه الترضية ويمدل عن استقالته وسافر إلى القاهرة تلبية لطلب نابليون فدخلها يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٧٩٨ أثناء شوب الثورة فيها .

أزال كتاب نابليون سوء التفاهم بينه وبين الجنرال كليبر ، وللعلم تذكر من أمر نابليون أنه عندما ارتحل إلى السويس في شهر ديسمبر سنة ١٧٩٨ (١) استخلف كليبر في القاهرة مدة غيبته (٢) ، ثم اختاره ضمن القواد الذين اصطحبهم في الحملة على سورية وعينه في الوقت نفسه (١٧ يناير سنة ١٧٩٩) حاكماً لدمياط وقومنداناً للفرقة التى بها (٣) وهى فرقة القديمة التى كان يتولى قيادتها قبل أن يجرى يوم احتلال الإسكندرية (٤) ، وقد ظهرت مواهبه ومزايه الحربية فى فتح (يافا) وفى معركة (جبل طابور) ، ولما عاد الجيش الفرنسى من سورية ذهب كليبر إلى دمياط مقر فرقة وبقى بها إلى أن سافر نابليون إلى فرنسا وأستخلفه على القيادة العامة ، كل هذا يدل على ثقته به

على أن الجفاء القديم قد ترك أثراً فى نفس كل منهما ، ولو تأملت فيما كتبه نابليون عن كليبر فى مذكراته لطلعتك عباراته بروح ذلك الجفاء الذى كان يشعر به كلاهما نحو الآخر ، وكذلك تنتهى إلى هذه النتيجة إذا قرأت مذكرات كليبر ويومياته ، وليس من موضوع كتابنا أن نخوض فى هذه ولا فى تلك ، وبحسبنا أن نستنتج منهما مبلغ ما كان بين القائدين من النفرة وأن هذا الجفاء ظهرت آثاره فى مذكرات نابليون التى أملاها فى منفاه بعد أكثر من خمسة عشر عاماً لقتل كليبر ،

(٢) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٨٩٨

(١) انظر ص ١٣

(٣) مراسلات نابليون وثيقة رقم ٣٧٦٧

(٤) لما خرج كليبر فى حصار لاسكندرية تنهى عن قيادة الفرقة للجنرال دوجا فعرفت حينئذ بفرقة دوجا .

فإذا تركنا هذه الاعتبارات جانبا ، فإنه مما يجدر ملاحظته أن كليبر بعد إخفاق الحملة على سورية لم يقلع عن التصريح بتخطئه نابليون في بعض تصرفاته أثناء تلك الحملة ، لذلك كان اختيار نابليون إياه ليخلفه في القيادة العامة عملا منطويا على صدق الوطنية ، لأنه ضحى بالاعتبارات الشخصية في سبيل مصلحة فرنسا وأسند إلى كليبر هذا المركز الخطير مع ما كان بينهما لأنه رأى فيه أليق قواد الجيش للاضطلاع بهذه المهمة^(١) واستشف بشاقب نظره أنه كذلك يجمع إلى المواهب العسكرية صفات الحزم والأناة والكفاية الإدارية ، وكانت مغزلة كليبر عند الجيش كبيرة وخاصة في نظر الجنود التي حاربت من قبل في ميادين الرين ، لأنها كانت تقدر ككفاية القائد الألامى تقديرا عاليا ، فرأى فيه نابليون خير من يستطيع كسب ثقة الجيش ومحبة

كان الجنرال كليبر مرابطا في دمياط مع فرقته حينما أرسل إليه نابليون يستدعيه لمقابلته في رشيد ، فلما بلغت الدعوة أسرع إليها فدخلها يوم ٢٤ أغسطس ، واشده ما كانت دهشته حينما علم بأن القائد العام نزع إلى فرنسا ولم يفكر حتى في الحضور لرشيد برأ بالوعد الذي واعده ، وكان كليبر يجهل حتى تلك اللحظة أن نابليون قد اختاره ليخلفه في القيادة العامة ، فسكر عليه الأمر وحسب نابليون يهزأ به في استدعائه إلى رشيد لمقابلته في حين أنه سافر إلى فرنسا قبل الموعد المضروب ، وتحرك في نفسه الجفاء القديم ، وأظهر حنقا شديدا على صاحبه ، بيد أنه مالبث أن تلقى عهد نابليون إليه ورسائله للجيش وللدويان ، فتغيرت حالته النفسية واستشعر عظم التبعية التي أقيمت على عاتقه ، وأخذ يفكر فيما يستقبل من أمره .

موقف كليبر

بعد إسناد القيادة العامة إليه

أكب الجنرال كليبر على رسائل نابليون وتعليماته ووصاياها يطالها ويتأملها ، ويكتم أسرارها ، فشرع في وضع الخطة التي يسير عليها ، واعتزم أن يتم العمل الذي

(٢) جاء في مذكرات نابليون إن الجنرال ديزيه يفوق كليبر في الكفاءة ولكن نابليون أراد الانتقام بالجنرال ديزيه في فرنسا فاستدعاه إليها وسافر بعد التوقيع على معاهدة العريش كما سيحيى بيانه

بدأ به سلفه ، ولأجل أن يمد السبيل لاستمرار العمل دون التواء او اضطراب في الأفكار أذاع بين قواد الجيش منشورا سوعغ فيه رحيل نابليون وأهاب بوطنية القواد ودعاهم إلى معاونته في مهمته الجديدة ، قال فيه :

« إن القائد العام قد سافر إلى أوروبا ليلة ٥ — ٦ فركتيدور (٢٢ — ٢٣ أغسطس سنة ١٧٩٩) وإن الذين يعرفون منكم مبلغ اهتمامه بنجاح الحملة الفرنسية في مصر يجب ان يقدروا الأسباب القوية التي دعت به إلى السفر وأن يعتقدوا في الوقت نفسه أننا سنكون على الدوام موضع عطفه ، وسيكون لنا بين مشروعاته وأعماله العظيمة حظ كبير من عنايته ، فهو القائل لي : « إني سأكون معك بقلبي وفكري وستكون انتصارانك عزيزة في نفسي أتهج بها كما لو كانت لي ، وسأعد من أيام النحس كل يوم لا أعمل فيه شيئا لمصلحة الجيش الذي تركت لك قيادته » ، فيجب علينا أن نستشعر السرور لسفر القائد العام بدلا من ان نتوجع لذلك ، إن الفراغ الذي تركه بونا برت في الجيش وفي حالتنا المعنوية فراغ عظيم . ولا يسعنا ان نملأه إلا بمضاعفة الجهد والنشاط والتعاون على العمل ليخف العبء الملقى على عاتق خلفه ، وإنكم مدينون بهذا الواجب لوطننا ومجدكم ولما اشعر به من الإخلاص في تقديركم ومحبتكم »

بهذا المنشور بدأ كليبر عمله الجديد ، وتلاقى في رشيد بالجنرال (منو) قادما من الاسكندرية ، فأقره في المركز الذي عينه فيه نابليون ، وفي يوم دخوله القاهرة أذاع بلاغا بين الجنود بتاريخ ٣١ أغسطس سنة ١٧٩٩ أبلغهم فيه نبأ سفر نابليون وتعيينه خلفا له ودعاهم إلى الاستمرار في واجبه والاطمئنان على مصيرهم

وكان الجيش في القاهرة قد تلقى نبأ سفر نابليون ، فاضطربت الأفكار وكثر اللفظ ونشر الجنرال (دوجا) قومندان القاهرة بلاغا رسميا في ٢٩ أغسطس برحيل نابليون وتعيين الجنرال كليبر خلفا له ، وجمع أعضاء الديوان في جلسة رسمية وأبلغهم تعيين الجنرال كليبر قائدا عاما للجيش ، ولم يحدث سفر نابليون في أذهان المصريين تأثيرا كبيرا لأن انتصار الجيش الفرنسي في معركة (أبو قير) كان قد أكسب الفرنسيين قوة معنوية بحيث لم يكن تغيير القائد العام ليزعزع من نفوذهم ، فقابل الشعب سفر نابليون وتعيين كليبر خلفا له بعدم الاكتراث .

مقابلته لأعضاء الديوان

جاء كليبر القاهرة ، واستقر في بيت الألفي بك الذي كان يسكنه نابليون في الأزبكية ، فاستقبل كبار الفرنسيين ثم أعضاء الديوان ، قال الجبرتي في هذا الصدد : « ذهب أ كابر البلد من المشايخ والأعيان لمقابلة سارى عسكر الجديد للسلام عليه ، فلم يجتمعوا به ذلك اليوم ، ووعدوا إلى الغد فانصرفوا ، وحضروا في ثاني يوم وقابلوه فلم يروا منه بشاشة ولا طلاقة وجهه مثل بونابارته فإنه كان بشوشاً ببساطة الجلوس ويضحك معهم » .

وملاحظة الجبرتي جديرة بالنظر ، لأن كليبر كانت تنقصه حقيقة ميزة نابليون في كسب القلوب ومباشرة جلساته ، وهى ميزة كبيرة كانت من أخص مزايا نابليون في حياته ، وكانت من الأسباب التى حببته إلى قلوب الرجال والجمهير ، فقد كان يأسر القلوب ببساطته ودعابته ، أما كليبر فقد شرع في إحاطة نفسه بمظاهر الآبهة والجبروت متخيلاً أنها تؤثر في الشرق وفى نفوس الشرقيين ، قال ريبو في هذا الصدد :

« إن بونابارت كان يمتاز بأساليبه البسيطة المألوفة وعاداته البعيدة عن الفخفة والآبهة ، أضاف إلى تلك قامته القصيرة وقوامه الضئيل ، ومع ذلك فقد كان المصريون يقدرون عظمة بونابارت فيقولون عنه « بونابارت الكبير » بينما كانوا يقولون عن خلفه « كليبر الطويل » (١)

وسواء أصحت رواية ريبو أم كانت من تصورات الخيال فإنها تدل على مبلغ الفرق بين نابليون وكليبر في الميول والنزعات .

ويقول ريبو أيضاً إن كليبر حتم أن يؤدي له الناس ما كان يؤدي للباشوات الولاة والبكوات المماليك من مظاهر الإجلال والتكريم ، وغنى عن البيان أن مثل هذه الأوامر لم يكن من شأنها أن تحبب إليه نفوس الناس ولا أن تجتذب إليه القلوب .

قال الجبرتي في وصف موكب كليبر وفي مروره بالمدينة :

(١) التاريخ العلمى والحربى للعملة الفرنسية (ريبو) الجزء السادس

« وفي يوم الجمعة سادس ربيع الثاني سنة ١٣١٤ ركب سارى عسكر الجديد من الازبكية ومشى في وسط المدينة في موكب حافل حتى صعد إلى القلعة ، وكان أمامه نحو الخمائة قواس وبأيديهم النبايت وهم يأمرؤن الناس بالقيام والوقوف على الأقدام لمروره ، وكان صحبته عدة كثيرة من خيالة الأفرنج وبأيديهم السيوف المسلحة والوالى (رئيس الشرطة) والاغا (المحافظ) وبرطلين (برتلى وكيل المحافظ) بمواكبهم وكذلك الفلقات والوجاقلية وكل من كان مولى من جهتهم ومنضموا إليهم »

وذكرت جريدة (كورييه دليجيت)^(١) مقابلة كليبر لأعضاء الديوان ووصفت هذه المقابلة في حينها ، قالت : « قابل القائد العام كليبر يوم ١٦ فركتيدور هيئة الديوان وأكابر العلماء وأعيان البلاد ، فتكلم الشيخ محمد المهدي بالنيابة عن هيئة الديوان وأبدى أسفه لسفر الجنرال بونا بارت ، وأعرب عن أمله في عدالة خنقه واستقامته ، فأجابهم الجنرال كليبر بقوله : « أيها العلماء إنى أريد أن أجيبكم على تمنياتكم بأعمالى لأبأقوالى ، على أن الأعمال تأتى بطيئة ، ويظهر أن الشعب ماثوق إلى معرفة المصير الذى ينتظره في عهد الرئيس الجديد ، فقولوا للشعب إن الجمهورية الفرنسية بإسناد حكومة مصر إلى كلفتنى على الأخص بأن أسهر على سعادة الشعب المصرى ، وإن هذه المهمة هى من بين مهمات مركزى أحبا إلى قلبى » ، ووعدهم باحترام الدين وتمجيده ، وتوعد الأشرار بأشد أنواع الأذى ، ثم قال : « إن بونا بارت قد كسب محبة العلماء والمشايخ وأكابر البلد باتباعه خطة النزاهة والعدل ، وسأتبع خطة سلفى وأترسم خطاه ، وسأكون جديراً بما أوليتم بونا بارت من محبة » هذا ما ذكرته جريدة (كورييه دليجيت) وهى الجريدة شبه الرسمية للحملة الفرنسية ، ولم ترد هذه التفاصيل والأقوال فى الجبرقى ، وقد لانسكون فى مجموعها بعيدة عن الواقع ، لأن الجبرقى قد فاته أن يذكر كثيراً من الوقائع المدونة فى المراجع الفرنسية

أعضاء الديوان في عهد كليبر

ولعلك تذكر أسماء الأعضاء الذين تتألف منهم هيئة الديوان (الخصوصى) في عهد نابليون^(١) ، ونزيد على ذلك أنه حصل تعديل فى بعض الأعضاء خلال هذه المدة ، فصار الديوان مؤلفاً على النحو الآتى :

الشيخ عبد الله الشرفاوى رئيساً ، الشيخ محمد المهدى سكرتيراً ، الشيخ مصطفى الصاوى ، الشيخ خليل البكرى ، الشيخ سليمان الفيومى ، السيد احمد المحروق ، على كتبخدا المجدى ، يوسف باشجاويش ، لطف الله المصرى ، يوسف فرحات ، جبران سكروج ، فضل الله الشامى ، بودوف ، ولمار ، وعددهم أربعة عشر .

وقد أخذنا هذا البيان عن تقويم الجمهورية الفرنسية الذى وضعه علماء الحملة عن السنة الثامنة من التقويم الجمهورى (١٨٠٠) على عهد الجنرال كليبر ، وأورد التقويم المذكور أسماء موظفى الديوان من غير الأعضاء ، وهم : الميسو جلاوتيه القوميسير الفرنسى لدى الديوان ، ودو الفقار كتبخدا القوميسير المسلم ، والشيخ على السكاتب السكرتير المعين ، وجرجس نصر المترجم ، والشيخ حسن العساس المحضر ، والحاج محمد رئيس الحجاب .

التقسيم الإدارى للمدريات

وأدخل الجنرال كليبر تعديلاً فى التقسيم الإدارى للمدريات فأصدر أمراً فى ١٤ سبتمبر سنة ١٧٩٩ بجعل مدريات القطر المصرى ثمانية أقاليم وهى :

- ١ — لإقليم طيبة أو قنا ويتبعه جرجا وأسيوط ، وحاضراته أسيوط
- ٢ — لإقليم المنيا ويتبعه بنى سويف والفيوم ، وحاضراته بنى سويف
- ٣ — القاهرة ويتبعها الجيزة والقليوبية وأطفيح
- ٤ — الشرقية ويتبعها السويس والعريش وحاضرتها بلبيس

٥ — الإسكندرية ويتبعها البحيرة ورشيد وحاضرتها الإسكندرية

٦ — إقليم دمياط والمنصورة وحاضرتهم دمياط

٧ — الغربية وحاضرتها ممنود

٨ — المنوفية وحاضرتها منوف

الحالة في القاهرة والأقاليم

افترنت أيام كليبر الأولى باستقبال الهدوء في القاهرة والأقاليم ، ولعل أهم سبب لذلك أن انتصار الفرنسيين على الجيش العثماني في معركة أبو قير كان لا يزال ماثلاً أمام الأذهان كبرهان على مبلغ قوة الجيش الفرنسي ، وتواردت الأنباء من قواد الجنود الفرنسية في الأقاليم بأن الحالة مستقرة

هدأت الحالة هدوا نسبياً في أنحاء القطر ، تخفت ثورة النفوس في القاهرة ، ووقفت حركة الهياج في الوجه البحري . وسكنت العاصفة في الصعيد . فانهز كليبر هذه الفرصة وقضى أيام قيادته الأولى في العناية بشئون الجيش وتقويته وتعهيد إدارات الحكومة . فتفقد قلعة الجبل والحصون التي أنشأها بونا بارت حول العاصمة . وتفقد استحكامات بولاق والجيزة والروضة . والمستشفيات والسجون . ومعمل البارود والذخائر . وزار المدرسة التي أنشأها نابليون حديثاً لتعليم أبناء الفرنسيين في مصر . و (المطبعة الأهلية) التي كان يديرها المستشرق مارسيل Marcel . والمصنع الميكانيكي الذي أسسه المسيو كوتي . وحضر عدة جلسات للمجتمع العلمي . وعرض الجيش لمناسبة الاحتفال برأس السنة الثامنة للجمهورية الفرنسية الأولى (٢٣ سبتمبر سنة ١٧٩٩)^(١) وأخذ يفكر في تجديد ملابس الجنود وتموين مخازن الجيش وتسكين المستشفيات وتقوية الحصون وإمدادها بالذخيرة وإصلاح الإدارات التابعة للجيش

(١) وصف الجبرتي هذا الاحتفال بقوله : « اهتم الفرنسيون بعمل عبدالممتد وهو عند الاعتدال الخريفي وانتقال الشمس لبرج الميزان ، فنادوا بفتح الأسواق والدكاكين ووقود الفناديل وشدوا في ذلك وعملوا عزائم وولائم وأطعمة ثلاثة أيام آخرها يوم الاثنين ولم يعملوا على هيئة العام الماضي من الاجتماع بالأزبكية عند الصاري العظيم المنتصب والسكيفة المذكورة لأن ذلك الصاري سقط وامتلات البركة (الميدان) بالماء ، فلما كان يوم الأحد نبهوا على الامراء والأعيان بالبكور إلى =

كانت الظواهر والمقدمات تدل على أن لدى كليبر مدسعا من الوقت يزيد فيه من مناعة الاحتلال الفرنسي في مصر . ويوطد مركزه . وذلك أن تركيا لم تكن أتمت بعد استعدادها للقتال ، بعد التسكبة التي حاقت بها في معركة أبو قير . والجموع التي كانت تحشدتها في سورية بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا كان ينقصها النظام وبراعة القيادة . فضلا عن أن أحوال تركيا كانت في اضطراب وتضعضع بسبب الفتن الداخلية . مما اضطر الباب العالي إلى استدعاء جزء من الجنود الذين أعدهم لفتح مصر ، وكان أمل كليبر معقودا بأن يفضى اقتراب فصل الشتاء وما يقترن به من هياج البحر إلى تعسير اقتراب السفن الحربية ومراكب نقل الجنود من شواطئ مصر . وبدأ هياج البحر فعلا في تلك الأيام حتى اضطرت السفن الانجليزية إلى الابتعاد عن الشواطئ ، كل هذه الأسباب كانت تدعو للاعتقاد بأن الحملة على الجيش الفرنسي في مصر لا يمكن أن تكون قريبة ، أضف إلى ذلك أن فشل الإنجليز في إنزال جنودهم بالقصير قد طمأن الفرنسيين على مركزهم في الوجه القبلي وأضعف أمل مراد بك في محاربتهم ، فقد عزم الانجليز على احتلال (القصير) في شهر أغسطس قبل أن يرحل نابليون عن مصر ، وأرسلوا بارجتين حرييتين إلى ذلك الشجر ، فكانتا بازانه في صباح يوم ١٤ أغسطس سنة ١٧٩٩ (١) وضربتا القلعة بالمدافع تمهيدا لإنزال الجنود إلى البر ، وفي عصر ذلك اليوم حاولت بعض مراكب النقل أن تنزل الجنود إلى الشاطئ . ولكن الحامية الفرنسية أرجعتهم وأجبطت مسعاهم ، واستمر الضرب بالمدافع طول الليل ، وفي اليوم التالي استؤنف الضرب بشدة . ونزلت كتيبة من الجنود البريطانية إلى الشاطئ تحت حماية المدافع ، وكان الادمجوان جنرال دنزلو Donzelot يتولى قيادة حامية القصير ، فرتب جنوده لمقاومة الاحتلال الانجليزي ودارت معركة شديدة بين الفريقين انتهت

== بيت ساري عسكر ، فاجتمع الجميع في صباح يوم الاثنين فركب ساري عسكر معهم في موكب كبير وذهبوا إلى قصر العيني فكنثوا هناك حصه وعرضت عليهم العسكر جميعها على اختلاف أنواعها من خيالة ورجالة وهم بأسلحتهم وزينتهم ، واعبوا لعبهم في ميدان الحرب وخلع ساري عسكر على الشيخ الشراوى والقاضى وأغات البتكجيرية (المعافظ) خلع سمور ، ثم رجعوا إلى منازلهم ثم نودى في الاسواق بوقود أربعة قناديل على كل دكان في تلك الليلة ومن لم يفعل ذلك عوقب (يعنى أن الأهالى أكرهوا بالقوة على الاشتراك في الحلقة) ثم عملوا بالأزبكية حراقة تقوط ومدافع وسواربخ . واعبوا في المراكب طول الليل »

(١) رسالة الجنرال كليبر إلى حكومة الدبركتوار بتاريخ ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٩ الواردة في كتاب السكونت باجول (كليبر — حياته ومراسلاته) وكتاب السيرو روسو (كليبر ومنوفى) مصر

بانسحاب الانجليز والرجوع إلى مراكبهم بعد أن تركوا كثيراً من القتلى والجرحى ، واستمرت البارجتان الانجليزيتان تضربان القلعة بالمدافع وحاول الانجليز أن ينزلوا جنوهم في ذلك اليوم بعيداً عن القلعة فمشلوا ، وفي يوم ١٦ أغسطس أعادوا كرة الهجوم فباءوا بالفشل واستولى الفرنسيون على مدفع كان الانجليز أنزلوه إلى الشاطئ . وهكذا رجع الانجليز عن محاولة احتلال القصير بعد قتال ثلاثة أيام وأقلعت سفنهم إلى عرض البحر

وحاول مراد بك في خلال شهر أكتوبر أن يجدد مناوشاته فيما بين أسبوط وجرجا ، فجرد عليه الجنرال (ديزيه) حملة من الهجاة انتهت بانسكاشه في الصحراء فانسحاب الانجليز من سواحل القصير ، وهزيمة مراد بك في الصعيد ، قد بعثا الطمانينة في نفوس الفرنسيين ، كما أن الهزيمة فتت في ساعد مراد بك وجعلته يخلد إلى السكينة ، وقد دارت الأيام دورتها ، فأخذ يتقرب من الفرنسيين إلى أن عقد وإياهم معاهدة الصلح كما سيجيء بيان ذلك فيما يلي

حقيقة الموقف الحربى في مصر

على أن هذه المقدمات وهاتيك الظواهر لم تكن لتصرف الجنرال كليبر عن تبين حقيقة الموقف الحربى في مصر ، ذلك الموقف الذى يجعل بقاء الاحتلال الفرنسى في وادى النيل أمراً مستحيلاً ، فالحملة الفرنسية كانت محصورة من طريق البحر ولا منفذ لها إلى فرنسا أو أى بلد تستند إليه في توطيد سلاطتها ، هذا فضلاً عن أن القوات الفرنسية ترابط وسط أمة معادية لها ، فكانت من هذه الوجهة مقضياً عليها بالفشل عاجلاً أو آجلاً ، لأن الجنود الفرنسية كانت موزعة في مثلث كبير يمتد طرفاً قاعدته بين الاسكندرية والعريش ويقع رأسه في أسوان ، فهذا المثلث المسيح المدى المتباعد الأطراف كان مطلوباً من الجيش الفرنسى أن يوطد فيه سلطة فرنسا في وجه دولتين متحالفتين (وهما تركيا وانجلترا) وعلى المراغمة من شعب لم يدع فرصة تمر إلا قاوم فيها الاحتلال الفرنسى بكل الوسائل

ولا يغيب عنك أن الجيش الفرنسى لم يكن يومئذ في قوته الأولى ، لأن المعارك والأمراض والمتاعب التى قاساها قد أنهكت قواه ونقصت عدد رجاله ، وأفقرت من صفوفه

قدر الجنرال داماس Damas الذي عينه كليبر رئيس أركان الحرب عدد الجنود في شهر سبتمبر سنة ١٧٩٨ بثلاثة وثلاثين ألف مقاتل ، وقدر عددهم في أول عهد قيادة كليبر بـ ٢٣٠٠٠ مقاتل ، فيؤخذ من هذه المقابلة أن عدد الجنود نقص بمقدار الثلث ، وفقد الجيش الفرنسي في المعارك والثورات نخبة من خيرة قواده أمثال الجنرال (كافرييللي) قائد فرقة المهندسين و(دومارتان) قائد المدفعية و(بون) و(رامبولت) و(ديبوى) وغيرهم ، ومعظم ضباط فرقة المهندسين ، واصطحب نابليون معه نخبة أخرى من القود ، وسرى الملل واليأس إلى نفوس الجنود والقواد الباقين في مصر لاستحالة ورود المدد والذخائر من فرنسا ، فأثرت هذه الحالة في نفوسهم تأثيراً كبيراً ، وتضعفوا لها فضعفت حالتهم المعنوية ، ثم زادت الحالة تفاقماً لافتقار الجيش إلى كثير من حاجياته وضروراته ، فقد أسلفنا أن نابليون أصلح ترسانة مراد بك بالجيزة^(١) وأنشأ بها معملًا لصنع المدافع ، ولكن هذا المصنع لم ينجح لعدم ورود الآلات والمواد الأولية اللازمة لإدارته ، وكذلك أنشأ في الروضة مصنعاً للبارود ، لكنه لم يكن وافيًا بحاجة الجيش . وكان بالقاهرة مصانع لإصلاح الأسلحة ولكن تعذر عليها إصلاح مايتلف من البنادق بالسرعة التي تتطلبها الظروف لعدم توافر الآلات والوسائل اللازمة . ولبيت ملابس الجنود لكثرة الاستعمال . ووجد كليبر صعوبة كبيرة في تجديدها لقلة الأقمشة والأجواخ التي تسكني الجيش وقلة الموارد المالية التي تسمح بشرائها من الخارج . وكانت رداءة الملابس وقدمها والمتاعب التي لقها الجنود من الأسباب التي أدت إلى سوء حالة الجيش الصحية وانتشار الأمراض والرمد بين أفراده .

ثم كانت تغور البلاد ومفاتيحها على جانب كبير من الضعف . فالعريش وهي مفتاح مصر من الشرق لم تكن بحالة تسمح بصدهجمات جيش كبير وذلك لإيغالها في الصحراء وصعوبة تموينها وإمدادها بالذخائر والمؤونة . كما أن الإسكندرية وهي مفتاح مصر من جهة الغرب قد ضعفت مناعتها الحربية بعد أن جردها نابليون أثناء الحملة على سورية من كثير من مدافع الحصار وبما سلب به السفن التي أفلته في رحيله إلى فرنسا

ولم يكن الجيش العامل الذي يعتمد عليه في المعارك مرابطا في ساحة واحدة ، بل كان موزعا بين البلاد المحصنة أو المسدن المهمة التي تقيم بها حاميات من الجنود الفرنسية وهي : القاهرة ، والاسكندرية ، وأبو قير ، ورشيد والرحمانية ، والبراس ودمياط ، وعزبة البرج ، والعريش ، وقطية ، والسويس ، والصالحية ، وبلبيس ، والمنصورة ، وميت غمر ، ومنوف ، وسمنود ، والجيزة . وبني سويف . ومدينة الفيوم ، والمنيا . وأسيوط . وجرجا . وقنا . والقصير . وأبثود . وإسنا . وأسوان

فكل هذه الاعتبارات هي أجزاء وألوان في الصورة التي تنبئك عما آل إليه الجيش الفرنسي في مصر من الضعف والانحلال

الحالة المالية والاقتصادية

أما الحالة المالية والاقتصادية فقد ساءت عما كانت عليه قبل الحملة الفرنسية . فإن توالى الضرائب والغرامات والمصادرات والنهب والتخريب والإحراق والتدمير قد أنفك الزراعة والتجارة والصناعة وأفقر البلاد وزادها ضنكا على ضنك . ومع أن كليبر كان يعارض نابليون في فرض الضرائب والمصادرات فإنه لجأ إليها في عهد قيادته ، فقد فرض على الصيارفة الأقباط مائة وخمسين ألف ريال فرنسي في مقابل بواقي سنة ١٧٩٣ وأقساط أخرى لم تستحق بعد ، وفرض على الأقاليم غرامات فادحة ، واجبا الفرنسيون إلى طريقة الاحتكار ليستصفوا من المحتكرين مبالغ طائلة يرجع بها هؤلاء أضعافا مضاعفة على الجمهور ، واتبعوا طريقة السندات على الخزنة في تأدية ما عليها من الديوان . وهذه الطريقة نذير الإفلاس والخراب . أضف إلى ذلك أن الحصار البحري الذي ضربته إنجلترا على شواطئ مصر قد عطل المواصلات وشل المعاملات التجارية وأدى إلى كساد الأحوال ووقوف حركة الأخذ والعطاء وزاد الحالة سوءا نقصان النيل في تلك السنة (سنة ١٧٩٩) فبار كثير من الأراضي الزراعية وانكسر ما عليها من الضرائب

ولم يكن يخفى على الجنرال كليبر سوء الحالة الاقتصادية والمالية في البلاد ، وكان يعلم أن إرهاق الشعب بضرائب وغرامات جديدة لا يمكن أن يوطد السلطة الفرنسية

بل يفضى حتما إلى تجديد الثورات والاضطرابات ، فبعث إلى حكومة الديركتوار برسالة (١) في هذا الصدد وصف فيها سوء الحالة التي يعانيها ، قال في رسالته :

« إن الجنرال بونا بارت قد استنفد جميع موارد البلاد المالية في الشهور الأولى من الحملة ، وضرب على البلاد من الغرامات والمصادرات ما بلغ جهد الطاقة ، فالرجوع اليوم إلى هذه الوسائل في الوقت الذي نحن فيه محاطون بالاعداء من كل جانب هو دفع بالبلاد إلى الثورة في أول فرصة ممكنة ، على أن بونا بارت حينما غادر مصر لم يترك درهما في الخزانة ولا شيئا مما يعوضنا عن المال ، بل ترك ديونا ومتأخرات على الخزانة تبلغ اثني عشر مليون فرنك وهو يكاد يساوي إيراد الحكومة سنة كاملة في الأوقات الحاضرة »

وقال كليبر في هذه الرسالة يصف سوء حالة الجباية :

« إن الفيضان يمنع في الوقت الحاضر جباية البواقي عن السنة التي انتهت ، ومع ذلك لو حصلنا هذا الباقي لما أتى إلا نفقات شهر واحد ، ويجب أن ننظر إلى شهر فريمير (أكتوبر - نوفمبر) حتى يمكننا أن نعود فنحجي الضرائب ، ولا شك أنه يتعذر علينا عندئذ أن نستخلص شيئا لأننا سنكون منهمكين في القتال ، وقد زاد حاله سوءا أن النيل قد شح في هذا العام ، وسيؤدي ذلك إلى تلف الزراعة في مديريات عدة ، وهذا يفضى إلى نقص الغلات ، وبالتالي إلى نقص الضرائب »

فتأمل في قول الجنرال كليبر إن إيراد الحكومة مدة سنة كاملة في العهد الذي كتب فيه رسالته (سنة ١٧٩٩) يطلع اثني عشر مليون فرنك ، فانك تستنتج من ذلك أنه بالرغم من زيادة الضرائب في عهد الحملة الفرنسية فإن دخل الحكومة قد نقص عما كان في عهد المماليك ، ويزداد هذا الاستنتاج وضوحا وثبوتا إذا رجعت إلى ما أحصاه أقطاب الحملة الفرنسية عن دخل الحكومة في عهدهم ودخلها على عهد المماليك

(١) هذه الرسالة مؤرخة ٢٦ سبتمبر سنة ١٧٩٩ ، ولم تصل إلى فرنسا لأن السفن الإنجليزية ضبطتها في عرس البحر كما ضبطت كثيراً من الرسائل المتبادلة بين فرنسا ومصر ونشرت في إنجلترا ليطلع عليها الجمهور ، وكانت هذه الرسالة بمثابة شكوى مرة من نابليون وتركه إياه يحتمل تبعه قيادة الجيش في ظروف حرجية .

فالجنرال (رينيه) أحد قواد الحملة يقدر إيراد الحكومة قبل الاحتلال الفرنسي بمبلغ يتراوح بين ٣٥ وأربعين مليون فرنك^(١) وهو تقدير يزيد قليلا عن إحصاء المسيو (استيف) مدير الخزنة في عهد الحملة فإنه يقدرها بـ ١٠٦ ر ١٩٩ ر ٣١ فرنك (٤٦٧ ر ٢٠٣ ر ١ ر جنيتها^(٢)) .

أما في عهد الحملة الفرنسية فقد هبط الإيراد هبوطا محسوسا، فأحصى الجنرال (رينيه) دخل الحكومة إجمالا في ذلك العهد بمبلغ يتراوح بين ٢٥ و ٢٠ مليون فرنك، وعلى هذا النقص بقلة إيراد التجار واضطراب جباية الضرائب، وقد أورد إحصاء مفصلا لهذا الدخل في عهد كليبر ومنه، فحدده بمبلغ ٢١ مليون فرنك (أى ٨١٠ ر ٠٧٥ ر جنيتها تقريبا) وارد من الأبواب الآتية :

الخارج الذى كان يجي من أطيان الوجه البحرى وجزء من أطيان الوجه القبلى بعد إسقاط المنطقة التى ترك لمراد بك حكمها بناء على اتفاقية كليبر — مراد	{	١٢ ر ٠٠٠ ر ٠٠٠ فرنك
		الضرائب غير المباشرة
الإتاوات على التجار وأرباب الحرف		٣ ر ٠٠٠ ر ٠٠٠ فرنك
إيراد دار الضرب (الضربخانه)		» ٢ ر ٠٠٠ ر ٠٠٠
إيراد التجار		» ٠ ر ٥٠٠ ر ٠٠٠
إيراد أطيان الوسية والأمالك التابعة للحكومة		» ١ ر ٠٠٠ ر ٠٠٠
مال الأمالك الشخصية والخارج المفروض على مراد بك		» ١ ر ٥٠٠ ر ٠٠٠
		» ١ ر ٠٠٠ ر ٠٠٠
		» ٢١ ر ٠٠٠ ر ٠٠٠

وللمسيو (استيف) إحصاء آخر يزيد عن إحصاء الجنرال (رينيه) فإنه يقول إن دخل الحكومة سنة ١٧٩٩ وهى السنة الثانية من سنوات الحملة الفرنسية بلغ ٨٥١ ر ٢٠٥٠ ر ٣٥ فرنكا (١٣٦٩ ر ٥٣٩ ر جنيتها)

ونعتقد أن فى هذا الإحصاء مبالغة إذا قابلناه بإحصاء الجنرال (رينيه) وبالإحصاءات الأخرى الواردة فى المراجع الفرنسية

(١) كتاب (مصر بعد واقعة عين شمس)

(٢) أنظر الجزء الاول ص ٣٤ (من الطبعة الاولى)

فنا بليون يقول في مذكراته إن دخل الحكومة في مدة أربعين شهراً وهي مدة الحملة الفرنسية بلغ ثمانين مليون فرنك ، أى بمعدل ٢٧ مليون فرنك كل سنة (١) ويقول المسيو (تيير) المؤرخ الفرنسي في كتابه (٢) إن دخل الحكومة في عهد الحملة يتراوح بين ٢٠ و ٢٥ مليون فرنك

واللسيو بوسليج مدير الشؤون المالية في عهد نابليون وكبير إحصاء تفصيلي عن دخل الحكومة يقل كثيراً عن إحصاء المسيو استيف
فقد كتب تقريراً مستفيضاً في سبتمبر سنة ١٧٩٩ عن حالة مصر المالية ، انتهى فيه إلى أن لإيراد الحكومة في زمن السلم لا يزيد عن ١٩٢٠٠٠٠٠٠ فرنك ، يتألف تفصيلاً من الأبواب الآتية :

مال الميرى	٣٣٣٠٠٠٠٠٠ فرنك
ضريبة (الفائض) وهي ما يستولى عليه الملتزمون بعد وفاة الميرى يدخل في ذلك ما يجنيه الملتزمون وما يجنيه الحكومة عن أملاكها	٣٠٠٠٠٠٠٠٠ فرنك
ضريبة (المضاف) وهي ما يفرضه الملتزمون والحكومة على الأطيان عدا الميرى والفائض ويدخل في ذلك الاناوات التي يفرضونها على الفلاحين	٦٤٠٠٠٠٠٠٠ فرنك
ضريبة (السكشوفية) وهي التي تؤول لحكام المديرات	١٣٣٠٠٠٠٠٠ فرنك
الجملة	١٤٠٠٠٠٠٠٠٠ فرنك
يخصم من ذلك ٣٢٠٠٠٠٠٠٠ فرنك مقدار ما يخص الملتزمين من (الفائض) عن الأراضي التي يملكها الأفراد وهي ثلث أراضي مصر الزراعية لأن ثلثي أراضي مصر كانت ملكاً للحكومة وللحكام من عهد المماليك فيكون الباقي	٣٢٠٠٠٠٠٠٠ فرنك
	١٠٠٨٠٠٠٠٠٠

(١) مذكرات نابليون التي أملاها على الجنرال برتران في سانت هيلين

(٢) تاريخ القنصلية والامبراطورية الجزء الثالث

يضاف إلى ذلك صافي ما ينتج من ضريبة الفائض
التي تجبي نوعاً من الحبوب وهذه الطريقة كانت متبعة

في الوجه القبلي	ومقداره	٢٦٥٠٠.٠٠٠ فرنك
إيراد الجمارك والضرائب غير المباشرة		٥٠.٠٠٠.٠٠٠ فرنك
إيراد الضرائب		٧٥٠.٠٠٠.٠٠٠ فرنك
صافي الدخل		١٩٢٠.٠٠٠.٠٠٠ فرنك

ويقول المسيو (بوسليج) في تقريره إن إيراد الجمارك والضرائب غير المباشرة
في سنة الحرب وهي السنة التي وضع فيها تقريره (سنة ١٧٩٩) هبط إلى ١٥٠٠.٠٠٠ فرنك
بسبب وقوف دولاب الأعمال والحصار الحربي الذي ضربته انجلترا على شواطئ
مصر ، وهبط كذلك مقدار الحبوب التي تجبي نوعاً من أطميان الوجه القبلي لعدم
إمكان بيعها في جهاتها وقلة وسائل المواصلات التي تسمح بنقلها إلى الوجه البحري ،
فلم يحصل من صافي ثمنها سوى مليون فرنك ، و نقص كذلك دخل الضرائب العقارية
بمقدار مليون ونصف مليون فرنك لتلف بعض الأراضي الزراعية التي لم تروها مياه
النيل ، يضاف إلى هذا العجز مبلغ ثلاثة ملايين فرنك وهي النفقات التي التزمت بها
الحكومة ومرتبات عمالها فيكون صافي دخل الحكومة بعد النفقات من تسعة إلى
عشرة ملايين فرنك وهو المخصص للإنفاق على الجيش الفرنسي

وذكر المسيو (بوسليج) ما ابتكره نابليون من الضرائب علاوة على ما كان
يجبي من قبل في عهد المماليك ، فقال إنه فرض على مختلف الملاك والتجار نحو أربعة
ملايين فرنك من الضرائب غير الاعتيادية وهي التي فرضها على البيوت والتجار
والصناع ، وإنه جبي مقدماً خمس المفروض على الأملاك العقارية عن سنة مقبلة ،
فحصل من هذا الباب وحده على ١٢٠.٠٠٠.٠٠٠ فرنك ، وإن هذه الوسائل الشاذة
قد استنفدت موارد البلاد بحيث لا يمكن الاستمرار في اتباعها لأن التجارة كسدت
وبارت ، ومعين المسال قد نضب في يد الأفراد بحيث يخشى أن تؤدي جباية أموال
جديدة إلى الثورة ، وأصبح سكان المدن يؤثرون الإرهاق والسجن بل والقتل على
دفع ما يطلب منهم ، والفلاحون لا يدفعون ما يطلب منهم إلا بالقوة والإكراه ،
فكانوا لا يؤدون ما يفرض عليهم حتى تصل إليهم القوة المسلحة التي تطوف كل مديرية

لجباية الأموال الأميرية ، ولا يتأخرون عن مقابلة القوة بمثلها إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وكثيراً ما يلوذون بالفرار إذا عجزوا عن مقاومتها ، وكثيراً ما يجن مشايخ البلاد (العمدة) لإجبار أهل بلادهم على دفع الضرائب ، على أن هذه الحالة تستلزم تخصيص قوة مسلحة من الجنود في كل مديرية من الست عشرة مديرية التي يتألف منها القطر المصري لتحصيل الضرائب ، وكثيراً ما كان الجنود الفرنسيون يعتدون على الأهالي بحجة تحصيل الأموال ويرتكبون كثيراً من المظالم .

أما جباية الضرائب فيقول المسيو بوسليج إن الأمر فيه أشق وأنكى ، فإن القرى كانت لا تسلم غلاتها إلا بالقوة ، وكان لابد من خزن هذه الغلال في مخازن خاصة قريبة من شاطئ النيل ثم شحنها على السفن إلى القاهرة ، على أن عدد السفن قد قل في عهد الحملة الفرنسية بسبب غرق كثير منها وتحطيم الفرنسيين لجزء آخر بقصد استعمال أخشابها للوقود لقلة الوارد من الأخشاب للقطر المصري . فضلاً عن أن اضطراب الأحوال في الوجه القبلي والوجه البحري كان يضطر السلطة الفرنسية إلى استعمال معظم السفن في نقل الجنود ، ومن جهة أخرى فإن النيل لم يكن صالحاً للملاحة في الوجه القبلي إلا مدة أربعة أشهر في السنة ، فكل هذه العوامل مجتمعة كانت تعطل نقل الغلال إلى القاهرة ، وقد أثرت هذه الحالة في التجارة فأفضت بها إلى الكساد . وهذا الكساد عطل تحصيل الضرائب نقداً وعيناً لأن الأهالي لم يكن في مقدورهم بيع غلاتهم للتجار لوقوف حركة الأخذ والعطاء ، ومع ذلك كانت السلطة تطالبهم بدفع الضرائب المفروضة عليهم ، وبذلك كان الضيق يشتد بالأهالي وتستحكم حلقاته

وكانت السلطة الفرنسية عاجزة عن سد حاجات الجيش من المال لأن الجيش كان يقتضى كل شهر ١٣٠٠٠٠٠ فرنك ، ولم تكن موارد البلاد تسمح بتحصيل أكثر من ٣٠٠٠٠٠ فرنك في الشهر

يتبين من كل ما تقدم أن حالة مصر الاقتصادية والمالية قد ساءت على عهد الحملة الفرنسية ، وتقهقرت الزراعة وكسدت الصناعة وبارت التجارة ، وبالرغم من زيادة الضرائب والأنوات والمصادرات فقد نقص دخل الحكومة عما كان قبل الحملة وعانت البلاد من كل ذلك أشد ما يمكن تصوره من الضيق والفاقة ، وأخذ الضنك يشتد بالناس يوماً بعد يوم ، وابتدع الفرنسيون أنوات وغرامات جديدة في عهد كليبر ومنو كما ستره فيما يلي

حالة الشعب النفسية

ولا جدال أن اشتداد الضيق بالشعب وشعور الناس بأن حالتهم الاقتصادية قد ازدادت سوءاً في عهد الفرنسيين كان من البواعث التي زادت من سخطهم على الحكم الفرنسي ، وليس في مقدور القوة المسلحة إخضاع شعب ينفر بفطرته من تحكم دولة أجنبية في شؤنه ، ويرى اشتداد الضيق في عهد حكمها ، فالمقاومة الشعبية التي لقيها الفرنسيون من بدء الحملة كان من شأنها أن تزداد على مرور الأيام ، ويكفيك لتبين حالة الشعب النفسية أن ترجع إلى أقوال أقطاب الحملة الفرنسية في هذا الصدد

قال الجنرال كليبر يصف هذه الحالة في عهد قيادته (١) :

« إن مصر بالرغم من السكون الظاهري الذي شملها لا تعتبر إلا مدعنة لحكم القوة ، والشعب المصري موزع الفكر ، قلق على مصيره . ولا يرى فينا مهما فعلنا إلا أعداء ملكه وماله ، وقلبه متجه دائماً إلى الأمل في حدوث الانقلاب الذي يتوقعه »

وقال المسيو بوسليج في هذا الصدد (٢) :

« إن الشعب المصري بالرغم من ثوراته العديدة ضدنا يمكن اعتباره شعباً وديعاً ، على أنه يكرهنا ، وهيات أن يحبنا ، مع أننا نعامله بأحسن ما يمكن أن تعامل بلاد محتلة ، إن اختلاف العادات ، وأهم منه اختلاف اللغة ، وخاصة اختلاف الدين . كل ذلك من العقبات التي لا يمكن تذليلها والتي تحول دون إيجاد صلات الود بيننا وبين المصريين . إنهم يمتقون حكم المماليك . ويرهبون نير الاستانة ولا يحبون حكمها . ولكنهم لا يطيقون حكمنا ولا يصبرون عليه إلا بأمل النجاة منه »

فهذه الحالة النفسية للشعب كانت أكبر عقبة تحول دون توطيد سلطة فرنسا على صغاف النيل ، وكانت وحدها نذيراً كافياً بزوال هذه السلطة وانقراضها

(١) من رسالته إلى حكومة الدبركتوار في ٢٦ سبتمبر سنة ١٧٩٩

(٢) في تقريره إلى حكومة الدبركتوار

مساعي كليبر في عقد الصلح

ورأيه في مركز مصر السياسى

بعد أن درس الجنرال كليبر حالة مصر ونفسية الشعب وأمعن النظر في موقف الجيش الفرنسى فيها وعرف إجمالاً الحالة العامة في أوروبا وفي فرنسا ، اقتنع بأن لا فائدة ترجى من استمرار الاحتلال الفرنسى في مصر وأن هذا الاحتلال مهما بقي قصيره إلى الفشل ، لذلك أخذ يعمل الفكرة في إنهاء هذا الاحتلال بطريقة تنقذ شرفه العسكرى ، لأنه لم يكن خافياً أنه وقد ولاء نابليون القيادة العامة لجيش الشرق ، أصبح يعمل تبعاً لمصير هذا الجيش وسمعته ، لذلك فكر في فتح باب المفاوضات مع تركيا لعقد صلح على قاعدة الجلاء عن مصر

وكانت حيلته في الدخول في مفاوضات الصلح أن نابليون فاتح الصدر الأعظم في هذا الصدد بالرسالة التى بعث بها إليه قبل رحيله إلى فرنسا ، وأنه فوض إلى كليبر إتمام هذه المفاوضات وخوله سلطة عقد الصلح مع تركيا ولو كانت قاعدته الجلاء عن مصر ، فلم يكن عليه غبار إذا هو نفذ هذه الفكرة خصوصاً إذا كانت ظروف الموقف السياسى والحربى تقضى بالمفاوضة وتجعل استمرار القتال عقياً

كتب الجنرال كليبر في رسالة منه إلى حكومة الديركتور يبرر مفاوضاته في سبيل الصلح بقوله :

« إنى أعترف بأهمية احتلالنا مصر ، وقد كنت أقول في أوروبا إن مصر بالنسبة لفرنسا كنقطة الارتكاز التى نستطيع بها أن نقبض على ناصية التجارة وننولى زمامها في سائر أنحاء العالم ، ولكن يجب لذلك أن يكون لفرنسا محرك قوى ، وهذا المحرك هو البحرية ، ولقد كانت لنا بحرية ، ثم ضاعت ، فتغير كل شيء ، وتغيرت المسألة من كل وجه ، ولم يعد لنا فيما يظهر سوى عقد صلح مع تركيا لنمهد لأنفسنا طريقاً شريفاً نخلص به من حملة لا يمكن أن تتحقق أغراضها التى دعت إليها »

وكتب المسيو بوسليج في هذا الصدد بقول :

« إن مصر بلاد بديعة ، ومركزنا فيها يجب أن يتبع الظروف ، وقد دلت هذه

الظروف على أننا جئنا مصر قبل الأوان ، وليس من شك في أننا لو كنا نحكم مصر لانتقذناها من الآفات التي فتكت بها وأحيينا زراعتها وتجارتها بحيث تعود تلك البلاد إلى عظمتها القديمة وتصبح أجمل بلاد الدنيا ، ولا تلبث أن تحمل في يدها ميزان التجارة في العالم ، ولكن مصر يحيط بها بحران وصحراوان ، فالوصول إليها يستلزم بحرية قوية . وهذه البحرية ضرورية لاستثمارها وحماية تجارتها ومواصلاتها . والآن ليس للجمهورية الفرنسية بحرية . ولا بد لها من زمن طويل لتثني عمارة تضارع عمارة خصومها . فالبقاء في مصر بدون وسائل فعالة للاتصال بها وإرسال المدد إليها يؤدي إلى تمسك الروسيا أو إنجلترا من احتلالها والبقاء فيها بحجة طردنا منها »

هذا ما كتبه المسيو يوسليج في ٢٣ سبتمبر سنة ١٧٩٩ ، فنأمل في عباراته ، وارجع بفكرك إلى الماضي القريب والبعيد ، واستعرض الحوادث التي تعاقبت على البلاد في خلال نصف ومائة عام ، نجد أنها قد أبدت بعض هذه التنبؤات ، فان إنجلترا أخذت من ذلك الحين ترقب الفرص لتضع يدها على مصر ، ولقد سعت في إخراج الفرنسيين لتحل محلهم ، واستعانت على ذلك بقواتها البحرية والبرية ، وأرادت أن تحقق أطماعها في وادي النيل فلم تفلح ، وجردت في أوائل عهد محمد علي حملتها المعروفة بحملة الجزائر (فريزر) لاحتلال البلاد ، لكنها وجدت في مصر القوة التي صدها وقاومت عدوانها ، فارتدت عن البلاد سنة ١٨٠٧ خائبة ، وجلت جنودها عن أرض الكنانة ، على أنها ما لبثت بعد ذلك ترقب فريستها السنين الطوال إلى أن منحت لها الفرصة لتحقيق أطماعها سنة ١٨٨٢ فانتهزت الحرب الداخلية التي وقعت فيها والضعف المعنوي الذي سرى إلى نفوس أبنائها واحتلت البلاد بجنودها . ولم تجد فيها القوة التي تصدها عنها مثلما وجدت عام ١٨٠٧ . فما أقوى العظة وما أبلغ الاعتبار !

اعتزم إذن كليبر أن يفاوض تركيا في عقد صلح معها على قاعدة الجلاء عن مصر ، فبعث إلى الصدر الأعظم رسالة مطولة ذكره فيها برسالة نابليون له قبل سفره . ووجد طلب إنهاء حالة الحرب بين الدولتين . وأعرب عن مقاصد فرنسا الودية نحو تركيا ، قائلا إن فرنسا لم تقصد مصر إلا لمحاربة إنجلترا ، وأنها لم تقا تل إلا المالميك . وأنها تركت الإدارة المدنية في مصر لهيئة العلماء وكبار الأعيان . واحترمت رعايا السلطان وأملاكهم . وأبقت على الوجاهلية وتمدوني السلطان . وأنها لا تنازع حقوق

تركيا في مصر . وطلب إليه في ختام رسالته أن يوفد إليه مندوبا للمفاوضة في قواعد الصلح . والظاهر أن هذه الرسالة والرسالة التي تقدمتها من نابليون ألقيا في روع تركيا أن مركز فرنسا أصبح من الحرج والضعف بحيث اضطرت إلى طلب الصلح ، فتلسكات في الرد واستمرت في تعبئة جيوشها للزحف على مصر

تجدد القتال وهزيمة الأتراك في عزبة البرج

أول نوفمبر سنة ١٧٩٩

استمرت تركيا تعي جيوشها للحملة على مصر برا وبحرا . وأعدت حملتها البحرية قبل أن تتمم حشد جيشها في سورية . وبدأت تهاجم مصر من شواطئها الشمالية قبل أن يزحف جيشها من طريق برزخ السويس . وهكذا وقعت في الخطأ الذي وقعت فيه من قبل في شهر أغسطس سنة ١٧٩٩ بإزالة جيشها إلى شواطئ (أبو قير) قبل أن يزحف جيشها الآخر من طريق البر . وكانت نتيجة ذلك الخطأ هزيمة الجيش العثماني في معركة أبو قير . ومع ذلك زلت فيه مرة أخرى في أواخر شهر أكتوبر سنة ١٧٩٩ . وهذا راجع إلى ما كانت عليه القيادة العثمانية من ضعف الكفاية .

أقبلت العمارة العثمانية تجاه شواطئ دمياط في أواخر شهر أكتوبر سنة ١٧٩٩ ، وكانت مؤلفة من ثلاث وخمسين سفينة تقل سبعة آلاف من خيرة الجنود الانكشارية بقيادة السيد علي بك ، تصحبها البارجة الانجليزية « تايجر » (النمر) وعليها السكودودور السير سدني سميث قائد الأسطول البريطاني

نزل الجنود العثمانيون إلى شاطئ البحر بالقرب من بوغاز دمياط فاحتلوا برج البوغاز الذي كان يحمي مصب النيل بالبر الشرقي ، وكانت الجنود الفرنسية معسكرة بين عزبة البرج وشاطئ البحر الأبيض المتوسط بقيادة الجنرال فردييه Verdier ، فسار بجنوده يوم أول نوفمبر سنة ١٧٩٩ لملاقاة الجنود العثمانية الذين رابطوا على شاطئ البحر بين بوغاز دمياط وبحيرة المنزلة ، وهاجمهم في مواقعهم ، ونشبت بينهم معركة انتصر فيها الجنرال فردييه انتصاراً كبيراً ، ويقول الفرنسيون إنه قتل في أثناء هذه المعركة زهاء ثلاثة آلاف من الأتراك وأسروا منهم ثمانمائة (١) ، وعلم كليبر وهو في

(١) رسالة الجنرال كليبر إلى المدير كتوار بتاريخ ١٦ نوفمبر سنة ١٧٩٩

القاهرة نبأ نزول العثمانيين إلى الشاطئ، والهزيمة التي حلت بهم، فشدد هذا الانتصار عزائم الفرنسيين وأعاد لإيهم الاطمئنان على مصيرهم

أعمال كليبر العلمية

أعاد انتصار الجنرال فردييه إلى نفس كليبر روح الأمل في البقاء في مصر وتوطيد سلطة الفرنسيين فيها وإمكانه رد هجمات العثمانيين، فأخذ يعني بتنظيم الإدارة واستأنف الأبحاث العلمية التي بدأها نابليون، فقد أسلفنا أن نابليون ألف قبيل رحيله عن القاهرة لجلتين علميتين من أعضاء المجمع العلمي لاكتشاف الآثار المصرية في الوجه القبلي (١) فعزم كليبر أن يقفو آثار سلفه، فألف (٢) لجنة علمية ثالثة لدرس حالة مصر الحديثة من ناحية نظام الحكم فيها وشرائعها وقوانينها وعاداتها ودينها وحالتها الاجتماعية وعلومها وتجارها وصناعاتها وزراعتها وجغرافيتها، وكان غرضه من تأليفها أن تكمل عمل اللجنتين الأوليين ليتاح للجان الثلاث دراسة الحضارة المصرية القديمة ومخطيط مصر الحديثة، وعين لعضوية تلك اللجنة جمعا من أقطاب المجمع العلمي ولجنة العلوم والفنون، فأخذت اللجنة تولى اجتماعاتها وأبحاثها، ووضعت خطة العمل، ووزعت مواضيع البحث على الأعضاء وعلى غيرهم من علماء الحملة الفرنسية ومهندسيها، ومن أبحاث هؤلاء العلماء يتألف شطر كبير من كتاب «مخطيط مصر» الذي تكلمنا عنه في الفصل التاسع عشر من الجزء الأول

(١) انظر الفصل الرابع

(٢) في شهر نوفمبر سنة ١٧٩٩

الفصل السابع

معاهدة العريش

كان الجنرال كليبر مع استعداداته الحربية يسمى سعيًا حثيثًا في عقد الصلح على قاعدة الجلاء عن مصر ، وبالرغم من انتصار الفرنسيين على الجنود التركية في عزبة البرج فإن كليبر كان مقتنعاً بضرورة الصلح وبإنهاء حالة الحرب التي كانت تركيا تعمد المعدات لاستئنافها ، فقد أخذت قوات الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا ترابط في غزة تمهيداً للزحف على مصر ، وكانت بوارج الأسطول الانجليزي بقيادة السير سدي سميت تجوب البحر من يافا إلى الاسكندرية وتراقب سواحل مصر مراقبة دقيقة ، فاتخذ كليبر مصطفى باشا قائد الحملة التركية في معركة (أبو قير) البرية وسيطاً في فتح مفاوضات الصلح ، فجرت مفاوضة مبدئية بينهما في الشروط التي تكون أساساً للمعاهدة ، واتفق الطرفان على جعل قاعدة جلاء الفرنسيين عن مصر أساساً للصلح وأن تترك شروط الجلاء للمفاوضات الرسمية ، وفي غضون ذلك عاد رشيد أفندي يحمل جواب الصدر الأعظم على رسالة نابليون^(١) ، وخلاصة هذا الجواب أنه أعد جيشاً جراراً لطرد الفرنسيين من مصر ولسكنه تلقاء دعوة نابليون فإنه مستعد لإعداد السفن اللازمة لرحيل الفرنسيين إلى فرنسا وأنه يضمن ألا يتعرض لهم الروس والانجليز في الطريق ، وإذا تم جلاء الفرنسيين فإنه يقبل المفاوضة في إعادة الصلح بين تركيا وفرنسا ، والكتاب مكتوب بلمجة التهديد والوعيد

وصل هذا الجواب بعد رحيل نابليون بما ينيف على شهرين ، وبالرغم من أنه لم يكن مرضياً فإن الجنرال كليبر أعاد طلب المفاوضة في سبيل الصلح وبعث برسالة جديدة إلى الصدر الأعظم .

وكان السير سدي سميت يميل من جهته ولو ظاهراً إلى عقد الصلح على هذا الأساس ، ويؤثر هذه الوسيلة على إجبار الفرنسيين بقوة القتال على تسليم أنفسهم

كأسرى حرب ، لأنه كان يعتقد في قوة الجيش الفرنسي وكفاية قواده ، ولا يثق بفوز الجيش العثماني إذا دارت رحى الحرب ثانية ، وكان كليبر من ناحيته يرفض بتأنا التسليم الذي يضر بسمعته العسكرية ويؤثر استمرار الحرب على التسليم بلا شرط ولا قيد ، أما الصدر الأعظم فكان متصلياً في قبول الصلح معتزاً بعدد جنوده ومخالفة إنجلترا والروسيا مع الباب العالي ، راغباً في سحق الجيش الفرنسي وأسرهم في ميدان القتال .

لسكن السير مدني سميت تدخل في الأمر لإقناع الصدر الأعظم بقبول فكرة الصلح وتبادل هو والجنرال كليبر الرسائل لفتح باب المفاوضات الرسمية والاتفاق على هدنة يكف فيها الفريقان المتحاربان عن القتال ، وكان يعتقد أن هذه الهدنة تنفع تركيا لأنها تمكن الجيش العثماني من إتمام استعداداته للزحف على مصر ، وقد دلت الحوادث المقبلة على حقيقة هذا الغرض

مفاوضات الصلح في دمياط وغزة

أوفد الجنرال كليبر إلى السير مدني سميت الادمجودان جنرال موران Morand للاتفاق على وضع خطة لإجراء المفاوضات ، فالتقى به في يافا ووضعت الخطة ، وهي التقاء مندوبي الدول المتحالفة الثلاث تركيا وإنجلترا والروسيا بمندوبي فرنسا للشروع في المفاوضات ، وعين السير مدني سميت عن إنجلترا ، والصدر الأعظم يوسف باشا ضياء عن تركيا ، والفنصل فرانكيني Franchini عن روسيا ليدافع كل عن وجهة نظر دولته في المفاوضات ، وعاد موران إلى القاهرة ليعرض على كليبر اختيار مندوبه لإجراء المفاوضات الرسمية ، فعين الجنرال ديزيه قائد الجنود الفرنسية في الصعيد والمسيو بوسليج مدير الشؤون المالية مندوبين عنه في المفاوضات ، وفوضهما في قبول الشروط التي ارتضاها أساساً للصلح

ابتدأت مفاوضات الصلح على ظهر البارجة الانجليزية (تايجر) Tigre التي رست في عرض البحر تجاه بוגاز دمياط ، وكانت أول مقابلة بين المندوبين الفرنسيين والبريطانيين سميت يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٧٩٩ ، وكان مدني سميت يتكلم بالنيابة عن إنجلترا وحلفائها ، أما الصدر الأعظم يوسف باشا فكان منهمكاً في الزحف على مصر ، واستمرت المفاوضات عدة أيام عرض الجنرال ديزيه والمسيو بوسليج في خلالها شروط الفرنسيين لجلاتهم عن مصر ، وأهمها أن تعاد إلى فرنسا أملاكها في البحر الأبيض

المتوسط (١) ، و تفسخ تركيا معاهدة التحالف التي عقدتها مع روسيا وانجلترا ، وتعقد صلحاً نهائياً مع فرنسا بحيث تعود العلاقات بين تركيا وفرنسا كما كانت قبل الحرب ، وأن تمضى انجلترا تعهداً جديداً بالمحافظة على كيان السلطنة العثمانية ، وأن يجلو الجيش الفرنسي عن مصر بأسلحته وأمتعته على أن يكون له مطلق الحرية في اختيار الشغل الذي ينزل به في أوروبا ، ولم يكن السير سدن سميت يتوقع من مندوبي فرنسا مثل هذه الشروط لأنه كان يرجوا أن يتم الجلاء بلا شرط ولا قيد ، فأبدى اعتذاره بأن ليس لديه سلطة تخوله البت في مثل هذه الشروط وأنه ليس إلا وسيطاً بين فرنسا وتركيا ، ووعد بالتوسط إلى الصدر الأعظم لوضع شروط للجلاء يقبلها الطرفان ، وعرض على المندوبين الفرنسيين أن تبخر البارجة (تايجر) إلى مياه سورية كي يتمكن من مقابلة الصدر الأعظم الذي كان معسكراً بالقرب من غزة ، فرضى المندوبان الفرنسيان ، وأبحرت السفينة إلى يافا ، وهناك وصل إلى المندوبين الفرنسيين نبأ كان له وقع أليم في نفوسهم وأثر كبير في سير المفاوضات ، وهو سقوط قلعة العريش في يد العثمانيين

زحف الجيش العثماني واحتلال قلعة العريش

٣٠ ديسمبر سنة ١٧٩٩

ذلك أنه في خلال المفاوضات التي جرت بين كليبر والسير سدن سميت في سبيل الصلح ، كان الجيش العثماني بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيقاً قد أتم معداته للزحف على مصر من طريق سورية ، وبدأ يتقدم من غزة قاصداً العريش في منتصف شهر ديسمبر ، فوصل تجاهها يوم ٢٢ ديسمبر فحضر الحصار عليها وطلب من حاميتها تسليم القلعة .

كانت حامية العريش مؤلفة من ٤٥٠ جندياً فرنسياً بقيادة الكابتن جازلاس Gazlas من ضباط فرقة الهندسة ، وقد عني الفرنسيون بتحصين القلعة وتزويدها بالمدافع والدخائر لتستطيع رد هجوم الجيش العثماني وتعطل زحفه مدة طويلة من

(١) هي الجزائر الأيونية وقد آلت لفرنسا بمقتضى معاهدة (كامبو فورميو) ثم احتلتها الجنود الروسية والتركية أثناء القتال فطلب كليبر أن تعاد إلى فرنسا وطلب أيضاً أن يضمّن لفرنسا امتلاك مالطة

الزمن ، لكن فريقاً من حامية العريش دبت فيهم روح التمرد والخروج على النظام واعتبروا إرسالهم إلى العريش عقوبة لهم ، فاشتد سخطهم وتمردهم ، وسرت بين الجنود فكرة الانتفاض والتمرد ، فضعفت روحهم المعنوية وجعلوا يرقبون أول فرصة لإلقاء السلاح والكف عن القتال ، فلما وصل الجيش العثماني وضرب الحصار عليهم تمرد فريق من الحامية وطلبوا من القومندان تسليم القلعة فلم يجبههم إلى طلبهم وتهدد المتمردون بأشد العقاب فعاد النظام مؤقتاً بين صفوف الجنود واستمرت المقاومة عدة أيام ، ولكن روح التمرد بقيت كامنة في النفوس إلى أن انفجرت يوم ٢٩ ديسمبر لمناسبة هجوم شديد من الجنود العثمانية على القلعة ، فامتنع المتمردون عن المقاومة وسلموا القلعة وسهلوا للعثمانيين دخولها فاحتلوها يوم ٣٠ ديسمبر وأعملوا في حاميتهما السيف وقتلوا منهم ٢٣٠ وأسروا الباقين ومنهم السكاكين جازلاس

وصل نياً احتلال الأتراك للعريش إلى القاهرة فعجل الجنرال كليبر بالانتقال بمعسكره إلى الصالحية ليكون على استعداد لرد هجومهم إذا لم يتم الصلح

علم الجنرال ديزيه والمسيو بوسليج بهذه الأنباء وهما على ظهر البارجة (نايجر) ، وبديها أنها كانت من بواعث تساهلها في قبول شروط الصلح ، وقد التقى السير سدني سميث بيوسف باشا واتفقا على أن يجتمعا بالمندوبين الفرنسيين في معسكر الصدر الأعظم بالعريش لوضع شروط الصلح ، فوصل المندوبان الفرنسيان إلى العريش يوم ١٣ يناير سنة ١٨٠٠ . وهناك بدأت المفاوضات النهائية ، فكان يتولى المفاوضة عن تركيا مصطفى رشيد أفندي وفتردار الصدر الأعظم ، ومصطفى راسخ أفندي رئيس السكتاب ، وعن فرنسا الجنرال ديزيه والمسيو بوسليج ، وعن إنجلترا السير سدني سميث ، وعن روسيا القنصل فرنكيني Franchini

المجلس الحربى الفرنسى لإقرار الصلح

استمرت المفاوضات عدة أيام كان الجنرال كليبر في خلالها مرابطاً بالصالحية يستعد للقتال ، ذلك أنه بعد احتلال العثمانيين للعريش اعتقد أنهم ينوون استمرار الحرب ، فحشد قواته استعداداً للمقاومة ، واتخذ الصالحية معسكره العام واجتمع بقواد جيشه يتداولون في الخطة التي يجب اتباعها ، وكان كليبر يميل إلى الصلح ، لكنه لم يشأ أن يتفرد باحتمال هسذه التبعة ، فجمع مجلساً حربياً في الصالحية من نخبة قواد

الجيش ليقرر رأيه في قبول الصلح أو استمرار القتال ، وكان المجلس مؤلفاً من الجنرال كليبر رئيساً ، والجنرال داماس رئيس أركان حرب الجيش ، والجنرال رينيه Reynier وفريان Friant من قواد الفرق ودافو Davout ورامبون Rampon ولاجرانج Lagrange وروبان Robin من قواد الأورط ، والجنرال سونجي Songis قائد المدفعية والجنرال سانسون Saunson قومندان فرقه الهندسة أعضاء والقوميسير دور Daure مدير مهمات الجيش سكرتيراً للمجلس

اجتمع المجلس في المعسكر العام بالصالحية يوم ٢١ يناير سنة ١٨٠٠ ، فعرض عليهم كليبر خلاصة المفاوضات التي بدأ بها نابليون قبل سفره واستأنفها ، وبيان الشروط المعروضة لعقد الصلح ، وطلب من المجلس أن يبدى رأيه فيما يجب اتباعه حيال الموقف الحربى في مصر ، فتكلم القواد وبحثوا الموقف من ناقة وجوهه ، ثم انفق رأيه بالإجماع على وجوب قبول الصلح والجلء بدلا من المغامرة في قتال لا ينتهى إلى نتيجة صالحة حتى ولو انتصر الجيش الفرنسى ، إذ كان الانتصار لا يؤدى إلى تحسين موقف الفرنسيين ، ونصح القواد في قرارهم بوجوب التعميل بعقد الصلح حتى لا يضطر الجيش بعد شهرين إلى قبول شروط أقل ملاءمة لشرفه ، وطلبوا من المفاوضين أن يهتموا فى شروط الصلح بأن يكون الجلء عن القاهرة فى أبعء زمن ممكن ، وتركوا الحكمة للمفاوضين أخذ الضمانات لتنفيذ شروط المعاهدة وسلامة الجيش

وقد استند القواد فى قرارهم على أن عدد الجنود الذين يمكن للجيش الفرنسى أن يحشدهم لمقاومة الحملة العثمانية ثمانية آلاف مقاتل للدفاع عن قطية والصالحية وبلييس والقاهرة (وهذا العدد دون الحقيقة) فى حين أن عدد الجيش العثمانى الزاحف يبلغ ٢٥٠٠٠ مقاتل عدا الاحتياطى المربط فى غزة ، وأن تسليم قلعة العريش فى الظروف التى حصل التسليم فيها يدل على روح الملل الذى دب فى نفوس الجنود ، وأنه يخشى فى حالة انتصار الجيش العثمانى وقيام ثورات فى داخلية البلاد أن تستهدف حياة العشرين ألف فرنسى من عسكريين وماسكين للخطر وأن عدم ورود تعليمات من الحكومة الفرنسية إلى القيادة العامة مع مضى نحو خمسة أشهر على رحيل بونابرت إلى فرنسا دليل على موافقة الحكومة ضمناً على الجلء

وقد أرسل الجنرال كليبر نتيجة قرار المجلس الحربى إلى المفاوضين فى العريش

وكلفهم التعجيل بإتمام الصلح ، ولفت نظرهم إلى تفصيلات الجلاء كاشتراط مواعيد لتنفيذه ، وتدبير رسائل النفل ، والانفاق على خط سير الجيش وتسليمه المواقع الحصينة عند الجلاء .

التوقيع على المعاهدة

انتهت المفاوضات بتوقيع معاهدة الصلح التي عرفت في التاريخ باسم (معاهدة العريش) يوم ٤ بلوفيز من السنة الثامنة للجمهورية (٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ - ٢٧ شعبان سنة ١٢١٤) ، وقعتها بالنيابة عن الصدر الأعظم كل من مصطفى رشيد أفندي الدفتر دار ، ومصطفى راسخ أفندي رئيس السكتاب ، وعن القائد العام للجيش الفرنسي كل من الجنرال (ديزيه) والمسيو بوسليج ، ولم يوقع عليها أحد من قبل الحكومة الانجليزية .

وقد تضمنت المعاهدة بيان الغرض منها ، وهو جلاء الفرنسيين عن مصر ، لجاء فيها أن الجيش الفرنسي لرغبته في وضع حد لسفك الدماء وإنهاء النزاع القائم القائم بين الجمهورية الفرنسية والباب العالي قد قبل أن يخلو عن مصر على النحو الوارد في هذه المعاهدة مؤملاً أن يكون هذا النزول منه تمهيداً للصلح العام في أوروبا .

شروط المعاهدة

تقضى معاهدة العريش بجلاء الجنود الفرنسية عن مصر بأسلحتهم وأمتعتهم وأثقالهم ، وإفلاعها بحراً من ثغور الإسكندرية ورشيد وأبو قير على السفن الفرنسية والسفن التي تعدها الحكومة العثمانية ، ولهذا الغرض ترسل الحكومة العثمانية إلى الاسكندرية بعد شهرين من التصديق على المعاهدة قوميسيرا ومعه خمسون شخصا لإعداد السفن التي تقل الجنود ، ويتم الجلاء في مدى ثلاثة أشهر تكون بمثابة هدنة لتنفيذ شروط المعاهدة ، وفي حالة عدم ورود السفن التركية لنقل الجنود في خلال هذه المدة تمد الهدنة إلى أن يتم رحيلهم ، وتعهد الطرفان بالمحافظة على سلامة هذه الجنود والآهالي أثناء الجلاء ، ويتم نقل الجنود في السفن بحسب النظام الذي يوضع بمعرفة قوميسيرين يعيينهما الباب العالي والجنرال كليبر ،

وإذا وقع خلاف بين القوميسيرين في حالة نقل الجنود يمين السير سدى سميت قوميسيراً من قبله لحسم الخلاف طبقاً للوائح البحرية البريطانية .

مواعيد الجلاء — نصت المعاهدة على أن يكون جلاء الجنود الفرنسية في المواعيد الآتية :

قطية والصالحية — بعد ثمانية أيام أو عشرة على الأكثر من التصديق على المعاهدة المنصورة — بعد خمسة عشر يوماً

دمياط وبلبيس — بعد عشرين يوماً

السويس — قبل الجلاء عن القاهرة بستة أيام

القاهرة — بعد أربعين أو على الأكثر خمسة وأربعين يوماً من التصديق على المعاهدة

المدن الواقعة بالبر الشرقى للنيل — بعد عشرة أيام .

بلاد الدلتا — بعد خمسة عشر يوماً من الجلاء عن القاهرة .

المدن الواقعة بالبر الغربى للنيل — يحلوا عنها الجيش عند الجلاء عن القاهرة ، ومع ذلك فللجنود الفرنسية احتلالها إلى أن تصل الجنود القادمة من الوجه القبلى ، ويمكن مد هذا الموعد إلى آخر يوم من أيام الهدنة .

وتسلم المواقع التى يحلوا عنها الفرنسيون إلى الجيش العثمانى بالحالة التى هى عليها وقت التوقيع على المعاهدة مع المحافظة على سلامة الجنود الفرنسية ، ومع اتخاذ الوسائل لجعل مواقع الجنود العثمانية بعيدة عن الجنود الفرنسية أثناء الجلاء منعاً للتصادم بينهما . ونصت المعاهدة على وجوب إطلاق سراح المعتقلين من الجانبين فى فرنسا أو فى مصر أو فى تركيا والمحافظة على سلامة وأموالهم من أظهر الولاء من المصريين نحو فرنسا أثناء الاحتلال الفرنسى ، وإعطاء جوازات مرور للجيش الفرنسى من قبل الحكومة العثمانية وحليفاتها (إنجلترا والروسيا) لضمان وصول الجيش إلى فرنسا وعدم التعرض له فى البحر لا من جانب تركيا ولا من جانب حلفائها ، وصرح لتركيا أن ترسل توكلاً بعد التصديق على المعاهدة مندوبين من قبلها إلى القاهرة والمدن المحتملة لدفع نفقات ترحيل الجنود وتوفير المؤونة اللازمة لهم ، وتعهد الفرنسيون بعدم جباية أموال بعد التصديق على المعاهدة ، ويبدأ سريان المعاهدة من يوم التصديق ، ويتم التصديق فى خلال ثمانية أيام من التوقيع عليها ، وكتبت المعاهدة باللغتين

الفرنسية والتركية ، وقد صدق الجنرال كليبر على المعاهدة في معسكر الصالحية يوم ٢٨ يناير سنة ١٨٠٠ ، وأرسل صورتها إلى الجنرال دوجا بالقاهرة ليبلغها إلى الديوان .

قال الجبرتي في هذا الصدد :

« تم عقد الصالح على اثنين وعشرين شرطا رسمت وطبعت في طومار^(١) كبير ، وورد الخبر بذلك إلى مصر وفرح الناس بذلك فرحا شديداً ، وأرسل سارى عسكر الفرنسيات (كليبر) مكانة بصورة الحال إلى دوجا قائمقام ، لجمع أهل الديوان وقرأ عليهم ذلك ، ولما ورد ذلك الطومار المتضمن عقد الصالح والشروط عربوه (لأنه كان محرراً بالفرنسية والتركية) وطبعوا منه نسخاً كثيرة فزقوا منها على الأعيان والصقوا منها بالأسواق والشوارع »

وقد نشر الجبرتي في تاريخه صيغة الترجمة العربية للمعاهدة كما وزعت في القاهرة في ذلك العهد وطبعت على المطبعة الفرنسية العربية التي أنشأها الفرنسيون في مصر ، لكن هذه الترجمة سقيمة ، وفيها أغلاط كثيرة جداً ، فأثرنا أن نعرب المعاهدة عن الأصل الفرنسى وقد لخصنا فيما تقدم أهم شروطها ونشرناها بنصها في قسم الوثائق التاريخية^(٢) ليرجع إليها القارىء إذا شاء زيادة البيان .

نظرة في معاهدة العريش

إن معاهدة العريش تنحصر في كلمة وجيزة وهى جلاء الفرنسيين من مصر بلا قيد ولا شرط . وهى أول وثيقة من الوثائق الدولية الحديثة اعترفت فيها الدولة المحتلة مصر في أواخر القرن الثامن عشر بفشل احتلالها وتعهدت بجلاتها عن البلاد ، فهى بهذا الاعتبار خطوة في سبيل تكوين مصر المستقلة ، لأن تركيا وإن كانت قد تولت عقد هذه المعاهدة على أنها صاحبة الولاية على مصر وقتئذ إلا أنها فى الواقع لم تستطع أن تسترجع حكمها القديم على ضفاف وادى النيل ، أو تضع يدها على البلاد ، وبذلك خلصت البلاد لأهلها ، وأسلم الشعب مقاليد الحكم إلى محمد على الكبير كما

(١) الطومار كما فى لسان العرب (الجزء السادس) معناه الصحيفة

(٢) وثيقة رقم ٤

ستفصل ذلك فى موضعه ، فمعاهدة العريش هى الوثيقة الرسمية التى تعهدت فيها فرنسا بالجللاء عن مصر ، فهى إذن من أهم الوثائق الرسمية فى تاريخ مصر الحديث .
وقد شعر الجنرال كليبر بأن هذه المعاهدة قضت نهائياً على أحلام الفرنسيين فى إنشاء مستعمرة فى وادى النيل ووضعت حداً للحملة الفرنسية التى كان نابليون يبنى عليها الآمال السكبار ، ومع أن كليبر كان من أشد أنصار الجللاء ، إلا أنه أحس الذلة بعد التصديق على المعاهدة لأن اسمه قد اقترن بانسحاب الفرنسيين من مصر ، وقد أفضى بشعوره إلى أخصائه وصرح به كتابة فى رسالة إلى الميسيو بوسليج بتاريخ ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ ، قال فيها :

« إن هذه المعاهدة لم تسيء إلى أى أحد سوى ، فإن مصلحتى كانت تقضى على بأن أ كسب نحر منازلة الصدر الأعظم فى ميدان القتال ، وأن أقدم هذا الفخر على كل الاعتبارات الأخرى ، لكننى لا أكون قد قمت بواجبى الوطنى إذا أنا ضحيت حياة عشرين ألف فرنسى فى سبيل مجدى الشخصى ، وسأستهدف الآن لمطاعن من كانوا حتى اليوم أكثر الناس خوفاً من نتائج استمرار القتال ، فهم الآن سينادون بأنه كان يجب أن نواصل الحرب ، على أنى وطنت نفسى على ألا تغربنى المدايح كما لا تؤثر فى نفسى المثالب القائمة على الإفك والبهتان مادام ضميرى يشهد بأنى قد أديت واجبى »

طلوت معاهدة العريش صحيفة القتال وقتياً ، وعاد الجنرال كليبر من الصالحية إلى القاهرة يصحبه المندوبان المفوضان اللذان وقعا على المعاهدة ، فوصلوا إلى القاهرة يوم ١٨ فبراير ، وأخذوا يعدون معدات الجللاء .

الاستعداد للجللاء

عاد كليبر إلى القاهرة وأخذ يستعد لجللاء الجنود الفرنسية عن مصر ، وألف لجنة لإنفاذ الجللاء فى المواعيد المحددة فى المعاهدة ، وكان جاداً فى تنفيذ شروط الصلح غير حاسب أن فى الجو مفاجآت أدت بعد ذلك إلى نقض المعاهدة ، فقد كان كليبر فى عودته إلى القاهرة يصحبه أحد الرؤساء العثمانيين من حاشية يوسف باشا اسمه « محمد أغا » ليتولى إدارة الحكومة ، فساعده الجنرال كليبر فى عمله وأمر حسن أغانجاتى المحاسب بان يتلقاه فى بيته ويبالغ فى إكرامه ، قال الجبرقى فى هذا الصدد :

« فلما كان بعد العشاء دخل ذلك الأغا إلى مصر في موكب ، فحلفت بين الناس ضجة عظيمة ، وازدحموا لمشاهدته والفرجة عليه »

مظالم الحكم التركي

لكن مندوب تركيا أدى مهمته بطريقة نفرت قلوب المصريين وكانت أعماله نموذجاً سيئاً جعلت المصريين ينظرون بعين السخط إلى الحكم التركي ، وسترى من الحوادث المقبلة التي وقعت بعد جلاء الفرنسيين أثر هذه الحالة النفسية في تطورات الحوادث في مصر .

دعا مندوب الدولة في صباح تلك الليلة كبراء البلد من العلماء والأعيان والوجاهة والتجار ، فلما اجتمعوا به تلا عليهم أمراً من الصدر الأعظم بتعيينه مديراً لجسار القاهرة وبولاق ومصر القديمة ، ويقضى هذا الأمر باحتكار جميع الواردات من أصناف الأقوات ، فيشتريها مدير الجمارك المذكور بالثمن الذي يسمره (بمعرفة المحتسب) ويودعها المخازن ، وتلا أمراً آخر يقضى بتعيين مصطفى باشا الذي سبق أن أسره الفرنسيون في معركة أبو قير وكيلا عنه وقائماً بمصر إلى حين حضوره ، وإلزام السيد أحمد المحروقي كبير تجار القاهرة بتحصيل ثلاثة آلاف كيس (١) لسد نفقات ترحيل الجنود الفرنسية ، ولا جدال أن مثل هذه التصرفات وما فيها من احتكار الأقوات وفرض الاتاوات والغرامات لم تكن فاتحة سارة لأعمال المندوب العثماني ، بل كانت نذير الظلم والاعتساف ، قال الجبرتي في هذا الصدد : « أخذ السيد أحمد المحروقي في تحصيل ذلك القدر من الناس وفرضوه على التجار وأهل الأسواق والحرف وشرعوا في تحكيز الأقوات فقلت أسعارها وضاعت مؤن الناس ، ودهى الناس من أول أحكامهم (الأتراك) بهاتين الداهيتين ، وكان أول قادم منهم أمير المسكوسات (مدير الجمارك) ومحكر الأقوات ، وأول مطالوبهم مصادرة الناس وأخذ المال منهم وتغريمهم »

ومع ذلك فقد جنى السيد المحروقي هذه الغرامة من سكان القاهرة واجتهد في

(١) الكيس خمسمائة قرش من عملة ذلك العصر .

توزيعها توزيعاً عادلاً ، ودفع الناس ما طلب منهم عن طيب خاطر لعلمهم أن ذلك للجلاء الفرنسيين .

ولم يكتف يوسف باشا بذلك بل أصدر أوامره إلى البلاد « بتعيين المعينين والمباشرين لطلب المال والغلال والكلف من الأقاليم ، وأرسل إلى البنادر وجعل في كل بندر أميراً ووكيلاً لجمع الغلال والمطلوبات من الذخيرة وخزنها بالحواصل » ولا يخفى ما ذلك من الإرهاق والظلم .

وقال الجبرتي أيضاً : « إن العثمانيين تدرجوا في دخول مصر ، وصاروا في كل يوم يدخل منهم جماعة بعد جماعة ، وأخذوا يشاركون الناس في صناعاتهم وحرفهم مثل القهوة والحمامية والخياطين والمزينين وغيرهم ، فاجتمع العامة وأصحاب الحرف وذهبوا إلى مصطفى باشا قائممقام وشكوا إليه ، فلم يلتفت لشكواهم لأن ذلك من سنن عساكرهم وطرائقهم العقيمة »

هذا ما كتبه الجبرتي في بيان مساوي الحكم التركي في ذلك العهد ، وهو قول لا غبار عليه ، وقد أيدت الحوادث التي تابعت ذلك حكم الجبرتي .

ولم تقف المغارم عند هذا الحد ، بل أخذ المماليك الذين جاءوا في ركاب يوسف باشا يأمرؤن وينهون ويشمخون بأنوفهم ويعودون إلى أساليبهم ومظالمهم القديمة ويفرضون على الأهالي ما شاءت أهواؤهم من الجمالات والآناوات .

أما الفرنسيون فقد انهمكوا في إعداد معدات الرحيل وشرعوا في بيع أمعتهم وما بقي من سلاحهم ودوابهم ، وسلبوا غالب الثغور والقلاع ، وبادر جماعة من أقطاب الحملة إلى السفر لفرنسا دون انتظار رحيل الجيش ، وكان الجنرال (ديزنه) أحد الموقعين على معاهدة العريش أول من بادر إلى السفر وصحبه في سفره الجنرال دافو والقوميسير (ميو) Miot ومعهم بعض الضباط فأقلعوا من الإسكندرية قاصدين فرنسا ، لكن أوامر الأميرال اللورد كيث Keith قومندان القوات البحرية الانجليزية في البحر الأبيض المتوسط صدرت إلى بوارج الأسطول بإلغاء العمل بشروط معاهدة العريش . فضبط الجنرال ديزنه ورفاقه وابشوا في ثغر (ليفورن)^(١)

رهن الاعتقال وهم يحتجون على هذه المعاملة وما فيها من نقض معاهدة المريش ، إلى أن سمح لهم بمواصلة السفر إلى فرنسا فوصل ديزيه إلى طولون يوم ٢٤ أبريل سنة ١٨٠٠ (١) .

وكذلك جرى للمسيو بوسليج والجنرال دوجا وغيرهما فان السفن الانجليزية صادرت سفرهم ولم يصلوا إلى فرنسا إلا بعد عناء كبير .

(١) علم ديزيه عند نزوله إلى طولون أن نابليون في إيطاليا يحارب النمبيين فلحق به وحارب إلى جانبه في معركة (مارنجو) التي انتصر فيها نابليون وقتل فيها ديزيه (١٤ يونيو سنة ١٨٠٠) . ومن غرائب الأقدار أنه قتل في نفس اليوم الذي قتل فيه الجنرال كليبر بالقاهرة .

الفصل الثامن

نقض المعاهدة

ومعركة عين شمس

لم تقع هذه المصادرات عفواً ، بل كانت نتيجة خطة اتبعتها الحكومة الانجليزية حيال معاهدة العريش . فانما لم تقر هذه المعاهدة وأعلنت أنها لا ترتبط بشروطها وأصدرت أوامرها إلى اللورد كيث ألا يأذن للجنود الفرنسية باجتياز البحر والوصول إلى فرنسا .

والواقع أن السير سدفى سميث لم يوقع على المعاهدة مع أنه كان وسيط الاتفاق بين الفرنسيين والعثمانيين والمتولى لسير المفاوضات والواضع لشروط الصلح . ولعله لم يوقع عليها لترك حكومته حرة في تنفيذ ما يروق لها من نصوص المعاهدة ورفض ما لا يروقها فالحكومة الانجليزية لم تقبل أن يبحر الجنود الفرنسيون بأسلحتهم إلى بلادهم وأصرت على أن يسلموا أسلحتهم ويسلموا أنفسهم كأسرى حرب ، وألا يسمح لهم بالذهاب إلى فرنسا . وكانت العقوبات التي لقيها ديزيه وبوسليج ودوجا في سفرهم نتيجة هذه التعليمات .

أدرك الجنرال كليبر أن الحكومة الانجليزية قد عبثت به في مفاوضات العريش فتركته يتعهد بالجلء عن مصر واعتزمت أن تأخذ جنوده كأسرى حرب . وفي الوقت نفسه كان يوسف باشا الصدر الأعظم يتقدم بجنوده في داخلية البلاد تنفيذاً للمعاهدة فاحتلت جنوده قطية والصالحية وبلبيس والسويس والمنصورة وحزبة البرج ودمياط يدون قتال . واستقر في بلبيس . وتقدم القسم الأول من الجيش العثماني بقيادة ناصف باشا إلى الخانكة ثم إلى المطرية . وعين الصدر الأعظم درويش باشا والياً على الصعيد فضى إلى الوجه القبلي ليتولى حكمه

فشعر كليبر بحرج موقعه ، وأخذ يستعد لاستئناف القتال وكان بعض الجنود العثمانيين قد دخلوا القاهرة أفراداً ، وحدثت بينهم وبين الجنود الفرنسية بعض

مشاجرات ، فأصدر كليبر أمراً بالآلا يدخل القاهرة أى جندى عثمانى ، وأعاد تحصين القلاع المحيطة بالمدينة وأرجع الذخائر والمهمات إلى المعسكر العام ، واستدعى كتائب الجيش من الرحمانية ورشيد والوجه القبلى ، فاحتشد الجيش ورابط بالقبة استعداداً لملاقاة الجيش العثمانى القادم ، وأرسل كليبر إلى الصدر الأعظم الذى كان لم يزل ببليس يذكّر له ما كان من نقض الانجليز للمعاهدة ، فأرسل الصدر الأعظم إلى السير سدننى سميث يطلب إليه احترام شروط الصلح ، وأخذ هو يزحف ببقية الجيش على القاهرة ، فوصل إلى الخانكة ثم تقدمت جنوده بقيادة ناصف باشا نحو القبة فصارت وجهاً لوجه أمام القوات الفرنسية ، وفى ذلك الحين وصل إلى القاهرة مندوب من قبل الأميرال اللورد كيث يحمل خطاباً أشبه ببلاغ نهائى إلى الجنرال كليبر ينذره بأنه تلقى من حكومته أمراً بالآلا يقبل أى اتفاق مع الجيش الفرنسى إلا إذا قبل أن يلقى السلاح من يده ويسلم ماله من الأسلحة والذخائر والامتعة والسفن ويسلم الجنود أنفسهم كأسرى حرب ، وآلا يسمح بوصول الجنود إلى فرنسا إلا على قاعدة تبادل الأسرى ، وأعلنه أنه سيضبط فى البحر كل سفينة تقل جنوداً فرنسية ولو كانت تحمل جواز مرور من أحد الحلفاء (يقصد تركيا) ويعتبرها غنيمة حربية ويعتبر الجنود الذين على ظهرها كأسرى حرب .

كان هذا الانذار نقضاً صريحاً لمعاهدة العريش ، فهو بمثابة إعلان لحرب جديدة عقيم ، لأن جلاء الجنود الفرنسية عن مصر كان أمراً مقضياً وكان الفرنسيون جادين فى تنفيذ المعاهدة ، ومصر لم يكن يهمها إلا الجلاء ، لكن الحكومة الانجليزية كانت تريد إذلال فرنسا بسبب العداء الذى كان قائماً بين الدولتين ، ولم تقبل أن يعود الجيش الفرنسى إلى بلاده كي لا يشترك فى الحروب الأوروبية بين فرنسا من جانب وانجلترا وحلفائها من جانب آخر ، وهكذا نفخت نار القتال فى مصر بغير جدوى بعد أن خمدت جذوتها واستعد الفرنسيون للجلاء ولقى الشعب المصرى فى ميدان الحرب الجديدة من الولايات والكوارات ما كان عنه بمنجاة ، وفى خلال هذه الحرب ثارت مدينة القاهرة ثورتها الثمانية فسفكت فيها الدماء وأحرقت المدينة وتهدمت الدور وضاعت الأرواح وتفاقت الخطوب ، كل ذلك لأن السياسة الانجليزية أثبت أن تنفيذ معاهدة اشتركت فى وضعها .

اعتبر الجنرال كليبر إنذار اللورد كيث بمثابة إعلان للحرب ، فأخذ يستعد لقتال الجيش العثمانى ، وكان معظم جنوده قد اصطفوا للقتال فى سهول (القبة) فطلب وهو

نظم كليبر صفوفه على أربعة مربعات على الطريقة الفرنسية ، وجعل على صفوف الميمنة الجنرال (فريان) . وعلى الميسرة الجنرال (رينيه) وتحت إمرتهما قواد المربعات (بليار) و (دنزلو) ويتبعان فريان . والجنرال (روبان) و (لاجرابج) ويتبعان رينيه . ووضع المدفعية بين المربعات . والفرسان في القلب بقيادة الجنرال لسكليرك Leclerk .

وكان عدد الجنود الذين حشدهم كليبر في ميدان القتال عشرة آلاف مقاتل . وترك في القاهرة ألفي جندي لحمايتها من ثورة الأهالي والدفاع عن الحصون المشرقة على المدينة .

أما الجيش العثماني فكانت قواته الأمامية بقيادة ناصف باشا تحتل المطرية وعددها ستة آلاف من الجنود الانكشارية ، وكانت طلائعها تمتد يمينه إلى النيل ويسرة إلى سبيل ابن الحكم ^(١) وكانت جموع الجيش العثماني ترابط بغير نظام خلف هذه المواقع بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا وتحتل الجهات الممتدة بين الخانكة وأبي زعبل

ففي الساعة الثالثة من صبيحة يوم ٣٠ مارس بدأ كليبر يتحرك قاصداً مواقع ناصف باشا في المطرية ، فوصلت قوات الميمنة الفرنسية تجاه سبيل ابن الحكم حيث كانت ترابط كتيبة من طلائع الجيش العثماني ، فارتدت أمام هذا الهجوم ووصلت قوات الميسرة أمام المطرية ووقفت لتعطى قوات الميمنة الوقت الكافي لتصل إلى ما بين عين شمس والمرج ، وكان الغرض من هذه الحركة منع المدد الذي ينتظر أن يرسله الصدر الأعظم لشد أزرجنود ناصف باشا .

(١) ورد اسمه في المراجع الفرنسية (سبيل الحم) وذكر اسمه بالعربية بهذا الوضع في الخريطة التفصيلية التي خطتها مهندسو الحملة الفرنسية ، ويلاحظ لنا أن ذلك تحريف من (ابن الحكم) وقد لاحظنا على موضعه بهذه الخريطة أنه ينطق على الميدان الذي يعرف الآن بميدان ابن الحكم بعلمية الزيتون (خط مصر — المرج) والمرسوم بخريطة مصالحة المساحة الحديثة عن القاهرة وضواحيها ، وقد استفسرنا من صديقنا الأستاذ الحق مصطفى بك منير أدهم الذي تولى وضع أسماء خطط القاهرة وأحيائها وشوارعها وإرجاعها إلى أصولها ومناسباتها التاريخية عن حكمة تسميته ذلك الميدان والشارع الذي يصل إليه من العلمية (ميدان ابن الحكم) و (شارع ابن الحكم) فأخبرنا أنه سماها بهذا الاسم لأن بهذه الجهة وقعت المعركة المشهورة بين مروان بن الحكم وعبد الرحمن بن عتبة ججدهم سنة ٦٤ هـ .

ابتدأ موقف الجيش العثماني يتخرج بعد هذه الحركة ، على أن قوة من فرسان هذا الجيش ومشاته انفصلت عنه واتجهت إلى القاهرة بقيادة نصوص باشا ، وخشى الجنرال كليبر أن تقطع هذه القوة خط الرجعة على الجيش الفرنسي ، فأرسل لمحاربتها كتيبة من الجنود واسكن العثمانيين تغلبوا عليها وتمكنوا من دخول القاهرة في الوقت الذي كانت نار المعركة مستمرة في المطرية وعين شمس

ترك كليبر هذه القوة تدخل القاهرة وكلف الجنرال رينييه قائد الميسرة أن يهاجم بجنوده قرية المطرية التي كان جيش ناصف باشا متحصنها ، فدار قتال شديد بين الفرنسيين والأتراك انتهى بفوز الفرنسيين واستيلائهم على معسكر العثمانيين بالمطرية (١) وكان لمدافع الفرنسيين تأثير كبير في سير المعركة .

انصرف الفرنسيون على جيش ناصف باشا واحتلوا المطرية ، واسكن قوات الصدر الأعظم كانت مرابطة كما قدمنا خلف مواقع ناصف باشا ، فلما علم بهزيمة ناصف باشا أقبل بمجموعه لمهاجمة الجيش الفرنسي ، ووصل الجنرال رينييه بفرقة قريبا من مسله عين شمس ، فتقدم الصدر الأعظم بجنوده واصطفوا على المرتفعات السكائنة بين (المرج) و (سرياقوس) وأخذ يتأهب للهجوم ، لكن الجنرال كليبر لم يترك له فرصة لترتيب هجومه فأصدر أوامره بهجوم عام على مواقع العثمانيين الجديدة ، وانتقل ميدان القتال من المطرية إلى ما بين المرج وسرياقوس (انظر الخطة ص ١٣٧) ، وكانت المدفعية الفرنسية تحسم الرماية فتلقى قنابلها وسط معسكر العثمانيين وتحصد صفوفهم حصدا وتوقع بهم خسائر جسيمة ، فأدرك الصدر الأعظم أن موقفه أصبح هدفا للخطر ، فأخلى مواقعه وارتد إلى (الخانكة) وبذلك تم الفوز للجنرال كليبر .

انهزم الجيش العثماني شمالا وتقهقر بغير نظام بعد أن قدحته الخسائر الجسيمة ، على أن ناصف باشا تمكن من الانسحاب من ميدان القتال في رهط من الجنود واتجه إلى القاهرة ليمد القوات العثمانية التي قصدت إليها بقيادة نصوص باشا عند بدء القتال .

تعقب كليبر فلول الجيش العثماني في الخانكة ، واسكن الصدر الأعظم لم يبق بها واستمر في انسحابه شمالا إلى بلبس واحتلها بجنوده فأدركه فيها الجنرال كليبر مساء

(١) يتبين من ذلك أن أكبر شطر من المعركة وقع في المطرية ، ولذلك يسميها بعض المؤرخين معركة المطرية ، على أن اسمها الشائع معركة (عين شمس) لأن المطرية قائمة بالقرب من أطلال عين شمس القديمة .

ذلك اليوم واستعد العثمانيون للامتناع بها ولكنهم رأوا الدفاع عنها عبثا فاخلوها وتقدموا إلى الصالحية .

رواية الجبرتي

قال الجبرتي عن معركة عين شمس ما يلي : « اليوم الثالث والعشرين من شوال سنة ١٢١٤ (٢٠ مارس سنة ١٨٠٠) ركب ساري عسكر كليبر قبل طلوع الفجر بعساكره وصحبهم المدافع وآلات الحرب . وقسم عساكره طواير فمنهم من توجه إلى عرضي (جيش) الوزير (يوسف باشا) ومنهم من مال على جهة المطرية فضربوا عليهم فلم يسعهم إلا الجلاء والفرار وتركوا خيامهم ووطاقهم . وركب نصوح باشا ومن كان معه وطلبوا جهة مصر فتركهم الفرنسيون ولحقوا بالذاهبين من إخوانهم إلى جهة العرضي بالخانكة بعد أن نهبوا ما في عرضي ناصف باشا من المتاع والأغنام وسمروا أفواه المدافع وتركوها وساروا إلى جهة العرضي فلما قابضه أرسلوا إلى الوزير يأمره بالرحيل بعد أربع ساعات . فلم يسعه إلا الارتحال والفرنساوية في أثره وغاب عساكره مفرقون ومقتشرون في البلاد والقرى والنواحي لجمع المال ومقررات الفرض (١) وظلم الفقراء » .

استمر الجيش التركي في ارتداد من الصالحية حتى حدود فلسطين . وبذلك تبدد الجيش المرمرم الذي جاء يقوده الصدر الأعظم ليتسلم مقاليد الحكم في البلاد بعد إبرام معاهدة العريش . وجرت الأمور على غير ما يتوقعه الصدر ، وعادت السلطة مؤقتا إلى يد الفرنسيين .

الفصل التاسع

ثورة القاهرة الثانية

٢٠ مارس - ٢١ أبريل سنة ١٨٠٠

كانت الحامية الفرنسية في القاهرة أثناء احتشاد الجيش الفرنسي في معركة عين شمس مؤلفة من ٢٠٠٠ مقاتل بقيادة الجنرال (فرديه) Verdiet موزعة على القلاع المحيطة بالمدينة والمعسكر العام بالأزبكية ، وقد أصدر الجنرال كليبر أوامره إلى فرديه قبل انتقاله إلى (القبة) أن يمتنع بالقلاع متى أحس بوادر الثورة في المدينة ، وأن يحافظ على المواصلات بين قصر العيني وقلعة الجبل وقلعة قنطرة الليمون^(١) وكان الجنرال زاينوشك مرابطاً بالجيزة مدداً لحامية المدينة عند الحاجة ، واعتقد الجنرال كليبر أن هذه الاستعدادات كافية لإخضاع القاهرة في غيبته اقتال الجيش العثماني .

على أن انفصال السكتية المؤلفة من المقاومة العثمانيين والماليك بقيادة نصوح باشا عن ميدان معركة عين شمس ودخولها القاهرة ، قد غير وجه المسألة ، لأن هذه السكتية من شأنها أن تشجع روح الثورة في نفوس الشعب المستعد في كل لحظة للمقاومة . كما أن ناصف باشا قد انسحب بعد المعركة كما علمت واتجه إلى القاهرة في عدد حاشد من رجاله^(٢) واندس جماعة منهم في مختلف البلدان والأقاليم يحرضون الناس على الثورة ، فذهب فريق إلى دمياط وفريق إلى الصعيد يستفزون الناس لقتال الفرنسيين ، وكانت النفوس متحفزة من قبل لمقاومتهم ، فتجددت حركات الثورة والمقاومة في القاهرة وفي مختلف النواحي والجهات ، وهكذا لم يكده يخرج الجنرال كليبر ظافراً من معركة عين شمس حتى واجه في القاهرة ثورة جديدة أشد وأعظم من نورتها الأولى، وتجددت حركات الهياج في الوجه البحري، فأصدر تعليماته إلى الجنرال

(١) هي القلعة التي أنشأها الفرنسيون بقنطرة الليمون وسموها قاعة (كامان) Camin ، انظر خريطة القاهرة ص ٣١٢ الجزء الأول (الطبعة الأولى) .

(٢) انظر ص ١٣٩

(رامبون) في منوف بأن يتجه بجنوده إلى دمياط ، وعهد إلى الجنرال (بليار) بمعاونته في مهمته ، وكان الجنرال (لانس) يحبب أنحاء الدلتا لإخماد الهياج ، ثم اتصل بالجنرال (رامبون) بالقرب من سمود في طريقه إلى دمياط .

شبت نار الثورة لذن في القاهرة يوم ٣٠ مارس سنة ١٨٠٠ ومركة عين شمس قائمة ، وكان من زعماء هذه الثورة السيد عمر مكرم نقيب الأشراف ، والسيد احمد المحروفي كبير التجار ، والشيخ الجوهري ابن الشيخ محمد الجوهري^(١)

بدء الثورة

لم يكذب يسمع سكان العاصمة تصف المدافع في ميدان المعركة حتى بدأت الثورة في حى بولاق ، وفي ذلك يقول الجبرتي : « أما بولاق فإنها قامت على ساق واحد ، وتجزم الحاج مصطفى البشتيلي وأمثاله (من دعاة الثورة) وهيجوا العامة وهيئوا عصيهم وأسلحتهم ، ورمحوا وصفحوا ، وأول ما بدوا به أنهم ذهبوا إلى وطاق الفرنسي الذي تركه بساحل البحر (النيل) وعنده حرس منهم فقتلوا من أدركوه منهم ونهبوا جميع ما به من خيام ومتاع وغيره ، ورجعوا إلى البلد وفتحوا مخازن الغلال والودائع التي للفرنساوية وأخذوا ما أحبوا منها وعملوا كرانك حوالى البلد ومتاريس »

والحاج (مصطفى البشتيلي) الذي ذكره الجبرتي هو من أعيان بولاق ، سعى البشتيلي نسبة إلى (بشتيل) من أعمال البحيرة ، وقد تكلم عنه الجبرتي لمناسبة اعتقاله قبل حوادث هذه للثورة بعدة أشهر ، فذكر أن الفرنسيين اعتقلوه ثاني ربيع الأول سنة ١٣١٤ (٤ أغسطس سنة ١٧٩٩) لما بلغهم من بعض الوشاة أن بوكالة قدوراً مملوءة باروداً ، ففتشوا الوكالة ووجدوا البارود في القدور ، فضبطوها واعتقلوه ، ولم يذكر الجبرتي متى أفرجوا عنه قبل نشوب الثورة ، وظاهر من منطق الحوادث أنهم أطلقوا سراحه بعد إبرام معاهدة العريش لما عزموا على الجلاء ، فلما نقضت المعاهدة وتجددت الحرب كان البشتيلي من دعاة الثورة في بولاق .

(١) ذكر الجبرتي الاثنين الأولين ، أما ابن الشيخ الجوهري فقد ذكره الجنرال كبير في يومياته ، وكتب كبير كذلك في مذكراته أن الشيخ السادات كان من المعارضين على الثورة .

ثار أهل بولاق ، وحملوا ما وصلت إليه أيديهم من السيوف والبنادق والرماح والعصى ، واتجهوا بجمعهم صوب قلعة قنطرة الليمون (قلعة كامان) لاقتحامها ، ولسكن حامية القلعة ردت هجومهم بنيران المدافع ، فأعاد الثوار صفوفهم واستأنفوا الهجمة ، فأرسل الجنرال (فردييه) مدداً من الجنود إلى الحامية فشتتوا جموع الثائرين بنيران المدافع والبنادق ، وقتل في هذا الهجوم ثلثائة من الثوار .

أثارت هذه الحركة نائرة الأهالي في الأحياء الأخرى من المدينة ، وزاد في روح الثورة دخول ناصف باشا إلى القاهرة على النحو الذي عرفه ، وكان يصحبه عثمان بك كشخدا الدولة وهو من كبار موظفي الباب العالي ، وجماعة من البسكوات المماليك كإبراهيم بك ومحمد بك الآفني وحسن بك الجداوى ، ومع أن ناصف باشا كان في الواقع فاراً من ميدان القتال ، وبالرغم من أن وصوله كان بعد أن حلت الهزيمة بالجيش العثماني ، فإن الإشاعات قد طارت في المدينة بأن الجيش الفرنسي قد انهزم في ميدان القتال ، وزاد في تأييده هذه الإشاعات رؤية الناس جماعة من فرسان العثمانيين والمماليك يحاربون شوارع القاهرة وهم الذين تركوا ميدان معركة عين شمس .

هجوم الثوار على معسكر الفرنسيين

عمت الثورة أنحاء المدينة ، واتجه الثوار بجمعهم إلى معسكر القيادة العامة للجيش الفرنسي بالأزبكية (بيت الآفني بك) وعددهم كما يقدرهم (ريبو)^(١) نحو عشرة آلاف نائر ، وكان الجنرال ديرانتو يدافع عن معسكر الأزبكية بكتيبة من الجنود فلبى الثائرين بنار شديدة من البنادق والمدافع ، فردهم على أعقابهم ونهقروا واحتلوا بعض المنازل المجاورة للميدان لإطلاق النار على المعسكر ، فأقامت الجنود الفرنسية متاريس من جذوع النخيل للدفاع عن معسكرهم .

امتدت الثورة إلى كثير من النواحي ، وازداد عدد الجموع المنضمة إلى لوائها ، وانبث دعاة الثورة في كل مكان يحرضون الناس على القتال ، وامتلات بهم الشوارع والميادين والأسطحة حتى بلغ عددهم كما يقدرهم المسيو (جالان)^(٢) خمسين ألف نائر

(١) التاريخ العلى والمربى للحملة الفرنسية الجزء السابع
(٢) في كتابه (صورة مصر أثناء إقامة الجيش الفرنسي)

حاملين البنادق والأسلحة والعصى ، واندفعت جموعهم تقدمهم طائفة من المماليك والانسكشارية ، وانضم إليهم النساء والأطفال ، فكان لهم نداءات وصيحات تصم الآذان ، وهبت عاصفة الثورة على أحياء العاصمة كلها .

هجم الثوار على معسكر الفرنسيين ثانية في ميدان الأزبكية واستعدوا في الهجوم ثلاثة مدافع من مدافع العثمانيين التي كانت لهم في المطرية ، ولعدم وجود القنابل استعاضوا منها بكرات الموازين الحديد التي جلبوها من الوكائل والدكاكين ، لسكن الحامية الفرنسية كانت متحصنة في المعسكر ، فشدت لهم واستمر القتال إلى اليوم التالي وأخذت القلاع منذ ابتداء الثورة تضرب المدينة بالمدافع وتسقط قنابلها على الأحياء الشائرة ، وكانت قلعة الجبل وقلعة ديبوى أشد القلاع فتكا بالمدينة ، فوقع الرعب في الناس وأزمع كثير منهم المهاجرة . ولكن دعاة الثورة تعلقوا بهم وأغلقوا باب النصر الذي كانت تقصد إليه الجموع للخروج من المدينة . فانبعثت روح الحماسة والقتال في نفوس الناس ، وهجم الثوار على بيت مصطفى أغا (محافظ المدينة) الذي كان تهما بإيذاء الأهالي فأقاموا عليه البيعة بما ارتكبه من الإيذاء وقتلوه .



معسكر الفرنسيين بالأزبكية سنة ١٨٠٠ — أنظر ص ١٤٣

وفي اليوم التالي (٢١ مارس سنة ١٨٠٠ — ٢٤ شوال سنة ١٢١٤) اتسع

نطاق الثورة ، وغامرت فيها طبقات الشعب كافة ، قال الجبرتي في هذا الصدد : « تمياً كبراء العساكر والعساكر وممظلم أهل مصر ماعدا الضعيف الذي لافوة له للحرب ، وذهب المعظم إلى جهة الأزيكية وسكن الكثير في البيوت الخالية والبعض خلف المتاريس ، وأخذوا عدة مدافع (١) زيادة عن الثلاثة الأخرى وجدت مدفونة في بعض بيوت الأمراء (الماليك) وأحضروا من حوانيت العطارين من المثقلات التي يزنون بها البضائع من حديد وأحجار استعملوها عوضاً عن الجلل للدفاع ، وصاروا يضربون بها بيت ساري عسكر بالأزيكية (٢) »

في هذا اليوم حضرت قوة الجنرال (لاجرانج) Lagrange التي أرسلها كبير لجندة حامية القاهرة ، جاءت في نحو الثانية بعد الظهر وكانت ممثلة حماسة بسبب انتصار الجيش الفرنسي في معركة عين شمس ، فاكتمست الشوارع الموصلة إلى معسكر الجنود في الأزيكية ورفعت الحصار عنه وانضمت إلى الحامية وزادت في تحصين المعسكر بحيث تعذر على الثوار اقتحامه ، لكنهم استطاعوا بمعاونة حلفائهم العثمانيين والماليك احتلال البيوت التي كان يسكنها قواد الجيش الفرنسي حول ميدان الأزيكية كبيت الجنرال (رينيه) (٣) وبيت فرقة الهندسة المجاور له وغيرهما

اشتداد الثورة

ثم جاء الجنرال (فريان) Friant بجنوده ، وأراد أن يعيد النظام في المدينة ، ولكنه لم يستطع افتتاح الشوارع لكثرة ما كان بها من المتاريس والمنازل المحصنة ، فقد أقام الثوار المتاريس على أبواب المدينة وفي معظم أحيائها ، نصاب اللوق ، وناحية المدابغ ، والمحجر ، والشمخ ريجان ، والناصرية ، وقصر العيني ، وقناطر السباع ، وسوق السلاح ، وباب النصر ، وباب الحديد ، وباب القرافة ، وباب البرقية ، والسويقة ، والرويعي ، وكانت المتاريس على جانب كبير من المناعة ، فقد بناها الثوار في الشوارع وبلغ علو بعضها اثني عشر قدماً ، وتحصن الناس حولها ونحسوا للقتال ، وعبثاً حاول بعض العقلاء أن يقتنعوهم بانتصار الجيش الفرنسي في معركة عين شمس ، فأبوا أن

(١) ذكر (ريبو) أن عددها عشرون مدفأة

(٢) العبارات التي بين قوسين منقولة عن الجبرتي

(٣) هو الذي يعبر عنه الجبرتي ببيت أحمد أغا شويكار مالمكة الأصلي .

يصدقوا ذلك ، ولم يقبلوا أى نبأ بكسر شوكة الثورة ، وقتلوا الرسل الذين جاءوا بالآخبار الصحيحة عن المعركة ، وبذل الأهل ما فى ملوهم لتأييد الثورة ، وأتوا فى هذا السبيل من الأعمال ما أدهش الفرنسيين ، فقد أنشأوا فى أربع وعشرين ساعة معملا للبارود فى بيت قائد أغا بالخرنقش ، وأنشأوا معملا لإصلاح الأسلحة والمدافع ، ومعملا آخر لصنع القنابل وصبّ المدافع جمعوا له الحديد من المساجد والحوانيت ، وتطوع الصناع للعمل فيه ، وقدموا ما لديهم من الحديد والآلات والموازين وأخذوا يجمعون القنابل التى تنساقط من المدافع الفرنسية فى الشوارع ويستعملونها قذائف جديدة للضرب ، قال الخبرتى : « وأحضروا ما يحتاجون إليه من الأخشاب وفروع الأشجار والحديد وجمعوا إلى ذلك الحدادين والنجارين والسباكين وأرباب الصنائع الذين يعرفون ذلك فصار هذا كله يصنع بيت القاضى والخان الذى بجانبه والرحبة التى عند بيت القاضى من جهة المشهد الحسينى » .

وقال مسيو مارتان أحد مهندسى الحملة^(١) وكان شاهد عيان لتلك الثورة : « لقد قام سكان القاهرة بما لم يستطع أحد أن يقوم به من قبل ، فقد صنعوا البارود ، وصنعوا القنابل من حديد المساجد وأدوات الصناع ، وفعلوا ما يصعب تصديقه - وما رام كمن سمع - ذلك أنهم صنعوا المدافع » .

وقال الجزال كليبر فى يومياته : « استخرج الأعداء مدافع كانت مطمورة فى الأرض ، وأنشأوا معامل للبارود ومصانع لصبّ المدافع وعمل القنابل وابدؤا فى كل ناحية من النشاط ما أوحى به الحماسة والعصبية ، هذه هى بوجه عام حالة القاهرة عند قدومى إليها ، وإنى لم أكن أنصورها فى هذه الدرجة من الخطورة » .

تم كل ذلك فى ثلاثة أيام ، وتطوع الأهل لإمداد الثوار بالزاد وتوزيع الأقوات « وبأمر السيد المحروقي وباقي التجار الكلف والتفقات والمساكن والمشارب ، وكذلك جميع أهل مصر كل إنسان سمح بنفسه وبجميع ما يملكه ، وأعان بعضهم بعضا وفعلوا ما فى وسعهم وطاعتهم من المعونة ، وأما الفرنسيون فأنهم تحصنوا بالقلاع المحيطة بالبلد وببيت الألفى (دار القيادة العامة) بالازبكية وما والاها من البيوت واستمر الناس بعد دخول الباشا (ناصف باشا) والأمراء ومن معهم من العسكر إلى مصر أياما قليلة

(١) فى كتابه (تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر)

وهم يدخلون ويخرجون من باب الفتوح وباب العدوى ، وأهل الأرياف القريبه تأتي بالمره والاحتياجات من السمن والجبن واللبن والغلة والتبن والغنم فيبيعونه أهل مصر ثم يرجعون إلى بلادهم .»

اعتداءات يوسف لها

على أنه بما شوه هذه الثورة وقوع بعض حوادث اعتداء على المسيحيين في المدينة ، ولا يسع الكاتب المتصف إلا أن يشعر بأسف عميق لوقوع هذه الحوادث ، لأن الاعتداءات المذهبية تشوه الثورات وتلقى عليها تبعات جساماً وتجعلها بحق هدفاً للاستنكار والسخط ، ولا يخفف من هذه التبعة كون الاعتداء لم يقتصر على المسيحيين بل تناول فريقاً من المسلمين من اتهمهم الثوار بمؤالة الفرنسيين فقد قتلوا محافظ المدينة (مصطفى أغا) بهذه الحجة كما قدمنا . واعتدوا كذلك على السيد خليل البكرى ، ولم يراعوا منزلته ولا مقام بيته ، وشهر به العامة فساقوه في الشوارع عارى الرأس نقيبهم الشنتم والإهانات ، وكادوا يفتككون به لولا أن حمه عثمان بك كتحدا الدولة وآواه السيد أحمد بن محمود محرم أحد أعيان التجار إلى بيته ، نقول إن مثل هذه الحوادث ليس من شأنها أن تخفف من تبعه الاعتداء على المسيحيين ، لأنها كتحدا خليقة بالسخط والاستنكار ، وإنما يخفف من تبعتها عن العنصر المصرى ان مسئوليتها واقعة بالأكثر على عنصر الأتراك والمماليك ، فإنهم بشهادة المراجع الفرنسية هم الآمرون بالاعتداء على المسيحيين ، والمحرضون للعامة على هذا الاعتداء ، والعامة في كل عصر تتبع بلا تفكير أو روية أوامر الزعماء وأهواءهم ، فالقوميسير (ميو) Miot وهو شاهد عيان لهذه الثورة - يقول في مذكراته إن كتائب الجنود العثمانية بقيادة ناصف باشا هي التي ارتكبت حوادث الاعتداء على المسيحيين ، ويقول الجنرال كليمر في مذكراته إن بوالى الشرطة نادى بين الناس بوجوب المحافظة على أرواح المسيحيين وتوجيه قوتهم ضد الفرنسيين وحدهم ، ويقول الجبرتى إن نصوص باشا هو الأمر بالاعتداء على المسيحيين وإن جماعه الحجازية والمغاربة هم الذين ارتكبوا المنكرات من نهب وقتل .

وهنا تبدو ملاحظة جديرة بالنظر ، وهى المقابلة بين هذه الثورة وثورة القاهرة الأولى ، فالثورة الأولى^(١) بشهادة المراجع الفرنسية قد خلت من حوادث الاعتداء

(١) انظر الجزء الأول الفصل الثالث عشر .

على المسيحيين ، بخلاف الثورة الثانية . والمقابلة هنا ذات مغزى هام إذا لاحظت أن الزعامة في ثورة القاهرة الأولى كانت للعنصر المصرى وحده ، فلم يشترك في قيادتها عنصر الترك ولا المماليك ، أما الثانية فإنه وإن كانت زعامتها قد اشترك فيها العنصر القومى إلى حد ما ممثلا في أشخاص السيد عمر مكرم والسيد أحمد المحروقي والشيخ الجوهري وغيرهم إلا أن القيادة العليا فيها كانت للترك والمماليك مثل ناصف باشا ونصوح باشا وإبراهيم بك ، نغلو الثورة الأولى من حوادث الاعتداء على المسيحيين ووقوع هذا الاعتداء في الثورة الثانية مما يشرف العنصر القومى ويبرهن على أن قيادته للثورة تجعلها أميل إلى جانب الانسانية وأبعد عن الغفطات والاعتداءات المستنكرة ، ومن الإنصاف أن نستنتج من هذه المقابلة مبلغ ما جلبت عليه الروح القومية المصرية من الفطرة السليمة ونزاهة المقصد ، وأنها لا تفسد إلا بفساد القادة والزعماء . والناس على دين ملوكهم .

والآن فلننتقل إلى تتبع حوادث الثورة وتطوراتها .

وصول الجنرال كليبر

جاء الجنرال كليبر يوم ٢٧ مارس بعد أن ترك حاميات من الجنود في الصالحية والقرين وبنيس ، وعاد إلى مصر ، فألقى نار الثورة تضطرم في أحيائها من أقصاها إلى أقصاها ، ورأى الضواحي والبلاد المجاورة لها قد اشتركت في الثورة وأمدت ثوار القاهرة بالرجال والعتاد ، وشاهد في بولاق ومصر القديمة حصونا أقامها الثوار للدفاع ، ووجد جميع الوكائل والخازن التي على النيل قد تحوأت إلى شبه قلاع احتلتها الثوار . وصارت الملاحة في النيل تحت رحمتهم .

كانت القاهرة في ذلك الحين معقلا كبيرا للثورة ، فأدرك كليبر خطر الحال ، وفكر طويلا في الوسيلة الناجعة لإخمادها بعد أن تغلقت في المدينة إلى هذا الحد ، فرأى أن أخذ الثائرين بالقوة المسلحة قد لا يؤدي إلى إخماد الثورة لأن المتاريس كانت منتشرة في إحياء القاهرة . والثوار مستبسلون في المقاومة . ورأى أن مهاجمتهم في معاقلم قد يفقدهم جنوداً كان يومئذ في حاجة اليهم ، فضلا عن أن جزءاً كبيراً من جيشه كان في طريقه إلى دميـاط بقيادة الجنرال (بليار) ، وفرقة الجنرال (ريفيه) لم نزل مرابطة بالشرقية . وكانت معركة عين شمس قد استنفدت

جزءاً كبيراً من ذخائر الجيش ، فرأى من كل هذه الظروف أن المبادرة إلى مهاجمة الثوار بقوة الحديد والنار مجازفة لا تؤمن عواقبها ، ورأى من الحكمة أن يأخذهم بالمطاول ، ويستخدم الزمن في فلّ حدهم وتخضيد شوكتهم وبذر الشقاق بين صفوفهم ، فعسى بعد ذلك أن يتبين الثوار حقيقة الهزيمة التي حلت بالجيش العثماني ، فتضعف بطبيعة الحال روحهم المعنوية ، ومع الزمن يدب الملل إلى صفوفهم بما يجدون من عاقبة وقوف الأعمال ، وتعطيل حركة الأسواق ، واستهداف المدينة لخطر المجاعة ، فالزمن إذن كان يستخدم كبير ويضعف حركة الثورة ، على أن كبير أخذ في فترة الانتظار يعد المعدات لجمع الثائرين آخر الأمر بقوة السيف والنار ، فأخذ يحصن القلاع ويقيم الاستحكامات ، ويركب المدافع ويعد المواد الملتبته التي عزم على استخدامها لإحراق المدينة ، وفي الوقت نفسه كانت القلاع لا تنفك تضرب الأحياء الآهلة بالسكان بالمدافع .

استخدم كبير الوقت لفصم عرى الاتحاد بين الثوار ، قبل أن يضرب الضربة النهائية ، فقد كانت الثورة تضم تحت لوائها ثلاثة عناصر ، وهم المصريون سكان القاهرة ، والأتراك والمماليك ، فهذه العناصر الثلاثة قد اجتمعت واتحدت لمحاربة العدو المشترك ، لكن اختلاف المصالح وتباين الأغراض كان عقبة في سبيل دوام هذا الاتحاد ، وعذه العقبة وإن دُلت تحت لواء الثورة إلا أنها لا تلبث أن تبدو للعيان عند أول فرصة ، ولقد أوجد كبير هذه الفرصة بمفاوضة زعماء الأتراك في وقف القتال ، واستخدام في فتح هذه المفاوضة مصطفى باشا (١) الذي كان لم يزل أسيراً في يد الفرنسيين ، وكانوا يأسرونه بحسن المعاملة ، فتدخل مصطفى باشا وأقنع ناصف باشا بضرورة الكف عن القتال وأطلعه على تفاصيل هزيمة الصدر الأعظم وانسحابه إلى حدود سورية ، واستمرت المفاوضة مع زعماء الأتراك ورؤساء المماليك في وضع شروط الصلح ، أما أهالي القاهرة الذين على أكتافهم قامت الثورة فلم يحسب لهم حساب في هذه المفاوضات ، ولم يمثلهم فيها أحد للدفاع عن مصالحهم ، والواقع أنهم العنصر الذي ثار غير مدفوع بأغراض شخصية أو أهواء ذاتية ، لكن زعماء الأتراك والمماليك ما كانوا يقصدون من التحريض على الثورة والاشتراك

(١) هو قائد الجيش التركي في واقعة أبو قير البرية وقد أسره الفرنسيون كما مر بيان ذلك

واستخدموه في مفاوضات الصلح ثم توفي في دمياط سنة ١٢١٤

فيها إلا استعادة سلطانهم المفقوت في البلاد ، ولقد أدرك الأهالي أن الأتراك والمماليك بدءوا يعيشون بهم ، ولذلك لم يكبد بتم الاتفاق بين هؤلاء والفرنسيين على إلقاء السلاح حتى أدركوا أنهم فقدوا نفوذهم بين الجماهير ، فلم تعد تستمع لنصائحهم ، وأخذ دعاة الثورة من الأهالي يحرضون الناس على الاستمرار في القتال ، وضموا إليهم الجماهير ، فتنادوا بمواصلة القتال وخيانة المماليك والأتراك

وفي غضون ذلك كان مراد بك زعيم المماليك قد بدأ مفاوضات مع الجنرال كليبر للاتفاق مع الفرنسيين كما سيجيء تفصيل ذلك ، فأدرك الجنرال كليبر أن مصلحته تقتضي بأن يتم اتفاقه مع مراد بك ، ويخضع الجهات النائرة في الوجه البحري ، وبذلك يتم له تطويق القاهرة ، ثم يتفرغ لإخماد ثورتها وإخضاع أهلها

تلك هي الخطة التي رسمها لمواجهة الثورة والتغلب عليها

إخضاع الوجه البحري

وصل الجنرال بليار إلى دمياط تنفيذا لتعليمات كليبر ، وكانت الجنود العثمانية تحتلها وتعسكر في المدينة بغير نظام ولا قيادة ، فلما اقترب بليار بجنوده خرج العثمانيون للاقائهم من غير خطة محكمة ، ووصلوا إلى قرية (الشعراء) ، ودارت بينهم وبين الفرنسيين معركة انتهت بهزيمة العثمانيين ، واستولى الجنرال بليار على عشرة مدافع ، وقصد بجنوده دمياط فاحتلها واحتل حصونها ، واستولى كذلك على (عزبة البرج) ، وأذاع بين الأهالي خبر هزيمة الصدر الأعظم وانسحابه إلى الصحراء وفرض غرامة حربية قدرها ٢٠٠ ألف فرنك على سكان المدينة ، ثم سار إلى (منوف) وأخذ الثورة التي نشبت فيها ، وامتدت الثورة إلى (المحلة الكبرى) و (سمند) و (طنطا) ، فجرد الجنرال لانوس عليها كتيبة من الجنود بقيادة الادمودان جنرال فالنتين Valentin ، فأخذت الهياج واستعملت القسوة وسفكت دماء الناس وصادرت أموالهم وضربت على البلاد التي أخضعها غرامات حربية جسيمة ، واعتقلت الكثير من الأعيان لإكراههم على دفع الغرامات وتحصيلها

أصدر الجنرال كليبر أمرا في ٣ مايسنة ١٨٠٠ بفرض غرامة خمسين ألف ريال على مشايخ (علماء) طنطا ألزموا بدفعها في عشرة أيام ، قضى كليبر بهذه الغرامة

« عقابا لهم على الاشتراك في الثورة التي شبت في مدينتهم وفي الدلتا أثناء حصار القاهرة » وذكر في أمره أن اثنين من هؤلاء العلماء اعتقلا في سجن القلعة ، وفرض كذلك على أهالى طنطا خلاف الغرامة المتقدمة خمسين ألف ريال أخرى لاشتراكهم في الثورة ، وأمر بنقل الشيخين المعتقلين في القلعة إلى سجن منوف حيث يبقيان إلى أن تسدد الغرامة كلها وأن يعادوا إلى سجن القلعة لإذالم تسدد الغرامتان في مدة العشرة الأيام المحددة في الأمر

وذكر الجبرتي شيئا من تلك الحوادث المروعة فقال عن ثورة المحلة :

« لما حضر العثمانية وشاع أمر الصلح وخضوع الفرنسيات لهم نزلت طائفة من الفرنسيين إلى المنوفية وطلبوا من أهلها كلمة (نفقات) رحيامهم : فلما مروا بالمحلة الكبيرة تعصب أهلها واجتمعوا إلى قاضيا وخرجوا لحرهم ، فكن الفرنسيين لهم وضربهم بالمدافع والبنادق فقتلوا منهم نيفا وستائة انسان منهم القاضي وغيره ولم ينج منهم إلا من فر وكان طويل العمر » ، ثم ذكر رجوعهم عليها بعد ذلك بغرامة جسيمة . قال : « وقرروا عليها نيفا ومائة ألف ريال فرنساوى وأخذوا في تحصيلها وتوزيعها ومهاجمة دورها وتعقب المياسير من أهلها كل ذلك مع استمرار طلب السكف الشاقة في كل يوم منها »

وذكر الثورة التي شبت في طنطا وإخماد الفرنسيين لها وفرضهم على المدينة غرامة جسيمة « وزعت على الدور والخوانيت والمعاصر وغير ذلك واستمروا على ذلك إلى انقضاء العام (سنة ١٢١٤) حتى أخذوا عساكر المقام (نيجان مقام السيد احمد البدوى) وكانت من ذهب خالص زنتها خمسة آلاف مثقال »

الاتفاق مع مراد بك

عادت السلطة للفرنسيين في الوجه البحرى ، أما في الوجه القبلى فقد توصل الفرنسيون إلى إخضاعه بالاتفاق مع مراد بك ، كان مراد يتوق نفسه بعد ما حل به من الهزائم إلى مصانعتهم ، ووقف وقفة الخائف الوجل عند ما جردت تركيا حملتها الأخيرة على مصر لإخراج الفرنسيين ، لأن مراد بك كان يشعر بأن تركيا إذا فتحت مصر يحد السيف وتمكنت من إخراج الفرنسيين منها ، طمعت إلى التخلص من نفوذ المايك وعملت على استرجاع سلطتها الفعلية لإذالم تكن تنظر بعين الرضا

إلى استئثار الممالك بسلطة الحكم في مصر ، وإنما كانت تغض الطرف عنهم لضعفها وارتباك أحوالها ، أما وقد تغيرت الظروف وسنحت لها الفرصة لتجريد حملة على مصر وضممت مساعدة إنجلترا في محاربة الفرنسيين ، فكان من الطبيعي أن تحدثها نفسها باسترجاع سلطتها المطلقة في وادي النيل ، وقد أحس مراد بك بهذا الخطر منذ شرعت تركيا تعي جيوشها في سورية للزحف على مصر ، أي قبل عقد معاهدة العريش بعدة أشهر ، وبدأت الروابط الودية تتصل بينه وبين الفرنسيين من ذلك الوقت ، وقد أشار الجبرتي إلى هذا التفاهم بقوله في سياق حوادث شهر جمادى الأولى سنة ١٢١٤ أن الفرنسيين « أرسلوا حملة عساكر إلى مراد بك بناحية الفيوم وعليهم كبير (جنرال) فوقع بينهم وبينه أمور لم اتحقق تفصيلها ، وترددت بينه وبين ساري عسكر الرسل والمراسلات ، ووقع بينه وبينهم الهدنة والمهادنة ، واصطلح معهم على شروط منها تقليده إمارة الصعيد تحت حكمهم » .

فالجبرتي يقول إن ابتداء المهادنة والمهادنة بين كبير ومراد كان في شهر جمادى الأولى أي في أكتوبر سنة ١٧٩٩ ، وهو قول يتفق مع رواية المراجع الفرنسية ، لكنه زعم أنه اصطلاح معهم على تقليده إمارة الصعيد في هذا الشهر ، وهذا من « الأمور التي لم يتحقق تفصيلها » ، لأن الصلاح إنما تم في أوائل أبريل سنة ١٨٠٠ بعد واقعة عين شمس وفي أثناء ثورة القاهرة كما سيبيح بيانه ، أما قبل ذلك التاريخ فلم يكن الصلاح قد تم بينهما .

على أن الجبرتي قد صحح روايته في غضون كلامه عن ثورة القاهرة وذكر ما يدل على أن الصلاح إنما تم في شهر ذي الحجة ، فقال في حوادث ذي الحجة سنة ١٢١٤ (بعد إخماد الثورة) ما يأتي : « قلما كان يوم الخميس سابع ذي الحجة (١) ذهب كبير إلى مراد بك بجزيرة الذهب بدعوة منه ، فدله ولرجاله ولاية عظيمة وأعطاه ما كان أرسله درويش باشا معونة للباشا (الصدر الأعظم) والأمراء (الممالك) من الأغنام وغيرها وكانت نحو الأربعة آلاف رأس وولوه إمارة الصعيد من جرجا إلى إسماعيل ورجع (كبير) عائداً إلى داره بالأزبكية ، ومعنى ذلك أن المقابلة (التي وقعت عقب التوقيع على معاهدة الصلاح) إنما وقعت بعد إخماد ثورة القاهرة ، وهذا يتفق تماماً مع

رواية المراجع الفرنسية مع اختلاف بسيط في تاريخ المقابلة ، فإن الميسو (مارتان) يقول إن المقابلة كانت يوم ٣٠ أبريل ، والجبرتي يقول إنها يوم ٧ ذى الحجة أى ٢ مايو ، وليس هذا بخلاف جوهرى .

على أن علاقات كبير ومراد بك كانت ودية من يوم قدوم الحملة العثمانية ، وهذا باتفاق الجبرتي والمراجع الفرنسية ، يؤيد ذلك مارواه الجبرتي عن استدعاء يوسف باشا وهو في بلبس لمراد بك ، وتباطؤ مراد في إجابة الدعوة « إلا بعد أن استأذن من الفرنسيين سرّاً فأذنوا له بالمقابلة » ، وهذا يدل على ما كان بينهما من العلاقات الودية .

قال الجبرتي في هذا الصدد : « ورد الخبر بوصول حضرة الوزير (يوسف باشا) إلى بلبس وصحبته الأمراء المصرية (الماليك) وأرسلوا إلى مراد بك ومن معه بالحضور إلى العرضي^(١) فأجاب بالاعتذار عن الحضور لأنه في الصعيد ، فلم يقبلوا عذره واكدوا عليه بالحضور ، فاستأذن الفرنسية سرّاً فأذنوا له بالمقابلة ، وكان سفيره في ذلك عثمان بك البرديسى ، ثم أنه حضر وقابل الوزير بصحبة إبراهيم بك وخلع عليهما ورجع مراد بك فخيم جهة العادلية »

ولم يقل (ريبو) في صراحة إن مراد بك قابل يوسف باشا ، على أن رواية الجبرتي في هذه النقطة أدق وأرجح ، لأن المقابلة واقعة علنية مادية يمكن للجبرتي الذى عاش ذلك العهد في القاهرة ان يتحققها ، ويقول (ريبو) إن مراد بك تفاوض هو وكبير بعد نقض معاهدة العريش ، وقبيل معركة عين شمس في الموقف الذى يقفه بين الاتراك والفرنسيين . وكان الجنرال موران Morand رسول التفاهم والمفاوضة بينهما ، فرضى كبير من مراد بك بأن يقف موقف الحياد . وقد بر مراد بك بعهده ووقف غير بعيد من ميدان القتال في معركة عين شمس . وظل يرقب سير القتال دون أن يشترك فيه . وفي ذلك يقول الجبرتي : « أما مراد بك فانه بمجرد ما عين هجوم الفرنسيين على الباشا (يوسف باشا) والأمراء بالمطرية (واقعة عين شمس) وكان هو بذات الجبل ركب من ساعته هو ومن معه ومروا من سفح الجبل وذهب إلى ناحية دير الطين^(٢) ينتظر

(١) كلمة (عرضي) مأخوذة من التركية (أوردو) ومعناها الجيش أو الفيلق وتؤدى معنى المعسكر

(٢) بين مصر القديمة وحلاوان

ما يحصل من الأمور وأقام مطمئنا على نفسه واعتزل الفريقين واستمر على صلاحه مع الفرنسيين .

ولعل مراد بك كان « ينتظر ما يحصل من الأمور » ويرقب نتيجة القتال بين الأتراك والفرنسيين ، لينضم إلى الفريق الغالب ، فلما رأى أن النصر حليف الفرنسيين في معركة عين شمس صمم على إبرام الصلح معهم على قاعدة أن يتركوا له حكم الصعيد ويكون تابعا لهم ، وفي هذا الصدد يقول الجنرال كليبر في مذكراته : « إن مراد بك لم يكذب يتحقق من هزيمة الصدر الأعظم حتى أرسل لي يبدى رغبته في عقد الصلح معي ، فأجبت به بأنه إذا كان ذلك قصده فعليه أن يرسل لي أحد البسكوات من أتباعه لأفاوضه ، فأوفد لي أولا حسين كاشف فسألته عن طلبات صاحبه ، فأجابني بأنه راغب في الانفصال عن العثمانيين الذين يكرههم ، وأنه يريد أن يمشى مع الفرنسيين في سلام على شرط أن يضمن له كبيرهم عيشة راضية ، وأنه يستطيع أن يستخدم في مقابل ذلك نفوذه في القاهرة ليتدخل لوضع حد للمأساة التي تقع فيها ، ولما لم يكن لدى حسين كاشف السلطة الكافية التي تخوله التعاقد باسم رئيسه طلبت إليه أن يرسل إلى مراد بك مندوبا مفوضا عنه ، فاختار مراد بك عثمان بك البرديسي الذي جاء صحبة حسين كاشف ومعه جواب بأن مراد بك يفوضه تفويضا تاما في عقد الاتفاق ، فوضعنا شروط الصلح ، وتبادلنا التوقيع عليها في ١٥ جرمينال (٥ ابريل سنة ١٨٠٠) ، على أن مراد بك كتم أمر هذا الاتفاق عن أتباعه ، وهذا يرجع إلى واحد من سببين ، فإما أن مراد بك خشى إذا ذاع أمر الاتفاق أن يسيء إلى البسكوات والماليك من أتباعه الذين غامروا بأنفسهم في ثورة القاهرة ويحملهم عريضة لا تنقام العثمانيين . وإما أنه كان غير واثق من أن النصر النهائي سيكون لنا فأراد أن يرقب الحوادث قبل أن يكشف عن حقيقة موقفه ، وهذا ما أرجحه (١) . »

هذا ما قاله كليبر في مذكراته ، ولعمري لقد صور نفسية مراد بك تصويرا دقيقا ووصفه وصفا صحيحا عن خبرة وعيان ، وفي الحق أن مراد بك لم يكن يهيم إلا أن يكون مع الغالب فحسب ، وقد زاد كليبر في وصف نفسيته بقوله : « ومهما يكن من

حقيقة الواقع ورغمما من الإيham الذي أراد مراد أن يحيط به أمراً لا بد أن يعلن للسكافة، فإنه لم يفته أن يوفد إلى القاهرة أحد أتباعه (عثمان بك البرديسي) الذي كان موضع ثقته ليصرف المالميك عن الثورة ويدعوهم إلى النكوص على أعقابهم . وقد ارتاب ناصف باشا في مسلك المالميك فأمر بضبط خيولهم وجمعها في الوكائل تحت حراسة جماعة من الانكشارية، وكان عثمان بك البرديسي لا يفتأ يتردد على ويبلغني ما يصادف مسعاه من النجاح، وأرسل لي مراد بك عدة قطعان من المواشي ليبرهن لي على إخلاصه، ولكنه في الوقت نفسه كان يكتب إلى الصدر الأعظم بأنه مقيم في طاره خصيصاً لئلا يمنعنا من جلب المؤونة من الصعيد» (١).

أقول وإذا تأملت في تاريخ البسكوات المالميك لا تجد فيما ذكره كبير عن مسلك مراد بك أمراً جديداً، اعتبر ذلك في موقف المالميك حين حضر حسن باشا الجزائر إلى مصر موفداً من قبل الاستانة لمطاردتهم سنة ١٧٨٦ (٢) أى قبل هذه الحوادث بنحو أربعة عشر عاماً، وكان مراد بك وإبراهيم بك زعيمى المالميك وقتئذ، فقد فر البسكوات إلى الوجه القبلى، وأخذوا يرسلون الرسل والمسكبات يرجون توسط المشايخ والعلماء بينهم وبين حسن باشا، ولم يكونوا يطلبون إلا أن تعين لهم أما كن في الوجه القبلى يقيمون بها ويعيشون هناك (٣)، فراد بك لم يطلب من كبير سنة ١٨٠٠ إلا ما طلبه هو وزميله إبراهيم بك من حسن باشا الجزائر سنة ١٧٨٦.

واعتبر ذلك أيضاً فيما حدث بعد جلاء الفرنسيين، فإنه لما أسندت ولاية مصر إلى خسرو باشا واستعد لقتال المالميك أرسل زعمائهم إبراهيم بك ومحمد بك الألفى وعثمان بك البرديسي وكانوا قد فروا إلى الوجه القبلى يطلبون أن يقطعوا جهة يعيشون فيها، فهم في كل عصر لم يكن يهمهم إلا منافعتهم المادية.

وهكذا كان شأنهم إلى أن دالت دوائهم، وقطع دابر القوم الذين ظلموا.

(١) مذكرات الجنرال كبير.

(٢) انظر الجزء الأول ص ٢٢ من الطبعة الأولى.

(٣) الجبرى الجزء الثالث.

معاهدة الصلح بين كليبر ومراد بك

(٥ ابريل سنة ١٨٠٠)

ظل مراد بك أثناء ثورة القاهرة مقيماً في (طره) بعيداً عن حركات القتال ، وتمت مفاوضات الصلح وشروط الاتفاق بينه وبين كليبر وأمضيت بينما كانت مدافع الفرنسيين تمطر قنابلها على سكان العاصمة .

وضعت صيغة المعاهدة وتم الاتفاق عليها في القاهرة بين عثمان بك البرديسي بالنيابة عن مراد بك ، وكل من الجنرال داماس Damas رئيس أركان الحرب والمسيو جلوتيه Gloutier القوميسير الفرنسي لدى الديوان بالنيابة عن كليبر ، وتم التوقيع عليها في ٥ أبريل سنة ١٨٠٠ .

نشر (ريبو) نص هذه المعاهدة ، ولم تنشر من قبل في أى مرجع آخر ، وقد نقلها بنصها عن النسخة اللاحقة من النسخ الأصلية التي كتبت حين توقيع المعاهدة ، وهذه مقدمتها نقلاً عن النسخة الواردة في ريبو (١) :

« نظراً لما أبداه الأمير سامي المفام الحائز لكمال الشرف والاعتبار مراد بك محمد (٢) من الرغبة في أن يعيش في سلام ووفق مع الجيش الفرنسي في مصر ، ولما يرغبه القائد العام كليبر من الإعراب عما له في نفوس الفرنسيين من الاحترام الذي استوجبه شجاعته واقتضاه مسلكه حيالهم لقد تم الاتفاق على ما يأتي »

وبلى ذلك نصوص المعاهدة ، وهي مؤلفة من عشر مواد تقضى باعتراف القائد العام للجيش الفرنسي بصفته ممثلاً للحكومة الفرنسية بمراد بك أميراً وحاكماً للوجه القبلي ، وبخوله بناء على ذلك السلطة على تلك البلاد ابتداء من بلصفورة الكائنة بمديرية جرجا إلى أسوان في مقابل أن يؤدي للجمهورية الفرنسية الخراج الواجب دفعه لصاحب الولاية على مصر ، وقد حدد هذا الخراج في الانفاقية بـ ٢٥٠ كيس (٣) ،

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء السابع .

(٢) نسبة إلى محمد أبى القذهب لأن مراد بك من مماليكه

(٣) الكيس يساوى خمسمائة قرش من عملة ذلك العصر .

علاوة على ١٥٠٠٠ أردب من القمح و ٢٠٠٠٠ أردب من الشعير والحبوب (١) ، ويخصص لمراد بك إيراد جمر الكفصير واسنا ، ويحتل الجيش الفرنسي ثغر القصير على أن يكون لمراد بك الحق في إبقاء فصيلة من الجنود المماليك فيها ، وعليه دفع نفقات الحامية الفرنسية في (القصير) وأن لا يقل عدد هذه الحامية عن مائتي جندي ، وعلى كل من الطرفين أن يسلم الطرف الآخر الجنود اللاجئة إليه ، ولا يجوز لكل منهما قبول الفلاحين الذين يمتنعون عن دفع الضرائب ، ويفرون إلى منطقة الطرف الآخر ، وتسكون إقامة مراد بك في بندر جرجا ، وعليه أن يوفد إلى القاهرة أحد البسكوات من أتباعه مندوباً عنه لدى القائد العام بقمم بالقاهرة ، ويضمن القائد العام لمراد بك تمتعه بإيراد المنطقة التي يحكمها ، ويتعهد بحمايته في حالة مهاجمته ، وإذا حصل هجوم على المنطقة التي يحتلها الجيش الفرنسي فعلى مراد بك أن يرسل إليها قوة من جنوده توازي على الأقل نصف قواته ، ويتعهد القائد العام بأن لا يقبل أى اتفاق فيه مساس بالمزايا المخولة لمراد بك في هذه المعاهدة ، وعليه أن يحيط الحكومة الفرنسية بهذه المعاهدة لتراعيها في اتفاقاتها الخاصة بمصر .

هذه خلاصة معاهدة (كليمير - مراد (٢)) ، وهي تناهض في أن مراد بك قبل أن يحكم الصعيد تحت حماية الحكومة الفرنسية ، وغنى عن البيان أنه لم يراع في هذه المعاهدة إلا مصلحته الشخصية دون أن ينظر أية نظرة إلى مصلحة البلاد . وهكذا كان على الدوام شأن المماليك من يوم أن أطلقت يدهم في شؤون مصر ، فإنهم لم يكن يهمهم إلا ولاية الحكم ليرهبوا البلاد بأنواع المظالم ، وقد باع مراد بك في الولاة الفرنسيين بعد هذه المعاهدة ، فلم يكدهم التوقيع عليها حتى أنفذ إلى معسكر الفرنسيين الهدايا والمهمات والقلل والمؤن ، وسلمهم بعض العثمانيين اللاجئين إليه ، وطردهم من الصعيد درويش باشا الذي جعله يوسف باشا الصدر الأعظم والياً على الصعيد ، وكان قد نزل الوجه القبلي طبقاً لمعاهدة العريش ، فلما نقضت المعاهدة وتجدد القتال جمع حوله نحو عشرة آلاف من الفلاحين والعرب وأجمع الزحف على القاهرة لقتال الفرنسيين ، فطلب كليمير إلى مراد بك مطاردته تنفيذاً للاتفاق المبرم بينهما ، فتمتعه مراد بك واضطره إلى الانسحاب شمالاً قاصداً فلول الجيش العثماني في غزة .

(١) يبلغ ذلك كله نحو ٦٥٠٠٠ فرنك في السنة كما قدره المسيو (ريبو) .

(٢) نشرنا نص المعاهدة في قسم الوثائق الرسمية وثيقة رقم ٥ .

قال الجبرتي في هذا الصدد ما يأتي : « إن مراد بك عند توجهه إلى الصعيد بعد نقضاء (نقض) الصلح أخذ مآجعه درويش باشا من الصعيد من أغنام وخبول وميرة وكان شيئاً كثيراً ، فتسلم الجميع منه ، وعدى درويش باشا إلى الجهة الشرقية متوجهاً إلى الشام وأرسل مراد بك جميع ذلك للفرنساوية بمصر » .

وقال في حوادث سنة ١٢١٤ بعد نقض الصلح بين الفرنسيين والعثمانيين : « أرسل الفرنسيين عسكرياً إلى مستلم السويس فتعصب معه أهل البندر وحاربوهم ، فقتلهم الفرنسيين وقتلوه عن آخرهم ، ونهبوا البندر وما فيه من البن والبنار الذي يجو اصل التجار غير ما فعلوه مع درويش باشا ، وكان المعضدون له مراد بك وصحبته الفرنسيين فأخذوا مآجعه ونجا بنفسه » .

وسمى مراد بك سعيماً حديثاً في أن يضم الماليك الذين في القاهرة إلى صفوف الفرنسيين ، ولما أعيتته الحيل أشار على كليبر بإضرام النار في القاهرة لإخضاعاً للثورة ، ويقول (ريمو) إنه أرسل فعلاً إلى كليبر عدة مراكب محملة مواد ملتهبة لإحراق العاصمة (١) .

ويقول المسيو (جولان) (٢) وهو شاهد عيان لملك الحوادث ما خلاصته « بعد أن تم التوقيع على معاهدة (كليبر - مراد) أرسل لنا مراد بك المؤن وسلم لنا العثمانيين اللاجئين إلى معسكره . وسعى لدى أعوانه في القاهرة لتسليم المدينة . لكنه رأى أن مساعاه لم يؤد إلى نتيجة سريعة فعرض علينا إحراق المدينة وأرسل لنا لهذا الغرض المراكب محملة أحطاباً » .

وفي كتاب المسيو مارتان Martin (٣) (وهو أيضاً شاهد عيان لثورة القاهرة) تأييد لهذه الرواية ، ويقول المسيو ديفيليه De Villiers أحد مهندسي الحملة الفرنسية في مذكراته (٤) إن مراد بك ظل موالياً للفرنسيين أثناء حصار القاهرة وإنه

(١) التأريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية الجزء السابع .

(٢) في كتابه (صورة مصر أثناء إقامة الجيش الفرنسي) .

(٣) تاريخ الحملة الفرنسية في مصر .

(٤) يوميات وذكريات عن حملة مصر .

أرسل لهم الأحطاب لإحراق المدينة « ولسكننا أبقينا عليها حتى نحصل منها على الغرامة الحربية التي كنا في حاجة إليها » ، هذا ما يقوله ديفيليه ، ومنه يتبين صراحة أن الفرنسيين لم يتورعوا عن إحراق القاهرة إلا ليهتروا من أهلها المال والغرامات الفادحة

على أنهم مع ذلك قد أضرموا النار في كثير من أحيائها كما سيحيى بيانه ، ومن ذلك يتضح لك أن مراد بك قد اشترك في مأساة إحراق القاهرة ؛ وهكذا سمى ذلك الأمير العادر في تدمير المدينة العظيمة التي مكنت له في البلاد وأعدت عليه زمنا ما نعمة الحسك والجاه

إخماد ثورة القاهرة

تم للفرنسيين إخضاع الوجه البحري في أوئل ابريل سنة ١٨٠٠ ، وكان ذلك بمثابة تطويق لمدينة القاهرة ونأهب لإخماد الثورة التي كانت تستعر ناراها منذ ٢٠ مارس ، وكانت مدافع الفرنسيين في خلال هذه المدة تصلى المدينة نارا حامية ونطلق قدائفها على المنازل التي كانت ملجأ للثوار ، فلما جاءت فرقة الجنرال (رينيه) من الحدود الشرقية عسكرت أمام القاهرة واحتلت الآكام المشرفة على المدينة من قلعة كامان (قنطرة الليمون) إلى قلعة ملسكوسكي (جامع الظاهر) ، ومنه إلى قلعة المقطم ، فأحاطت بالمدينة شمالا وشرقا ، وابتدأ الهجوم على مواقع الثوار ليلة ٤ ابريل ، فأمر الجنرال كليبر بتقدم السكتائب الفرنسية من ناحية باب الحديد وكوم أنى الريش وقنطرة الحاجب وبركة الرطلى والحسينية وباب النصر ، وعهد كليبر إلى الجنرال رينيه أن يبذل كل ما في طوقه للاستيلاء على جهة باب النصر وأن يصوب نيرانه إلى الجامع الأزهر

قام جنود الجنرال (رينيه) بهذه المهمة بقيادة الجنرال (الميرا) Almeyras فبدؤوا هجومهم من باب الحديد واصطدموا في أول القتال بمتراس من متاريس الثورة ، فقتل الضابط الذي يقود السكتيبة الأولى وتراجع الجنود إلى الوراء ، ثم تقدمت السكتيبة ثانية ، وطارت الثوار واقتلعت المتاريس التي كانوا يتحصنون فيها وافتحمت المنازل التي كانوا ممتنعين بها وأضرمت النار في المباني التي كانت تعوق تقدم الجنود ، واستطاعت أن تستند ميسرتها إلى سور القاهرة القديم ، وميمنتها إلى مواقع الفرنسيين

في ميدان الأذربكية ، واشتد القتال حول المواقع التي احتلها الفرنسيون ، واستردها الثوار المرة بعد المرة ، ولكن الفرنسيين تمسكوا في المرة الثالثة من تثبيت أقدامهم فيها ، وظلت المناوشات بين الفرنسيين والثوار من يوم ٥ أبريل إلى ١٠ منه .

وفي يوم ١٢ أبريل اعتزم الجنرال كليبر توطيد مركز جنوده باحتلال كوم أبي الريش (١) الذي كان الثوار والأتراك متحصنين به ، وكان هذا الكوم نقطة ارتكاز قوية للثوار لأنه قائم على أكمة تقطع المواصلات بين جوامع الظاهر (قلعة سلسكوه كي) والمعسكر العام للجنود الفرنسية في الأذربكية ، فعهد كليبر إلى جنود الجنرال رينيه باحتلاله ، فهجم الجنود بقيادة الجنرال (روبان) وأجلوا عنه الثوار ، وفي الوقت نفسه هجمت قوة أخرى على المنازل المحيطة ببركة الرطلي واقتحمتها وأضرمت فيها النار واستبقت منها بعض المنازل التي تصلح للتحصن فيها ، وتحصن الجنود في كوم أبي الريش وأقاموا به الاستحكامات ، فكر عليهم الثوار ، ولكن الجنود ردوهم على أعقابهم ، واستمر القتال حوله إلى صبيحة ١٣ أبريل حيث رسخت قدم الفرنسيين فيه .

هذا ما وقع في الميسرة ، أما الميمنة في جهة الأذربكية فقد كان الثوار يحتلون بيت فرقة الهندسة الكائن بميدان الأذربكية ، فضربه الجنود بالمدافع وأحدها به ثغرات هجم منها الفرنسيون واحتلوا المنزل بعد أن أجلوا عنه الثوار وحلفاءهم العثمانيين ، سكن الثوار امتنعوا في بيت آخر بالقرب من بيت أحمد أغا شويكار (٢) وركبوا مدفعاً في حديقة منزل السيد البكري (٣) فأخذوا يطلقون النار من الجهتين على الجنود الفرنسية ، سكن الفرنسيين أصابوا المدفع المركب في حديقة البكري بقنابلهم وأنفوه ، فانحصر الثوار في بيت أحمد أغا شويكار .

استمر القتال سجالاً والثوار لا يذعنون ولا يسلمون ، وبدأت ذخائر القلاع تنفص بسبب كثرة الضرب ، فأخذت القذائف في التقصان ، وخفت وطأة الرمي ، فظن

(١) بالفجالة .

(٢) هو الذي يسميه الفرنسيون بيت رينيه (انظر ص ١٥٥) تسمية له باسم ساكنه ، أما الجبرتي فيسميه باسم مالهكه .

(٣) مكانه صندوق الدين الآن (١٩٢٩) .

الآهالى أن هذا علامة على ضعف القوات الفرنسية فاشتدت حماسهم واستعدوا لمضاعفه الجهد والقتال ، لكن الفرنسيين تلقوا مدداً جديداً ، وذلك أن الجنرال (بليار) عاد من دمياط بعد ما أخضعها وترك بها كتيبة من الجنود بقيادة الجنرال (رامبون) وزجع بمعظم قواته إلى القاهرة يوم ١٣ ابريل ، فمسكر أمام بولاق التي كانت معقل الثورة ، فلما وصل هذا المدد اعتزم الجنرال كليبر أن يستولى عنوة على حى بولاق ويخمد فيه الثورة بكل ماله من قوة .

الوساطة فى الصلح وإخفاقها

حمل سكان القاهرة الشدائد والآهوال من الضرب المتتابع وماحق بهم من سفك الدماء وإزهاق الأرواح ، وتخريب الدور ، واشتداد الخطوب .

قال الجبرتي يصف تلك المأساة :

« وصل كليبر إلى داره بالأزبكية ، وأحاطت العساكر الفرنسية بالمدينة وبولاق من الخارج ، ومنعوا الداخل من الدخول والخارج من الخروج ، وذلك بعد ثمانية أيام من ابتداء الحركة (أى حوالى ٢٨ مارس وهو يوافق اليوم التالى لحضور كليبر إلى القاهرة) وقطعوا الجبال على البلدين (مصر وبولاق) وأحاطوا بها إحاطة السوار بالمعصم ، فعند ذلك اشتدت الحرب ، وعظم الكرب ، وأكثروا من الرمي المتتابع ، بالمكاحل والمدافع ، وأوصلوا وقع القنابر والبنبات ، من أعالي التلوال والقلمعات ، خصوصاً البنبات (القنابل) الكبار على الدوام والاستمرار ، آناء الليل وأطراف النهار ، فى الغدو والبكور واللاحجار ، وعدمت الأقوات ، وغلت أسعار المبيعات وعزت الماء كولات وفقدت الحبوب والقلات ، وارتفع وجود الخبز من الأسواق ، وامتنع الطوافون به على الأطباق » .

وقال فى موضع آخر :

« واستمر الحال على ما هو عليه من اشتعال نيران الحرب ، وشدة البلاء والكرب ، ووقوع القنابل على الدور والمساكن من القلاع ، والهدم والحرق ، وصراخ النساء من البيوت والصغار من الخوف ، والجزع والهلع ، مع القحط وفقد الماء كل والمشارب ، وغلق الحوانيت والطواوين والمخازن ، ووقوف حال الناس من البيع

والشراء ، وتفليس الناس وعدم وجدان ما ينفقوه إن وجدوا شيئاً ، واستمر ضرب المدافع والقنابل والبنادق والذيران ليلاً ونهاراً حتى كان الناس لا يهناً لهم نوم ولا راحة ولا جلوس لحظة واحدة من الزمن ، ومقامهم دائماً أبدأ بالآزقة والأسواق ، وكانوا على رؤس الجميع الطير ، وأما النساء والصبيان فقمامهم بأسفل الخواصل والعقودات تحت طباق الأبنية إلى غير ذلك .

ولخص الجبرتي فصول تلك الرواية الفاجعة بقوله : « وجرى على الناس ما لا يسطر في كتاب ، ولم يكن لأحد في حساب ، ولا يمكن الوقوف على كلياته ، فضلاً عن جزئياته ، منها عدم النوم ليلاً ونهاراً ، وعدم الطعام نينسة ، وغلو الآفوات ، وفقد الكثير منها خصوصاً الأدهان ، وتوقع الهلاك كل لحظة ، والتكليف بما لا يطاق ، وغلبة الجلاء على العقلاء ، وتناول السفهاء على الرؤساء ، وتهور العامة ، ولغظ الحرافيش ، وغير ذلك مما لا يمكن حصره » .

ولأنك ترى في تلك العبارات وصفاً دقيقاً لحالة القاهرة خلال ثورتها الثانية ، ولا يمكن أن يصفها شاهد عيان بأدق مما وصفها الجبرتي ، وأبلغ ما في وصفه من عظة وعبرة « غلبة الجلاء على العقلاء ، وتناول السفهاء على الرؤساء » ، وهو داء وبيل تظهر أعراضه في أوقات الفتن ، واشتداد الكروب والمحن ، ويفضي إلى فساد النفوس واختلاط العقول ، وتنكب الجماهير سبيل السداد . واستهداف البلاد للسكرارث والويلات . وإذا أردت أن تعرف إلى أي حد جره « تغلب الجلاء على العقلاء » وتناول السفهاء على الرؤساء أثناء ثورة القاهرة . فانظر إلى ما كان من أمر مساعي الصلح التي قام بها العقلاء في ذلك الحين لوضع حد للبأساء المروعة والمجزرة البشرية التي صبغت القاهرة دماءً وحرائق . وكيف أخفقت تلك المساعي أمام غلبة الجلاء وتناول السفهاء ، فقد كان العلماء يسعون في حقن الدماء . وأرسل الجنرال كليبر إلى ناصف باشا وكتخدا الدولة (عثمان بك) وأمرأه المالك يطلب إليهم وفداً من العلماء ليسكنوا سفراء بينه وبين الجماهير . فأرسلوا المشايخ الشرقاوى . والمهدي . والسرسي . والفيومي وغيرهم . وقابلوا الجنرال كليبر . فعرض عليهم أن يوقف القتال ويعطى أهل القاهرة « أماناً وافية شافية » ، على أن يخرج ناصف باشا والجنود العثمانية من المدينة ويلحقوا بإخوانهم من فلول جيش يوسف باشا . ولمن شاء من المقاتلين المصريين أن يخرج معهم . ولمن شاء أن يبقى . فقال العلماء إن المصريين

يخشون إذا وقف القتال وخرج العثمانيون من المدينة أن يتكلم بهم الفرنسيون . فقال كليبر : إذا قبلت شروطنا اجتمعنا بكم وبهم (العثمانيين والماليك) وعقدنا صلحاً ولا نطالبكم بشيء . والذي قتل منا فهو بمن قتل منكم (ولم يكن كليبر صادقاً في عهده) ، فعاد العلماء بهذه الشروط ليعرضوها على رؤساء العثمانيين وزعماء الثوار . قال الجبرتي : « فلما رجع المشايخ بهذا الكلام وسمعه الانكشارية والناس قاموا عليهم وسبواهم وشتموهم وضربوا الشرفاوى والسرسى ورموا عمداتهم . وأسمعوهم قبيح الكلام . وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس . ومرادهم خذلان المسلمين وانهم أخذوا دراهم من الفرنسيين . وتكلم السفلة والغوغاء من أمثال هذا الفضول »

هذا ما ذكره الجبرتي عن تغلب الجملاء على العلماء وعلو صيحة الفتنة على صوت العقل والحكمة . وبلغ تهور العامة أن الشيخ السادات كان أثناء المفاوضات في بيت الشيخ الصاوى وعلم بما جرى للمشايخ من الإهانة والسب والضرب ، فغشى عاقبة مخالفة العامة في ميولهم . ومعارضتهم في أهوائهم « فتحير واحتال بأن خرج وأمامه شخص يتنادى بقوله الزموا المتاريس ليقي بذلك نفسه من العامة » .

أما رؤساء العثمانيين ناصف باشا وعثمان كتنخدا الدولة فانهم لم يستطيعوا ضبط عساكرهم . وأرسلوا إلى كليبر يقولون : « إن العساكر لم يرضوا بالصلح ويقولون لا نرجع عن حربهم حتى نظفر بهم أو نموت عن آخرنا » .

وبذلك أخفقت المساعي وتجددت المذبحة . وتجددت معها فجائع القتل وسفك الدماء والإحراق والتدمير . ثم انتهت المأساة بالتسليم بعد أن نزل بالناس من الخطوب والأهوال ما لم يشهدوا مثله من قبل .

مأساة بولاق

في اليوم الرابع عشر من شهر إبريل سنة ١٨٥٠ أنذر الجنرال كليبر العاصمة بالتسليم ، ولكن الثوار لم يعجبوا بالإنداز ، ففي اليوم التالي (١٥ إبريل) بدأت الجنود بالهجوم على حي بولاق قبل شروق الشمس بقيادة الجنرال بليار ، وأخذوا يضرّبونه بالمدافع ، وكانت مداخل الحي محصنة ، والثوار متمنعون خلف المتاريس وفي البيوت ، فأجابوا على ضرب المدافع بإطلاق النار من المتاريس والبيوت المحصنة ،

ولسكن نار المدفعية الفرنسية حطمت المناريس القائمة على مدخل الحى ، فثغرت فيها ثغرة كبيرة اندفق منها الجنود إلى شوارع بولاق . وأضرمو النار فى البيوت القائمة بها . فاشتعلت فيها واتسع مداها . وامتدت إلى مباني الحى من مخازن ووكاثل ومحال تجارة فالهبتها وما كان فيها من المتاجر العظيمة ، ودمرت هذا الحى الكبير الذى يعد ميناء للقاهرة ومستودعا للمتاجرها ، وهدمت الدور على سكانها ، فباد كثير من العائلات تحت الانقاض أو فى لهب النار ، وكانت مأساة مروعة وصفها الجبرقى بقوله :

« هجموا على بولاق من ناحية البحر (النيل) ومن ناحية بوابة أبى العلاء ، وقال أهل بولاق جهدهم ورموا بأنفسهم فى النيران حتى غلب الفرنسيس عليهم وحصروهم من كل جهة ، وقتلوا منهم بالحرق والقتل وبلوا بالنهب والسلب ، وملكوا بولاق وفعلوا بأهلها ما تشيب من هولته النواصى ، وصارت القتلى مطروحة فى الطرقات والأزقة ، واحترقت الأبنية والدور والقصور ، وخصوصا البيوت والرباع المطلة على البحر ، وكذلك الأطراف ، وهرب كثير من الناس عندما أيقنوا بالغلبة فنجوا بأنفسهم إلى الجهة القبيلية ، ثم أحاط الفرنسيس بالبلد ، ومنعوا من يخرج منها واستولوا على الخانات والوكاثل والحواصل والودائع والبضائع ، وملكوا الدور وما بها من الأمتعة والأموال والنساء والخوندات والصبيان والبنات ومخازن الغلال والسكر والسكتان والقطن والأبازير والأرز والأدهان والأصناف العطرية ، وما لا تسعه السطور ، ولا يحيط به كتاب ولا منشور ، والذى وجدوه منعكفا فى داره أو طمقته ولم يقاتل ولم يجدوا عنده سلاحا نهبوا متاعه ، وعروه من ثيابه ، ومضوا وتركوه حيا ، وأصبح من بقى من ضعفاء أهل بولاق وأهلهما وأعيانها الذين لم يقاتلوا فقراء لا يملكون ما يستر عوراتهم » .

تلك رواية الجبرقى عن مأساة بولاق ، وهى رواية شاهد عيان ، وليس فيها على ما نعتقد مبالغة فى الوصف ، ويكفيك أن ترجع إلى وصف المسيو جالان^(١) وهو شاهد آخر لتلك الحوادث المروعة ، فتجد التوافق بين الروایتين فى مجموعهما ، قال :

« فى اليوم الحادى والعشرين من شهر جرمينال (يوافق ١٤ أبريل سنة ١٨٠٠) أنذرت بولاق بالتسليم ، فرفض أهلها كل إنذار وأجابوا بإباء وكبرياء أنهم يتبعون

(١) فى كتابه (صورة مصر أثناء إقامته الجيش الفرنسى)

مصير القاهرة ، وأنهم إذا هوجوا فهم مدافعون عن أنفسهم حتى الموت ، فأخذ الجنرال فريان Friant (١) يحاصر المدينة وبدأ يصب عليها من المدافع ضربا شديداً أملاً منه في إجبار الأهالي على التسليم ، لكنهم أجابوا بضرب النار ، فأطلقت المدافع قنابلها على المتاريس ، وهجم الجنود على الاستحكامات فاقبحموا أكثرها وظل بعضها يقاوم ، واستبسل الأهليون في الدفاع ولجأوا إلى البيوت فاتخذوها حصونا يتمتعون بها فاضطرت الجنود إلى الاستيلاء على كل بيت منها ، والتغلب عليها بقوة الحديد والنار ، وبلغ القوم في شدة الدفاع حداً لا مزيد بعده ، وفي هذا الالاء عرض المفو على الثوار فأبوا واستحرق القتال ، فجعلنا المدينة ضراماً ، وأسلمناها للنهب ، وصار أهلها عرضة لبطش الجنود وتسكيلهم ، فجرت الدماء أنهاراً في الشوارع ، واشتملت النار أحياء بولاق من أقصاها إلى أقصاها ، وعادت تلك المدينة العامرة الزاهرة هدفاً للخراب ، واكبتها أهوال الحرب وفظائعها ، ولما بلغت المأساة مداها طلب الأهالي التسليم فأجيبوا إلى طلبهم ، ولكن بولاق مستظل زمناً طويلاً تتردى في هاوية من الخراب إلى أن تستطيع النصوص من أعباء الكوارث التي حلت بها ، فإن معظم بيوتها أصبحت ركاما من الخرائب والأطلال المحترقة ، ولقد مضت ثمانية أيام والنار تلتهمها ولا تزال تشتعل فيها (٢) »

لم يكتف الفرنسيون بما حل ببولاق من الخراب والتدمير بل فرضوا على أهلها غرامة جسيمة قيمتها ٢٠٠ ألف ريال وأخرى على متاجرها قيمتها ٣٠٠ ألف ريال تجبي عروضاً من السكر والبن والزيت والحبال والتيل والقطران والنحاس والحديد والرصاص ، وفرضوا على الأهالي أن يسلموا ما عندهم من المدافع والذخائر الموجودة في ترسانة بولاق وما لديهم من الأخشاب والغلل والشعير والأرز والعدس والفول وأن يسلموا أربع مائة بندقية ومائتي طبنجة ، وقبض الفرنسيون على الحاج مصطفى البشتيلي رئيس الثوار وطلبوا من أتباعه أن يقتلوه لأنه السبب فيما حل بهم ، فضرب بالعصى حتى مات

(١) لعله يريد الجنرال (بليار) قائد العسكر في هذا الهجوم وإن كان الجند من فرقة (فريان)

(٢) كتاب (صورة مصر أثناء إقامة الجيش الفرنسي) للسيوجالان أحد أعضاء بعثة العلوم والفنون

في عهد الحملة الفرنسية

الهجوم على مواقع الثوار

أثرت النكبة التي حلت ببولاق في سائر أنحاء القاهرة ، وانتهز الجنرال كليبر فرصة الفزع الذي استولى على النفوس فأمر جنوده بالهجوم العام على مواقع الثوار ، وعاق المطر هذا الهجوم يومين ، ثم ابتداء يوم ١٨ أبريل سنة ١٨٠٠ ، وكان نذيره بينهم إشعال النار في لغم دمه الفرنسيون تحت جدار بيت أحمد أغا شويكار الذي كان الثوار مايزالون يحتلونه ، فلما انفجر اللغم نسف المنزل بمن فيه واحترقوا عن آخرهم ، وهاجم الفرنسيون المدينة هجوما عاما من جهة الناصرية وباب اللوق والمدابغ والفجالة وكوم أبي الريش وباب الشعيرة

تولى السكولونيل سيلي Silly مهاجمة حي الناصرية لسكنه أخفق في احتلاله وهجم الجنرال دنزلو Donzelot على حي المدابغ فأعرضه خندق عميق يحيط به منازل يحتلها الثوار . فانهال عليه الرصاص منها . فاضطر إلى الانسحاب وتحصن بالقرب في شارع الجباسة

وهجم عسكر الجنرال فريان والجنرال بليار من ميدان الأزبكية . والجنرال رينيه Reynier من الفجالة وكوم أبي الريش وباب الشعيرة . فاشتد القتال في تلك الجهات وكانت الحرب فيها سجالا ونتيجتها في مجموعها مغنا للفرنسيين وتوطيدا لمراكزهم . وكان من عواقبها إلقاء الذعر بين الثوار ؛ وكثر القتل والجرحى من الجانبين ؛ وأصيب الجنرال بليار فيمن أصيبوا بجرح بليغ

وانقضت الأيام التالية والقتال مستمر ولسكنه أقل شدة مما كان في اليوم الأول ، وكان الفرنسيون في خلال هذه الأيام يوطدون مراكزهم في المواقع التي غنموها ويضيقون على الثوار ؛ واشتد الضيق بالاهالي وسرى اليهم الملل من استمرار حالة الحرب وما حاق بهم من الفظائع والاهوال ؛ فتجددت فكرة الصلح ووضع حد لمأساة القتال

فظائع الفرنسيين في إخماد الثورة

أسرف الفرنسيون في ارتكاب الفظائع لإخماد الثورة ولجأوا إلى الطريقة الوحشية التي اتبعوها في كثير من المواطن وهي إضرام النار في الأحياء الآهلة بالسكان وإرسالها على المدينة وأهلها موتا أحمر ، فأحدثت الحرائق تخريبا فظيما في القاهرة

واحترق احتياها برمتها وتهدمت بيوت عامرة ودفنت تحت انقاضها عائلات بأكملها ، ومن الأحياء التي التهمت النار خط الأزبكية وخط الساكت والفوالة والرويعي وبولاقي وبركة الرطلي وما جاورها وباب البحر والخروبي والعدوى إلى باب الشعربة .

فأصبح منظر المدينة بعد ما حل بها من التخريب والإحراق والتدمير مفرعا يملأ القلوب حزنا وأسى

وصف الجبرقي الأحياء التي دمرتها النيران ونعاها بعبارات ينفرط لها الفؤاد حسرة وأسفا ، قال يصف آثار الحريق في حى الأزبكية وما جاورها :

« انهدم جميع ما هناك من الدور والمباني العظيمة والقصور المطلة على البركة واحتقرت جميع البيوت التي من عند بين المفارق بقرب جامع عثمان كتنخدا إلى رصيف الخشاب والخططة المعروفة بالساكت بأجمعها إلى الرحبة المقابلة لبيت الألفى سكن سارى عسكر الفرنساوية وكذلك خطة الفوالة بأسرها وكذلك خطة الرويعي بالسباطين العظمين وما في ضمن ذلك من البيوت إلى حد حارة النصارى وصارت كلها تلالا وخرائب كأنها لم تكن مغنى صبايات ، ولا مواطن أنس ونزاهات ، وجنت عليها أيدي الزمان وطوارق الحداث حتى تبدلت محاسنها وأقفرت مساكنها » وقال ينهى بركة الرطلي وما دمره الحريق من عمارتها الجميلة :

« وأما بركة الرطلي وما حولها من الدور والمنتزهات والبساتين فإنها صارت كلها تلالا وخرائب وكيان أثرية ، وقد كانت هذه البركة من أجمل منتزهات مصر قديما وحديثا » ، وقال أيضا : « ومما تخرب أيضا حارة المقس من قبل سوق الخشب إلى باب الحديد وجميع ما في ضمن ذلك من الحارات والدور صارت كلها خرائب متهدمة محترقة تسكب عند مشاهدتها العبرات » ، وقال المسيو جالان (١) يصف هذه المأساة وكان من شهودها : « وقع الهجوم العام على القاهرة يوم ٢٨ جرمينال وكان هولاء تلالا شاملا لجميع الجهات ، فصبت ، المدافع قنابلها على المدينة الثائرة ، ودوى صوت الضرب في كل مكان ، وظل إطلاق القنابل والرصاص متواصلا طول الليل

(١) في كتابه « صورة مصر أثناء إقامة الجيش الفرنسى »

وشبت الحرائق في جهات متعددة : وأخذت النيران في كل لحظة تلتهم المنازل بعضها إثر بعض ، وأحدثت النار من الخرائب والحرائق في القاهرة ما لم يحدث مثله منذ بدأ الحصار ، وقد قتلنا عددا كبيرا من الناس في تلك الموقعة المروعة ، ولست كنا فقدنا كثيرا من جنودنا الشجعان قبل أن تصبح المدينة في قبضة يدينا »

وقال في موضع آخر يصف آثار الحريق بعد إخماد الثورة : « في ١٥ فلوريال (١) رجعت إلى القاهرة واضطرت أن أبحث لي عن منزل آوى إليه في ميدان الأزبكية بدل المنزل الذي كنت أسكنه والتمته النيران ، وقد لاحظت أن الحصار أضرب بالقاهرة أكثر مما كنت أتصور ، فقد عم الخراب أحياء بأكملها وتمثل لنا شبحه الخيف في الأزبكية ؛ وأثرت في نفسي صورته المفزعة ، فليس في الإمكان أن نخطو خطوة إلا على كثر من الخرائب والآتربة ، وكانت رائحة العفونة تذهب من الرمم المدفونة تحت الرمم ، وزاد هذا المنظر فظاعة أن الجنود مدفوعين بفكرة النهب كانوا ينبشون الجثث من تحت الأنقاض والخرائب فكلما أظهروا جثة زاد المنظر هولا وفضاعة »

المفاوضة في التسليم

استأنف علماء القاهرة مسعاهم في سبيل حقن الدماء ، وألحوا على ناصف باشا وإبراهيم بك وأصحابهما أن يعملوا على وضع الحد للقتال لا يجلب على المدينة سوى الخراب والدمار ، وانضم عثمان بك البرديسي وكيل مراد بك إلى العلماء في السعي للصالح ، وعرض على زعماء الثورة أن يدخل مراد بك في الصلح على شرط أن يسلبوا المدينة ، فأذعن الثوار لهذه المساعي وانتدب ناصف باشا عثمان أفندي وكيل الصدر الأعظم وانتدب إبراهيم بك عثمان بك الأشقر لمفاوضة الجنرال كليبر في وقف القتال

واستمرت المفاوضة في شروط التسليم إلى أن تم إبرام الاتفاق يوم ٢١ إبريل سنة ١٨٠٠ ، ووقع عليه ناصف باشا وعثمان أفندي وإبراهيم بك ، وتتضمن هذه الشروط تعهد الجنود العثمانية والمماليك بالجلء عن القاهرة وأن تتم استعدادات

الجلاء في مدة ثلاثة أيام وأن يحلوا العثمانيون والمماليك حاملين أسلحتهم وأمتعتهم ماعدا المدافع فإنهم يتركونها في مواقعها في القاهرة ، وأن ينفذ الجلاء يوم ٢٥ أبريل (الموافق ٣٠ ذى القعدة سنة ١٢١٤) بحيث لا يكون منهم أحد بالقاهرة بعد ظهر ذلك اليوم ماعدا الجرحى ، وتعهدوا بمواصلة الجلاء حتى حدود سورية

وتعهد الجنرال كليبر في المعاهدة بأن يعفو عفوا عاما عن جميع أهالى القاهرة وعن المصريين الذين اشتركوا فى الثورة ، ولسكنه اشترط ألا يغادر المدينة أحد من المصريين بقصد اللحاق بالجيش العثمانى

وأخذ الأتراك والمماليك بعد التوقيع على معاهدة التسليم يعدون معدات الرحيل ، ثم ارتحلوا بطريق بلبيس ، وسار معهم زعماء الثورة من المصريين أمثال السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والسيد أحمد المحرقى كبير التجار ، وهاجر من العاصمة عدة آلاف من السكان ممن توقعوا انتقام الفرنسيين ، فتركوا فى البلاد ، وقد كانوا محقين فى مخاوفهم لأن كليبر نقض عهده كما سيظهر ببيانته ، وبإبرام شروط التسليم انتهت ثورة القاهرة بعد قتال دام ثلاثة وثلاثين يوما

عودة السلطة إلى الفرنسيين

عادت السلطة إلى الفرنسيين بعد إخماد ثورة القاهرة ، وسادت السكينة أنحاء الوجه البحرى والوجه القبلى ، وأصبح الجنرال كليبر حاكما بأمرة فى البلاد وهو الذى كان قبل شهرين يعد معدات الرحيل عنها ، ولكن السياسة الانجليزية هى التى غيرت سير الأمور وتسببت فى نقض معاهدة العريش ومنعت الجنود الفرنسية من السفر إلى فرنسا فأشعلت نار الحرب ثانية بين الأتراك والفرنسيين وانتهت هذه الحرب بانتصار الفرنسيين فى معركة عين شمس وإخماد ثورة القاهرة بقوة السيف والنار ، وبذلك تحركت فى نفس كليبر مطامع الفتح والاستعمار ، واعتزم البقاء فى الديار المصرية وإدارة شئونها الى ما شاء الله كمستعمرة فرنسية ، وأراد أن يبعث الرهبة فى نفوس الشعب ويعلم عن قوة الجيش الفرنسى بالرغم مما أصابه فى المعارك الأخيرة ؛ فعرض الجنود عرضا كبيرا فى سهول (القبة) ؛ ودعا أكابر أعيان القاهرة ليشهدوا العرض وليتحققوا من قوة الجيش الفرنسى وحسن نظامه ، ولما انتهى العرض دخل الجيش العاصمة واخترق شوارعها فى رهبة .. بين قصف مدافع القلاع . وكأنما أراد

كليبير أن يدخل المدينة دخول الغزاة ليدهى لنفسه حق الفتح والنصر في مصر البلاد . واليك ما ذكره الجبرتي عن دخول كليبير المدينة ومقابلته للمشايخ والأعيان . قال ما خلاصته :

« ودخل الفرنسيون إلى المدينة يسعون ، وإلى الناس بعين الحقد ينظرون ، واستولوا على ما كان اصطغمه وأعدّه العثمانية من المدافع والقنابل والبارود وآلات الحرب جميعها وفيل إنهم حاسبوهم على كلفتهم ومصاريقهم وقبضوا ذلك من الفرنسيين ، وركب المشايخ والأعيان عصر ذلك اليوم وذهبوا إلى كليبير الفرنسيين ، فلما وصلوا إلى داره ودخلوا عليه وجلسوا ساعة أبرز لهم ورقة مكتوبا فيها النصر لله الذي يريد أن المنصور يعامل الناس بالشفقة والرحمة ، وبناء على ذلك يريد ساري عسكر العام أن ينعم بالعفو العام والخاص على أهل مصر وعلى أهل بر مصر ، ولو كانوا يخاطبون العثماني في الحروب ، وأنهم يشتغلون بمعايشهم وصنائعهم ، ثم نبه عليهم بحضورهم إلى قبة النصر بكرة تاريخه ، ثم قاموا من عنده وشقوا المدينة وطافوا بالأسواق وبين أيديهم المناداة للرعية بالاطمئنان والأمان ، فلما أصبح ذلك اليوم ركبت المشايخ والوجاقية وذهبوا إلى خارج باب النصر وخرج أيضا القلنقات والقبط والاشوام وغيرهم ، فلما تكامل حضور الجميع رتبوا موكبا وساروا ودخلوا من باب النصر وقدامهم جماعة من القواسية يأمرؤن الناس بالقيام ، وبعض فرسايه راكبين خيلا وبأيديهم سيوف مسلولة ينهرون الناس ويأمرؤنهم بالوقوف على أقدامهم ، ومن تباطأ في القيام أهانوه ، فاستمرت الناس وقوفا من ابتداء سير الموكب إلى انتهائه ، ثم تلا الطائفة الأمرة للناس بالوقوف جمع كثير من الخيالة الفرنسيين بأيديهم سيوف مسلولة وكلهم لابسون جوخا أحمر وعلى رؤوسهم طراوير من الفراء على غير هيئة خيالتهم ومشانهم : ثم تآلى بعد هؤلاء طوائف العساكر ببوقانهم وطبولهم وزمورهم واختلاف أشكالهم وأجناسهم وملابسهم من خيالة ورجاله ، ثم الأعيان والمشايخ والوجاقية وأتباعهم إلى أن قدم ساري عسكر الفرنسيين ووراءه عثمان بك البرديسي وعثمان بك الأشقر (مندوبي مراد بك) وخلفهم طوائف من خيالة الفرنسيين ، ولما انقضى أمر الموكب نادوا بالروية فزينت البلد ثلاثة أيام آخرها يوم الثلاثاء مع السهر ووقود القناديل ليلا . »

فتأمل في قول الجبرتي أن مندوبي مراد بك كانوا يسيران في الموكب خلف الجنرال

كبير مباشرة ، وهذا يدل على ارتباط الممالك بالفرنسيين وقتئذ ، وهذه إحدى نتائج معاهدة الصلح بين كبير ومراد بك ، ففي الوقت الذي كان الشعب يعاني فيه الأهوال خلال الثورة وبعد إخمادها كان ضلع الممالك مع الفرنسيين ، بل كانوا أعوانهم في إذلال الشعب .

بعد إخماد الثورة

غرامات فادحة — اعتقال واضطهاد

كان أول عمل للجنرال كبير بعد دخوله المدينة أن نقض عهده في العفو العام عن كل من لهم يد في الثورة ، فقد أمر بالاعتصاف من سكان القاهرة جميعهم بفرض غرامة جسيمة تنوء بها أكبر العواصم وبخاصة بعد ما حل بها من الخراب والدمار .

فرض على سكان القاهرة غرامة قدرها اثنا عشر مليون (١) فرنك يوفي نصفها نقدا ونصفها عروضا ، وألزم سكان المدينة بتسليم عشرين ألف بندقية وعشرة آلاف سيف وعشرين ألف طبنج ، وخص بعض كبار الأعيان والعلماء بنصيب فادح من هذه الغرامة .

فصودرت أملاك السيد أحمد المحروقي كبير التجار ، وفرض على السيد محمد السادات غرم قدره ١٥٠.٠٠٠ ريال (٨٠٠ ألف فرنك تقريبا) والشيخ مصطفى الصاوي ٥٠.٠٠٠ ريال (٢٦٠ ألف فرنك) والشيخ محمد الجوهري وأخيه الشيخ فتوح ٥٠.٠٠٠ ريال ، وأمر بتوزيع الباقي على سكان المدينة على اختلاف طوائفهم وطبقاتهم ، واعتقل خمسة عشر رجلا من كبارهم رهينة لوفاء هذه الغرامة ، قال الجبرتي ما خلاصته : « فوزعوها على الملتزمين وأصحاب الحرف حتى الحواة والقردانة والتجار وأهل الغورية وخان الخليلي والصاغة والنحاسين ، والدالين والقبانية وقضاة المحاكم وغيرهم كل طائفة عليها مبلغ معلوم ، وكذلك بياعو الدخان والتبناك والصابون والخردجية والطارون والزياتون والشوؤون والجزارون والمزينون وجميع أهل الصنائع والحرف ، وجعلوا على الأملاك والعقار والدور أجرة سنة كاملة » .

(١) يقول الجبرتي إنها عشرة آلاف ألف فرنك أي عشرة ملايين فرنك ، ولكن المراجع الفرنسية ومنها مذكرات نابليون مجمعة على أنها اثنا عشر مليون فرنك فاعتمدنا هذا الرقم .

هذا ما يقوله الجبرتي ، فالغرامة الفادحة التي فرضها كليبر على القاهرة أنهكت المصريين على اختلاف طبقاتهم ، الأغنياء والفقراء والمعدمون سواء ، وقد هال سكان القاهرة فداحة تلك الغرامة وزادت في مصائبهم وآلامهم ، فسكان الفرنسيين لم يكتفوا بما ابتليت به العاصمة من أهوال القتل والنهب وسفك الدماء والحريق والتدمير والمجاعة ، فتمموا عليها بتلك الغرامة الباهظة .

ومن الصعب أن تعرف كيف وفق كليبر بين هذه الغرامة والعهد الذي قطعه على نفسه بأن يعفو عن اشتراكوا في ثورة القاهرة ، لسكنها القوة الغشوم لا عهد لها ولا ميثاق .

وإذا أردت أن تعرف مبلغ نقض العهد فتأمل فيما رواه الجبرتي عن مقابلة كليبر أعيان المدينة وإبلاغهم نبأ الغرامة ، فقد ذكر أن كليبر قال لهم فيما قال :

« حيث إننا أعطيناكم الأمان فلا تنتقض أماننا ! ولا تقتلكم ! وإنما نأخذ منكم الأموال ، فالمطلوب منكم عشرة آلاف ألف فرنك » .

وقد أسرف الفرنسيون في إرهاب سكان القاهرة وإذلالهم ، واعتقلوا الكثيرين منهم لإكراههم على دفع نصيبهم في الغرامة ، وفتشوا جميع المنازل بحجة البحث عن السلاح ، وتفنتوا في ضروب القهر والتشكال ، واشتد الضيق بالناس مما لا قوه من المصائب والأهوال ، فخربت بيوت عامرة . وخرج كثير من الناس عن أموالهم وباعوا متاعهم . ومات كثير منهم في السجون . وهاجر من استطاع الهجرة قرارا من الظلم والاضطهاد .

قال الجبرتي في هذا الصدد .

« وأرزموا الأغا (المحافظ) بعدة طوائف كتبوها في قائمة بأسماء أربابها وأعطوه عسكريا وأمره بتحصيلها من أربابها ، وكذلك على أغا الشعراوى (رئيس الشرطة) وحسين أغا المحتسب وعلى كتبخدا سليمان بك ، فنهوا على الناس بذلك ، وبشوا الأعداء بطلب الناس وحبسهم وضربهم ، فدهى الناس بهذه النازلة التي لم يصابوا بمثلها ولا ما يقاربها ، ومضى عيد النحر ولم يلتفت إليه أحد بل ولم يشعروا به ، ونزل بهم من البلاء والذل ما لا يوصف ، فان أحد الناس غنيا كان أو فقيرا لا بد أن

يكون من ذوى الصنائع أو الحرف فيلزمه دفع ماوزع عليه في حرفته أو في حرفته وأجرة داره أيضا ستة كاملة ، فكان يأتي على الشخص غرامتان أو ثلاثة ونحو ذلك ، وفرغت الدراهم من عند الناس واحتاج كل إلى القرض فلم يجد الدائن من يدينه لشغل كل فرد بشأنه ومصيبته ، فلزمهم بيع المتاع فلم يوجد من يشتري ، وإذا أعطوهم ذلك لا يقبلونه ، فضاق خناق الناس وتمنوا الموت فلم يجدوه ، ثم وقع الترجى في قبول المصوغات والفضيات ، فأحضر الناس ما عندهم فيقوم بأبخس الأثمان ، وأما أثاث البيوت من فرش ونحاس وملبوس فلا يوجد من يأخذه ، وأمرؤا يجمع البقال ومنعوا المسلمين من ركوبها مطلقا سوى خمسة أنهار من المسلمين وهم الشرقاوى والمهدي ، والفيومى ، والأمير ، وابن محرم (من كبار تجار القاهرة) ، والنصارى المترجمين وخلافهم لأخرج عليهم في كل وقت ، وحين يشتد الطلب وينبت المعينون والعسكر في طلب الناس ومهاجمة الدور وجر جرة الناس حتى النساء من أكابر وأصاغر ويهدلتهن وحبسهن وضربهن ، والذي لم يجدوه لسكونه فر وهرب يقبضون على قريبه أو حريمه أو ينهبون داره فإن لم يجدوا شيئا ردوا غرامته على أبناء جنسه وأهل حرفته ... هذا والكتبة والمهندسون والبناءون يطوفون ويحررون أجر الأماكن والعقارات والوكائل والحمامات ويكتبون أسماء أربابها وقيمتها ، وخرجت الناس من المدينة وجعلوا عنها وهربوا إلى القرى والأرياف ، ثم إن أكثر الفارين رجع إلى مصر لضيق القرى وعدم ما يتعيشون به فيها وانزعاج الريف بقطاع الطريق والعرب والمناسر بالليل والنهار والقتل فيما بينهم وتعدي القوى على الضعيف ، واستمرت الطرق بحفرة والأسواق مقفرة والحوانيت مقفولة والعقول مخبولة ، والحانات والوكائل مغلوقة والنفوس مطبوقة ، والغرامات نازلة والأرزاق عاطلة ، والمطالب عظيمة والمصائب عميمة ، والعكوسات مقصودة والشفاعات مردودة ... وبالجمله فالأمر عظيم والخطب جسيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

هذا وصف شاهد عيان للأساسة التى حلت بالقاهرة بعد إخماد ثورتها الثانية ، وبقيتنا أنه قلما توجد فى تاريخ الثورات فجائع تشبهها أو تدانيها فى ويلاتها وخطوبها وأهوالها .

اضطهاد الفرنسيين للسيد السادات

كان السيد محمد السادات هدفا لأقوى ضروب الانتقام والاضطهاد ، فقد خصه

الجنرال كليبر بأكبر غرامة ، وعامله الفرنسيون بقسوة لا نظير لها ، فاعتقلوه غير مرة وأهانوه وصادروا أمواله واضطروه إلى بيع أملاكه توفية للغرامة التي فرضوها عليه ، وأفرطوا عليه في القسوة ، ولم يرعوا مقامه بين الناس ولا منزلته في البلاد ، وقد احتمل من صنوف الإرهاب ما لم يصب غيره من أنداده ولا من قومه ، فلا جرم أن أفردنا لاضطهاده مبحثا خاصا ، لأن من يتأمل فيما رواه الجبرتي عما أرفقه من صنوف الأذى والانتقام لا يسهمه إلا أن يترحم على ذكره .

قال الجبرتي ما خلاصته : « نزل الشيخ السادات وركب إلى داره فذهب معه عشرة من العسكر وجلسوا على باب داره ، فلما مضت حصّة من الليل حضر معه عشرة من العسكر أيضا ، فاركبوه وطلعوا به إلى القلعة وحبسوه في مكان ، فأرسل إلى عثمان بك البرديسي وتداخل عليه فشفع فيه فقالوا له : أما القتل فلا نقتله لشفاعتك ، وأما المسال فلا بد من دفعه ، ولا بد من حبسه وعقوبته حتى يدفعه ، وقبضوا على فراشه ومقدمه وحبسوهما ، ثم أنزلوه إلى بيت قائم مقام (حاكم القاهرة) فسكث به يومين ثم أصددوه إلى القلعة ثانيا وحبسوه في حاصل ينال على التراب ويتوسد بحجر ، وضربوه تلك الليلة ، فأقام كذلك يومين ثم طلب زين الفقار كئيدا فطلع إليه هو وبرطلين (يرتلي الرومي) فقال لهما أنزلوني إلى داري حتى أسعى وأبيع متاعى ، فاستأذنوا له وأنزلوه إلى داره ، فأحضر ما وجده من الدراهم فكانت تسعة آلاف ريال معاملة عنها ستة آلاف ريال فرانسه (١) ثم قوموا ما وجده من المصاغ والفضيات والفراوى والملابس وغير ذلك بأبخس الثمن فبلغ ذلك خمسة عشر ألف ريال فرانسه ، فبلغ المدفوع بالنقدية والمقومات واحدا وعشرين ألف ريال ، والمحافظون عليه من العسكر ملازموه لا يتركونه يطلع إلى حريمه ولا إلى غيره ، وكان وزع حريمه وابنه إلى مكان آخر ، وبعد أن فرغوا من الموجودات جلسوا خلال الدار يفتشون ويحفرون الأرض على الخبايا فلم يجدوا شيئا ، ثم نقلوه إلى بيت قائم مقام ماشيا ، وصاروا يضربونه خمس عشرة عصا في الصباح ومثلها في الليل ، وطلبوا زوجته وابنه فلم يجدوهما ، فأحضروا أحمد السندوني تابعه وقروره (أكرهوه على الإقرار) حتى عاين الموت حتى عرفهم بمكانهما ، فأحضر وهما وأودعوا ابنة عند أغات الانكشارية (المحافظ) وحبسوا زوجته معه فكانوا يضربونه بحضرتها ،

(١) أى تساوى ستة آلاف ريال فرانسوى .

وهي تبكى وتصيح وذلك زيادة في الإنسَاء ، ثم إن المشايخ وهم الشرفاوى ، والفيومى ، والمهدي ، والشيخ محمد الأمير ، وزين الفقار كتحدا تشفعوا في نقلها من عنده ، فنقلوها إلى بيت الفيومى^(١) وبقى الشيخ على حاله وأخذوا مقدمه وفرشه وحبسوهما ، وتغيب أكثر أتباعه واختفوا ، وفي خامس محرم سنة ١٢١٥^(٢) أصدوا الشيخ السادات إلى القلعة وكان أرسل إلى كبار القبط بأن يسعوا في قضيته ورهن حصصه ويسدد ما عليه فردوا عليه بأنه لا بد من سداد قدر نصف الباقي أولا ولا يمكن غير ذلك ، وأما الحصص فليست في تصرفه ، ثم نقله الفرنسيين إلى القلعة ومنعوه الاجتماع بالناس وهي المرة الثالثة .

هذه رواية الجبرتي عما نزل بالسادات من الاضطهاد والتعذيب ، وفي المراجع الفرنسية ما يؤيد روايته ، وبخاصة في مذكرات نابليون ، فقد تقدم الكلام بالجزء الأول (ص ٣٠٤ من الطبعة الأولى) عما جاء في تلك المذكرات خاصة باتهام الفرنسيين للسادات بالتحريض على ثورة القاهرة الأولى ومارآه نابليون من الإبقاء عليه لما اعتقده من أن الحكم بإعدامه يضر بمركز الفرنسيين أكثر مما ينفعهم ، ونضيف إلى ذلك أن نابليون يقول في مذكراته إن الجنرال كليبر راجعه في رأيه هذا عقب إخماد الثورة الأولى (أكتوبر سنة ١٧٩٨) وسأله كيف لا يقضى بإعدامه وهو زعيم الثورة فأجابه نابليون أن إعدام مثل هذا الشيخ الجليل لا يفيد الفرنسيين بل يؤدي إلى عواقب وخيمة ، ويقول نابليون أيضاً : « وقد وقعت بعد ذلك حوادث أثارت ذكرى هذه الحادثة ، فإن الشيخ السادات هذا هو الذي أمر الجنرال كليبر بتعذيبه وضربه ، وكان هذا من أهم الأسباب التي أدت إلى مقتل كليبر »^(٣).

وقال نابليون في موضع آخر عند الكلام على إخماد ثورة القاهرة الثانية : « إن السادات قد أخذوا خص بخرامة فادحة ، وكان معروفا عنه كرهه للفرنسيين ، على أنهم أسرفوا في إهائته لدرجة أنهم نسوا مقامه المستمد من نسبه ومولده ، فقد رفض أن

(١) جاء في الأمر الصادر من الجنرال كليبر بتاريخ ٢٢ مايو سنة ١٨٠٠ إلى الجنرال داماس رئيس أركان الحرب مايوئيد رواية الجبرتي إذ يقضى « بنقل زوجة الشيخ السادات إلى بيت للشيخ سليمان الفيومى » ويظهر أن هذا الأمر كان نتيجة مسعى المشايخ .

(٢) يوافق ٢٩ مايو سنة ١٨٠٠ .

(٣) مذكرات نابليون التي أملاها على الجنرال برتران في جزيرة سانت هيلين .

يدفع الغرامة فاعتقل وسجن بالقلعة ، ولم يعبأ بالتهديد والوعيد ، فأمر كليبر بضربه بالعصى ، وهكذا ضرب السادات وأهينت السلالة النبوية ، فعم السخط رجال الشرع والعلماء والشعب ، وكانت هذه المعاملة على النقيض من معاملة نابليون للسادات عقب ثورة سنة ١٧٩٨ فقد قابله بالعفو والنساع مع قيام البيئات عليه بأنه زعيم الثورة (١) .

ويقول نابليون أيضاً في مذكراته ان لاضطهاد السادات دخلا في مقتل الجنرال كليبر ، لأنه لا يمكن أن يجهل علماء الأزهر ما كان ينويه سليمان الحلبي من اغتيال كليبر ، فقد قضى بالأزهر نحو ثلاثين يوما مصمما على القتل ، لسكنهم تجاهلوا نية القاتل وتجاهلوا كل ماله علاقة به لأنهم كانوا يودون الانتقام من الجنرال كليبر (٢) .

وقال المسير جومار (٣) Jomard الذي عاصر السادات : « إن الشيخ محمد السادات كانت له مكانة كبيرة في البلاد خلال الحملة الفرنسية ، وكان يعرف كيف يثير عواطف الشعب ، والمعروف عنه أنه هو الذي هاج ثورة القاهرة الأولى ، وحرص على الثانية ، على أنه دفع ثمنا غاليا لمساكنته بين الشعب ، فقد فرض عليه القائد العام الجنرال كليبر بعد واقعة عين شمس غرامة فادحة وأسرف في القسوة معه إلى حد أن أمر بضربه بالعصى ، ولم يقره ضباط الجيش على هذه القسوة » (٤) .

بقى السيد السادات معتقلا في القلعة ، ولم يفرجوا عنه إلا في ١٩ يولييه سنة ١٨٠٠ (٢٦ صفر سنة ١٢١٥) في عهد قيادة الجنرال منوا بعد أن سدد الغرامة المفروضة عليه ، قال الجبرتي واستولى الفرنسيون على « حصصه واقطاعه ، وقطعوا مرتباته وكذلك جهات حريمه والحصص الموقوفة على زاوية أسلافه ، وشرطوا عليه عدم الاجتماع بالناس وألا يركب بدون إذن منهم ويقتصد في أموره ومعايشه وتقليل أنبائه » (٥) ، أي أنه بقي في داره رهن المراقبة ، ثم اعتقلوه للمرة الرابعة في أوائل مارس سنة ١٨٠١ بعد وصول الحملة الانجليزية العثمانية إلى (أبو قير) .

(١) و (٢) مذكرات نابليون التي أملاها على الجنرال برتران في سانت هيلين .
 (٣) أحد مهندسي الحملة الفرنسية ، أنظر ما كتبناه عنه بالجزء الأول ص ١٢٦ (من الطبعة الأولى)
 (٤) تعليقات جومار على كتاب تاريخ مصر في عهد محمد علي أفلحس مانجان .
 (٥) الجبرتي الجزء الثالث .

ويقول الجبرتي أنهم اصعدوه في هذه المرة الرابعة إلى القلعة « من غير إهانة »
والظاهر أن الفرنسيين أحسوا في هذه المرة بقرب ارتحالهم عن البلاد فخففوا من
غلوائهم مع من اعتقلوهم كما سيجيء بيان ذلك .

موقف كليبر

بعد إخمد ثورة القاهرة

أصبح موقف كليبر بعد جلاء الجنود العثمانية وإخماد ثورة القاهرة على جانب
عظيم من المنعة ، فقد دلت الظواهر على أن مصر دانت له من أقصاها إلى أقصاها ،
وانها خلصت له فلا يخشى عليها من اعتداء دولة أجنبية أو قيام ثورة داخلية ، وجعله
انقطاع المواصلات بين مصر وفرنسا شبه حاكم مستقل ، فأخذ يحكم البلاد ويدير
شؤونها على هذا النحو ، ومضى ينظم قواته ويدعم موقفه الحربي ، وأمر بإنشاء قلاع
جديدة في القاهرة حتى لا ينشب فيها ثورة أخرى ، وهذا عدا القلاع التي أنشأها
نابليون بعد إخمد الثورة الأولى مما بسطناه بالفصل الثالث عشر من الجزء الأول
(٣٠٨ من الطبعة الأولى)

وقد أدركت تركيا مناعة موقف كليبر بعد الحوادث الأخيرة فشرعت تفاوضه
في تنفيذ معاهدة العريش ، ووصل حسين قبطان باشا إلى مياه الاسكندرية ومعه عدة
بوارج من الأسطول العثماني ، فاعتقد كليبر أن تركيا تريد أن تستأنف إنزال جنودها
في شواطئ مصر ، فغادر القاهرة يوم ٣ يونيه سنة ١٨٠٠ وأخذ يحشد جنوده
استعداداً للقتال ، وفيما هو في الرحمانية في طريقه إلى الاسكندرية وصلته رسالة من
قومندان الثغر بأن قبطان باشا لا يقصد من مروره بأسطوله إلا أن يفتح باب
المفاوضة من جديد في سبيل عقد الصلح بين الدولتين ، فأجاب كليبر على هذه
الرسالة بأنه يرفض بتاتا أن يفتح باب المفاوضة في الصلح لأنه يعتبر أن مصر أصبحت
له . . . وأصدر تعليماته إلى قومندانان ثغور الإسكندرية ورشيد ودمياط بأن
لا يأذنوا لأي رسول يأتي للسلام في الصلح بالانزول إلى البر تفاديا من أن يكون
لهؤلاء الرسل غاية أخرى وهي التجسس على مواقع الفرنسيين ، وأفرد قوة متنقلة
من الجنود تراقب سواحل البحر الأبيض المتوسط ومنافذ برزخ السويس لتكشف
حركات العثمانيين المقبلة ، وعاد كليبر إلى القاهرة يوم ٢١ يونيه واتقا من ثبات
مركزه في مصر ، وكذلك رفض دعوة الصلح التي جاءت من المراجع الانجليزية ،

فقد أرسل له المستر مورييه سكرتير اللورد إلجين Elgin سفير إنجلترا في الأستانة
ينبئه بان التعليمات الأخيرة الصادرة من الحكومة الانجليزية تقضى بقبول تنفيذ
نصوص معاهدة العريش حرقيا وأن السلطات الانجليزية مستعدة لإعطاء جوازات
المرور لنقل الجنود الفرنسية بحرا ، وأنه لم يبق إلا موافقة الجنرال كليبر للشروع حالا
في تنفيذ المعاهدة ، ولكن كليبر لم يعبا بهذه الرسالة واعتبر أن معركة عين شمس
وإخماد ثورة القاهرة قد أوجدتا « حالة جديدة » هي بمثابة فتح لمصر وأن هذه الحالة
لا تتفق ومعاهدة العريش .

على أن كليبر أخذ يفكر في المفاوضة رأسا مع الباب العالي على أساس جديد
وهو التودد الى تركيا ودعوتها الى فسخ التحالف بينها وبين إنجلترا وإقناعها بأن
إنجلترا لا تنظر إلا الى مصلحتها وأنها لا تقصد من مساعدة الباب العالي في الحملة على
مصر إلا الى تمهيد السبيل لقواتها الحربية لتحتل الاسكندرية ورشيد والسويس ،
وبذلك تضمن وضع يدها على مصر ، وأراد كليبر أن يطلع الباب العالي على مقاصد
إنجلترا ليلزم الحياد مبدئيا في القتال بين الفرنسيين والإنجليز ، وقد أفضى بهذا المشروع
الى خاصة قواده وأخذ يعمل على تحقيقه لولا أن عاجلته منيته فحالت دون مراده .

الفصل العاشر مقتل الجنرال كليبر

كان موقف كليبر إذن في أوائل شهر يونيه سنة ١٨٠٠ غاية في المنعة ، وقد قويت آماله في أن يخلد مركزه في وادي النيل ويحقق مشروعاته السياسية والحربية، لكن هذه الآمال تحطمت في لحظة واحدة . وهي اللحظة الرهيبة التي امتدت إليه فيها يد سليمان الحلبي بطعنة خنجر أردته صريعا

كان ذلك يوم السبت ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ (٢١ محرم سنة ١٢١٥) ، ففي صباح هذا اليوم ذهب كليبر إلى جزيرة الروضة ليعرض كتيبة الأروام الذين انخرطوا في سلك الجيش الفرنسي بمصر^(١) وعاد بعد العرض إلى الأزبكية ليستفقد أعمال الترميم التي كانت تعمل في دار القيادة العامة ومسكن القائد العام (سراي الألفي بك) لإزالة آثار الإنلاف الذي أصابها من قنابل الثوار^(٢)، وكان يصحبه المسيو بروتان Protain المهندس المعماري وعضو لجنة العلوم والفنون ، فتفقدوا الأعمال معا ، ثم ذهباً إلى دار الجنرال داماس Damas رئيس أركان الحرب حيث أعد وليمة غداء للقائد العام دعا إليها طائفة من القواد وأعضاء المجمع العلمي ورؤساء الإدارة ، فتفدى كليبر مع المدعوين ، وكان منشرح الصدر على المائدة يتحدث مطمئنا عن الحالة في مصر ، واستمرت الوليمة إلى الساعة الثانية بعد الظهر . ثم انصرف كليبر يصحبه المهندس

(١) نظم الفرنسيون هذه الكتيبة في عهد نابليون كما ذكرنا ذلك بالجزء الأول من ٢١٦ (من الطابعة الأولى) وجعلوا القبطان الرومي يقولوا بابازو غلو قومندانا لها ورقوه الى رتبة جنرال بعد اخذ ثورة القاهرة الثانية ، وكان في عهد المالك خادما عند مراد بك ورئيسا للترسانة التي أنشأها بالجزيرة ، ويقول المسيو مارتان في كتابه (تاريخ الحملة الفرنسية في مصر) انه خدم المالك إلى أن حلت بهم الهزيمة في معركة الأهرام فعرض خدمته على الفرنسيين ومن ذلك الحين وضع نفسه تحت تصرفهم، ويقول الجنرال رينيه في كتابه (مصر بعد واقعة عين شمس) ان عدد جنود هذه الكتيبة بلغ في عهد كليبر ١٥٠٠ مقاتل .

(٢) كان كليبر يقيم في ذلك الحين بالجزيرة ربثا يتم اصلاح سراي الألفي بك بالأزبكية

بروتان عاتدين إلى دار القيادة العامة ليستأنفا تفقد أعمال الترميم والإصلاح فيها . وكانت حديقة السراى تتصل بدار الجنرال داماس برواق طويل تظله تكعيبية من العنبر .

فسار كليبر وبجانبه بروتان فى هذا الرواق يتحدثان فى إصلاح السراى ، وبينما هما سائران لإخراج عليهما رجل يكمن وراء بشر عليها ساقية ، فاقترب من الجنرال كليبر كمن يريد أن يستجديه أو يتوسل إليه ، فلم يرتب الجنرال فى نية ذلك السائل ، لكنه لم يكذب يلتفت إليه حتى عاجله القاتل بطعنة خنجر مميته أصابته فى صدره ، فصاح الجنرال . « إلى أيها الحارس » ، ثم سقط على الأرض مضرجا فى دمه ، وهناك أسرع المسيو بروتان فى تعقب الجانى . فلما أدركه تماسك الاثنان . فطعنه القاتل ست طعنات سقط منها على الأرض بجوار كليبر . وعاد الجانى مرة ثانية إلى كليبر فطعنه ثلاث طعنات ليجهز عليه ، بيد أن الطعنة الأولى كانت القاضية لأنها نفذت إلى القلب . ولذا الجانى بالفرار وتوارى عن الأنظار مختفيا فى حديقة السراى . ولم يبق فى مكان الجريمة بما يدل على القاتل سوى جزء من عمامته التى تمزقت أثناء صراعه مع بروتان . وأقبل الحارس الذى سمع الصيحة يعدو . فلما رأى هذا المنظر الرهيب ولى مسرعا إلى دار الجنرال داماس فأخبر القوم بما رآه . فأقبل من كانوا موجودين إلى مكان الحادثة ، فرأوا الجنرال كليبر مضرجا فى دماائه وبجانبه بروتان مغمى عليه من شدة الطعنات . فهاهم ما أبصروه ونقلوا الجنرال كليبر إلى دار الجنرال داماس وجاء الطبيب ديخنت كبير أطباء الجيش لإسعاف الجنرال كليبر فألفاه قد أسلم الروح دون أن ينطق بكلمة .

انتشر الخبر فى القاهرة بسرعة البرق . فتلقاه الأهالى بالدهشة والجزع الشديد لتوقعهم الانتقام والنكال . و تلقاه الجنود الفرنسيون بالغضب والسخط والتحفز للوثبة على الأهالى الأبرياء . وضرب النفير العام فى القاهرة جمعا لشتات الجنود فأقبلوا من كل صوب وحذب إلى ميدان الازبكية يستندون بالانتقام والأخذ بالشار ويتهددون بإحراق المدينة . فاستولى الفرع على الناس . وأقفلت الدكاكين ، وخلت الطرق من المارة . وذهب كل إلى داره يطلب النجاة من عواقب هذا الحادث الجلل ، وأخذت دوريات الجنود تطوف الشوارع والأحياء وخاصة المجاورة لميدان الازبكية للبحث عن القاتل الذى كان بعد مختفيا عن الأنظار . وأخذ جماعة الحراس يبحثون فى حديقة السراى لعلمهم يعثرون عليه مختبئا فيها .

اتجهت أنظار الفرنسيين في بادئ الأمر إلى اتهام المشايخ الذين عرفوا بالتحريض على الثورة الأخيرة والحض على كراهية الحكم الفرنسي ، وأخذ ولاية الأموريين عنهم ، وتطوع جماعة من المماليك برئاسة حسين كاشف مندوب مراد بك للبحث عن أولئك المشايخ ، واستصحبهم بعض ياوران القائد العام وقتشوا منازلهم ، لكنهم لم يجدوا فيها ما يدينهم أو يبعث على الاشتباه فيهم .

رواية الجبرتي

نقلنا هذه البيانات عن المراجع الفرنسية وبخاصة كتاب ريبو الذي كان من أهم مصادره مذكرات بيروس السكرتير الخاص للجنرال كليبر ، وهي مصادر دقيقة يصح الاعتماد عليها ، والآن ننقل ما ذكره الجبرتي عن رواية الواقعة وهي في جوهرها لا تخرج عن رواية المراجع الفرنسية ، قال الجبرتي : « وفي ذلك اليوم — السبت ٢١ محرم سنة ١٢١٥ — وقعت نادرة عجيبة وهي أن ساري عسكر كليبر كان مع كبير المهندسين يسيران بداخل البستان الذي بداره بالأزبكية ، فدخل عليه شخص حلي وقصده ، فأشار إليه بالرجوع وقال له « مافيش » وكررها ، فلم يرجع ، وأوممه أن له حاجة وهو مضطرب في قضائها ، فلما دنا منه مد إليه يده اليسار كأنه يريد تقبيل يده فد إليه الآخر يده ، فقبض عليه وضربه بخنجر كان أعده في يده اليمنى أربع ضربات متوالية فشق بطنه وسقط على الأرض صارخا ، فصاح رفيقه المهندس فذهب إليه وضربه أيضاً ضربات ، وهرب ، فسمع العسكر الذي خارج الباب صرخة المهندس ، فدخلوا مسرعين فوجدوا كليبر مطروحا وبه بعض الرمي ولم يجدوا القاتل ، فانزعجوا وضربوا طبلهم وخرجوا مسرعين ، وجروا من كل ناحية يفتشون على القاتل ، واجتمع رؤسائهم وأرسلوا العساكر إلى الحصون والقلاع وظنوا أنها من فعل أهل مصر فاحتاطوا بالبلد وعمرؤا المدافع وحرروا القنابر . وقالوا لابد من قتل أهل مصر عن آخرهم . ووقعت هوجة عظيمة في الناس وكرشة وشدة انزعاج . وأكثرهم لا يدري حقيقة الحال ، ولم يزالوا يفتشون على ذلك القاتل حتى وجدوه منزويا في البستان المجاور لبنت ساري عسكر » . وذكر الجبرتي إجراءات التحقيق مما لا يخرج عن المراجع الفرنسية . ونقل محاضر التحقيق ومحاضر جلسات المحاكمة كما دونها الفرنسيون في ذلك الحين فقد نشرها بالفرنسية وترجموها إلى التركية والعربية بلغة ركيكة مفسكة مملوءة بالأغلاط . فضربنا صفحا عن الترجمة الواردة في الجبرتي ورجعنا إلى المصادر الفرنسية .

القبض على القاتل واعترافاته

وبعد ساعة من ارتكاب الجريمة عثروا على القاتل مختفياً في الحديقة الملاصقة لدار القيادة وراء حائط مهديم ، وأدركه اثنان من صف ضباط الحرس من الملازمين لدار الجنرال كليبر ، فحاول الحرب واسكنهما قبضا عليه وساقاه إلى دار أركان الحرب حيث كان قواد الجيش مجتمعين ، وكانت دلائل الجريمة بادية في المسكن الذي قبض عليه فيه ، فالحائط الذي كان مختفياً وراءه كان به آثار دماء ، كما أن ملابسه كانت ملوثة بدم الجريمة ، وعثروا على الخنجر مدفوناً في المسكن الذي قبض فيه على القاتل وعلى نصله دماء القتل ، فلما سبق القاتل إلى دار الجنرال داماس استجوبه الجنرال منو^(١) وواجهه بالمهندس بروتان فتعرفه وأرشد اليه من بين جماعة من العمال وضع بينهم خصيصاً للتأكد من صحة التعرف ، وشهد الشهود بأن القاتل كان يتبع خطوات الجنرال كليبر منذ عدة أيام ، فقد رأوه في الجزيرة يسمى في الدخول إلى مقر القائد العام بحجة تقديم عريضة إليه ، واسكن المسيو بيروس Peyrusse سكرتير كليبر رفض الإذن له بالمقابلة

وفي صباح الجريمة اندس القاتل بين جماعة من الخدم ورآه الياور ديفوج Devouge أحد ياوران كليبر وكان يظن أنه من العمال الذين يشتغلون في عمارة السراي فأمر بطرده من الحديقة ، ومع هذه البينات القاطعة كان القاتل ينسكرك الجريمة ، فاتبع معه برتلي الرومي طريقة التعذيب لإكراهه على الاعتراف وأخذ في ضرب القاتل حتى اعترف بجريمته وأبان عن شخصيته ، فإذا هو طالب علم من حلب عمره أربع وعشرون سنة اسمه سليمان الحلبي وأبوه تاجر من حلب اسمه الحاج محمد أمين وأنه غادر بلدته في سورية وذهب إلى بيت المقدس ثم حضر إلى القاهرة خصيصاً لقتل الجنرال كليبر وقضى بها واحداً وثلاثين يوماً ، وتبين من اعتراف القاتل في التحقيق وأمام المحكمة أن القتل وقع بتحرير رؤساء الجيش العثماني ، وذلك أن القاتل التقى في القدس بضابط من ضباط الجيش العثماني اسمه (أحمد اغا) يعرفه سليمان الحلبي منذ كان رئيساً للانكشارية في حلب ، وكان هذا الضابط معزولاً من وظيفته وجاء إلى القدس ليسعى

(١) عينه قومنداناً للقاهرة في شهر مايو عقب إخماد الثورة وبقي بها إلى أن قتل كليبر فتولى استجواب القاتل بصفته قومندان المدينة وأقدم القواد

إلى مقابلة الصدر الأعظم ويتمس منه إعادته إلى منصبه، فالتقى به سليمان الحلبي وشكا إليه مظالم إبراهيم باشا وإلى حلب وإرهاقه أباه وإجباره على أداء غرامات فادحة ، وطلب من أحمد أغا أن يشفع لوالده ليرفع عنه ما حاق به من الظلم ، فوعده أحمد أغا بمساعدته وإنصاف والده على أن يسافر إلى مصر ويقتال قائد الجيش الفرنسي، وكان هذا الحديث بعد رجوع الجيش العثماني منهمزماً إلى سورية، فقبل سليمان الحلبي ارتكاب الجريمة وصمم عليها فأرسله أحمد أغا إلى حاكم غزة (يسر أغا) وأوصاه بأن يعطيه ما يحتاج إليه من المال ليبلغ إلى مصر ، وسافر الحلبي من القدس إلى الخليل ومنها إلى غزة وقابل يسر أغا فوعده برفع المغارم عن أبيه وأعانه بالمال وسافر من غزة إلى مصر صحبة قافلة من التجار فأدرك القاهرة في ستة أيام وبلغها يوم ١٤ مايو وكان يعرف المدينة من قبل إذ قضى بها ثلاث سنوات يطلب العلم في الأزهر ، فنزل عند وصوله بدار معلم تركي (خطاط) اسمه مصطفى أفندي البروسه^(١) وهو شيخ يبلغ الثمانين من العمر كان يتعلم القائل على يده في صغره ، فنزل بداره وبات عنده أول ليلة ولسكنه لم يفض إليه بعزمه ، ثم انتقل من عنده ومكن الجامع الأزهر وانتظم في سلك طلبة العلم ، وقضى بالأزهر نحو ثلاثين يوماً ، وأفضى بعزمه إلى أربعة من الطلبة وهم محمد الغزي ، وأحمد الوالي ، وعبد الله الغزي ، وعبد القادر الغزي ، فأنسكر الأربعة عليه هذا العزم ورموه بالاطيش والجنون ، ونصحوه بالإفلاع عن عزمه ، فلم يسمع لنصحهم ، وذهب مساء ١٣ يونية إلى الجيزة حيث كان كليبر ، واستفهم من النوتية الذين في خدمة الجنرال عن موعد خروجه ، فأخبروه أن الجنرال يتروض في مساء كل يوم في حديقة سراي القيادة العامة بالأزبكية ، وقد حاول سليمان الحلبي أن يدخل الحديقة ذلك المساء فلم يفلح ، وقضى الليلة في أحد المساجد ، وفي صباح ١٤ يونيه تسمع خطوات الجنرال ، فسار على أثره إلى الروضة ثم عاد وراه إلى القاهرة ، وتمكن من التسلل إلى حديقة دار القيادة العامة ووصل إلى الرواق الذي ارتكب فيه الجناية ، فلما اعترف القائل بجنائيته أمروا بالقبض على الأزهرين الأربعة الذين وردت أسمائهم في أقواله ، فاعتقلوا منهم ثلاثة وفر الرابع (عبد القادر الغزي) واستجوب الثلاثة فانكروا مانسبه إليهم القائل .

قال الجبرتي في هذا الصدد : « ثم إنهم أمروا بإحضار الشيخ عبد الله الشرقاوي

(١) نسبة إلى (بروسه) من بلاد الأناضول

القبض على القاتل واعترافاته

وبعد ساعة من ارتكاب الجريمة عثروا على القاتل مخفياً في الحديقة الملاصقة لدار القيادة وراء حائط مهديم ، وأدركه اثنان من صف ضباط الحرس من الملاحمين لدار الجنرال كليبر ، فحاول الحرب ولكنهما قبضا عليه وساقاه إلى دار أركان الحرب حيث كان قواد الجيش مجتمعين ، وكانت دلائل الجريمة بادية في المسكن الذي قبض عليه فيه ، فالحائط الذي كان مخفياً وراءه كان به آثار دماء ، كما أن ملابسه كانت ملوثة بدم الجريمة ، وعثروا على الخنجر مدفوناً في المسكن الذي قبض فيه على القاتل وعلى فصله دماء القتل ، فلما سبق القاتل إلى دار الجنرال داماس استجوبه الجنرال منو^(١) وواجهه بالمهندس برونان فتمرفه وأرشد إليه من بين جماعة من العمال وضاع بينهم خصيصاً للتأكد من صحة التعرف ، وشهد الشهود بأن القاتل كان يتبع خطوات الجنرال كليبر منذ عدة أيام ، فقد رأوه في الجيزة يسمى في الدخول إلى مقر القائد العام بحجة تقديم عريضة إليه ، واسكن المسيو بيروس Peyrusse سكرتير كليبر رفض الإذن له بالمقابلة

وفي صباح الجريمة اندس القاتل بين جماعة من الخدم وراء الياور ديفوج Devouge أحدياوران كليبر وكان يظن أنه من العمال الذين يشتغلون في عمارة السراي فأمر بطرده من الحديقة ، ومع هذه البيانات القاطعة كان القاتل ينكر الجريمة ، فاتبع معه برتلى الرومى طريقة التعذيب لإكراهه على الاعتراف وأخذ في ضرب القاتل حتى اعترف بجريمته وأبان عن شخصيته ، فإذا هو طالب علم من حلب عمره أربع وعشرون سنة اسمه سليمان الحلبي وأبوه تاجر من حلب اسمه الحاج محمد أمين وأنه غادر بلدته في سورية وذهب إلى بيت المقدس ثم حضر إلى القاهرة خصيصاً اقتتل الجنرال كليبر وقضى بها واحداً وثلاثين يوماً ، وتبين من اعتراف القاتل في التحقيق وأمام المحكمة أن القتل وقع بتحريض رؤساء الجيش العثماني ، وذلك أن القاتل التقى في القدس بضابط من ضباط الجيش العثماني اسمه (أحمد اغا) يعرفه سليمان الحلبي منذ كان رئيساً للانكشارية في حلب ، وكان هذا الضابط معزولاً من وظيفته وجاء إلى القدس ليسعى

(١) عينه قومنداناً للقاهرة في شهر مايو عقب إخماد الثورة وبقي بها إلى أن قتل كليبر فتولى استجواب القاتل بصفته قومندان المدينة وأقدم القواد

إلى مقابلة الصدر الأعظم ويلتمس منه إعادته إلى منصبه، فالتقى به سليمان الحلبي وشكا إليه مظالم إبراهيم باشا وإلى حلب وإرهاقه أباه وإجباره على أداء غرامات فادحة ، وطلب من أحمد أغا أن يشفع لوالده ليرفع عنه ما حاق به من الظلم ، فوعده أحمد أغا بمساعدته وإنصاف والده على أن يسافر إلى مصر ويقتال قائد الجيش الفرنسي، وكان هذا الحديث بعد رجوع الجيش العثماني منهزمًا إلى سورية، فقبل سليمان الحلبي ارتكاب الجريمة وصمم عليها فأرسله أحمد أغا إلى حاكم غزة (يسر أغا) وأوصاه بأن يعطيه ما يحتاج إليه من المال ليبلغ إلى مصر ، وسافر الحلبي من القدس إلى الخليل ومنها إلى غزة وقابل يسر أغا فوعده برفع المغارم عن أبيه وأعانه بالمال وسافر من غزة إلى مصر صحبة قافلة من التجار فأدرك القاهرة في ستة أيام وبلغها يوم ١٤ مايو وكان يعرف المدينة من قبل إذ قضى بها ثلاث سنوات يطلب العلم في الأزهر ، فنزل عند وصوله بدار معلم تركي (خطاط) اسمه مصطفى أفندي البروسه^(١) وهو شيخ يبلغ الثمانين من العمر كان يتعلم القاتل على يده في صغره ، فنزل بداره وبات عنده أول ليلة ولسكنه لم يفض إليه بعزمه ، ثم انتقل من عنده وسكن الجامع الأزهر وانتظم في سلك طلبة العلم ، وقضى بالأزهر نحو ثلاثين يوما ، وأفضى بعزمه إلى أربعة من الطلبة وهم محمد الغزى ، وأحمد الوالى ، وعبد الله الغزى ، وعبد القادر الغزى ، فأنكر الأربعة عليه هذا العزم ورموه بالطيش والجفون ، ونصحوه بالإقلاع عن عزمه ، فلم يسمع لنصحهم ، وذهب مساء ١٣ يونية إلى الجزيرة حيث كان كليبر ، واستفهم من النوتية الذين في خدمة الجنرال عن موعد خروجه ، فأخبروه أن الجنرال يتروض في مساء كل يوم في حديقة سراى القيادة العامة بالأزبكية ، وقد حاول سليمان الحلبي أن يدخل الحديقة ذلك المساء فلم يفلح ، وقضى الليلة في أحد المساجد ، وفي صباح ١٤ يونيه تلبع خطوات الجنرال ، فسار على أثره إلى الروضة ثم عاد وراه إلى القاهرة ، وتمكن من التسلل إلى حديقة دار القيادة العامة ووصل إلى الرواق الذى ارتكب فيه الجناية ، فلما اعترف القاتل بجنايته أمروا بالقبض على الأزهرين الأربعة الذين وردت أسماؤهم فى أقواله ، فاعتقلوا منهم ثلاثة وفر الرابع (عبد القادر الغزى) واستجوب الثلاثة فانكروا مانسبه إليهم القاتل .

قال الجبرقى فى هذا الصدد : « ثم إنهم أمروا بإحضار الشيخ عبد الله الشرقاوى

(١) نسبة إلى (بروسه) من بلاد الأناضول

شيخ الجامع الأزهر والشيخ أحمد العريشى (قاضى مصر) وأعلوهما بذلك وعوقبهما (أى حجزوهما) إلى نصف الليل وألزموهما إحضار الجماعة الذين ذكرهم القاتل وأنه أخبرهم بفعله ، فركبوا وصحبهم الأغا (المحافظ) وحضروا إلى الجامع الأزهر وطلبوا الجماعة ، فوجدوا ثلاثة منهم ولم يجدوا الرابع (عبد القادر الغزى) فأخذهم الأغا وحبسهم ببيت قائم مقام (حاكم القاهرة) بالأزبكية ثم انهم رتبوا صورة محاكمة على طريقتهم فى دعاوى القصاص .

قضية مقتل كليبر

هذه الاعترافات والبيانات بدأت قضية مقتل الجنرال كليبر ، وتعد هذه القضية من أكبر القضايا التاريخية بالنسبة لشخصية المجنى عليه والظروف التى وقعت فيها الجناية والنتائج التى ترتبت عليها .

كانت المحاكمة تقتضى معرفة من الذى يخلف الجنرال كليبر فى قيادة الجيش الفرنسى ، لأن القائد العام الجديد هو الذى يقرر إجراء المحاكمة ويأمر بتأليف هيئة المجلس العسكرى الذى يحاكم المتهمين ، وكان القانون العسكرى الفرنسى يقضى فى حالة خلو منصب القائد العام للجيش بأن تكون القيادة لأقدم قائد من قواد الفرق إلى أن تعين الحكومة خلفاً له ، والجنرال (منو) هو أقدم أقرانه من قواد الفرق فضلاً عن أنه كان قومندان القاهرة ، كما قدمنا ، فألت له قيادة الجيش وخلف الجنرال كليبر فى منصبه ، قال الجبرقى فى هذا الصدد : « واستقر عوضه فى السر عسكارية قائم مقام ^(١) عبد الله جاك منو وهو الذى كان متولياً على رشيد من قدومهم ، وقد كان أظهر أنه أسلم وتسعى بعبد الله وتزوج بامرأة مسلمة وقلدوا عوضه فى القائم مقامية بليار » ، وأصدر يوم ١٥ يونية غداة مقتل كليبر منشوراً عسكرياً للجيش ينمى إليه الجنرال كليبر وينوه بخدماته العسكرية والإدارية ويبلغ الجنود أنه بحكم أقدميته قد تولى قيادة الجيش بصفة مؤقتة .

تأليف المحكمة العسكرية

وأصدر منو فى اليوم نفسه أمراً بتأليف محكمة عسكرية لمحاكمة قتلة كليبر ، وهذه

(١) قومندان (حاكم) القاهرة

المحكمة مؤلفة من تسعة أعضاء من كبار رجال الجيش وهم الجنرال رينيه Reynier (رئيس المحكمة) ، والجنرال فريان Friant ثم استبدل به الادمجودان جنرال مارتينييه ، والجنرال روبان Robin ، والادمجودان جنرال موران Morand ، والكلولونل جوجي Goguet ، والكلولونل فور Faure ، والكلولونل برتران Bertrand ، والقوميسير رجنيه Regnier ، ومدير مهمات البحرية لروا Leroy (ويسميه الجبرتي دفتر دار البحر) وعهد الى القوميسير سارتلون Sartelon ^(١) مدير مهمات الجيش القيام بوظيفة المدعى العمومي وندب القوميسير لبيير Lepère نائباً عن السلطة العسكرية .

انعقدت المحكمة يوم ١٥ يونيه وندبت الجنرال رينيه والقوميسير سارتلون لإجراء التحقيق وجمع البينات للوصول الى معرفة المتهمين .

التحقيق مع المتهمين

تولى القوميسير سارتون مدير مهمات الجيش تحقيق القضية ، فسكتب محضراً باستجواب سليمان الحلبي عقب الحادثة واستجواب المتهمين الآخرين ، وأخذ في سماع أقوال الشهود ، فقرر جوزيف بيران Joseph Perrin من فرسان الحرس أنه هو والفارس روبرت Robert عثرا على القاتل مختبئاً في الحديقة وراء حائط متهدم وعلى الحائط آثار الدماء ، وأن القاتل كان أيضاً ملوثاً بالدم ، فقبضوا عليه وهو في هذه الهيئة ، وانهما عثرا بعد ساعة من اعتقال الجاني على خنجر مدفون في المسكان الذي كان مختبئاً به ، وعلى فصله دماء .

وشهد الفارس روبرت بما شهد به صاحبه .

وانتقل المحقق بعد ذلك إلى دار المهندس بروتان Protain الذي كان يرافق الجنرال كليبر وقت الجريمة ، وكان ضحية من الجراح التي أصابته ، فشهد برؤيته القاتل يرتكب الجريمة وأنه ضربه بعصاه ليدافع عن الجنرال كليبر ، فانقض عليه القاتل وطعمه عدة طعنات فسقط بعدها على الأرض مغشياً عليه ، وقرر أنه رغم صياحه وصياح الجنرال كليبر فقد بق عشر دقائق قبل أن تصلهم النجدة ، وأنه تعرف القاتل بعد القبض عليه .

(١) عينه كليبر مديراً لمهمات الجيش بدلاً من المدير السابق المسيو « دور »

وسمع المحقق أقوال الملازم ديفوج Devouges ياور الجنرال كليبر فقرر أنه في يوم الحادثة كان يصاحب الجنرال في تفقده دار القيادة العامة بالقاهرة وأن القاتل كان لايفتك يتعقب الجنرال وكانوا يظنون أنه أحد العمال الذين يعملون في ترميم السراى فلم يرتابوا في شأنه ، لكن ديفوج لاحظ أن القاتل تعقب الجنرال بعد أن خرج من حديقة السراى قاصداً دار الجنرال داماس رئيس أركان الحرب ، فسأله عما يريد وأمر بطرده ، وطرده الخدم فعلا ، وبعد ساعتين وقعت الجناية ، ولاحظ ديفوج وجود جزء من ملابس القاتل تركها في مكان الجناية فتعرقها الشاهد وعرف أنها ملابس ذلك الرجل الذى أمر بطرده ، ولما قبض على القاتل وجيء به ورآه تحقق منه .

وأعاد المحقق استجواب سليمان الحلبي ، وكان يتولى ترجمة أقواله وأقوال المتهمين المسمى براسغيش Braswich رئيس ترجمة القائد العام ، فكرر المتهم اعترافاته السابقة وأقر بأن المحرضين له على القتل هما أحمد أغا ويس أغا من ضباط الجيش العثماني كما تقدم ، وأن أحمد أغا اختاره لأنه يعرف القاهرة معرفة تامة حيث قضى فيها من قبل ثلاث سنوات في طلب العلم بالأزهر ، وأنه كشف الأزهرين الأربعة بعزمه وكان يفضي اليهم به كل يوم ، ولسكنهم كانوا ينصحونه بالإقلاع عنه لاستحالة نجاحه ، وأنه في يوم القتل قابل محمد الغزى أحد زملائه الأربعة وأخبره بأنه ذاهب إلى الجزيرة لينفذ عزمه وأنكر أنه أفضى بعزمه إلى المدرس التركي (مصطفى افندى) وأنكر كذلك أنه أخذ نقودا من أحد من الأهالي .

وأمر المحقق بمواجهة سليمان الحلبي بالأزهر بين الثلاثة المقبوض عليهم واستجوبهم فيما قرره بشأنهم ، والظاهر من التأمل في أسئلة المحقق أن الفرنسيين كانوا شديدي الارتياب في مسلك علماء الأزهر وخاصة الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع ، وكان سير التحقيق متجها إلى جمع البينات لإثبات علم الشيخ الشرقاوى بنية القاتل قبل ارتكاب الجناية ، ولكن التحقيق لم يسفر عن إدانة الشيخ الشرقاوى أو غيره من كبار العلماء .

سئل محمد الغزى أحد الأزهرين الأربعة فقرر أنه يعرف سليمان الحلبي ولسكنه أنكر أنه أفضى إليه بعزمه على القتل ، وقال إن سليمان كاذب في ادعائه ، سأله المحقق ألم يبيت غالبا في بيت الشيخ الشرقاوى وخاصة في الأيام الأخيرة ؟ فأجاب بأنه من

يوم يحىء الفرنسيين لم يبت عنده قط ، وأنه قبل ذلك كان يبيت عنده أحيانا ، فكذبه المحقق قائلا انه في استجوابه الأول اعترف بأنه كان يبيت غالبا عند الشيخ الشرقاوى ، فأجاب المتهم أنه لم يقل ذلك ، وواجهه المحقق بسليمان الحلبي في نقطة افضائه له بعزمه على قتل الجنرال كليبر ، فأصر المتهم على الإنكار . فأمر المحقق بضربه ليعترف . وضربه إلى أن تعهد بأن يقر بالحقيقة . ثم أقر بأن الحلبي أفضى إليه بذلك ليلة الحادث .

سئل : لماذا لم يبلغ الأمر إلى الجهة المختصة ، فأجاب بأنه لم يكن يصدق أن رجلا مثل سليمان الحلبي يجرؤ على قتل القائد العام للجيش الفرنسي في حين أن الوزير (يوسف باشا) لم يستطع ذلك .

سئل : ألم يبلغ ما سمعه من سليمان الحلبي إلى أحد في المدينة وخاصة إلى الشيخ الشرقاوى ، فأجاب بأنه لم يذكر ذلك لأحد ، وأصر على جوابه قائلا إنه لا يعدل عنه ولو أمروا بقتله .

ثم استجوب المحقق أحمد الوالى ثانياً الأزهريين الأربعة ، فأجاب بأن سليمان الحلبي أخبره عند قدومه إلى مصر أنه جاء ليجاهد في سبيل الله ولكنه لم يخبره بعزمه على قتل القائد العام ، فواجهه المحقق بسليمان الحلبي فأقر عليه بأنه أخبره بعزمه ، فعدل المتهم عن إنكاره وقال إنه يذكر أنه أخبره بعزمه .

سئل : لماذا لم يبلغ الأمر إلى الجهة المختصة فأجاب بمثل ما أجاب به محمد الغزى

سئل : ألم يخبره سليمان الحلبي بأن له شركاء ، وهل لم يبلغ أحداً ما أفضى به إليه وخصوصاً شيخ الجامع الأزهر (الشرقاوى) فأجاب بأن الحلبي لم يخبره بأن له شركاء وأنه لم يبلغ شيخ الجامع ما سمعه منه لأنه لم يظن أن ذلك من واجبه .

ثم استجوب المحقق عبد الله الغزى ثالث الأزهريين ، فاعترف بأن سليمان الحلبي أخبره من يوم حضوره أنه جاء ليقتل القائد العام وأنه حاول أن يثنيه عن عزمه فلم يفلح .

سئل لماذا لم يبلغ الأمر إلى جهة الاختصاص ، فأجاب بأنه كان يظن أن سليمان الحلبي سيفضى بعزمه إلى كبار المشايخ وأنهم سيتولون إرجاعه عن عزمه .

سئل عما إذا كان يعرف أن في القاهرة أشخاصاً آخرين مكلفين قتل الفرنسيين فأجاب بأنه لا يعرف شيئاً عن ذلك ولا يظنه .

ثم استجوب مصطفى افندى البروسه لى المدرس ، وسئل عن علاقته بالقاتل فأجاب بأنه كان تلميذه منذ ثلاث سنوات وأنه جاءه عند قدومه الأخير إلى القاهرة وبات عنده ليلة ثم طلب منه أن يبحث له عن مشوى آخر إذ لا يستطيع لفقره أن يؤويه في بيته ، وقال إنه لم يخبره بسبب حضوره ولم يعرف عن نيته شيئاً

سئل ألم يخبره عما إذا كان قابل أحداً من أهالى القاهرة وخاصة من كبار العلماء فأجاب بأنه لا يعرف شيئاً عن ذلك وأنه لشيخوخته ومرضه لا يخرج من بيته إلا نادراً
سئل أليس في القرآن ما يحض على الجهاد في سبيل الله ، فأجاب نعم ، سئل ألم يدرس هذه القواعد لتلاميذه وخاصة لسليمان الحلبي ، فقال إنه كان يعلمه الكتابة فقط
سئل ألا يعلم بأن مسلماً قتل بالأمس القائد العام وهل يعتقد أن القرآن يعد هذا القتل جهاداً في سبيل الله ، فأجاب بأن القاتل يجب أن يقتل

ثم ووجه مصطفى افندى بسليمان الحلبي ، فأقر هذا بأنه لم يخبره بعزمه وأنه لم يقابله إلا مرة واحدة للسلام عليه لأنه معلمه القديم ، وسئل الحلبي ألم يحرضه علماء المدينة على القتل ، فأجاب بأنه لم يفض بعزمه إلا للأزهريين الأربعة
سئل ألم تخاطب في ذلك الشيخ الشرفاوى ، فأجاب بأنه لم ير الشيخ الشرفاوى قط لأنه شافعى المذهب أما هو فعلى مذهب الإمام أبى حنيفة

المحاكمة

أسفر التحقيق عن اتهام سليمان الحلبي والأزهريين الأربعة الذين أفضى إليهم بعزمه على ارتكاب الجناية ، وهم محمد الوالى ، وعبد الله الغزى ، وعبد القادر الغزى وكذلك مصطفى افندى البروسه لى الذى بات عنده حين حضوره إلى مصر ، فكان عدد المتهمين ستة ، ولما كان رابع الأزهريين وهو عبد القادر الغزى فاراً قبل المحاكمة فقد حوكم غيابياً .

وطلب المدعى العمومى من المتهمين أن يعهدوا بالدفاع عنهم إلى رجل لترافع أمام المحكمة ، فأجابوا بأنهم لا يعرفون أحداً ، فندب للدفاع عنهم المترجم لوما كا

وانعقدت المحكمة العسكرية يوم ١٦ يونيه وأخذت في سماع مرافعة المدعى العمومى ودفاع المتهمين ، فقام المدعى العمومى وطلب الحكم بتوقيع العقاب على القاتل وشركائه ، ونعى في مرافعته الجنرال كليبر وأشاد بمواقفه الحربية في ميادين القتال ، ونسب الجريمة إلى تحريض الصدر الأعظم يوسف باشا وقال إن الذى تولى إغراء سليمان الحلبي على القتل هو أحمد آغا الذى كان مفضوياً عليه من الوزير فاراد أن يتقرب إليه بهذا العمل الفظيع لينال رضاه ، وأن القاتل اندفع إلى القتل تحت تأثير هذا التحريض ، وأن نهمة شركائه المشايخ الأربعة انهم علوا بنية القاتل وتصميمه عليها ومع ذلك لم يخبروا ولاة الأمور بعزمه ، فهم يعتبرون شركاء للقاتل في جريمته ، وقال عن مصطفى أفندى أنه لا دليل على اشتراكه في الجريمة لأنه ثبت أنه لم يعلم بنية القاتل ، وعلى ذلك طلب له البراءة ، وطلب الحكم على سليمان الحلبي بإحراق يده اليمنى التى باشر بها القتل ثم إعدامه على الخازوق وترك جثته تأكلها جوارح الطير ، وبالنسبة للمشايخ الأربعة طلب الحكم فى غيبة عبد القادر الغزى وبحضور الثلاثة الآخرين بقطع رءوسهم ، وبعد أن تمت مرافعة المدعى العمومى طلبت المحكمة من المتهمين أن يدافعوا عن أنفسهم فلم يجيبوا بشئ وأعيدوا إلى السجن ، وأمرت بإخلاء قاعة الجلسة ، فأخليت من الحاضرين

الحكم

واختلت المحكمة للداولة ، ثم أصدرت حكماً باعتبار سليمان الحلبي وشركائه الأربعة مذنبين ، وبراءة مصطفى أفندى وإطلاق سراحه ، وحكمت بإحراق يد سليمان الحلبي اليمنى ثم إعدامه على الخازوق وترك جثته تأكلها الطير ، وإعدام شركائه الأربعة بقطع رءوسهم وإحراق جثثهم بعد الإعدام مع مصادرة أموال المتهم الغائب عبد القادر الغزى (ولم يكن له مال)

ولا جدال فى أن محاكمة المتهمين فى هذه القضية كانت عنواناً للعدالة العسكرية ، وخاصة إذا لاحظنا شخصية المجنى عليه والظروف التى وقعت فيها الجناية ، ومن الإنصاف أن نقول أن القضاة الفرنسيين الذين تولوا تحقيق القضية والحكم فيها قد أظهروا شيئاً كثيراً من ضبط النفس والميل إلى العدل ، وقد كان فى استطاعتهم أن يأخذوا كثيراً من الأبرياء بجنائية القاتل ، لكنهم لم يفعلوا ، فكانوا نموذجاً للعدل

ومدعاة للإعجاب ، ولم يفت الجبرتي في تاريخه أن يعرب عن هذا الإعجاب لمناسبة نقله محاضر جلسات التحقيق والمحاكمة فقال انها « تتضمن خبر الواقعة وكيفية الحكومة ولما فيها من الاعتبار وضبط الأحكام من هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل ولا يدينون بدين ، وكيف وقد تجارى على كبيرهم ويعسوبهم (١) رجل آفاق أهوج وغدره وقبضوا عليه وقرروه (أى حملوه على الاقرار) ولم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم بمجرد الاقرار بعد أن عثروا عليه ووجدوا معه آلة القتل مضمخه بدم سارى عسكرهم وأميرهم ، بل رتبوا حكومة ومحاكمة وأحضروا القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام مرة بالقول ومرة بالعقوبة ، ثم أحضروا من أخبر عنهم وسألوهم على انفراد ومجتمعين ، ثم نفذوا الحكم فيهم بما اقتضاه التحكيم ، وأطلقوا مصطفى افندي البرصلى الخطاط حيث لم يلزمه حكم ولم يتوجه عليه قصاص كما يفهم جميع ذلك من فحوى المسطور ، بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر (العثمانيين) الذين يدعون الإسلام ويزعمون أنهم مجاهدون وقتلهم الانفس وتجاريهم على هدم البنية الانسانية »

جنازة كبير

وبعد أن تمت المحاكمة أخذوا يستعدون للاحتفال بتشييع رفات الجنرال كبير في مشهد مهيب ، فشيعت جنازته يوم الثلاثاء ١٧ يونيه (٢٥ محرم سنة ١٣١٥) وأطلقت مدافع القلاع عند تحرك موكب الجنازة ، وسارت الجنازة تتقدمها كتائب الجيش من الفرسان والمدفعية وحرس القائد العام والموسيقى ، ووراءها النعش مجللا بالسواد محمولا على مركبة تجرها ستة من الجياد الصافئات ، وعليه سيف كبير وقبعته وشاراته ، ووراء النعش الجنرال (منو) وقواد الجيش وأركان الحرب وياوران كبير ووراءهم قومندان المدينة فأركان حرب وضباط فرقة الهندسة وأعضاء المجمع العلمى وكبار رجال الادارة وحسين كاشف مندوب مراد بك وماليمكة والأغوات (رؤساء الشرطة) والقاضى وأعضاء الديوان والعلماء والقساوسة ومندوب طوائف الصناع فى القاهرة وغيرهم ، وسارت الجنازة من الأزبكية إلى درب الجمايز إلى

(١) أى عظيمهم وقائدهم

الناصرية إلى أن وصلوا إلى تل العقاب على مقربة من القلعة التي بنوها هناك (١) وخرجوا من باب (غيط الباشا) القريب من دار المجمع العلمي ثم تابعوا السير إلى (قصر العيني) حيث أعدوا في حديقته قبر الجنرال على درج عال وضعوا فوقه التابوت وأقاموا حول القبر حاجزا ، وزرعوا حوله أعواد السرو ، وهناك دفنت الجثة في خشوع رهيب ، وألقى المسيو فورييه سكرتير المجمع العلمي والقوميسير الفرنسي لدى الديوان كلمة نابين طويلة ذكر فيها صفات الجنرال كليبر « بطل معركتي مايستريك وعين شمس » ومواقفه الحربية على ضفاف الرين والأردن والنيل. وذكر كيف هزم جيش يوسف باشا وكيف أخذ ثورة القاهرة ثم عفا بعد ذلك عمن اشتركوا في الثورة وكيف أن القاتل قد حرصه رؤساء الجيش العثماني على اغتيال حياة الجنرال كليبر بعد ما انتصر عليهم في ميدان القتال . وحكي فورييه ذكرى الفرنسيين الذين ماتوا في معارك سورية وأبو قير وعين شمس . وخاصة ذكرى كافريلى الذى كانت تربطه بكليبر صلات الصداقة والود

وعقب انتهاء الجنازة ودفن الجثة نفذ حكم الاعدام (٢) فى المحكوم عليهم عند تل العقاب قريبا من طابية قاسم بك على مشهد من الجنود وأعيان المدينة . فقطعت رموس الأزهرين الثلاثة ، ثم أعدم سليمان الحلبي على الخازوق (٣)

وانقضت تلك الأيام الثلاثة والفرع مخيم على القاهرة والناس تعرفهم الدهشة من تعاقب الحوادث الرهيبة على المدينة العظيمة التى ظلت السنين الطوال قبل الحملة الفرنسية غارقة فى لجة الهدوء والسكون

(١) طابية قاسم بك بالناصرية ويسمىها الفرنسيون طابية المجمع العلمى ، انظر الجزء الأول ص ٣١٣ من الطبعة الأولى

(٢) يقول الجبرتى ان حكم الاعدام نفذ قبل دفن جثة كليبر ، وهذا خطأ فان تنفيذ الحكم كان بعد الدفن بانفاق المراجع الفرنسية فضلا عن أن حكم المحكمة العسكرية كان يقضى بذلك ، ولعل الجبرتى لم يحضر الجنازة ولا تنفيذ الحكم ولم يقادر بته فى ذلك اليوم الرهيب فلم تصله حوادثه كلها على حقيقتها (٣) شرح كبير الجراحين لارى Larrey جثة سليمان الحلبي بعد اعدامه واستبقى هيكل رأسه

ونقله إلى غرفة التشريخ بمدرسة الطب ببائرس ، كما أن الخنجر الذى قتل به كليبر محفوظ فى مدينة كاركاسون Carcassonne بفرنسا فقد أودعه بها المسيوبيوس Peyrusse سكرتير الجنرال كليبر بعد عودته من مصر (و كاركاسون هى مسقط رأس بيروس)

إقفال الأزهر

زاد ارتياب الفرنسيين في الأزهر بعد مقتل الجنرال كليبر إذ كان يأوى إليه سليمان الحلبي وشركاؤه ، وبه قضى القاتل نحو ثلاثين يوما مصمما على القتل ، فلم يقتنع الفرنسيون بأن علماء الأزهر كانوا يجهلون نية القاتل قبل ارتكاب الجريمة ، وقد مر بك ما قاله نابليون في مذكراته في هذا الصدد ، فلما انقضت محاكمة سليمان الحلبي وشركائه ذهب الجنرال (منو) إلى الأزهر يصحبه قومندان المدينة (الجنرال بليسا) والآغا (المحافظ) وطافوا به وشرعوا في حفر ما به من الأماكن بحجة التفتيش على السلاح ، فأخذ طلبة العلم في نقل أمتعتهم منه ونقل كتبهم وإخلاء الأروقة ، وكتب الفرنسيون أسماء الطلبة في كشوف وأمرهم أن لا يؤووا بالجامع غربا ، وأخرجوا منه المجاورين العثمانيين ، فلما رأى العلماء أن الأزهر أصبح عرضة للريبة والتفتيش عرضوا على الفرنسيين لإقفاله مؤقتا ، قال الجبرتي في هذا الصدد :

« إن المشايخ الشراوى والمهدى والصاوى توجهوا عند كبير الفرنسيين (منو) واستأذنه في إقفال الجامع ، وكان قصدهم من ذلك منع الريبة بالسكينة فان الأزهر سعة لا يمكن الإحاطة بمن يدخله ، فربما دس العدو من يبيت به واحتج بذلك إلى انجاز غرضه ونيل مراده من المسلمين والفقهاء ، ولا يمكن الاحترام من ذلك ، فأذن كبير الفرنسيين بذلك لمسا فيه من موافقه غرضه بأطنا ، فلما أصبحوا (١) أقفلوه وسمروا أبوابه من سائر الجهات »

وظل الأزهر مقفلا إلى أن شرع الفرنسيون في الجلاء عن مصر فأعيد فتحه في غاية محرم سنة ١٢١٦ (٢)

وساد الذعر في المدينة بعد مقتل الجنرال كليبر ومحاكمة القاتل وشركائه فهاجر كثير من العلماء والأعيان إلى الأقاليم وتبعهم الجاهل من الناس حتى اضطرت السلطة الفرنسية لوقف تيار الهجرة إلى اصدار أمرها بمنع انتقال الناس ورجوع المهاجرين منهم وأذرت من لم يرجع بعد خمسة عشر يوما بنهب داره ، فعاد أكثر المهاجرين خوفا على بيوتهم أن تنهب وأموالهم أن تصادر

(١) يوم الجمعة ٢٨ محرم سنة ١٢١٥ — ٢١ يونيو سنة ١٨٠٠

(٢) ٢ يونيو سنة ١٨٠١

الفصل الحادى عشر

قيادة الجنرال منو Menou

لم يكن تولى الجنرال (منو) قيادة الجيش الفرنسى راجعا الى كفاية عسكرية أو مواهب سياسية أو إدارية ، بل لأنه أقدم قواد الفرق فى الخدمة ، فالصدفة هى التى قضت بأن يخلف كلبير ونابليون ، أما منو فى ذاته فلم يكن على صفات تؤهله لتولى ذلك المنصب الخطير ، فقد كان فى حياته الحربية بعيدا عن خوض غمار المعارك ، وكأنما كان يجتهد على الدوام فى أن يكون بعيدا عنها .

ولد جاك فرنسوا منو سنة ١٧٥٠ من عائلة عريقة فى النسب ، وانتظم فى سلك الجنندية ، ولما اقترب عصر الثورة الفرنسية كان مؤمنا بمبادئها وانتخب سنة ١٧٨٩ عضوا فى الجمعية العمومية ، وبالرغم من أنه من نواب الاشراف فإنه انضم إلى نواب الشعب وأعلن تنازله عن امتيازاته ورتبته (بارون) وعاد إلى سلك الجنندية بعد انحلال الجمعية الوطنية الفرنسية الأولى ، وحارب لإخاد فتنه (الفاندية) فهزم فى تلك الحرب الداخلية ، ثم عهدت إليه حكومة الجمعية الوطنية قمع فتنه الخارجين عليها بباريس ، لسكنه أظهر عجزا كبيرا فى أداء هذه المهمة فأبدلت به الجنرال بوناپرت (نابليون) الذى قمع الفتنه وأنقذ الجمعية الوطنية من فتنه الثائرين ودسائس المملوكيين فى أكتوبر سنة ١٧٩٥ ، وقد لمح (منو) من ذلك الحين نجم نابليون يتألق فى سماء العبقرية والعظمة ، فأخذ يتملق القائد العظيم ويحوم حوله ، ومن هنا جاء عطف نابليون عليه ، وقد اصططحبه ضمن قواد الحملة الفرنسية ، وأصيب (منو) بجرح فى حصار الإسكندرية ، فعينه نابليون حاكما لرشيد ، وظل هنزويا فيها دون أن يشترك فى وقائع الحملة ، ودعاه نابليون عندما زحف على سورية ليلحق بالجيش المقاتل وعينه قومندانا لفلسطين (١) ، فأخذ يتباطأ وينتحل الأعذار حتى انتهى القتال ولم يتحرك للسفر إلا بعد أن أخفقت الحملة ورجع الجيش الفرنسى إلى حدود مصر .

وعندما قاتل الفرنسيون الجيش العثماني في معركة (أبوقير) لم يشترك في القتال وإنما قام بعمل ضئيل عهده إليه نابليون وهو القيام على حصار قلعة أبوقير بعد انتهاء المعركة (١) ودعاه كبير ليقا تل في معركة (عين شمس) فلم يحضر إلا بعد انتهاء المعركة وإخماد ثورة القاهرة ، فهو من الوجهة الحربية لم يألف خوض غمرات الحرب وقلما رآه الجنود في ميادين القتال ، فلم ينل في الجيش منزلة القواد الذين أكسبتهم بطواتهم محبة الجنود واحترامهم .

وكان من الوجهة السياسية مجردا من الكفاية والحزم وحسن التدبير ، على أنه كان على جانب كبير من الغرور والاعتداد بنفسه ، ولعل السبب في ذلك راجع إلى أنه كان زمنا ما عضواً في الجمعية الوطنية الفرنسية وشهد المعارك السياسية وخالط أقطاب الثورة الفرنسية الكبرى ، فظن أن عضويته في الجمعية الوطنية قد وضعته في مصاف رجال السياسة والدولة ، على أنه في الواقع كان خلوا من الكفاية السياسية ولكنّه وصل إلى التقرب من نابليون بالتملق والرياء والنظاهر بالاخلاص له ، فكسب عطفه ورعايته ، ورسائله إلى نابليون عديدة وطويلة تنم عن ادعائه العلم بالمسائل التشريعية والاقتصادية والادارية وهو مجرد منها ، وكان معروفاً عنه الحقد على كليبر لمنزلاته بين القواد والجنود ، والجنرال كليبر هو الذي عينه قومنداناً للقاهرة بعد إخماد ثورتها الثانية ، ويرجع ذلك إلى أن كليبر كان يشك في إخلاصه وقد بلغه عنه أنه كان يبعث بالرسائل من الاسكندرية ورشيد إلى نابليون بعد رحيله إلى فرنسا للوقعة بكليبر ، فأراد أن يبعده عن الثغور ويجعله تحت نظره فلا يسمل عليه أن يرسل نابليون ، وقد بقي قومنداناً للقاهرة إلى أن قتل الجنرال كليبر ، ولو ترك أمر اختيار من يخلفه لقواد الجيش الفرنسي وضباطه لما فكر واحد منهم في اختيار (منو) ولا اختاروا الجنرال (رينيه) الذي كان موضع احترام كما كان موضع ثقة كليبر ، وكان منو يحس في نفسه العجز عن الاضطلاع بهذا المركز الخطير ، فاجتمع بالجنرال (رينيه) عقب مقتل كليبر وتباحث وإياه فيمن يخلف القائد المقتول ، وكان منو يعلم أن القواد لا يرضون به في منصب القيادة العامة ، لكن أقدميته تخوله هذا الحق في الظروف التي خلا فيها المنصب ، فنظاهر بأنه لا يرغب في تولي القيادة العامة وأنه إذا شغلها بحكم أقدميته فلا

يلون إلا بصفة مؤقتة ، ولهذا نوه في الأمر العسكري الذي أصدره للجيش في ١٥ يونيو أنه يشغل هذا المنصب « مؤقتاً » بحكم أقدميته .

سياسة (منو) إزاء الجيش

على أنه لم يكذب على القيادة حتى عمل على توطيد مركزه فيها ، ولما كان يعتقد أنه لا يستطيع أن يصل إلى كسب احترام القواد والضباط فقد أخذ يوطد مركزه بالدسائس والسعائيات ، وكان معروفا عنه كراهيته لسلفه ، فأخذ يعمل على إقصاء أصدقاء كليبر وخلق حزب من المتملقين الذين يأسروهم بترقيتهم وإغداق النعم عليهم ليصبحوا عوناً له في قضاء أغراضه ، فنقم عليه قواد الجيش وضباطه الأكفاء وسخروا منه لما كان يأتيه من الأعمال البعيدة عن الحكمة ، وغنى عن البيان أن الجيش الذي يتولاه قائد غير حائز لثقة رجاله لا يمكن أن يستبقى قوته ووحدته ولا بد أن يدب في صفوفه التفكك والانقسام ، وقد كان هذا حال الجيش الفرنسي في مصر بعد ماتولى (منو) قيادته العامة ، وشعر قواد الجيش وكبار ضباطه أنه يعبت بهم ويمرض مصير الجيش للخطر ، فمن ذلك أنه أكثر من تنقلات الجنود بلا جدوى ونقل بعض القواد من مراكزهم ، فاستدعى الجنرال (لانوس) الذي كان قومنداناً الاسكندرية^(١) إلى القاهرة وتركه بلا عمل لأنه كان من أصدقاء الجنرال كليبر ، وعزل الجنرال (داماس) رئيس أركان الحرب من منصبه للسبب نفسه وجعله قومنداناً لبني سويف والفيوم ، وعين بدله الجنرال لاجرانج Lagrange وعزل القوميسير دور Daure مدير مهمات الجيش من وظيفته وأسند إليه وظيفة كبير مفتشى الجيش وجرده من كل سلطة وعين بدله أحد أصدقائه القوميسير سارتلون Sartelon ، ورفق كثيراً من الضباط إلى رتب أعلى ليصبحوا تبعاً له ، فأصبح محاطاً ببطانة من الأصدقاء والمحاسيب استولى بهم على زمام الجيش والإدارة ، فاجتزال

(١) عينه الجنرال كليبر في هذا المنصب في أوائل عهد قيادته ، وبذكر القاري أن نابليون قبل رحيله عين (منو) قومنداناً الاسكندرية ورشيد والبحيرة وكان هذا المركز يقتضى اتخاذ الاسكندرية مقراً له ، لكن (منو) ظل مستقراً برشيد واعتزم أن يجعلها عاصمة المديرية الثلاث فتركه كليبر برشيد ثم طلبه إلى القاهرة وعين الجنرال لانوس قومنداناً الاسكندرية ، فاستاء من ذلك وأسرها في نفسه ، فلما تولى قيادة الجيش بعد مقتل كليبر عزل لانوس من قومندانية الاسكندرية وعين الجنرال فريان Frait بدله

لاجرانج في رئاسة أركان الحرب ، وسارتلون في الإدارة ، وأبقى الميسو « استيف »
Estève مديراً للإيرادات العامة وكان بمثابة مدير للشئون المالية لأنه لم يلق منه
معارضة في خطته (١) .

ولم يكن (منو) كراهيته لكليبر ولا كان يبدو منه احترام لذكراه ، وبلغت به
كراهيته أنه رزق ولدا من زوجته المصرية . فأسماء « سليمان » ، وهذا الاسم كان
يشير في نفوس الجنود والقواد الفرنسيين لوعة الحزن على فقيدهم لأنه اسم سليمان
الحلي قاتل الجزائر كليبر ، فكان لاختيار منو لهذا الاسم أثر استياء كبير في
نفوس الجيش .

سخط رجال الجيش من تصرفات (منو) وسخط عليه كذلك أعضاء لجنة العلوم
والفنون والمجمع العلمي ، فقد أخذ يصدر اليهم الأوامر ويتدخل في شئونهم العلمية
ويضع لهم الخطط ويختار لهم الجهات التي يكتشفونها وينقبون فيها في حين أنه كان
لا يدري شيئاً من أبحاثهم واكتشافاتهم ، فنقموا عليه تدخله وخاصة عند ما حال
بينهم وبين اكتشافاتهم العلمية ، وكان كليبر قد استدعاهم من الصعيد بعد التوقيع على
معاهدة العريش استعداداً للرحيل إلى فرنسا ، ولكن بعد تجدد القتال والاتفاق مع
مراد بك عزموا على استئناف أبحاثهم واكتشاف الآثار المصرية والتنقيب عليها
حتى بلاد النوبة ، ولكن منو لم يأذن لهم بالسفر ، وكان كثير التردد يعذبهم تارة
ويسوف أخرى وظلوا ثلاثة أشهر معطلين في القاهرة ، مع أنهم أعدوا عدتهم في
كل لحظة للسفر إلى الصعيد لخدمة العلم واكتشاف الآثار ، ولما أدركوا أن ليس في
مقدورهم السفر بهيئتهم الكاملة لمعارضة منو شرعوا في العمل فرادى متفرقين ونقبوا
في الآثار وبين الأطلال .

ولما أسرف (منو) في سوء التدبير عزم قواد الجيش على مفاتحته في الأمر
ولكنهم لم يفوزوا منه بطائل ، وزاد صلفه بعد ماورد من فرنسا أمر تنصيبه في منصب
القيادة العامة للجيش (نوفمبر سنة ١٨٠٠) فاعتمد منو على هذا الأمر وطلب من

(١) لما أبحر الميسو بوسليج اتى كان مديراً للشئون المالية في عهد نابليون وكليبر إلى فرنسا
عين كليبر مكانه الميسو جلوسيه ثم مات هذا أثناء ثورة القاهرة فألقى كليبر هذا المنصب وعين الميسو
استيف مدير الخزانة سابقاً مديراً للإيرادات العامة

القواد الناقين عليه الرحيل إلى فرنسا وهم لانوس ، وفرديه ، وداماس ، ولكن ضباط الجيش رفضوا أن يغادرهم أو تلك القواد وبقوا في مصر رغم إرادته .

مسألة إسلام منو وزواجه

فكر الجنرال منو وهو حاكم لرشيد في التقرب إلى الشعب لدرجة الاندماج فيه ، فاعتزم التزوج من سيدة مصرية شريفة المختد ، والجنرال منو كما رأيت من سلالة أشراف فرنسا ، فأراد أن يجمع بين شرف أسرته وشرف مصاهرته عائلة مصرية عريقة في النسب ، وقد استتبع هذا المشروع اعتناقه للإسلام ليتسنى له التزوج من سيدة مسلمة ، فأسلم قبل الزواج .

ولم يكن منو يقصد اختيار سيدة بالذات كما زعم بعض المؤلفين بل كل ما كان يرمى إليه أن يصاهر عائلة تتصل بالسلالة النبوية ، فرغب بداءة ذي بدم في مصاهرة الشيخ الجارم عميد أسرة الجارم العريقة في الشرف والعلم ، ولكن يظهر أن الشيخ تورع عن هذه المصاهرة ، وأراد أن يسد الطريق أمام الجنرال منو فلم يكذب يسمع بهذه الرغبة حتى بادر بتزويج كريمتيه الاثنتين إلى اثنتين من الأهلين ، لينخلص من مصاهرة الجنرال ، وقد حققت الحوادث صدق نظره فان الجنرال منو أساء معاملة زوجته المصرية بعد جلاء الفرنسيين كما سيحییء بيانه ، ولذا ذاك طلب منو التزوج من سيدة أخرى تدعى زبيدة كريمة السيد محمد البواب أحد أعيان رشيد ، وكانت مطلقة سليم اغا نعمة الله ، فقبل أبوها وقبلت هي الزواج بالجنرال ، وتم عقد زواجهما في وثيقة شرعية تضمنت اعتناقه للإسلام وزواجه بالسيدة المذكورة ، وتسمى منو في وثيقة الزواج باسم « عبد الله باشا منو » ، وهذه الوثيقة مؤرخة في ٢٥ رمضان سنة ١٢١٣ (١) ، وقد اكتشفها العلامة على بك بهجت في دفترخانة محكمة رشيد الشرعية واكتشف كذلك عقد الاتفاق الملحق بها ، وأخذ صورة الوثيقتين بالفوتوغرافيا وترجمهما إلى اللغة الفرنسية وعلق عليهما بمحاضرتين ألقاهما بدار المجمع العلمي بالقاهرة ونشرنا في مجلة المجمع (٢) .

وقد تظاهر الجنرال منو بتمسكه بالشعائر الإسلامية حتى كان يؤدي صلاة التراويح

(١) بوافق ٢ مارس سنة ١٧٩٩

(٢) مجموعة سنة ١٨٩٨ وعدد فبراير سنة ١٩٠٠ .

في شهر رمضان المعظم بمساجد رشيد وكتب إلى نابليون ينبئه بذلك ويقول في رسالة اليه ان هذه الطريقة قد حبيته إلى نفوس الأهالي -

وكانت حادثة زواج منو فريدة في بابها لانه لم يسبقه إليها أحد من قواد الجيش الفرنسي ، فلا غرو ان كان موضع تهكم زملائه

وقد رزق من زوجته ولداً أسماه (سليمان مراد چاك منو) وكانت ولادته كما ذكر الجبرتي في شهر شعبان سنة ١٢١٥ (يناير سنة ١٨٠١) وأقامت السيدة زبيدة مع زوجها برشيد وبقيت بها بعد أن تولى القيادة العامة للجيش الفرنسي وظلت بها إلى أن احتلها الأتراك والانجليز فخرجت صحبة أخيها لأمها السيد علي الخسامي (ويسميه الجبرتي السيد علي الرشيدى) وانتقل بها إلى الرحمانية ، ولما احتلها الحلفاء قدم بها إلى مصر فدخلها في أوائل محرم سنة ١٢١٦ ونزل بدار القائد العام - بيت الألفي بك - بالأزبكية ثم انتقلا إلى القلعة ليسكونا بمأمن من الاضطرابات ، وكان (منو) وقتئذ بالإسكندرية .

وبقيت السيدة زبيدة وابنها وحاشيتها بالقاهرة إلى أن أبرم الجنرال بليار شروط التسليم وتم جلاء الفرنسيين عنها فأذن لها الجنرال هتشنسون قائد الجيش الانجليزى بالسفر إلى الاسكندرية لتلتحق بزوجها ، على أن منو طلب الإذن لها بالسفر إلى فرنسا فرحلت إليها على إحدى السفن التي أقلت جيش الجنرال بليار ، ولما جلا الجيش الفرنسي عن الاسكندرية ووصل منو إلى فرنسا التقى بزوجته هناك وظلت في عصمته ، على أنه يؤخذ من الوثائق التي رجع إليها العلامة على بك بهجت (١) . وما ذكره المسيو ريجو في كتابه (٢) أن منو قد أساء معاملة زوجته المصرية وتنكر لها وهجرها في تورينو (بإيطاليا) وأبدل بها بعض الراقصات واتخذهن خليلاته ، وتركها تعاني غصص العيش وغضاضة الهجر إلى أن توفيت بها ، وقد نشرنا في قسم الوثائق التاريخية الوثيقتين اللتين اكتشفهما العلامة على بك بهجت في دفتر خاتنة محكمة رشيد الشرعية .

(١) مجلة الجمع العلمى المصرى عدد فبراير سنة ١٩٠٠

(٢) الجنرال عبد الله منو والفترة الأخيرة من الحملة الفرنسية في مصر .

سياسة منو إزاء المصريين

أوضحنا سياسة (منو) إزاء مواطنيه الفرنسيين ، فلننظر ماذا كانت سياسته حيال المصريين .

كان (منو) من دعاة اتخاذ مصر مستعمرة فرنسية ، فهو في سياسته نحو المصريين من حزب الاستعمار ، وهذا وحده كاف للدلالة على ما في نفسه من نزعة الظلم والعدوان ، وهذه النزعة تفسر لك كثيراً من تصرفاته ، فإنه لم يكن في علاقته بالشعب خيراً من سلفه

ضرائب واثاث فادحة

فقد أخذ يجيى الباقي من الغرامة التي فرضها كليبر على المدينة ، وفرض عليها هو ضريبة جديدة قدرها أربعة ملايين فرنك فرضها على ملاك الدور ومستأجريها والمأتمين والتجار وأرباب الحرف ، فقال الناس أمر هذه الضريبة اقرب عهدهم بالغرامة الفادحة التي فرضها كليبر عليهم وما قاسوه بسبب جبايتها من الأهوال ، وعهد الفرنسيون أمر تحصيل الضريبة الجديدة إلى مشايخ الحارات والمالكيك الساكنين بالمدينة وكانوا إذا أصابوا داراً مغلفة قد غاب صاحبها يأخذون الضريبة التي عليها من الجيران ؟ ! وفرضوا كذلك ضريبة أخرى قدرها مليون فرنك على التجار وأرباب الصنائع والحرف ، قال الجبرقي في هذا الصدد : « واستهل شهر رجب (سنة ١٢١٥)^(١) والطلب والنهب والهدم مستمر ومتزايد ، وأبرزوا أيضاً أوامر بتقرير مليون على أرباب الصنائع والحرف بقودون بدفعه كل سنة قدره مائة ألف وستة وثمانون ألف ريال فرانسسه ، فدهى الناس وتحيرت أفكارهم واختلطت أذهانهم وزادت وساوسهم » .

وقال الجنرال رينيه Reynier أحد قواد الحملة الفرنسية (٢) : « إن التجارة التي أزهقتها المكوس والاثاث المختلفة قد ازداد كسادها وحل بها البوار بعد الأمر الذي أصدره (منو) بفرض اثاث جديدة على نقابات الحرف والتجار ، فإن تجار

(١) نوفمبر سنة ١٨٠٠

(٢) في كتابه (مصر بعد واقعة عين شمس) .

القاهرة وبولاق الذين نهبت دكاكينهم أو صودرت متاجرهم بعد الثورة وإخمادها ودفعوا نحو نصف الاثنى عشر مليون فرنك التي فرضت على المدينة كغرامة حرية لم يكادوا يتنفسون ويعودون إلى العمل حتى باغتتهم الأناوات الجديدة ، وكذلك حدث لتجار دمياط والمحلة الكبرى وطنطا وغيرها ، ففرضت عليهم ضرائب أوقعتهم في الضيق فاضطر معظمهم إلى إقفال دكاكينهم وترك الاشتغال بالتجارة .

ويقول المسيو ريجور^(١) : « إن تجارة مصر قد تلاشت في عهد الحملة الفرنسية ، فإن الحصر البحري الذي ضربه الانجليز على سواحل البحر الأبيض المتوسط منع حركة التجارة وكذلك وجود قوات الصدر الأعظم في حدود سورية ، هذا فضلا عن أن الغرامات والضرائب التي فرضها نابليون وكليبر قد أفقرت تجار المدن ، وقد اتسع (منو) سنة سلفيه في فرض الغرامات والقروض الاجبارية »

ففي هاتين الشهاداتين تأييد لرواية الجبرتي

نهب وإرهاق وتخريب

ضج سكان العاصمة من ترادف المظالم ، وضافت بهم المسالك ، فكش عدد المهاجرين من المدينة فرارا من الظلم ، فنادى الفرنسيون بين الناس بأن من لم يحضر بعد اثنين وثلاثين يوماً من يوم المناداة نهبت داره وصودرت أملاكه واعتبر من المذنبين ، قال الجبرتي : « وتابعوا نهب الدور بأدنى شبهة ولا شفيع تقبل شفاعته أو متسكلم تسمع كلمته ، واحتجب سارى عسكر (منو) عن الناس وامتنع عن مقابلة المسلمين وكذلك عظام الجنرالات وانحرفت طباعهم عن المسلمين زيادة عن أول واستوحشوا منهم ونزل بالرعية الذل والهوان »

وصادروا العروض والبضائع ونهبوها في مقابل سداد ما فرضوه من الغرامات والاتاوات ، وهدموا كثيراً من الدور وخاصة بيوت من هاجروا من المدينة ، قال الجبرتي :

(١) في كتابه (الجنرال عبد الله منو والفترة الأخيرة للحملة الفرنسية في مصر)

« وأغلقوا جميع الوكائل والخانات على حين غفلة في يوم واحد (١) وختموا على جميعها ، ثم كانوا يفتحونها وينهبون ما فيها من جميع البضائع والأقشة والعطر والدخان خاناً بعد خان ، فإذا فتحوا حصلوا من الحواصل قوموا ما فيه بما أحبوا بأبخس الأثمان ، وحسبوا غرامته ، فإن بقي لهم شيء أخذوه من حاصل جاره ، وإن زاد له شيء أحالوه على جاره الآخر ، ونقلوا البضائع على الجمال والخير والبغال وأصحابها ينظرون وقلوبهم تنقطع حسرة على ما لهم ، وإذا فتحوا مخزناً دخله أمناؤهم ووكلاؤهم فيأخذون ما يجدونه من الودائع الخفيفة أو الدراهم وصاحب المحل لا يقدر على التسكلم بل ربما هرب أو كان غائباً ، وحرروا دفاتر العشور وأحصوا جميع الأشياء الجليلة والحقيرة ورتبوها بدفاتر وجعلوها أقلاماً يتقلدها من يقوم بدفع مالها المحرر ، وجعلوا جامع أربك بالازبكية موقفاً لمزاد ذلك بكيفية يطول شرحها ، وأقاموا على ذلك أياماً كثيرة يجتمعون لذلك في كل يوم ويشترك الاثنان فأكثر في القلم الواحد وفي الأقلام المتعددة ، وكثر الهدم في الدور وخصوصاً في دور الأمراء ومن فر من الناس ، واستهل شهر جمادى الأولى سنة ١٢١٥ (٢) والأمور من أنواع ذلك تتضاعف والظلومات تتكاثف »

وقد أكثروا من الهدم والتخريب لأغراض حربية ، ذلك أنهم أخذوا في إتمام بناء القلاع التي شرع الجنرال كليبر في إنشائها لإحاطة المدينة بسلسلة من الحصون تمنع قيام ثورة أخرى ، فهدموا كثيراً من البيوت والعمارات إما لأخذ أخشابهم وأدوات البناء منها واستخدامها في بناء القلاع والحصون أو كشف الجهات التي شرعوا في إقامة الحصون فيها ، وهدموا بيوتاً أخرى لبيع أخشابها أو اتخاذها وقرداً ، فعم الهدم والتدمير خططا بأكملها كالحسينية ، والخروبي (٣) وبركة جنناق ،

(١) خلال شهر ربيع الثاني سنة ١٢١٥ (أغسطس سنة ١٨٠٠)

(٢) سبتمبر سنة ١٨٠٠

(٣) خط الخروبي بمصر القديمة ، ولم يزل جزء من المدرسة الخروبية قائماً إلى اليوم على رأس شارع القبة بمصر القديمة أمام الطريق الموصل إلى مقياس الروضة ، وبركة جنناق هي المعروفة الآن ببركة درب عجور بباب الشعربة ، وجامع الجنبلاطية هو المعروف بجامع جنبلاط ، ورأس الصورة بنهاية شارع الحجر بالميدان القائم الآن بين جامع السلطان حسن والقنطرة (باب العزب) والذي به جامع المحمودية ، ومدرسة القانية هي مسجد قايتباي الموجود على رأس درب السماكين ، أما جامع السبع ملاطين فهو الآن متخرب لا مقام فيه الشعائر وواقع بالقرب من باب الودائع الموصل =

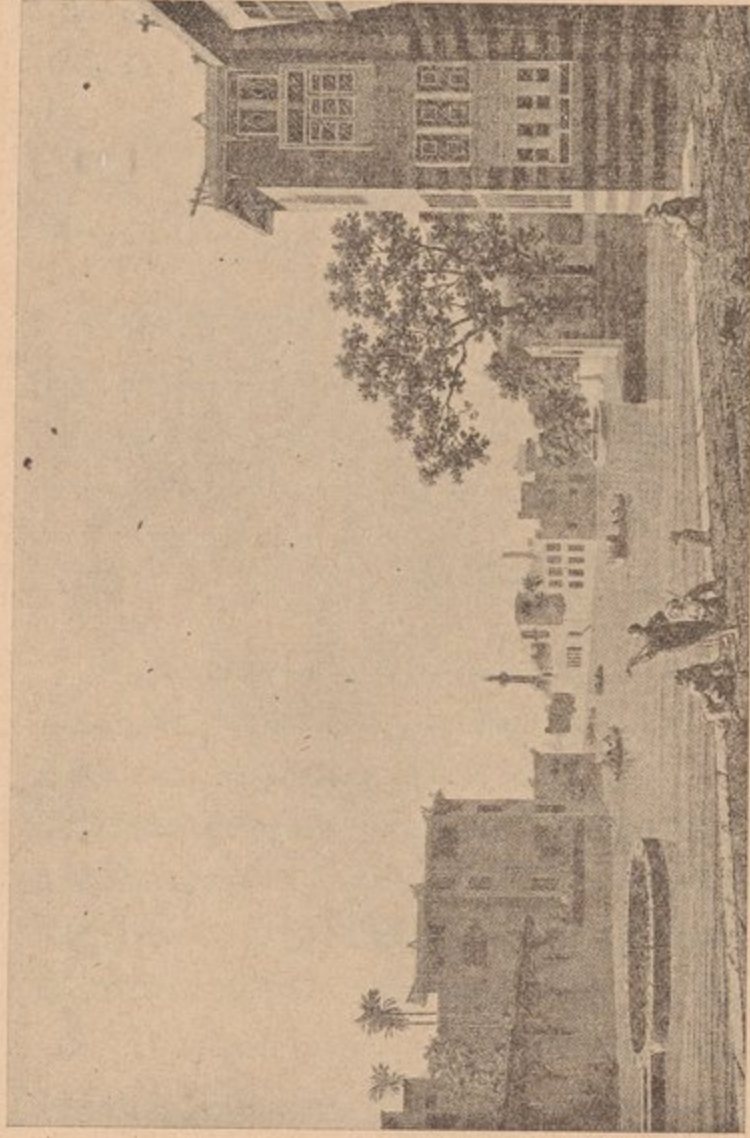
وبركة الفيل ، وكشفوا سور القاهرة القديم من باب النصر إلى باب الحديد وحصنوا أبوابه وأقاموا حولها الأسلاك الشائكة ، وسدوا باب الفتوح بالبناء وكذلك باب البرقية وباب المحروق

ومن العمارات التي هدموها جامع الجنبلاطية بباب النصر ومباني رأس الصورة حيث الخطابة وباب الوزير ، وهدمو أعلى المدرسة النظامية ، ومدرسة القاندية ، والجامع المعروف بالسيح سلاطين وجامع الجركسى وجامع خوند بركة خارج باب البرقية وكذلك أبنية باب القرافة ومدارسها ومساجدها ، والقباب والمدافن السكائنة تحت القلعة ، وجامع الرويعى وقد جعلوه خمار ، وجزء من جامع عثمان كتنخدا الفزدغلى بالقرب من رصيف الخشاب . وجامع خير بك حديد بدرب الحمام بالقرب من بركة الفيل ، وجامع البهاوى ، والطرطوشى ، والعدوى ، وجامع عبد الرحمن كتنخدا المقابل لباب الفتوح ولم يبق منه إلا بعض الجدران .

قال الجبرقى : « فهدم للناس من الأملاك والعقار ما لا يقدر قدره ، وذلك مع مطالبتهم بما قرر على أملاكهم ودورهم من الفردة (الضريبة) ، فيجتمع على الشخص الواحد النهب والهدم والمطالبة فى آن واحد ، وبعد أن يدفع ما على داره أو عقاره وما صدق أنه سدد ما عليه الا وقد دهموه بالهدم فيستغيث فلا يغاث ، فترى الناس سكارى وحيارى ، ثم بعد ذلك كله يطالب بالمنسكسر من الفردة »

وأمعنوا فى الهدم والتخريب بمختلف الوسائل ، فهدموا مساطب الخوانيت واقتلعوا أحجارها . وتعللوا فى ذلك برغبتهم توسيع الشوارع والأزقة . وغرضهم الحقيقى منع الناس من اتخاذها متاريس فى حالة قيام الثورة كما حدث فى ثورة القاهرة الاولى والثانية . وهدموا تلك المساطب فى أحياء بأكمالها . كالصليبة . وقناطر السباع . ودرب الجمايز ودرب سعادة وباب الخلق فما يليه إلى باب الشرعية . فاشتد الضيق بأصحاب الخوانيت لأنهم اضطروا بعد هدم مساطبهم أن ينزوا داخل حوانيتهم فصارت أشبه بالسجون

= منه إلى قرافة باب الوزير من جهة القاعة ، وجامع الشركسى بميدان السيدة عائشة بالمنشية ، وقبة خوند بركة هى بقرافة الجاويرين بقرب شارع السلطان أحمد ، وقد رجعنا فى هذه البيانات إلى صديقنا الأستاذ المؤرخ مصطفى بك منير أدهم ، فله منى جزيل الشكر والثناء



بركة الفيل بالقاهرة في أواخر القرن الثامن عشر
صورتها قبل أن تتخرب في عهد الحملة الفرنسية « انظر ص ٢٠١ » وقد ذكر الجبوتى مآصياها من
الخراب في حوادث سنة ١٢١٥ هـ (١٨٠٠ م) بقوله : « ومنها توالى خراب بركة الفيل وخصوصا
بيوت الأمراء » الممالك « التي كانت بها وأخذوا أخشابها لعمارة القلاع ووقود النيران وكذلك
ما كان بها من الرصاص والحديد والرخام وكانت هذه البركة من جملة غايبات مصر »

وأمنعوا في مصادرة الأخشاب فقطعوا الأشجار والنخيل من جميع الحدائق والبساتين السكّانة بالقاهرة وبولاق وقصر العيني والروضة ومصر القديمة وخارج الحسينية وبركة الرطلى وأرض الطبالة وبساتين الخليج وكذلك في الأقاليم ، وأخذوا أيضا أخشاب المراكب والسفن مع شدة الحاجة إليها للنقل وعدم امكان انشاء مراكب جديدة . فتعطت المواصلات مما أدى إلى صعوبة النقل وارتفاع أجور الشحن وغلو الأسعار واشتداد الضيق بالناس

يتبين مما تقدم أن السياسة التي اتبعها (منو) حيال الشعب كانت إذن سياسة لإرهاق وظلم ، ونهب ومصادرة ، وهدم وتخريب ، فلا غرو أن زادت النفوس نفورا من حكم الفرنسيين على الرغم من اعتناق منو الإسلام فإن المصريين قد رأوا بأعينهم وشاهدوا بأنفسهم أن سيل المظالم والمغارم على عهده في ازدياد وطغيان .

إعادة الديوان

أبطل الديوان بعد التوقيع على معاهدة العريش وأخذ الفرنسيون من ذلك الحين يستعدون للجللاء عن مصر ، فلما نقض الانجليز المعاهدة وتجدد القتال وشبت الثورة في القاهرة استمر الديوان معطلا ولم يفكر كليبر في إعادته بعد إخفاق الثورة ، ويقول الجنرال رينييه في كتابه^(١) أن كليبر رأى أن لا يعيد الديوان إلا بعد أن تسدد القاهرة الغرامة التي فرضها عليها ، وسواء أصح هذا التعليل أم أن كليبر لم يفكر أصلا في إعادة الديوان فإنه مما لا ريب فيه أن الديوان بقى معطلا من حين التوقيع على معاهدة العريش ، فلما تولى منو القيادة العامة سار سيرة سلفه في إرهاق الناس بالمغارم والضرائب ، ثم عزم على إعادة الديوان لاستمالة قلوب المصريين ، فأعاد تنظيمه في شهر أكتوبر سنة ١٨٠٠

تأليف الديوان

لم يتبع (منو) النظام الذي ابتكره نابليون من جعل الديوان هيئتين ، الديوان العمومي والديوان الخصوصي ، بل جعله ديوانا واحدا مؤلفا من تسعة أعضاء كلهم

(١) مصر بعد واقعة عين شمس

من المسلمين ، وقد ظن أنه بهذه الوسيلة يكسب رضا غالبية الشعب ويستميلهم إليه ، على أن ذلك لم يكن له أثر ما في حالهم النفسية ولا في عواطفهم حيال الفرنسيين .

أما الأعضاء الذين اختارهم منو الديوان الجديد فهم : الشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ محمد المهدي ، والشيخ سليمان الفيومي ، والشيخ محمد الأمير ، والشيخ مصطفى الصاوي ، والشيخ عبد الرحمن الجبرتي مؤرخ ذلك العصر ، والسيد علي الحماي^(١) (نسب الجبال منو) والشيخ خليل البكري ، والشيخ موسى المرسى .

أولئك هم الأعضاء ، وقد وردت أسماءهم في كتاب « ريبو »^(٢) ، وذكرت بالفرنسية والعربية في كتاب تخطيط مصر Description de l'Egypte^(٣) ، وذكرها الجبرتي في تاريخه ، وأشار إلى نفسه بقوله (وكانه) .

وقد انتخب الشيخ الشرقاوى رئيساً للديوان والشيخ المهدي سكرتيراً له (كاتم السر)

موظفو الديوان

أما موظفو الديوان فهم الشيخ اسماعيل الزرقاني قاضياً ، السيد اسماعيل الخشاب أميناً لمخفوظات الديوان وكتاباً لسلسلة التاريخ ، والشيخ علي كاتباً عربياً ، وقاسم أفندي أمين الدين كاتباً رومياً (تركيا) ، والقسروفائيل ترجمانا أول ، والياس نخر ترجمانا مساعداً ، والمسيو فورييه وكيلا (قوميسيرا) للديوان ومديراً لسياسة الاحكام الشرعية^(٤) ، ومقدم ، وخمسة قواسمة .

والسيد اسماعيل الخشاب هو من أدباء ذلك العصر ، ترجمه الجبرتي في وفيات سنة ١٢٣٠ هجرية فوصفه بالبلغ النجيب . والنميه الأريب . نادرة الزمان ، وفريد الألوان ، وذكر عنه أنه قال الشعر الرائق ونثر النثر الفائق^(٥) .

(١) يسميه الجبرتي السيد علي الرشيدى

(٢) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثامن

(٣) الجزء الخامس عشر

(٤) فى الأصل الفرنسى الامر أن المسيو فورييه عين « مديراً للإدارة القضائية ووكيلاً لفرنسيا للديوان » والجبرتي بسميه الوكيل فورييه ، وفى بعض المواطن يسميه الوكيل الكمثارى (كندا) فورييه

(٥) له ديوان شعر موجود فى دار الكتب

سلسلة التاريخ

أما (سلسلة التاريخ) فهي عبارة عن محاضر جلسات الديوان وسجل الحوادث اليومية الهامة ، وقد ذكرها الجبرتي في ترجمة السيد اسماعيل الخشاب بقوله : « ولما رتب الفرنسيون ديوانا لقضايا المسلمين تعين المترجم في كتابة التاريخ لحوادث الديوان وما يقع فيه ، من ذلك اليوم لأن القوم كان لهم مزيد اعتناء بضبط الحوادث اليومية في جميع دواوينهم وأما كن أحكامهم ثم يجمعون المتفرق في ما يخص يرفع في سجلهم بعد أن يطبعوا منه نسخاً عديدة يوزعونها في جميع الجيش حتى لمن يكون منهم في غير المصر من قرى الأرياف . فتجد أخبار الأمس معلومة للجليل والحقير منهم . فلما رتبوا ذلك كما ذكر كان هو المتقيد برقم كل ما يصدر في المجلس من أمر أو نهى أو خطاب أو جواب أو خطأ أو صواب ، وقرروا له في كل شهر سبعة آلاف نصف فضة فلم يزل متقيداً في تلك الوظيفة مدة ولاية عبد الله جاك منو حتى ارتحلوا من الأقاليم مضافاً لما هو فيه من حرفة الشهادة بالمحكمة ودواينهم هذا ضحوة يومين في الجمعية ، لجمع من ذلك عدة كرايس ولا أدري ما فعل بها » .

دار الديوان

وقد اختاروا للديوان بيت رشوان بك بحارة عابدين . وكان يسكنه برتلى الروى فانتقل منه وخصص للديوان بعد أن عمر ، وهيئت قاعة الحرم لجلسات الديوان وفرشوها فرشاً فاخراً وحددوا لانهقاده عشر جلسات في كل شهر ، وجعلوا دار الديوان مسكناً للقوميسير فورييه وأعدوا به جناحاً للترجمين والسكتنة الفرنسيين يجلسون به على الدوام لترجمة أوراق الديوان وجعلوا به خزائن للسجلات وألحقوا بالديوان داراً للمحكمة التجارية للفصل في دعاوى التجار .

وصف إحدى جلسات الديوان

وصف الجبرتي إحدى جلسات الديوان وما حصل فيها من الاجراءات والمناقشات قال : « وشرعوا في جلسة الديوان ، وصورته أنه إذا تسكامل حضور المشايخ يخرج إليهم الوكيل فورييه وصحبته المترجمون فيقومون له . فيجاس معهم . ويقف الترجمان الكبير رفائيل ويجتمع أرباب الدعاوى فيقفون خلف الحاجز عند آخر الديوان

وهو من خشب مقفص وله باب كذلك وعنده الجاويش يمنع الداخلين خلاف أرباب الخوانج ويدخلهم بالترتيب الأسبق فالأسبق. فيحكي صاحب الدعوى قضيته فيترجمها له المترجمان . فإن كانت من القضايا الشرعية فأما أن يتمها قاضى الديوان بما يراه العلماء أو يرسلوها إلى القاضى الكبير بالمحكمة إن احتاج الحال فيها إلى كتابة حجج أو كشف من السجل ، وإن كانت من غير جنس القضايا الشرعية كأمور الالتزام أو نحو ذلك يقول الوكيل ليس هذا من شغل الديوان ، فإن ألح أرباب الديوان في ذلك يقولوا كتبوا عرضا لى اسارى عسكر فيكتب السكاتب العربى والسيد اسماعيل يكتب عنده في سجله كل ما قال المدعى والمدعى عليه وما وقع في ذلك من المناقشة ، وربما تكلم قاضى الديوان في بعض ما يتعلق بالأمور الشرعية . ومدة الجلسة من قبيل الظهر بنحو ثلاث ساعات إلى الأذان أو بعده بقليل بحسب الاقتضاء؛ ورتبوا لكل شخص من مشايخ الديوان التسعة أربعة عشر ألف فضة في كل شهر عن كل يوم أربعائة نصف فضة ^(١) وللقاضى والمقيد والسكاتب العربى والمترجمين وباقي الخدم مقادير متفاوتة»

اختصاص الديوان

أمل الناس خيرا بإعادة الديوان وظنوا أنه سينصفهم من المظالم التى تكاثرت عليهم فازدحم الديوان بكثرة الشاكين ، قال الجبرتى : « وسر الناس لظنهم أنه انفتح لهم باب الفرج بهذا الديوان ، ولما كانت الجلسة الثانية ازدحم بكثرة الناس وأتوا اليه من كل فج يشكون »

ولكن سلطته كانت محدودة ولم يكن فى مقدوره رفع المظالم ولا منع إقرار المغارم ، وتبين من تجربته أنه لاحول ولا قوة ، واستمر الفرنسيون يقرضون الضرائب بعد إعادة الديوان والطلب والنهب والهدم مستمر مزداد

على أن الجنرال (منو) قدوسع من عمل الديوان وزاد فى اختصاصه القديم ؛ فجعله بمثابة محكمة استئناف لها حق نقض الأحكام التى يتبين خطؤها وتقدم له بشأنها (قناوى) بما حوته من الخطأ أو من مخالفة الأحكام الشرعية ، وجعله كذلك مجلساً استشارياً للحكومة للسهر على تقرير العدالة وإدارة المساجد والتكايا وجهات البر ومعاهد التعليم والانفاق على الحج ، وعليه أن يعلن للإلهالى المنشورات التى يوجهها

(١) كذا فى الجبرتى ، على أن مقتضى الحساب مادام المرتب اليوى أربعائة نصف فضة أن يكون المرتب الشهرى اثنى عشر ألف نصف فضة ، والله أعلم

القائد العام الهم ويتصل بالقائد العام لعرض مطالب الأهالى على الحكومة (١)

وكذلك جعل من اختصاصه انتخاب القضاة وترشيحهم لمناصبهم وطلب عزلهم ، أى أنه عمم الطريقة التى وضعها نابليون لانتخاب قاضى مصر كما رأيت فى الكلام على مسألة القضاء الشرعى (٢) ، وقد طلب (منو) من الديوان طبقاً لهذا النظام أن ينتخب قاضى مصر من جديد ، فرقع اختياره على الشيخ أحمد العريشى الذى كان متولياً القضاء من قبل (٣) ، وإليك ما ذكره الجبرتى عن انتخاب القضاة : « وفيه أمر الوكيل بتحرير قائمة تتضمن أسماء الذين تقلدوا قضاء البلاد من طرف القاضى والذين لم يتقلدوا ، وأخبر أن السر فى ذلك أن مناصب الأحكام الشرعية استقر النظر فيها له وأنه لا بد من استئشاف ولايات القضاة حتى قاضى مصر بالقرعة (بالانتخاب) من ابتداء سنة الفرنسية ويكتب لمن تطلع له القرعة تقليد من سارى عسكر الكبير ، فيكتب له القائمة كما أشار ، وفى سادسه عملت القرعة على شرطها ، بل زاد تكرارها ثلاث مرات لقاضى مصر واستقرت للعريشى على ما هو عليه وخرج له التقليد بعد مدة طويلة » .

ويظهر أن السبب فى إعادة الاقتراح لانتخاب قاضى مصر أن الفرنسيين كانوا مرتابين فى الشيخ العريشى من يوم وقوع حادثة مقتل كليبر لأن القائل كان سوريا والشيخ العريشى كان شيخاً لرواق الشوام بالأزهر ، فعزلوه من المشيخة ثم تبين لهم براءته وبالرغم من ذلك كانوا غير راضين عنه ؛ فلما أعيد الديوان وفوض إليه منو انتخاب قاضى مصر وقعت القرعة على الشيخ العريشى نفسه ، والظاهر أن الفرنسيين لم يسكنوا مرتاحين لهذه النتيجة فأعادوا الانتخاب ثلاث مرات كما يقول الجبرتى فاستقرت للعريشى ، وقد ظل متولياً هذا المنصب إلى أن جاء العثمانيون فعادوا إلى طريقتهم القديمة فى تعيين قاضى مصر من الأتراك ، فانفصل العريشى عن القضاء وتوفى سنة ١٢١٨ هجرية

وخلاصة ما تقدم أن الديوان فى عهد منو كان بمثابة هيئة استشارية للحكومة تنظر

(١) مادة ٣ من الأمر الصادر من (منو) المؤرخ ١٠ فاندسمير من السنة العاشرة (٢ أكتوبر

سنة ١٨٠٠) (٢) ص ٦٣ الفصل الرابع

(٣) وهو الذى اختاره العلماء لقضاء مصر كما سبق بيان ذلك فى الفصل الرابع وكان قد اعتزل

القضاء لما دخل العثمانيون ، وبعد لإخادثةورة القاهرة الثانية أعاده الفرنسيون إلى القضاء قبل مقتل كبير

في الشؤون المدنية والدينية ، وكان في الوقت نفسه محكمة استئناف ومجلساً أعلى لانتخاب القضاة .

مشروعات منو

كان منو كثير المشروعات كثير النظريات متضارب الآراء والافكار ، فن مشروعاته لإعادة تنظيم الديوان وتوسيع اختصاصه على النحو المتقدم .

ومنها انه قرر أن يكون تعيين مشايخ البلاد (١) في القرى بأمر من القائد العام وأن يسرى هذا النظام على جميع المشايخ الموجودين فعلاً ، وكان يرمى بذلك إلى جمع ما يستطيع جبايته من المال من المشايخ في مقابل أوامر التعيين ، وكان ينوى تكرار صدور أوامر التعيين وتجديدها كل سنة ، وجعل لهيئة مشايخ البلاد مفتشين ، وجعل لها رئيسين أحدهما فرنسي وهو الميسيو بريزون Brizon والآخر مصري وهو الشيخ سليمان الفيومي ، وفي ذلك يقول الجبرتي :

« واستهل شهر جمادى الثانية سنة ١٢١٥ (٢) وفيه قرروا على مشايخ البلدان مقررات يقومون بدفعها في كل سنة ، أعلى وأوسط وأدنى ، فالأعلى وهو ما كانت بلده ألف فدان فأكثر خمسمائة ريال ، والأوسط وهو ما كانت خمسمائة فأزيد ثلثمائة ريال ، والأدنى مائة وخمسون ريالاً ، وجعلوا الشيخ سليمان الفيومي وكيلاً في ذلك فيسكون عبارة عن شيخ المشايخ ، وعليه حساب ذلك ، وهو تحت يد الوكيل الفرنسي الذي يقال له بريزون ، فلما شاع ذلك ضجت مشايخ البلاد لأن منهم من لا يملك عشاءه ، فاتفقوا على أن وزعوا ذلك على الأطيان وزادت في الخراج » .

ويقول الميسيو ريجو Rigualt في كتابه (٣) إن الشيخ الفيومي كان يعمل تحت رقابة الميسيو بريزون ، وهذا يؤيد رواية الجبرتي .

وعزم منو على تنفيذ مشروع إحصاء المواليد والوفيات وهو المشروع الذي فسر فيه نابليون ونفذه فيما يتعلق بالوفيات ، فعرض الميسيو فورييه على أعضاء

(١) العدد (٢) أكتوبر سنة ١٨٠٠

(٣) الجنرال عبد الله منو والفترة الأخيرة للعمالة الفرنسية في مصر .

الديوان في جلسة السادس عشر من شعبان سنة ١٢١٥ (١) رغبة الجنرال منو في تنفيذ هذا المشروع ، وبين لهم مزاياه التي منها ضبط الانساب ومعرفة الأعمار وبذلك يتيسر للحاكم الشرعي الحكم بالعدل والإنصاف ، وينقطع الخلف والخصام بين الورثة وطلب إليهم أن يبحثوا في طريقة تنفيذه فوافق الأعضاء على المشروع واتفق رأيهم على أن يهدوا بالإحصاء إلى قلقات الحارات والخطط وهم يكلفون بها من تحت أيديهم من مشايخ الحارات وهؤلاء يتعرفون المواليذ والوفيات من أهل كل بيت ومن النساء القوابل وخدمة الموتى وغيرهم ، والمعروف أن نظام ضبط الوفيات كان معمولا به من بدء الحملة الفرنسية ، وكان يتولى هذا الإحصاء الطبيب ديجنيت Desgenette كبير أطباء الحملة .

وشرع منو في تحرير دفتار للزواج

ووضع نظاما لمساحة الأقطان الزراعية

وأنشأ حديقة للنبات بالقاهرة

وشرع في إصدار جريدة يومية اختار لها اسم (التنبيه) وأصدر أمرا بذلك في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٠٠ ، وأسند رياسة تحريرها إلى الشيخ اسماعيل الخشاب أمين محفوظات الديوان (٢) لكن الأمر لم ينفذ والجريدة لم تصدر .

ولما ظهر الطاعون في شهر يناير سنة ١٨٠١ وانزعج الفرنسيون لاستفحالته وضعوا نظاما للوقاية من عدواه وعرضه المسيو فوريه على الديوان ، ولم يكن الغرض من عرضه تعليق تنفيذه على إقراره بل كان القصد استشارته ومجاملته ، وقد نفذ فعلا .

وفكر في إنشاء مصنع للجوخ في القاهرة لسد الحاجة الماسة إلى الأجواخ التي انقطع ورودها من أوروبا بسبب الحصر البحري ، لكن أعضاء اللجنة الإدارية (٣) عارضوا في قبول العمال المصريين في هذا المصنع بحجة الضرر الذي يلحق الصناعة

(١) ٢ يناير سنة ١٨٠١

(٢) أمر منو وثيقة رقم ٣١ ، كتاب كليبر ومنو في مصر للمسيو روسو

(٣) هي لجنة فرنسية تشرف على أعمال الحكومة الإدارية ويدخل في خصائصها الشؤون المالية

والزراعية والاقتصادية

الفرنسية إذا عرف المصريون أسرارها ، وكتبت اللجنة رسالة في هذا الصدد قالت فيها :

« إن مقدرة المصريين في تقليد المبتكرات الصناعية من شأنها أن تضر بالمصانع الفرنسية » ، وصرح المسيو كوتى Conté مدير المصنع الميكانيكي الذي أنشأه الفرنسيون أنه لا يقبل البتة تعليم أحد من الأهل إلى أساليب الصناعة ، وأخيراً تم الاتفاق بين (منو) واللجنة الإدارية على إنشاء مصنع للأجواخ بإدارة المسيو كوتى على أن لا يقبل فيه عامل مصرى ^(١) ، وهكذا أقام الحكم الفرنسى دليلاً جديداً على أن الفرنسيين لم يبتغوا من الحملة على مصر إلا اتخاذها مستعمرة يستغلونها لمصلحتهم ويضحون في سبيل هذه الغاية بمصالح مصر والمصريين .

استعداد الانجليز والأتراك للزحف على مصر

ما فتئت الحكومة الانجليزية بعد هزيمة الأتراك في معركة عين شمس تسعى سعياً حثيثاً في إعداد حملة عثمانية انجليزية للزحف على مصر .

سياسة انجلترا إزاء مصر

إن سياسة انجلترا حيال مصر تقتضى أن لا ترى لدولة قوية سواها نفوذاً في وادى النيل ، وهى أيضاً لا تدع مصر نفسها تنهض وتصبح دولة قوية مهيبة الجانب محفوفة السكان ، ذلك ان مطامع انجلترا الاستعمارية جعلتها تطمح إلى التسلط على وادى النيل واتخاذ مصر قاعدة حربية وبحرية لتضمن سيادتها في البحر الأبيض المتوسط وتبسط نفوذها السياسى والتجارى فى الشرق وتطمئن على مستعمراتها فى الهند وفيما وراء البحار ، تلك كانت ، ولم تزال سياستها من القرن الثامن عشر إلى اليوم ، وعلى هذه القاعدة تقوم وجهة النظر الانجليزية فى المسألة المصرية ، ومن أجل ذلك حاربت محمد على وخلقت له العقبات والعراقيل ، وجردت عليه الحملة الانجليزية المشهورة بحملة الجنرال فريزر سنة ١٨٠٧ التى يأتى الكلام عنها فى المصل الأول من كتاب (عصر محمد على) ، وما فتئت تقاومه طوال مدة حكمه ، وكل الحوادث السياسية التى وقعت فى وادى النيل خلال القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين تدور من الوجهة الانجليزية على هذا المحور .

(١) كتاب الجنرال عبد الله منو والفترة الأخيرة من الحملة الفرنسية تأليف المسيو ريجو .

كانت الحكومة الانجليزية تحرض تركيا على محاربة فرنسا وإجلائها عن مصر ، وكانت ترمى لا إلى جلاء الفرنسيين عنها لحسب ، بل أخذت تنهز الفرص لاحتلالها وثبيت قدمها فيها ، وكانت مهمة انجلترا في الحملة العثمانية الأولى مقصورة على معارضة أساطيلها في البحر الأبيض المتوسط ، ولكن هزيمة العثمانيين في موقعة عين شمس جعلتها تفكر في الدخول إلى ميدان القتال برا وإعداد جيش انجليزي يشترك مع الجيش العثماني في الزحف على مصر ، لأن الجيش العثماني قد برهن على عجزه عن طرد الفرنسيين منها ، فأخذت انجلترا تعد حملة برية ، وجعلت في الوقت نفسه تواصل سمعها في الاستانة ليعد الباب العالي حملة جديدة تسير بالاشتراك مع الحملة الانجليزية لتتحد حركتهما وتتناصر القوات العثمانية والانجليزية برأ وبحراً .

كانت الخطة الحربية التي رسمتها الحكومة الانجليزية بالاتفاق مع الباب العالي ان يزحف الجيش العثماني برأ من طريق العريش وقطية ، وفي الوقت نفسه ينزل في (أبو قير) جيش انجليزي تركي بحماية الاسطول البريطاني والمارة الزكية ، وينزل بالسويس جيش هندي قادم من الهند على ظهر المارة الانجليزية في البحر الأحمر ، فالتقى القوات الثلاث في أرض مصر وتطوق الجيش الفرنسي بها .

مساعي نابليون في إمداد الحملة الفرنسية

لم تفت هذه الاستعدادات عين نابليون البصيرة على الرغم من تكتم الحكومة الانجليزية معدات المشروع ، ففسد فطن إلى مشروع الدولتين واستشفه من حركات الانجليز في البحر الأبيض المتوسط وإعدادهم في جبل طارق والجزائر الإيونية ومساعدتهم لدى الباب العالي ومن الأخبار التي تلقاها من الاستانة عن مشروع الحملة الجديدة ، وأخذ يعمل لإمداد الجيش الفرنسي في مصر بعد أن شغلته الحوادث السياسية الأوروبية وقتاً ما عن التفكير فيه ، فانه عقب عودته إلى فرنسا انصرف في الأشهر الأولى إلى إحداث الانقلاب الذي رفعه إلى قمة السلطة ، فأسقط حكومة الديركتوار وحل مجلس الخمسة ، وأنشأ نظام القنصلية ونودي به «قنصلاً أول» ، فصار صاحب السلطة الفعالة والكلمة التي لا ترد في شئون فرنسا ، وبعد أن استتب له الأمر أخذ يسعى لإعادة السلم في أوروبا ، وعرض على انجلترا والنمسا دعوة الصلح والسلام ، لكن انجلترا والنمسا وقفنا له بالمرصاد وحالنا دون توطيد مركزه

واستمتاعه بالسلم ، وكانت إنجلترا تحاصر جزيرة (مالطة) وتشدد الحصار عليها بغية أخذها لأن احتلالها ييسر سيادتها في البحر الأبيض المتوسط ويمكنها من تجريد حملة برية على مصر ويحول دون إمداد فرنسا لجيشها بوادي النيل ، والنمسا كانت تعمل على تثبيت قدمها في إيطاليا ، فتجدد القتال في القارة الأوروبية ، وزحف نابليون بجنوده على شمال إيطاليا ، وهزم جيوش النمسا في معركة « مارتينو » الشهيرة (١٤ يونيه سنة ١٨٠٠) ، واسترد إيطاليا .

ولما عاد ظافراً من هذه الحرب أخذ يفكر في إمداد الجيش الفرنسي في مصر ، واسكن سيادة إنجلترا في البحر الأبيض المتوسط حالات دون تحقيق مشروعه ، وقد زاد في تمكين هذه السيادة احتلال الانجليز جزيرة (مالطة) في شهر سبتمبر سنة ١٨٠٠ ، فقد كانت الحامية الفرنسية محصورة في ميناء مالطة تدافع عنها مدى عامين والانجليز يشددون في حصارها حتى سلبت الحامية واحتلت إنجلترا الملك المحطة البحرية التي جعلها موقعها الطبيعي نقطة ارتكاز مهمة في مواصلات البحر الأبيض المتوسط ، وكان لسقوط مالطة في يد الانجليز أثر كبير في التجهيل بإتمام معدات الحملة الانجليزية على مصر ، فانها لم تسد تحتل مالطة حتى حشدت جيشاً في جبل طارق لتبعث به إلى السواحل المصرية .

على أن نابليون ما فتئ يسعى لإيجاد الصلة بين فرنسا وجيشها في مصر رغم رقابة البوارج الانجليزية ، وأخذت المراكب الفرنسية تغامر في الرحلة إلى مصر فتضبط السفن الانجليزية بعضها ويصل بعضها سالماً إلى السواحل المصرية ، وكان نابليون يقصد من هذه المحاولات تقوية الروح المعنوية للجنود الفرنسية وإحياء الأمل في نفوسهم بأنه لا يفتأهم على البعد ، وأنه يمدد بالجند والعتاد ، وكان لوصول هذه السفن إلى الإسكندرية أثر ابتهاج كبير في نفوس الفرنسيين ، ومن هذه السفن مقيمتان حربيان جاءتا الإسكندرية يوم ٣ فبراير سنة ١٨٠١ وعلى ظهر كل منهما ثلثائة جندي وكثير من الذخائر والمدافع ، وقد ذكر الجبرتي نبأ وصولهما بقوله : « وفي رابع عشرين رمضان سنة ١٢١٥ (يوافق ٨ فبراير سنة ١٨٠١) ضربت مدافع كثيرة لورود مركبين عظيمين من فرنسا فيهما عساكر وآلات حرب وأخبار بأن بونا بارتة أغار على بلاد النمسا وحاربهم وحاصروهم وضاق بهم وأنهم نزلوا على حكمه وبقي الأمر بينهم وبينه على شروط الصلح ، وأنه استغنى عن هذه الأشياء

المرسلة وسيأتى فى أثرها مركبان آخران فيهما أخبار تمام الصلح ، ويستدل بذلك على أن مملكة مصر صارت فى حكم الفرنسيين لا يشاركونهم غيرهم فيها ، هـكذا قالوا وقرءوه فى ورقة بالديوان »

وغنى عن البيان أن ما ذكره الفرنسيون من أن الحرب بين فرنسا والنمسا أسفرت عن بقاء مصر فى حكمهم كان من تمويهاتهم التى أرادوا أن يؤثروا بها على المصريين ، فإن المعاهدة التى ختمت بها الحرب بين الدولتين لم تعرض لمصر ، وقد صدق الجبرقى فى ارتيابه فى صحة الخبر مما يفهم من قوله : « هـكذا قالوا الخ » .

وأشار الجبرقى إلى وصول سفينتين أخريين بقوله :

« وفى ذلك اليوم (٢٠ شوال سنة ١٢١٥ الموافق ٦ مارس سنة ١٨٠١) عملوا شنكا وضربوا عدة مدافع من القلاع ، فارتاع الناس لذلك واضطربوا اضطراباً شديداً ، فسئل من الفرنسيين فأخبروا أن ذلك سرور بقدم مركبين من فرانسه إلى الإسكندرية » .

وأعد نابليون فى ميناء (برست)^(١) عمارة حربية بقيادة الكونت راميرال جانتوم Ganteaume تقل أربعة آلاف إلى خمسة آلاف مقاتل وكثيراً من الذخائر والمهمات لإنفاذها إلى مصر ، وقد تمكنت هذه العمارة من اختراق الاقيانوس واجتياز بوغاز جبل طارق واتخذت سبيلها نحو الإسكندرية ، ولكن الأميرال جانتوم لمع فى طريقه بعض السفن الانجليزية فخشى أن يلتقى بالاسطول الانجليزى ، ومع أن هذه السفن كانت أقل عدداً من عمارته إلا أن ما استحوذ عليه من الذعر جعله يعدل عن المضى إلى مصر ، وذهب بهارته إلى نهر طولون^(٢) ، وانفصلت عنه سفينة الوصول سالمة إلى نهر الإسكندرية يوم أول مارس سنة ١٨٠١ ، وحاول جانتوم أن يقلع بهارته إلى مصر مرة ثانية ثم نالته ، واسكنه أخفق فى محاولته .

وانقطعت المواصلات نهائياً بين فرنسا والشعور المصرية فى الوقت الذى أتمت فيه انجلترا معدات حملتها وسارت فى طريقها إلى مصر .

(١) نهر حبرى لفرنسا على شاطئ المحيط الأطلنطى . (٢) على شاطئ فرنسا الجنوبي .

موقف منو

تمت هذه المعدات والجنرال (منو) غارق في تأملاته ومشروعاته ، وقد علم مراد بك وهو في الصعيد بأنباء هذه الاستعدادات إذ كان يتلقاها عن رسل المماليك الذين أوفدهم إليه زميله إبراهيم بك من معسكر الجيش العثماني ، وكان مراد في ذلك الحين على تمام الولاء للفرنسيين ، فاعتزم أن يفضي بهذه الأنباء إلى الجنرال (منو) ليأخذ الأمر عدته ، وأوفد إليه عثمان بك البرديسي لمناسبة سداد الخراج عن الصعيد ، وأطلعه على رسائل إبراهيم بك وأبلغه نبأ اقتراب الحملة التركية الانجليزية وطلب إليه أن يعنى في حالة فتح باب المفاوضة للتفاهم مع تركيا بالمحافظة على الامتيازات التي نالها مراد بك (١) ، وأكد له أنه في حالة إخفاق المفاوضة وتجدد القتال يضع قواته تحت تصرف القيادة الفرنسية طبقا للاتفاق المبرم بينهما ، على أن منو لم يكترث لهذه الأنباء ولم يأخذ عدته لمواجهة الحملة القادمة ، فلما قدمت لم تلق المقاومة التي لقيتها أيام نابليون وكليبر ، وصدقت نبوءة عثمان بك البرديسي التي تنبأ بها حينما يتس من إقناع الجنرال منو بضرورة الاستعداد لمصادمة الحملة التركية الانجليزية ، فانه قابل الجنرال داماس أحد قواد الحملة وقال له : « إن قائداً مثل الجنرال منو سيكون سبباً في ضياع الجيش الفرنسي » .

وصول الحملة الانجليزية العثمانية إلى (أبو قير)

استغرق إعداد الحملة المشتركة بين إنجلترا وتركيا ووصولها إلى مصر عدة أشهر ، فقد تحرك الجيش الانجليزي من جبل طارق في أوائل نوفمبر سنة ١٨٠٠ وأقامت به العمار الانجليزية إلى شواطئ الأناضول ورست بميناء مرمريس (٢) في آواخر ديسمبر وأوائل يناير ، ونزل الجيش الانجليزي بين الأناضول ، وهناك قضى زمنا طويلا ليتزود من المؤونة ويتدرب على الرسو بمراكبه على سواحل اليابسة ، وينتظر أن تتم تركيا استعدادها وتتفق الدولتان على الخطة المشتركة في القتال ، وأعدت تركيا جيشين ، الأول بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا يزحف عن طريق

(١) بمقتضى اتفاقية كليبر — مراد .

(٢) من نفور الأناضول .

برزخ السويس ، والثاني يبحر من ميناء مزمرس على ظهر العمارة التركية بقيادة حسين قطان باشا قاصداً شواطئ مصر الشمالية .

لكن عمارة حسين باشا أبطأت في السفر ، فأقلمت العمارة الانجليزية في ٢٢ فبراير سنة ١٨٠١ بقيادة الاميرال اللورد كيث قائد القوات البحرية البريطانية في البحر الأبيض المتوسط ، وكان يصحبها بعض سفن المدفعية التركية ونحو ستائة جندي من الأتراك ، وسارت قاصدة سواحل مصر ، فوصلت تجاه الإسكندرية مساء أول مارس ، وفي صباح اليوم التالي ألقت مراسيها في خليج (أبو قير) وعلى ظهرها الجيش الانجليزي وعدده ١٧٥٠٠ مقاتل (١) بقيادة الجنرال السير رالف أبركرومبي — Ralph Abercromby ، وظلت العمارة عدة أيام في عرض البحر لا تستطيع انزال الجنود لحياج الماء واضطرابه ، فانتهر الجنرال (فريان) قومندان الجنود الفرنسية في الاسكندرية هذه الفرصة لإعداد الدفاع وسار إلى أبو قير للملاقاة الانجليز ، وأعد مدافع قلعة أبو قير للضرب وركب مدافع أخرى على أكمة عالية تشرف على الشاطئ .

نزول الانجليز إلى البر

بدأت الجنود الإنجليزية تنزل إلى شاطئ أبو قير يوم ٨ مارس ، واحذر منهم ذلك اليوم ستة آلاف جندي ، فاشتبكوا في قتال شديد مع قوات الجنرال فريان الذي جاء على عجل في نحو ٢٠٠٠ من الجنود ، فأطلقت المدافع الفرنسية نيرانها على الجنود الإنجليزية في طريقها إلى اليابسة ، فخرس الانجليز كثيراً من القتلى في المراكب وأثناء نزولهم إلى البر ، ودار قتال عنيف على الشاطئ ، لكن القوات الإنجليزية كانت أكثر عدداً وأعظم استعداداً ، فظهرت على الفرنسيين وهزمتهم ووضعت الحصار حول قلعة أبو قير (٢) ، وتقهقر الفرنسيون غرباً بعد أن خسروا في تلك

(١) أخذنا هذا الإحصاء عن كتاب الجنرال رينيه أحد قواد الحملة الفرنسية (مصر بعد واقعة عين شمس) . وفي كتاب السكايتن ولش أحد ضباط الجيش الإنجليزي الذي حازب في هذه الحملة أن عددهم ١٦٧٠٠ ، على أننا نرجح إحصاء رينيه لأن السكايتن ولش يميل في إحصائه إلى إنقاص عدد الجيش الإنجليزي ليزيد من فخره ، وهذا العدد بخلاف المدد الذي تلقاه الجيش الإنجليزي بعد ذلك إلى انتهاء القتال ويبلغ نحو ستة آلاف مقاتل .

(٢) ظلت القلعة تقاوم إلى أن سلمت في يوم ١٨ مارس سنة ١٨٠١

المعركة نحو ٤٠٠ قتيل وجريح ، وخسر الانجليز نحو ٦٥٠ من القتلى والجرحى ، وقد أشار الجيزتي إلى هذه الواقعة بقوله : « إن الانجليز وصلوا إلى أبو قير وطلعوا إلى البر وتحاربوا مع أمير الاسكندرية (يريد قومندانها الجنرال فريان) ومن معه من الفرنسيات وظهروا عليهم »

تراجع جيش الجنرال فريان وعسكر في المنذرة (١) ، أما الانجليز فقد أنزلوا بقية جنودهم إلى البر ، ودخلت قواربهم المسلحة إلى أبو قير لنهرقل تقهر الفرنسيين (انظر خريطة بين الاسكندرية وأبو قير ص ٧٥ وخريطة معركة سيدى جابر ص ٢١٨)

معركة سيدى جابر

١٣ مارس سنة ١٨٠١

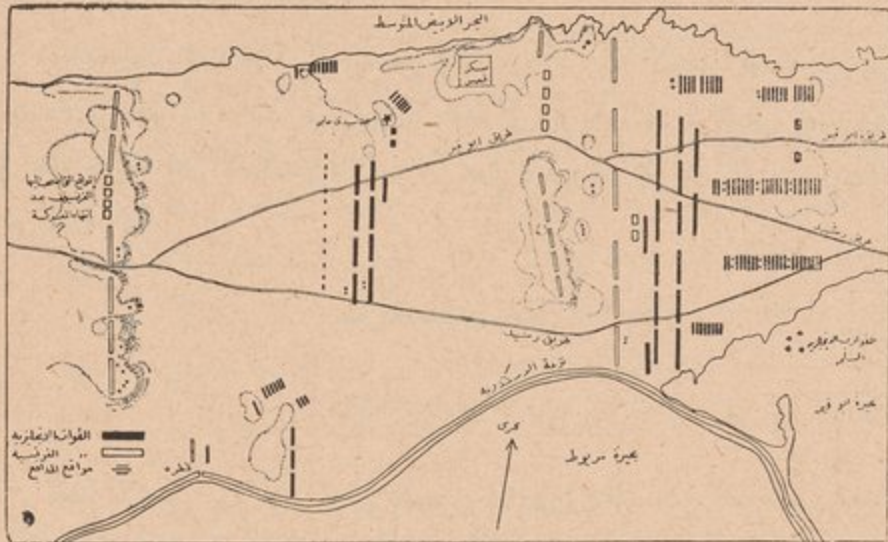
تقدم الانجليز يوم ١٢ مارس قاصدين (المنذرة) فانسحب الفرنسيون منها وواصلوا تقهرهم حتى أطلال قصر القياصرة (٢) وتحصنوا به

واصل الانجليز تقدمهم إلى أن اقتربوا من مواقع الفرنسيين ، فدارت معركة شديدة بين الفريقين يوم ١٣ مارس ، وكان الجيش الفرنسى يقوده الجنرال لانوس Lanausse والجنرال فريان ، ولما التقى الجمعان هجم الانجليز على مواقع الفرنسيين ، فأصلتهم المدافع الفرنسية نارا حامية أوقعت في صفوفهم خسائر فادحة ، وكر عليهم الفرنسيون وحمل وطيس القتال ثم انتهى بهزيمة الفرنسيين وتراجعهم إلى أسوار الاسكندرية واحتلال الانجليز قصر القياصرة ، وكان الفضل فى انتصارهم لكثرة

(١) ضاحية من ضواحي الاسكندرية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط تقع الآن بين (سيدى بشر) و (المنزه)

(٢) أو (معسكر قيصر) على شاطئ البحر بالقرب من النقطة المعروفة الآن بمحلة مصطفى باشا من محطات رمل الاسكندرية ، وهو حصن من حصون الرومان بقيت أطلاله إلى سنة ١٨٧٥ وأطلق عليه علماء الجغرافية من العرب اسم (قصر القياصرة) وورد اسمه العربى فى خريطة دانفيل D'Anville التى خطتها حوالى سنة ١٧٧٢ ، ومنه اشتق الأفرنج اسم (معسكر قيصر) Camp de Cesar (كامب دى سيزار) ، وبهذا الاسم سميت إحدى محطات رمل الاسكندرية ولكن هذه المحطة تبعد قليلا عن موقعه القديم

عددهم ؛ فإن الجيش الانجليزى بلغ نحو ١٤٠٠٠ مقاتل بينما الجيش الفرنسى نحو ٥٠٠٠ ، وقد تكبد الانجليز خسائر فادحة ، فبلغ عدد قتلاهم وجرحاهم نحو ١٣٠٠ قتيل وجريح ، وخسر الفرنسيون نحو سبعمائة قتيل وجريح



خريطة معركة سيدى جابر (١٣ مارس سنة ١٨٠١)

وترى بها موقع مسجد سيدى جابر ، وعلى مقربة منه معسكر قيصر (قصر القياصرة) القديم ، ومواقع القوات الانجليزية والقوات الفرنسية أثناء المعركة ، والمواقع التى انسحب إليها الفرنسيون بعد انتهاء المعركة ، وترعة الاسكندرية (المحمودية الآن) وبحيرة أبو قير (غير موجودة الآن) وفيها القوارب الانجليزية المسلحة ، وبحيرة مريوط (تخطيط سنة ١٨٠١)

سمينا هذه المعركة معركة (سيدى جابر) لأنها وقعت على مقربة من المسجد المعروف باسمه ، أما الانجليز فيسمونها معركة ١٣ مارس سنة ١٨٠١ ، والفرنسيون يسمونها معركة (نيكوبوليس) ، ونيكوبوليس اسم روماني لضاحية قديمة من ضواحي الاسكندرية انتصر فيها اكتافايوس على مارك انطونيوس ، ولذلك سميت نيكوبوليس ومعناها (مدينة النصر) ، وتقع تقريباً في الجهة المعروفة الآن ببولكلبي وما حولها (١) ، وهذه التسمية فيها شيء من التعميم كما ترى ، ولا تدل على المسكن

(١) شرقى مصطفى باشا لغاية الجهة المعروفة اليوم (١٩٤٧) بجبلينوبولو

الذى وقعت فيه المعركة ، لذلك اخترنا لها اسم (سيدى جابر) ، وهو اسم مشهور وموقعه معروف ، وكان المسجد قائماً فى زمن المعركة ، فتسميتها باسمه تقرب إلى الذهن حقيقة موقعها

تقدم الانجليز بعد انتهاء المعركة يريدون الإسكندرية ، لكنهم استهدفوا لنيران المدافع الفرنسية المركبة فى قلعتى كريتان (كوم الدكة) وكافريللى (كوم الناصورة) ، فاضطروا إلى الانسحاب وتحصنوا على الأكتاف القائمة حول قصر القياصرة ورابط. جيشهم فى خط ممتد بين البحر وبحيرة أبو قير

ارتباك الجنرال منو

لما علم الجنرال منو بقدوم العمارة الانجليزية فى مياه أبو قير أسقط فى يده لأنه لم يكن مستعد لمقاومتها ولم يفكر من قبل فى اتخاذ الخطة بتحصين شواطئ أبو قير ، ولم يتبع خطة نابليون فى الإسراع بحشد جنوده والانتقال بهم إلى الشاطئ. لمفاجأة الجنود النازلة من السفن قبل أن تنهيا للقتال ، بل ارتبك فى أمره ، وطفق يصدر الأوامر والنداءات العقيمة ، وأخذ يوزع جنوده شرقاً وغرباً ، فأفقد الجنرال موران Morand إلى دمياط ، والجنرال رينيه Reynier إلى بلبس لتوقعه بجىء الجيش التركى من الحدود الشرقية ، وأفقد الجنرال لانوس إلى الإسكندرية ، فكانت القوات الفرنسية موزعة بين القاهرة والإسكندرية ، وأبو قير ، ودمياط ، وعزبة البرج ورشيد ، والسويس ، والجيزة ، والصالحية ، والمنصورة ، وميت غمر ، ومنوف ، والبرلس ، والرحمانية ، والوجه القبلى ، ولما تحقق منو من نزول الانجليز إلى البر عزم آخر الأمر على السير للملاقاتهم ، واستقدم الجنرال (موران) والجنرال (رينيه) ، ثم ارتحل ومعه نصف الجيش (١) إلى الإسكندرية فوصلها بعد هزيمة الفرنسيين فى معركة (سيدى جابر)

حالة الأفكار فى القاهرة

ساد الاضطراب بين الفرنسيين عندما علموا بقدوم الحملة الانجليزية التركية ،

(١) ترك النصف الآخر بالقاهرة بقيادة الجنرال بليار

وأخذ منو يتوعد كل من يذيع أخبارها بين الأهالي، فأصدر منشورا مؤرخا ٢٩
شوال سنة ١٢٢٥ (١) يطعن فيه المصريون، ويحذرون تصديق الأخبار (الكاذبة) وأنذر
كل من يثبت عليه إذاعة هذه الأخبار بالقتل

قال الجبرتي: « فعلم الناس من ذلك الفرمان (المنشور) ورود شيء وحصول
شيء على حد « كاد المرتاب أن يقول خذوني .. وايس للناس ذكر ولا فكر
إلا في بواقي الفردة (الضريبة) وما أزمهم من المليون . ولا شغل لسجل فرد إلا
بتحصيل ما فرض عليه »

وبالرغم من تكتم الفرنسيين أنباء الحملة وتوعدهم من يذيع بين الناس أخبارها
فإن أنباءها قد استفاضت . وعلم بها الناس قاطبة . فلم ير (منو) بدأ من أن يكشف
أعضاء الديوان بقسود الانجليز والعثمانيين . فانهقد الديوان في ٢٠ شوال سنة
١٢١٥ (٢) . وحضر الاجتماع المسيو (فورييه) القوميسير الفرنسي . وخطب
الأعضاء في شأن الموقف الحربى . فزعم أن السفن الانجليزية التى قدمت أبو قير قد
رجعت أدراجها . وأبلغ الأعضاء ترجمة منشور للجنرال (منو) يذكر فيه أن
الانجليز « الذين يطلبون كل جنس للبشر » قد ظهروا في السواحل ومعهم العثمانيون
وأن الفرنسيين عازمون على ردهم جميعا على أعقابهم ، وطلب من المصريين أن
يلزموا السكينة ، وتوعد من يتحرك للفتنة بالقتل ، ونوه في منشوره بما وقع بالمصريين
من القتل والنكال والمغارم فى ثورة القاهرة الأخيرة ، وأمضى المنشور بتوقيع
(خالص الفؤاد عبد الله جاك منو) .

فلما تليت ترجمة المنشور علم الأعضاء بخطورة الموقف ، ودارت مناقشة بينهم
وبين المسيو فورييه فى تحديد مركزهم حيال هذا المنشور ، قال الجبرتي فى هذا
الصدد ماخواه : « ولما قرىء الفرمان المذكور قال بعض الحاضرين إن العقلاء
لا يسمعون فى الفساد ، وإذا تحركت فتنة لزموا بيوتهم ، فأجاب المسيو فورييه :
ينبغي للعقلاء ولأمثالكم نصيحة المقسدين فإن البلاء يعم المفسد وغيره ، فقال
بعضهم هذا ليس بحيد بل العقاب لا يكون إلا على المذنب ، قال تعالى : « كل نفس

بما كسبت رهينة» وقال آخر قال تعالى أيضا : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فقال فورييه : المفسدون فيما تقدم هاجوا الفتنة فعمت العقوبة ، والمدافع لاعتقل لها حتى تميز بين المفسد والمصلح ، فإنها لا تقرأ القرآن ، وقال آخر : والمخلص نيته تخلصه ، فقال فورييه : إن المصالح من يشمل صلاحه الرعية فإن صلاحه في حد ذاته يخصه فقط . والثاني أكثر نفعا .

وطال البحث والجدل على هذا النحو ، وانتهت الجلسة على غير نتيجة ، ولما علم الجنرال منو بما دار من المناقشة بين الأعضاء والمسيو فورييه ارتاب في نية أعضاء الديوان ، وكتب منشورا آخر أبلغه ذلك اليوم إلى فورييه ، وهذا أرسله إلى الأعضاء في بيوتهم ليطلعهم به ، ومضمونه إنذارهم بأنه يلقي عليهم علانية تبعة كل ثورة تحصل من الأهل ، ولعله أراد بتحميلهم هذه التبعة أن يرهبهم ويكرههم على استخدام نفوذهم لمنع وقوع أى حركة في العاصمة وغيرها من البلاد .

ألقى هذا الإنذار على عاتق أعضاء الديوان تبعة رهينة ، لأنهم إذا ضمنوا أنفسهم فن أين لهم أن يضمنوا سلوك الجماهير ؟ على أنهم تلقاء هذا الإنذار اجتمعوا بدار الشيخ الشرفاوى رئيس الديوان ، وحضر الاجتماع الأغا (المحافظ) والوالى (رئيس الشرطة) والمحتسب « وأحضروا مشايخ الحارات وكبراء الأخطاط ونصحوهم وأنذروهم ، وأمرهم بضبط من هو دونهم وألا يغفلوا أمر عاصمتهم وحذروهم وخوفوهم العاقبة وما يترتب على قيام المفسدين وجهل الجاهلين وأنهم هم المأخوذون بذلك ، كما أن من فوقهم مأخوذ عنهم ، فالعاقل يشتغل بما يعنيه^(١) » .

والواقع أن سكان القاهرة في ذلك الحين لم يكونوا يفسكرون في القيام بثورة أو فتنه ، لأن منازلهم من المغارم والمظالم المتتابعة وما كان يشغلهم من سداد ما فرض عليهم من الضرائب الفادحة والغرامات كان يحول دون قيامهم بثورة .

وأخذ الفرنسيون من جهتهم يستعدون للحرب والقتال وينقلون أمتعتهم إلى القلعة ، فتوهم الناس أنهم سيضربون المدينة بالمدافع ، فشرعوا في الهجرة من القاهرة إلى الأقاليم .

(١) السكيات التي بين قوسين مأخوذة عن الجبرتي .

اعتقال واضطهاد

واشتد انزعاج الفرنسيين واضطرابهم ، فاعتقلوا السيد محمد السادات وأصعدوه إلى القلعة (من غير إهانة) كما يقول الجبرتي ، فسأل السيد السادات الموكل به عن ذنبه وجرمه ، فقال له لم يكن إلا الحذر من إنارة الفتنة في البلد وإهاجة العامة لبغضك للفرنسيين لما سبق لك منهم من الإيذاء ، وبقي السيد السادات رهن الاعتقال إلى أن جلا الفرنسيون عن مصر ، ومات ولده أثناء الاعتقال فلم يفرجوا عنه وأذنوا له فقط بحضور الجنائزة ونزل من القلعة يصحبه حارس إلى أن انتهت الجنائزة وعاد به الحارس إلى السجن ، واعتقلوا كذلك حسن أغا المحتسب وحبسوه بالبرج الكبير بالقلعة . ولما عزم الجنرال (منو) على السفر إلى الاسكندرية استدعى إليه أعضاء الديوان ورؤساء التجار ، وآذنتهم بعزمه على السفر ، وأنه أناب عنه الجنرال بليار « قائممقام » وقائداً على الجنود الباقين بالقاهرة ، وطلب إليهم أن يسهروا على ضبط الأمن في المدينة ، وأبلغهم أنه كان في عزمه اعتقالهم رهائن لمنع وقوع الفتن ، لكنه استصوب لإرجاء ذلك ، وسافر (منو) بجيشه يوم ١٢ مارس (١) ولم يعد بعد ذلك إلى القاهرة ،

واتسعت حركة القبض والاعتقال عند ماوردت الأخبار بقدم الجيش العثماني برأ من جنوب سورية بقيادة يوسف باشا ضيا واحتلاله العريش ، واشتد اضطراب الفرنسيين في القاهرة ، فاستدعى المسيو فورييه أعضاء الديوان للاجتماع يوم ٢٤ مارس سنة ١٨٠١ ، وحضر الجلسة مندوب عن الجنرال بليار ، وأبلغهم المسيو فورييه أنه تحقق لهم أن الجيش العثماني بقيادة يوسف باشا قادم إلى مصر ، وأن السلطة الفرنسية رأت بناء على ذلك اعتقال بعض الأعيان كما تقضى بذلك ضرورات الحرب ، وتلطف في إبلاغ الأعضاء نبأ الاعتقال ، فقال لهم على رواية الجبرتي : « ولا يكون عندكم كدر ولا هم بسبب ذلك ، فليس إلا الإعزاز والإكرام أينما كنتم ، والوكيل (فورييه) دائماً نظره معكم ، ولا يغفل عن تعليل مزاجكم في كل وقت ويوم » ، وانتهى الكلام بالقبض على أربعة من أعضاء الديوان ، وهم

(١) اعتمدنا في هذا التاريخ على كتاب المسيو مارتان أحد مهندسي الحملة الفرنسية وعلى مذكرات نابليون وكتاب المسيو ريجو (الجنرال عبد الله منو والفترة الأخيرة من الحملة الفرنسية) .

الشيخ عبد الله الشراقوى ، والشيخ محمد المهدي ، والشيخ مصطفى الصاوى ،
والشيخ سليمان الفيومى « فأصعدوهم إلى القلعة فى الساعة الرابعة من الليل مكرمين
وأجلسوهم بجامع سارية ونقلوا إلى مكانهم الشيخ السادات فاستمر وإياهم بالمسجد ،
وكلفوا الأربعة الباقين من أعضاء الديوان وهم الشيخ خليل البكرى ، والشيخ
محمد الأمير ، والشيخ موسى السرسى ، والشيخ الجبرى مؤرخ ذلك العصر (١) ،
أن يتولوا النظر فى شئون البلد ، وأن يجتمعوا بالجنرال بليار ولا ينقطعوا عنه
وأبلغوهم أن المشايخ المعتقلين لا خوف عليهم ولا ضرر وأنهم معززون مكرمون ،
وخصصوا لكل شيخ منهم خادماً يختلف إليه فى أعماله وما يحتاج إليه من منزله ،
وسمحوا لمن يريد زيارتهم من أصدقائهم بأن يزورهم فى القلعة بتصريح كتابى من
الجنرال بليار ، واعتقل الفرنسيون كذلك نحو خمسة عشر من أعيان القاهرة .

ثم أفرجوا فى ١١ ذى القعدة سنة ١٢١٥ (٢) عن الشيخ سليمان الفيومى ،
وأذنوا له بالاجتماع هو وأعضاء الديوان للنظر فى شئون البلد ، على أن حالة
الاضطراب التى سادت المدينة قد جعلت الديوان قليل العمل ، واشتد فزع
الفرنسيين وخاصة بعد أن وردت أنباء معركة كانوب التى سيرد الكلام عنها فيما
يلى ، واستمروا ينقلون أمتعتهم وذخائرهم إلى القلعة ، وانتقل المسيو فورييه إلى
القلعة أيضاً ولم ينزل منها ، وأرسل إلى الشيخ سليمان الفيومى بأن ينقل أئمة
الديوان إلى داره ، فنقلها ولم يبق منها إلا الحصر ، وأخذ أعضاء الديوان يحضرون
كعادتهم ، « فكانوا يفرشون سجاجيدهم ويجلسون عليها وقت الاجتماع ثم ينصرفون »
وحل المسيو جيران محل المسيو فورييه فى وكالة الديوان ورأسه الإدارة القضائية .

وقبضوا على الشيخ محمد الأمير أحد أعضاء الديوان فى أوائل محرم سنة ١٢١٦
(أواخر مايو سنة ١٨٠١) واعتقلوه مع المشايخ بجامع سارية بحجة أن ابنه كان
من المحرضين على ثورة القاهرة الثانية ، وأنه لما انتهت الثورة هاجر من المدينة إلى

(١) أعضاء الديوان تسعة كما تقدم ص ١٨٤ ، اعتقل منهم أربعة ، وكالف أربعة بالقيام
بالعمل ، ولم يرد بالجبرى ذكر للعضو التاسع على الحامى ، ولعل السبب فى ذلك أنه لم يكن بالقاهرة
وقتشد كما يستفاد من رواية الجبرى نفسه فقد ذكر فى حوادث سنة ١٢١٦ هـ أن السيد على
المذكور حضر إلى مصر صعبة أخته زوجة الجنرال عتو وإبنتها فى أوائل محرم سنة ١٢١٦ ، ففهم
من ذلك أنه كان يرشيد حينما اعتقل الفرنسيون الأعضاء الأربعة

الوجه البحرى ثم حضر إلى مصر فأقام بها أياماً ، ثم قصد إلى (فوه) بإذن من السلطة الفرنسية ، فلما تجدد القتال واشتد نزاع الفرنسيين وأخذوا الناس بأذى شهة وتقرّب إليهم المنافقون بالدعاية والتجسس ، وشى البعض للجنرال بليار بأبن الشيخ الأمير وألقى في روعه أنه انضم إلى الجيش العثمانى ، فاستدعى الجنرال بليار الشيخ الأمير وسأله عن ابنه فأجاب بأنه لم يزل فى فوه . فقال له الجنرال : لأنه لم يكن هناك بل هو عند القادمين (العثمانيين) ، فأنكر الشيخ ذلك وقال إن شئتم أرسلت إليه بالحضور ، فأمره الجنرال بليار ثمانية أيام أى مسافة الذهاب إلى فوه والمجيء منها فى ذلك العصر . ثم كرر عليه الطلب بلسان وكيل الديوان . فوعده الشيخ بحضور ابنه أو حضور الجواب بعد يومين . ولما انقضى الميعاد ولم يحضر ابنه اعتقله الفرنسيون وحبسوه فى القلعة

وقد أفرجوا فى السادس عشر من محرم سنة ١٢١٦ عن الشيخ مصطفى الصاوى لمرضه

الفصل الثاني عشر

هزيمة الفرنسيين وجلاؤهم عن مصر

معركة كانوب — ٢١ مارس سنة ١٨٠١

رحل الجنرال (منو) عن القاهرة ومضى قاصداً الاسكندرية كما قدمنا . فباغ الرحمانية ، وسار منها إلى دمنهور حيث لحق به القائدان Reynier ورامبون Rampon ، ثم واصل سيره فباغ الاسكندرية يوم ١٩ مارس ، واستعد للمعركة التي نشبت بينه وبين الجيش الانجليزي ، وكان الانجليز في غضون ذلك قد أنزلوا ما بسفنتهم من الذخائر والمدافع ، واستعدوا للقتال استعداداً عظيماً .

اعتزم الجنرال (منو) أن يهاجم الجيش الانجليزي ، وخشى إذا هوتاخر عن الهجوم أن يباغته الانجليز ويضربوا الحصار على الاسكندرية ، فيصبح الفرنسيون محصورين بين أسوارها ويستهدفون للجوع إذا أحكم الانجليز حصارها برأ وبحراً ، فضلاً عن أن الجيش الانجليزي يصبح حراً في التوغل في داخلية البلاد ، فرأى أن يغامر بمهاجمة الجيش الانجليزي على أمل أن يكون النصر حليفه كما انتصر نابليون على الأتراك في معركة أبو قير من قبل ، على أن الفرق كبير بين الموقفين ، فإن نابليون جمع في يديه سنة ١٧٩٩ كل جنوده وهاجم بهم الجيش التركي قبل أن ينظم مصطفى باشا صفوفه ، وكان له من عبقريته وسرعته في القتال ما كفل له النصر في واقعة أبو قير ، اسكن (منو) كان مجرداً من الكفاية الحربية ، فضلاً عن أنه ترك نصف الجيش تقريباً في القاهرة وأبطأ في التقدم بالنصف الآخر ، وترك للانجليز الوقت الكافي لتنظيم صفوفهم وثبتت أقدامهم شرقي الإسكندرية ، وقد أدرك معظم القواد الفرنسيين خطأ منو في مغامرته المتأخرة ونصحوا إليه أن يتريث في الأمر حتى يأخذ له عدته ، لكنه أصر على خطته ، ف وقعت الواقعة يوم ٢١ مارس سنة ١٨٠١ ، وهي المعروفة بمعركة كانوب .

إذا أردت أن تعرف ميدان هذه المعركة فتأمل في خريطة (بين الاسكندرية وأبو قير) ص ٧٥ والخريطة الملحقة بهذا الفصل ص ٢٢٨ ، تجد أن مواقع الانجليز في خط. يمتد من البحر شرق قصر القياصرة إلى ترعة الاسكندرية (المحمودية الآن) بالقرب من حجر النوانية ، ومواقع الفرنسيين على بعد نحو أربعة آلاف متر تقريبا شرق باب رشيد في خط. يمتد من البحر إلى ترعة الاسكندرية ، بالقرب من النقطة المعروفة الآن بمحطة (النزهة) ، وقد سميت المعركة واقعة (كانوب) لأنها وقعت على مقربة من باب من أبواب الاسكندرية القديمة يسمى باب كانوب (شرق باب رشيد) ينهى إليه شارع من شوارعها القديمة كان يعرف بشارع كانوب ويعرف الآن بشارع باب رشيد أو باب شرق (١) .

في هذا الميدان نشبت المعركة ، وهي من أهم المعارك التي كانت لها نتائج حاسمة في سير القتال وتطور الموقف الحربي والسياسي في مصر ، تولى قيادة الجيش الفرنسي فيها الجنرال (منو) ، والجيش الانجليزي الجنرال السير رالف ابركرومبي ، وكان موقف الانجليز من بدء القتال أرجح من مركز الفرنسيين ، فقد امتاز الجيش البريطاني بتفوقه في العدد إذ كان مؤلفا من نحو ١٦٠٠٠ من المشاة ومائتين من الفرسان ، بينما كان الجيش الفرنسي لا يزيد عن ٨٣٥٠ من المشاة و ١٣٨٠ من الفرسان ، هذا فضلا عن أن الجيش الانجليزي تحمى ميمنته من البحر بعض السفن المدفعية ، وميسرته بعض القوارب المسلحة في بحيرة أبو قير ، فكان لهذه العمارة البحرية أثر كبير في سير القتال إذ كانت تصب قنابلها على الصفوف الفرنسية أثناء هجومها ، فالجيش الفرنسي كان إذن أقل من الانجليز عددا وأضعف مركزا ، ولو تولى قيادته قائد أكفأ من الجنرال (منو) لما تغيرت نتيجة القتال تغيراً جوهرياً ، اللهم إلا في مبالغ الخسائر الفادحة التي نالت الفرنسيين ، فإن أوامر (منو) عرضت صفوفهم للخسائر الفادحة .

بدأت القوات الفرنسية تتحرك من مواقعها الأولى شرق باب رشيد في نحو الساعة الثالثة من صبيحة يوم المعركة ، فكانت الميمنة بقيادة الجنرال (رينيه) ، والميسرة بقيادة الجنرال (لانوس) ، والقلب بقيادة الجنرال (رامبون) ، وابتدأ الهجوم بعد طلوع الفجر ، فأخذت كتيبة من الهجاة تهاجم بعض المواقع

الانجليزية الامامية اتخذها عن خطة الهجوم التي رسمتها القيادة الفرنسية ، ثم تقدمت فرقة الجنرال (لانوس) ، وتبعها الفرق الأخرى ، ولم يكن الهجوم متناسقا ، اضعف القيادة الفرنسية وارتباكها ، ففي خلال الهجوم الأولى تعرضت صفوف الفرنسيين لثيران القنابل والرصاص ، وأصيب الجنرال (لانوس) بتمبلة جامة من إحدى السفن المدفعية الانجليزية ، فكانت القاضية على حيائه ، فوقع الارتباك في صفوف جنوده ، وعبثا حاول الجنرال رامبون أن يهجم بجنوده ، فردتهم نيران المدافع والبنادق ، وهجمت الكتائب الأخرى ، ولكن المدافع الانجليزية كسرت هجمتهم ، وصار الفرنسيون مكشوفين أمام أعدائهم ، فحلت بهم الخسائر الفادحة ، وظل الجنرال (منو) يربح هزائم جنوده جامدا لا يدرى كيف ياخذ في أمره ، إلى أن ترمى له أن يقذف بفرقة الفرسان التي يقودها الجنرال رواز Roize إلى المعركة ، وكانت هذه الحركة عقيمة ، فتردد الجنرال رواز في اتباع ما أمر به القائد العام وأفضى إليه بما ينطوى تحت هذا الهجوم الجنوني من الخطر المحقق ، ولكن منو ألح في التقدم ، فصعد الجنرال (رواز) بالامر وهو عالم أن مصيره إلى الهلاك لا محالة ، ومما يؤثر عنه في هذا الصدد أنه خاطب جنوده بقوله : أيها الرفاق ! إنهم يبعثون بنا إلى المجد ، وإلى الموت ، فإلى الأمام ! » ، وهجم بجنوده هجوم اليائس المستميت ، واقتحم الفرسان الصفوف والاستحكامات الانجليزية ، فأحيط بهم ، وأنهم الموت من كل مكان ، وقتل الجنرال (رواز) ومعظم رجاله .

ولما رأى الجنرال منو أن لا سبيل إلى استمرار القتال أصدر أمره بالانسحاب إلى الإسكندرية ، فانهت المعركة في نحو الساعة الحادية عشرة بعد أن خسر الجيش الفرنسي نحو ألف وخمسمائة من القتلى وألف من الجرحى ، وكان من القتلى نخبة من الفواد والضباط مثل الجنرال (لانوس) والجنرال (رواز) والجنرال بودو

• Baudot

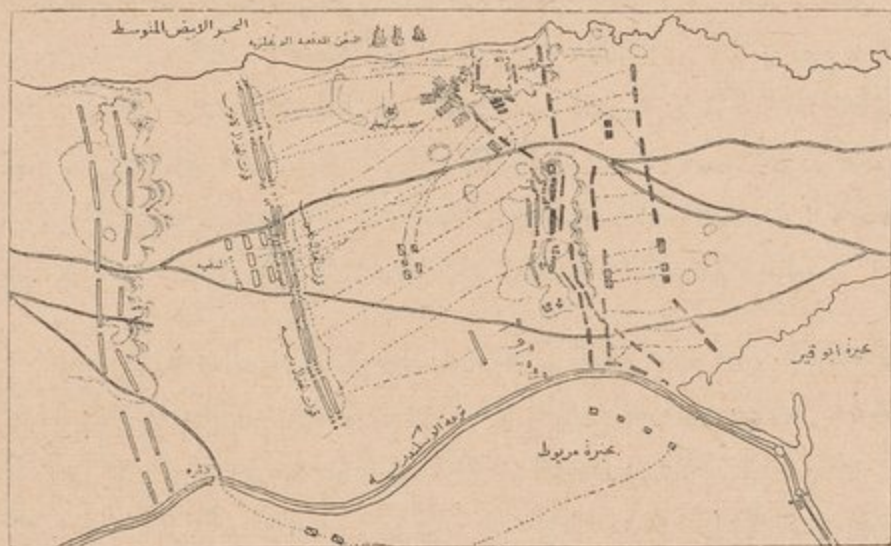
وبالرغم من انتصار الانجليز فإن خسارتهم كانت فادحة ، فقد فقدوا نحو ١٥٠٠ قتيل ، منهم قائد الجيش نفسه الجنرال أبركرومبي ، وجرح بعض قوادهم ومنهم السر سدن سميث الذي اشترك في القتال .

وخلف الجنرال أبركرومبي في قيادة الجيش البريطاني الجنرال السر هتشسون

Hutchinson

يسمى الانجليز هذه المعركة (معركة الإسكندرية) ، ولها في تاريخهم الحربى

منزلة ممتازة ، يدلك على ذلك أنهم أقاموا لها سنة ١٩٠١ نصبا تذكاريا لمناسبة مرور مائة عام على وقوعها ، فإذا ذهبت يوما إلى محطة سيدى جابر وأخذت طريق شارع (مصطفى باشا) متجها إلى البحر ، تجد في ملتقاه بشارع سيدى جابر ميدانا صغيرا مقاما بوسطه تمثال مصنوع من المرمر وعلى جوانبه منقوش بالانجليزية أنه أقيم تذكارا للجنرال السررال فابركرومبي ورفاقه الذين قتلوا في معركة الاسكندرية على مقربة من مكان التمثال ، فإذا تجاوزت هذا التمثال تجد أمامك الشكنات التي أنشأها الانجليز بعد الاحتلال البريطاني السابق ، والباقية إلى اليوم (سنة ١٩٣٩) ، وهي المعروفة بشكنات مصطفى باشا (فاضل)^(١) ، وأهلهم اتخذوا هذه الجهة معسكرا لهم لأنها تذكرهم بانتصار حربى ناله أسلافهم ، كما اتخذوا جهة أبو قير معسكرا لهم^(٢) لأنها كانت توحى إليهم ذكرى الأميرال نلسن في معركة أبو قير الشهيرة .



خريطة معركة كانوب (٢١ مارس سنة ١٨٠١)

كان من نتائج معركة كانوب أن ارتد الجيش الفرنسى إلى أسوار الإسكندرية وانفتح الطريق أمام الجيش الانجيزى للتوغل فى البلاد ، على أنه بالرغم من تضعضع

(١) جلوا عنها يوم ٨ فبراير سنة ١٩٤٧ .

(٢) جلوا عنه أيضا يوم ٤ مارس سنة ١٩٤٧ .

الجيش الفرنسي وما حل به من الخسائر في معارك ٨ و ١٣ و ٢١ مارس فقد أحجم الانجليز عن الزحف ، وكان الجنرال هتشنسون شديد التردد ، كثير الوجل ، فقضى وقتا طويلا قبل أن يبت رأيا في الهجوم ، ولم يكن الجنرال (منو) أقل منه تردداً ، وكانت الظواهر تدل على أن الانجليز لا يتجاوزون الشواطئ ولا يلبثون أن يعودوا إلى سفنهم ، والواقع أنهم كانوا مترددين في التقدم إلى داخل البلاد ، وفكر بعض قوادهم في الانسحاب والرجوع إلى السفن ، لولا قدوم المدد على ظهر العمارة التركية التي جاءت إلى أبو قير يوم ٢٥ مارس سنة ١٨٠١ ، جاءت هذه العمارة يقودها حسين تبطان باشا نقل سنة آلاف جندي من خيرة الجنود الانكشارية ، فنزلوا إلى البر وانضموا إلى الجيش الانجليزي ، فازداد بهم قوة ، وعزم على الزحف في داخل البلاد

احتمال رشيد

في خلال شهر ابريل اعتزم الجنرال هتشنسون الزحف على رشيد بعد أن استطلع أخبارها وتبين له ضعف حاميتها الفرنسية ، فقصدها إليها السكولونل سبنسر Spencer على رأس جيش مؤلف من خمسة آلاف مقاتل ، منهم أربعة آلاف من الأتراك ، تحرك هذا الجيش من أبو قير وسار حذاء الساحل قاصداً صوب رشيد ، فانسحبت منها الحامية الفرنسية واحتلها الحلفاء ، وأبدى الفرنسيون مقاومة في قلعة رشيد ، لكن الحلفاء غلبوا عليهم واحتلوا القلعة ، ثم تقدموا يريدون الرحمانية

قال الجبرتي في حوادث شهر ذي الحجة سنة ١٢١٥^(١) : « وفيه أشيع أن الانجليز ومن معهم من العثمانيين ملسكوا نجر رشيد وأبراجها وحراروا من كان بها من الفرنسيين حتى أجلوهم عنها ودخلوها »

استطراد إلى قلعة رشيد

وأهميتها التاريخية

هي قلعة قديمة رُمها الفرنسيون خلال الحملة وأطلقوا عليها اسم قلعة « جوليان » Jullien ، وهو قائد لواء قتل في أوائل عهد الحملة الفرنسية ، وتعرف القلعة بهذا

الاسم في كتبهم ، وهى واقعة بالبر الغربى لفرع رشيد ، فى منتصف المسافة تقريبا بين رشيد والبوغاز ، وقد ورد ذكرها فى رحلات الافرنج قبل الحملة الفرنسية ، فوصفها المسيو سافارى Savary السائح الفرنسى خلال زيارته رشيد فى سنة ١٧٧٧ فقال إنها قلعة مربعة بها أربعة أبراج مركبة فيها المدافع وهى على بعد فرسخ شمالى رشيد على البر الغربى للنيل ، وذكر أن بالجهة المقابلة لها بالبر الشرقى قلعة أخرى ، وقال عن هاتين القلعتين إنهما كافيتان لمنع مرور السفن الحربية فى النيل وإن طبيعة بوغاز رشيد تجعل دخول السفن الحربية محفوفا بالخطر^(١) ، وذكرهما المسيو سونيني Sonnini فى رحلته سنة ١٧٧٧ ، وقال إن إحداهما كانت فى حالة تهدم ، ومدافعها لم تكن تصلح للضرب^(٢)

ويظهر لنا أن إهمال حكومة الممالك هو السبب فى تهدم هاتين القلعتين ، فقد شاهدتهما السائح الألمانى فانسليب Vansleb فى النصف الثانى من القرن السابع عشر سنة ١٦٧٣ ، أى قبل مشاهدة سافارى بمائة عام ، فقال عن القلعة القائمة بالبر الغربى إنها قلعة قديمة متينة البناء بها ٧٤ مدفا منها سبعة مدافع ضخمة ، أما القلعة الأخرى القائمة بالبر الشرقى فهى مسجد يحميه سبعة مدافع^(٣)

وقد شاهد المسيو جالوا Jallois فى الأيام الأولى من الحملة الفرنسية قلعة رشيد القديمة وكانت فى حالة تهدم وقال عنها :

« مررنا على بقايا القلعة القديمة التى كانت معدة لحراسة مصب النيل وهى التى رمت بعد ذلك وسميت قلعة جوليان ، وهذه القلعة هى التى هاجمها الانجليز فى ٩ ابريل سنة ١٨٠١ ودافعت عنها حاميتها الفرنسية دفاع الأبطال إلى أن سلمت فى ٢٩ ابريل^(٥) .

وشهد المسيو فيفان دينون Vivant Denon هاتين القلعتين سنة ١٧٩٨ ، كما ذكر

-
- (١) كتاب (رسائل عن مصر) المسيو سافارى
 - (٢) رحلة فى الوجه البحرى ومصر العليا المسيو سونينى .
 - (٣) رحله فى مصر للرحالة فانسليب
 - (٤) من مهندسى الطرق والجسور فى عهد الحملة الفرنسية .
 - (٥) كتاب تخطيط مصر الجزء الثامن عشر .

ذلك في كتابه (١) ، ورسمهما ، وقال إنه يقدر أن عهد بنائهما يرجع إلى ثمانئة سنة ، ووصفهما وقت أن شاهدهما فقال عن القلعة الغربية إنها حصن كبير مربع مقام على زواياه أربعة أبراج ضخمة ومركب بها مدافع طول الواحد منها ٢٥ قدماً ، أما القلعة الشرقية فقال عنها إنها مسجد (كما وصفها فانسليب سنة ١٦٧٢) وأمامه بطارية متخربة من المدافع .

وقد جئنا إلى هذا الاستطراد أن قلعة رشيد (أو قلعة جوايان كما يسميها الفرنسيون) أهمية تاريخية كبيرة ، لأن في أنقاضها اكتشف المسيو بوشار Bouchard أحد ضباط الحملة الفرنسية أثناء الحفر والترميم بالقلعة في شهر أغسطس سنة ١٧٩٩ الحجر المشهور المسمى (حجر رشيد) ، وهذا الحجر كان مفتاح اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية) ، فقد وجدت عليه كتابة باللغة الهيروغليفية وتحتها كتابة أخرى مصرية بالالف الم معروف بالعامى أو الديموطيكي ، وتحت هذه الكتابة ثالثة باليونانية ، فنقل هذا الحجر الأثرى إلى دار المجمع العلمى بالقاهرة أثناء الحملة الفرنسية ، ثم أخذه الجنرال هتشنسون قائد الجيش الانجليزى عند جلاء الفرنسيين ، ووضع في المتحف البريطانى بلندن ، ولا يزال به إلى اليوم ، وهذا الحجر هو الذى حل رموزه العلامة الفرنسى شامبوليون Champollion مكتشف تفسير اللغة المصرية القديمة سنة ١٨٢٢ .

قطع سد أبو قير ، وعزلة الاسكندرية

تراجع الجنرال (منو) كما قدمنا إلى الاسكندرية بعد هزيمته في معركة كانوب ، وأخذ يستعد للدفاع عنها ، على أن مركزه بات مزعزعا وخاصة بعد أن قطع الجنرال هتشنسون سد أبو قير (٢) ليعزل الإسكندرية ويمنع ورود المياه العذبة إليها . كان سد أبو قير يفصل بحيرة أبو قير القديمة عن بحيرة مريوط ، وفوق هذا السد تجرى ترعة الاسكندرية (٣) ، فلما قطع السد تنفست التربة وطلعت مياه البحر

(١) رحلة في الوجه البحرى ومصر العليا أثناء حروب الجنرال بوناپارت الجزء الأول .

(٢) ابريل سنة ١٨٠١ |

(٣) انظر خريطة (بين الاسكندرية وأبو قير) ص ٧٥

التي كانت تغذى بحيرة أبو قير على بحيرة مريوط (١) فغمرتها بالمياه ، وكانت بحيرة مريوط قبل هذا القطع قليلة المياه تكاد تكون جافة لعدم اتصالها بالبحر ، ولم تكن تصل إليها إلا مياه الأمطار في الشتاء وميساه النيل من ترعة الإسكندرية إذا زاد الفيضان ، فلما قطع السد أخذت مياه البحر تطفئ على بطاح مريوط فغمرتها وخربت عدداً كبيراً من القرى والبلاد أحصاها المهندس جرانيان لوبيير (٢) بثلاثين قرية ، وانقطعت مواصلات الاسكندرية بالداخل ولم يبق للفرنسيين طريق مسلوكة سوى طريق الصحراء الشافة (صحراء مريوط) وأصبحت محاطة بالمياه شمالاً وجنوباً ، وقد أشار الجبرتي إلى قطع سد أبو قير وحصار الاسكندرية في موضعين ، الأول في حوادث ذى القعدة سنة ١٢١٥ فقال : « وأخبر المخبرون أن الانكليز أطلقوا حبوس المياه الملحة حتى أغرقت طرق الاسكندرية وصارت جميعها لجة ماء ولم يبق لهم طريق مسلوكة إلا من جهة العجمي إلى البرية (الصحراء) وأن الانكليز تترسوا قبالحم من جهة الباب الغربي (غربي الإسكندرية) » ، وقال في حوادث محرم سنة ١٢١٦ : « أن الأخبار تواترت بأن العساكر الشرقية (الأتراك) وصلت أوائلها إلى بنها وطحلا بساحل النيل وأن طائفة من الانكليز رجعوا إلى جهة اسكندرية ، وأن الحرب قائم بها ، وأن الفرنسيات محصورون بداخل الاسكندرية ، والانكليز ومن معهم من العساكر يحاربون من خارج وهي في غاية المنعة والتحصين ، وأن الانكليز بعد قدومهم وطلوعهم إلى البر ومحاربتهم لهم المرات السابقة أطلقوا الحبوس عن المياه السائلة من البحر المالح إلى الجسر المقطوع حتى سالت المياه وعمت الأراضي المحيطة بالإسكندرية وأغرقت أطيافاً كثيرة وبلاداً ومزارع ، وأنهم قعدوا في الأماكن التي يمكن الفرنسيين النفوذ منها بحيث أنهم قطعوا عليهم الطرق من كل ناحية »

معركة الرحمانية (٩ مايو سنة ١٨٠١)

والزحف على القاهرة

كانت الحامية الفرنسية في الرحمانية أضعف من أن تقاوم هجوم الجيش العثماني

(١) كانت بحيرة أبو قير تتصل بالبحر بواسطة فتحة اسمها (المعديّة) ومن هنا سماها الفرنسيون (بحيرة المعديّة) وقد أمر محمد علي باشا بسد هذه الفتحة وأنشأ جسراً عالياً لهذا الغرض لكي لا تنفخ مياه البحر على ترعة الحمودية وقد أخذت مياه البحر تنحسر عن البحيرة إلى أن صار معظمها الآن أراضي زراعية ، وبلاحظ أن فتحة بحيرة أدكو الموجودة إلى اليوم تسمى أيضاً (المعديّة)

(٢) أحد مهندسي الحملة الفرنسية . كتاب تخطيط مصر الجزء الثامن عشر .

الانجليزى القادم من رشيد ، ولم يكن فى استطاعة الجنرال بليار أن يرسل إليها المدد من القاهرة لأن القوات التى تحت قيادته لم تكن فى ذاتها كافية للدفاع عنها ، وقد أرسل الجنرال (منو) من الإسكندرية كتيبة من الجنود بقيادة الجنرال فالنتان Valatin لإمداد حامية الرحمانية ، لكنها لم تكن تكفى لنجدة ، فأخذ إليها فرقة من الجنود بقيادة الجنرال لاجرانج Lagrange رئيس أركان حربه ، وكان موقع الرحمانية على جانب عظيم من الأهمية لامتناع حاميتها بالقلعة التى أنشأها الفرنسيون بها ولسكرتها صلة الاتصال بين جيش القاهرة وجيش الإسكندرية ، وإذا سقطت فى يد الحلفاء انقطع الاتصال تماماً بين الجيشين ، لذلك اعتزم الفرنسيون الدفاع عنها جهد المستطاع وتحصنوا فيها وفى (فوه) و (العطف) (١) .

بدأ الجنرال هتشنسون يتحرك من رشيد فى أوائل مايو قاصداً الزحف على الرحمانية بعد أن كلف المساجور جنرال كوت Coot المراقبة بقوة كافية أمام الإسكندرية لمنع الجنرال منو من الخروج منها .

بلغ عدد الجيش الفرنسى فى الرحمانية والعطف وفوه بعد المدد الذى تلقاه من الإسكندرية نحو خمسة آلاف بقيادة الجنرال (لاجرانج) ، فهاجم الأتراك والانجليز مواقعهم تعاونهم السفن المدفعية الانجليزية التى دخلت النيل من بوغاز رشيد ، وكان الجنرال لاجرانج مرابطاً فى العطف ، فأدرك حرج موقعه ، فأخلاها ، وانسحب إلى الرحمانية بقصد الامتناع فيها ، لكن قوات الجيش الزاحف والسفن الانجليزية التى رافقت الجيش جعلت كل مقاومة غير مجدية ، فأخلى الجنرال لاجرانج الرحمانية ليلة ١٠ مايو بعد مقاومة ضعيفة ، واضطر أن يترك بها سفنه وما عاينها من الذخائر والأقوات .

احتل الانجليز والأتراك الرحمانية وفلعتها واستولوا على السفن الفرنسية ، وكان احتلالهم لهذا الموقع بعد ثلاثة وستين يوماً من نزولهم إلى أبو قير ، ومن ذلك يقين مقدار البطء الذى سارت به الحملة العثمانية الانجليزية رغم ضعف القوات التى حاربتها .

وقد ذكر الجبرتي نبأ احتلال الرحمانية في حوادث شهر محرم سنة ١٢١٦ (١) قال : « وفيه حضر جملة من عساكر فرنساوية من جهة بحرى وتوانرت الاخبار بوصول القادمين من الانكليز والعمانية إلى الرحمانية وتملكهم القلعة وما بالقرب منها من الحصون السكائنة بالمطاف وغيره ، وذلك يوم السبت خامس وعشرين الحجة » .

تراجع الجنرال لاجرانج بجنوده إلى القاهرة ، وانقطعت المواصلات بين مصر والاسكندرية ، وسامت حالة الجيش الفرنسى فى كليهما ، واشتدت المجاعة فى الاسكندرية لانقطاع مواصلاتها بالداخل ، ثم واصل الانجليز ولأتراك سيرهم على شاطئ النيل وساروا قاصدين القاهرة .

انتقام منو من خصومه

وفى خلال ذلك كان الجنرال (منو) بالاسكندرية منهمكا فى الانتقام من قواد جيشه الذين كان يضطغن عليهم من عهد قيادة كليب ، وفى مقدمة هؤلاء القواد الجنرال (رينييه) ، فى ليلة ١٤ مايو حاصر منزله بقوة من الجنود وأصدر أمراً بنفيه إلى فرنسا ، كما أمر بنفى الجنرال داماس Damas والقوميسير دور D'Aure والادجوان جنرال بوييه Byoer ، فنفقوا على ظهر سفينتين نزحتا بهم عن مصر .

رواية الجبرتي

ذكر الجبرتي خبر نفي الجنرال رينييه والجنرال داماس فى كلامه عن معركة كانوب وهو وإن لم يذكر اسم المعركة إلا أن كلامه عنها والتاريخ الذى أورده فيها يدل على أنه يعنىها بروايته ، وإليك ما كتبه فى هذا الصدد :

« وفى تاسع عشر ذى القعدة سنة ١٢١٥ (٢) سمع ونقل عن بعض الفرنسيين أنه وقع الحرب بين فرنساوية والانجليز وكانت الهزيمة على فرنساوية ، وقتل بينهم مقتلة كبيرة ، وانحازوا إلى داخل الاسكندرية ووقع بينهم الاختلاف ، واتهم منوسارى عسكر رينه وداماص ورابا منها مارابه ، وكان سبباً لهزيمته فيما يظن ويعتقد

فقبض عليهما وعزلهما من إمارتهما ، وذلك أن رينيه وداماس لما ذهبا على الصورة المتقدمة ونظر رينيه وأرسل من كشف على متاريس الإنسكيز فوجدها في غاية الوضع والاثمان ، فاجتمعوا للشورة على عاداتهم ، ودبروا بينهم أمر المحاربة فرأى سارى عسكر منو رأيه ، فلم يعجب رينيه ذلك رأى وقال إن فعلنا ذلك وقعت الغلبة علينا ، وإنما رأى عندى كذا وكذا ، ووافقه على ذلك داماص وكثير من عقلائهم ، فلم يرض بذلك منو ، وقال أنا سارى عسكر وقد رأيت رأى ، فلم يسعهم مخالفته ، وفعلوا ما أمر به ، ف وقعت عليهم الهزيمة وقتل منهم في تلك الليلة خمسة عشر ألفاً (١) ، وتنحى رينيه وداماص ناحية ، ولم يدخلا في الحرب بعسكرهم (٢) فاغتازل منو ونسبهما للخيانة والمخامرة عليه وتسفيهم لرأيه ، وأكد ذلك عنده أنهما لما حضرا إلى الاسكندرية أخذوا معهما أثقالهما وما كان لهما بمصر لعلهما عاقبة الأمر وسوء رأى كبيرهما ، فاشتد إنكاره عليهما ، وعزل عنهما العسكر ، وحبسهما ثم أطلقهما ، ونزلا إلى المراكب مع عدة من أكابرهم وسافرا إلى بلادهم .

زحف الجيش العثماني

معركة (الزوامل) — ١٦ مايو سنة ١٨٠١

أما الجيش العثماني الذي قدم من سورية بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا وعدده نحو عشرين ألف مقاتل فقد تحرك من العريش خلال شهر ابريل وتابع سيره دون مقاومة ، وأخلى الفرنسيون قطية والصالحية وبلبيس بعد أن نسفوا قلاعها والمخازن التي كانت لهم بها ، وارتدت حامياتها إلى القاهرة ، ولما وصل الصدر الأعظم إلى بلبيس عزم الجنرال بليار على أن يهاجمه بجيشه قبل أن يتفرغ احد الجيش الانجليزى العثماني القادم من رشيد ، وكان بليار يأمل أن يهزم الجيش التركى كما هزمه كليبر من قبل ، ولا سيما بعد أن زاد عدد جنوده بعودة جيش الجنرال لاجرانج إلى القاهرة

كان عدد الجنود الذين يقودهم بليار نحو عشرة آلاف مقاتل ، فترك بالقاهرة

(١) الصواب ألف وخمسة

(٢) الواقع أنهما قاتلا في المعركة ، وكان رينيه قائد الميمنة وداماس من قوادها

قوة من المشاة تحتل الجيزة والقلاع المشرفة على المدينة ، وعهد بقيادتهم إلى الجنرال الميرا Almeyras ، وسار ببقية جيشه لملاقاة الصدر الأعظم ، فوصل يوم ١٦ مايو إلى الزوامل في منتصف الطريق بين الحانكة وبابيس^(١) ، فاشتبك بطلائع الجيش العثماني فيها ودارت معركة بدأت بانتصار الفرنسيين وانتهت بهزيمتهم وتراجعهم إلى القاهرة وفي خلال ذلك استولى الأتراك على دمياط بعد أن انسحب منها الفرنسيون ، وأخلى الفرنسيون كذلك قلعة عزبة البرج وقلعة البرلس

تخرج موقف الفرنسيين في القاهرة موت مراد بك

امتنع الجيش الفرنسي في القاهرة واتخذ فيها خطة الدفاع ، وفكر الجنرال بليار منذ تجدد القتال في الاستنجد بحليف الفرنسيين مراد بك ، وطالب لإليه العمل بشروط الاتفاق المبرم بينه وبين كليبر ، فشرع مراد بك في إمداد بليار وسار برجاله إلى مصر ، لكنه لم يكده يصل إلى سوهاج حتى أصيب بالطاعون وأدركته الوفاة يوم رابع ذى الحجة سنة ١٢١٥ - ١٨ أبريل سنة ١٨٠١^(٢) ، ودفن بسوهاج عند الشيخ الماروف ، وقد نعاها الجبرتي في وفيات سنة ١٢١٥ هجرية ، ومن أبلغ ما قاله فيه : « أنه كان من أعظم الأسباب في خراب الإقليم المصري بما تجدد منه ومن بما يكره وأتباعه من الجور وانتور ومساخيته لهم ، فلعل لهم يزول بزواله » وكانت وفاته ضربة كبيرة أصابت آمال الفرنسيين ، لأنهم فقدوا بموته حايضا قويا كان يمكن أن يمدحهم بما لديه من حول وقوة ، وحزنوا عليه حزنا شديدا ، واختار المماليك عثمان بك الطنبورجي خلفا له واعتمده الفرنسيون خليفة لمراد بك وأميرا على الصعيد ، فأرسل هذا إلى بليار يعرب له عن ولائه وولاء المماليك للفرنسيين ، لكنه بعد ذلك نقض المعاهدة لما رأى كفة الانجليز والأتراك راجحة وانصل بأبراهيم بك زميله القديم الذي جاء صحبة الصدر الأعظم

(١) انظر خارطة (بين القاهرة - وبليس) ص ١٣٧

(٢) يوجد خلاف بين الجبرتي والمراجع الفرنسية في تاريخ وفاة مراد بك ، فالجبرتي يقول إن وفاته كانت رابع ذى الحجة سنة ١٢١٥ وهذا يوافق ١٨ أبريل سنة ١٨٠١ ، والمسبو مانجان يقول إنه مات في ٢١ مارس ، ورواية الجبرتي أرجح

انتشار الوباء

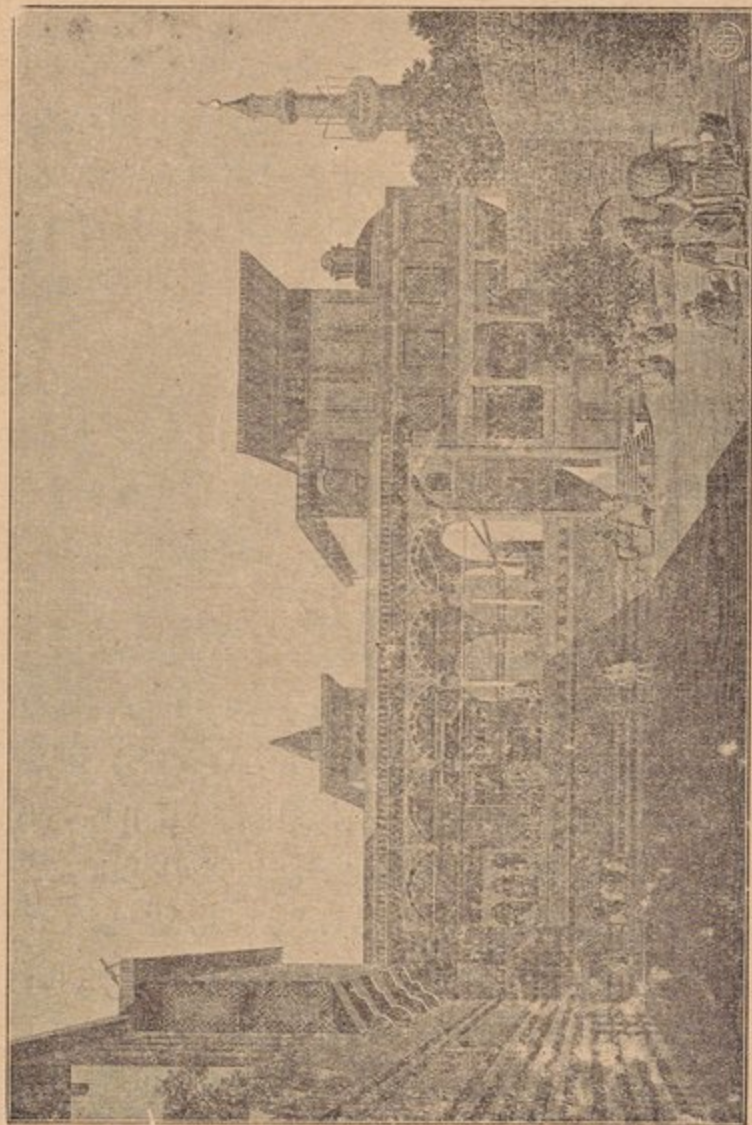
وازداد مركز الفرنسيين حرجا باستفحال فتك الطاعون في البلاد ، وخاصة في القاهرة والصعيد ، بدأ هذا الطاعون في شهر يناير ١٨٠١ واشتدت وطأته في أرائل ابريل . فكان يموت به في اليوم نحو مائة من الأهالي وعشرين من الفرنسيين . ومات من هؤلاء في القاهرة نحو خمسمائة بالرغم من الجهود التي بذلها أطباء الجيش الفرنسي في مقاومته . ولم يشهد الناس وباءا يحاكيه في شدة وطأته منذ وباء سنة ١٧٩١ المعروف بوباء اسماعيل بك . ويقول الجبرتي انه كان يموت بالطاعون من الفرنسيين الذين بالقلعة ثلاثون أو أربعون كل يوم « وينزلون بهم من كرثيلة القلعة على الأخشاب فيدفنونهم جماعات في حفرة عميقة خارج باب القرافة » ، ويقول المسيو جومار^(١) الذي شهد هذا الوباء ان فتسكه كان ذريعا فقد مات به في شهر واحد عشرة آلاف شخص من سكان القاهرة^(٢)

ووصف الدكتور لارى Larrey كبير جراحي الحملة الفرنسية هذا الوباء في مشاهداته عن الأمراض في مصر فقال انه أودى بحياة مائة وخمسين ألف نسمة من المصريين في القاهرة والوجه القبلي^(٣) . ولا نظن أن في هذا الإحصاء مبالغة وخاصة إذا رجعنا إلى ما ذكره الجبرتي عن استفحال في الصعيد . فقد أورد رسالة عنه للشايخ حسن المطار الذي كان نزيل أسيوط وقتئذ قال فيها ما خلاصته : « انه وقع في قطر الصعيد طاعون لم يعهد ولم نسمع بمثله وخصوصا ما وقع منه بأسيوط وقد انتشر هذا البلاء في جميع البلاد شرقا وغربا وشاهدنا منه العجائب في أطواره وأحواله وذلك إنه أباد معظم أهل البلاد وكان أكثره في الرجال سيما الشبان والعطاء وكل ذى منقبة وفضيلة ، وأغلقت الأسوار وعزت الأكفان وصار معظم الناس بين ميت ومشيع ومريض وعائد ، وكان مبدؤه من سبعين

(١) أحد مهندسي الحملة الفرنسية انظر ترجمته بالجزء الأول ص ١٢٦ (من الطبعة الأولى)

(٢) كتاب تخطيط مصر الجزء التاسع عشر

(٣) كتاب تخطيط مصر الجزء الثالث عشر



سرای عثمان بك الطنبورجي خليفة مراد بك (انظر ص ٢٣٦)
وهي تمثل قصور المماليك بالقاهرة في ذلك العصر

سنة ١٢١٥ وأخذ في الزيادة في شهر ذى القعدة والحجة فكان يموت كل يوم بأسويوط خاصة زيادة عن الستمائة » (١)

اجتماع بليار بأعضاء الديوان

اجتمعت كل هذه الأسباب فكانت نذيرا للفرنسيين بانقراض حكمهم في مصر ، على أن الجنرال بليار أظهر الجلد أمام الشعب ، وتظاهر بأن في استطاعته مقاومة الجيوش الزاحفة على القاهرة ، وعاد يتهدد ويتوعد وينذر المصريين بالانتقام والنسك إذا جنحوا إلى الثورة ، فاستدعى أعضاء الديوان في شهر محرم سنة ١٢١٦ وخاطبهم على لسان المترجم قائلا :

« نخبركم أن الخصم قد قرب منا ، ونرجوكم أن تسكنوا على عهدكم مع الفرنسيين ، وأن تنصحوا أهل البلد والرعية بأن يكونوا مستمرين على سكوتهم وهدوئهم ، ولا يتدخلوا في الشر والشغب ، فإن الرعية بمنزلة الولد . وأنتم بمنزلة الوالد ، والواجب على الوالد نصح ولده وتدريبه على الطريق المستقيم التي يكون فيها الخير والصلاح ، فأنهم إن داموا على الهدوء حصل لهم الخير ونجوا من كل شر ، وإن حصل منهم خلاف ذلك نزلت عليهم النار وأحرقت دورهم ، ونهبت أموالهم ومتاعهم ، ويتمت أولادهم وسبيت نسائهم ، وألزموا بالألوال والفرد (جمع فردة أي ضريبة) التي لا طاقة لهم بها . فقد رأيتم ما حصل في الوقائع السابقة . فاحذروا من ذلك فانكم لا تدرسون العاقبة ، ولا نسلككم المساعدة لنا ولا المماونة لحرب عدونا وإنما نطالب منكم السكون والهدوء لا غير » قال الجيبرتي فأجابوه بالسمع والطاعة وقولهم « كذلك » .

تقدم الحلفاء

اعتزم يوسف باشا بعد معركة الزوامل أن يتصل بجيش الجنرال هتشيون لينحرف الجيشان معا على القاهرة ، فواصل الجيش الإنجليزي تقدمه بالبر الغربي للثيل إلى أن بلغ امبابه ، بينما وصلت طلائع الجيش العثماني القادم من الشرق بقيادة يوسف باشا

إلى منية الشيرج (١) بالبر الشرقى للنيل ، والمراكب بينهما ، والتقى القائدان في معسكر الصدر الأعظم بالبر الشرقى للنيل ، وكان يصحب الصدر الأعظم وزير الخارجية العثمانية وإبراهيم بك أمير المالميك وطائفة من كبار موظفي الدولة ، وصحب الجنرال هتشنسون طائفته من ضباطه وحسين قبطان باشا ، وكانت المقابلة في غاية الود ، وضع القائدان فيها الخطة المشتركة للزحف على القاهرة ثم واصل الحلفاء تقدمهم ، ف تجاوز الجيش الإنجليزي (امباية) وبلغ الجيش العثماني (القبة) .

قطع الإنجليزي المسافة بين الرحمانية وامباية في أربعين يوماً ، وهي مدة طويلة ، ويرجع بعض المؤرخين هذا البطء إلى أن الجنرال هتشنسون كان ينتظر الجيش القادم من الهند بقيادة الجنرال بيرد Baird ، فإن هذا الجيش تأخر عن الموعد المضرول (٢)

ولما وصل الجنرال هتشنسون إلى الجزيرة جاءته كتيبة من جيش الجنرال بيرد انفصلت عن الجيش ونزلت بالسويس وجاءت إلى القاهرة بقيادة اللغنت كولونل لويو Luyod وتلقى مدداً آخر جاء من شواطئ أبوقير فاحتشدت قوات الإنجليزي على الشاطئ الأيسر للنيل وقوات يوسف باشا على الشاطئ الأيمن وأقام الإنجليزي جسراً من المراكب بشبرا لانهال الجيشين ، فبلغت قواتهما في ذلك الحين نحو أربعين ألفاً من المقاتلة

ولم يكن الجيش الفرنسي بالقاهرة يزيد على عشرة آلاف مقاتل على الأكثر صالحين للقتال موزعين على خط طويل يمتد من الجزيرة إلى حدود القاهرة شرقاً وشمالاً ومن مصر القديمة إلى بولاق

(١) غربي الوابلي السكبرى على نحو ربع ساعة منها بالقرب من شبرا واسمها كما في القرى (منية الأمراء) أنظر خريطة (بين القاهرة وبلبيس) ص ١٣٧

(٢) لم يشترك هذا الجيش في القتال ، فقد حشدته إنجلترا في الهند وسافر من صفاف الجنج في ديسمبر سنة ١٨٠٠ واخترق المحيط الهندي فالبحر الأحمر ونزل بالقصر وبقي بها شهراً ينتظر تعليمات القائد العام للجيش الإنجليزي الذي كان منهمكاً في قتال الفرنسيين ، ثم غادر ساحل البحر الأحمر سالكاً طريق وادي القصر فبلغ قناتاً ثم وصل إلى الجزيرة في شهر أغسطس سنة ١٨٠١ واستقر بها ثلاثة أسابيع وسار معظمه إلى رشيد بعد انتهاء الحرب وتسليم الجنرال منو ، فلم يخض غمار الحرب ، على أن الأمراض قد تسكت به كثيراً وخاصة الوباء الذي أصابه في قنا وفي طريقه منها إلى رشيد .

وغنى عن البيان أن مركز الجيش الفرنسى كان على جانب عظيم من الضعف لإزاء قوات الحلفاء وتحفز سكان القاهرة للانتفاض عليه .

المجلس الحربى الفرنسى

وقرار الجلاء عن مصر

أدرك الجنرال بليار ضعف مركزه فرأى أن يعقد مجلسا حربيا من قواد الجيش الفرنسى وكبار ضباطه كي يعرض عليهم الموقف الحربى ليقرروا ما يرونه ، اجتمع المجلس فى القلعة وعرض عليه بليار الحالة تفصيلا ، فشرح موقف الجيشين المتحاربين وقوات كل منهما ، وتكلم عن فتك الوباء بالجنود الفرنسية وعن النتيجة المحتملة للمقاومة ، ونوه بعدد جنود الحلفاء وانضمام أهل القاهرة إليهم عند اشتداد القتال ، واحتفظ برأيه فيما يجب عمله ، على أن أفواله كانت تنم عن ميله إلى التسليم وتجنب القتال ، وتكلم بعده الجنرال لاجرانج Lagrange رئيس أركان الحرب وهو من القواد الميالين إلى (منو) فقال إنه لا يصح الدخول فى مفاوضة مع الحلفاء قبل أن يأذن بذلك القائد العام لأن الاتفاق على تسليم خاص بجنود القاهرة هو تقرير لمبدأ الجلاء ، وهذا من اختصاص القائد العام ، ونصح بأن يكون التسليم بعد استنفاد كل وسائل المقاومة

ثم تكلم بعده الجنرال دنزولا Donzelot وكان قادماً من الوجه القبلى عارفاً بأساليب القتال فيه ، فأشار بانسحاب الجيش الفرنسى من القاهرة وامتناعه فى الصعيد واستمراره فى المقاومة هناك مستنداً على أن الوجه القبلى أصلح من الوجه البحرى لمقاومة الجيوش النظامية ، وأن فى استطاعة الجيش الفرنسى إرهاب الانجليز وإهلاك قواهم فى الصعيد إلى أن يتسنى للحكومة الفرنسية التفكير فى شأن مصر وإمداد الجيش الفرنسى بها ، وتكلم بعده بعض كبار الضباط وتعددت آراؤهم ، فعارض السكولونل دوباس Dupas قومندان قلعه القاهرة فكرة التسليم ، وقال باستمرار المقاومة فى القاهرة ، واتفق لاجرانج ودنزولا ودوباس على المعارضة فى فتح باب المفاوضات مع الانجليز والأتراك ، واعترض آخرون على هذا رأى قائلين انه من العبث انتظار ورود أوامر من الجنرال (منو) لأن الحالة خطيرة تدعو إلى التعجيل فى اتخاذ قرار بشأنها لأن الانتظار ربما يودى إلى استفحال الضرر ووقوع الجيش الفرنسى فى الأسر وهناك لا يمكن الاتفاق على شروط للتسليم ، وقالوا إن الانسحاب إلى الصعيد

لا يؤدي إلى نتيجة ما لأن الانجليز والأتراك يستطيعون بقواتهم مطاردة الجيش الفرنسي إلى الشلالات ، وبعد أن تمت المناقشة أخذت الآراء ، فكانت الأغلبية الكبرى مؤيدة للمفاوضة مع الانجليز على قاعدة الجلاء ، ولم يشذ عن هذا الرأي سوى الجنرال لاجرانج وديرانتو Duranteau وفالنتان ودوباس

وبينما كان الجيش الانجليزى التركى يتأهب للهجوم على مواقع الفرنسيين فى القاهرة هجومًا عامًا ، جاء مندوب من قبل الجنرال بليار إلى المعسكر الانجليزى يوم ٢٢ يونيه سنة ١٨٠١ يطلب وقف القتال وفتح باب المفاوضات على قاعدة الجلاء ، فقبل الجنرال هتشسون والصدر الأعظم هذا الطلب بارتياح ، وفى اليوم التالى اجتمع مندوبو الفريقين فى مكان أعد لهم ببر الجزيرة ، فحضر البرجادييه جنرال هوب Hope عن الجنرال هتشسون ، وعثمان بك عن الصدر الأعظم ، واسحق بك عن حسين قبطان باشا ، وعن الجنرال بليار كل من الجنرال موران Morand والجنرال دنزلو Donzelot والسكولونل تارير Tarayre

توقيع اتفاقية الجلاء

٢٧ يونيه سنة ١٨٠١

استمرت المفاوضات أربعة أيام ، وانتهت باتفاق على جلاء الجيش الفرنسى عن مصر ، ووقع المندوبون على هذا الاتفاق ، وتقتضى شروطه أن تجلو الجنود الفرنسية البرية والبحرية التى تحت قيادة الجنرال بليار عن مدينه القاهرة وقلاعها وقلاع بولاق والجزيرة وعن كل جهة تحتلها من الاراضى المصرية ، وأن يكون جلاء الجنود بأسلحتهم وأمتعتهم ومدافعهم وذخائرهم بطريق فرع رشيد ومن رشيد وأبو قير يبحرون إلى فرنسا على نفقة الحلفاء ، وأن يتم الجلاء فى أقرب وقت ممكن بحيث لا يزيد عن خمسين يوماً من يوم التصديق على الاتفاق ، وحدد للجلاء عن القاهرة وبولاق اثنى عشر يوماً

وتعهد قواد الجيش الانجليزى والتركى بتقديم المراكب اللازمة لنقل الجنود وأمتعة الجيش وأثقاله ، وأن ترافق الفرنسيين فى انسحابهم كتائب من الجيش الانجليزى والتركى لتقديم المؤونة اللازمة للجنود ، وتعهد الانجليز والأتراك أيضا بتقديم السفن اللازمة لنقلهم إلى ثغور فرنسا ، ونص الاتفاق (المادة ١١) على أن

المالكين من موظفي الإدارة وأعضاء لجنه العلوم والفنون تسرى عليهم أحكام الاتفاق ، ويتمتعون بالمزايا المخولة للعسكريين ، ويحق لهم أن يحملوا الأوراق التي ترتبط بعملهم وأوراقهم الخاصة والأشياء الأخرى التي تخصهم ، ونصت المادة ١٢ على أنه يجوز لأى مصرى أن يرافق الجيش الفرنسى فى الجلاء دون أن تصادر أملاكه أو تضطهد عائلته وذوو قريبه ، ولا يجوز اىذاء أى مصرى بما أظهره من الولاء للجيش الفرنسى مدة احتلاله للبلاد (مادة ١٣) ، ونصت المادة ٢٠ على أن هذا الاتفاق يبلغ إلى الجنرال (منو) بالاسكندرية ينهيه إليه أحد ضباط الجيش الفرنسى وله أن يقبله فيما يخص الجنود الذين معه بالاسكندرية وعليه أن يعلن بذلك قائد القوات البريطانية المرابطة امام الإسكندرية ، وقد عملت أربع نسخ من هذا الاتفاق ، ووقع عليه المندوبون بتاريخ ٢٧ يونيه سنة ١٨٠١ ، وصدق عليه فى اليوم التالى الجنرال هتشنسون القائد العام للجيش البريطانى ، والسكاتب ستفنسن بالنيابة عن اللورد كيث ، ويوسف باشا الصدر الأعظم ، والقبطان حسين باشا ، والجنرال بليار (١)

والظاهر أن نابليون لم ينقم على بليار لإبرامه تلك الاتفاقية ، بدليل أن الجنرال بليار نال رضا بعد عودته إلى فرنسا وحارب تحت لوائه فى حروب الإمبراطورية والمتأمل فى نصوص الاتفاق يجد أنه لا يختلف فى جوهره عن معاهدة العريش وهى المعاهدة التى رفضت الحكومة الانجليزية تنفيذها ونقضتها ثم عادت إلى قبول اتفاق لا يختلف عنها بعد أن سفكت الدماء وضاعت الأرواح وخربت البلاد وعم البلاء

إطلاق سراح المعتقلين

علم الناس فى القاهرة بنبا الصلح ، فقابلوه بابتهاج عظيم وأفرج الفرنسيون عن الأسرى العثمانيين ثم أطلقوا سراح المشايخ والأعيان المعتقلين فى القلعة وباقي المحبوسين من الفلاحين والعرب ، واستعد الجنود الفرنسيون للجلاء ونقل مهماتهم من القلعة وباقي قلاع المدينة ، ودعوا أعضاء الديوان للاجتماع لإبلاغهم بنبا الصلح ، فاجتمعوا يوم الثلاثاء ٣٠ يونيه سنة ١٨٠١ وحضر الميسو جيرار Girard قوميسير (وكيل) الديوان وأعان وقوع الصلح وعودة السلم ، ووعد بأن يتلو عليهم فى الجلسة

(١) نشرنا نص الاتفاق فى قسم الوثائق التاريخية ليرجع إليه القارىء إذا أراد زيادة البيان

المقبلة شروط الصلح، وطبعوا منشورات بالعربية والفرنسية تتضمن نص الشرطين الثاني عشر والثالث عشر من شروط الصلح وأصقوها بالأسواق ليطلع عليها الجمهور وفي يوم الجمعة ٢١ صفر انعقد الديوان وحضر المشايخ والمسيو جيرار ، فتلا المترجم شروط الصلح ، فقال الأعضاء هذه شروط عليها علامة القبول وهذا الصلح رحمة للجميع وسيكون الصلح العام ، فقال المسيو جيرار إنى أرجو أن يكون هذا الصلح الخاص مبدءاً للصلح العام فى أوروبا

آخر جلسة للديوان

ثم انعقد الديوان لآخر مرة يوم ٢٤ صفر سنة ١٢١٦ (١) فاجتمع المشايخ والتجار وبعض الوجاقلية والمسيو استيف Esteve مدير الشؤون المالية (ويسميه الجبرنى استيف الخازندار) والمسيو جيرار والترجمان روفائيل ، وكانت هذه جلسة الوداع ، فأظهر فيها الفرنسيون تلطفاً كبيراً مع الأعضاء ، وجاملهم الأعضاء كذلك فى جوابهم ، ومن غرائب المصادفات أن الجنرال منو كان يحفل توقيع الصلح وكان يظن وهو فى الإسكندرية أن الحرب مستمرة ، فأرسل إلى الجنرال بلبار رسالة مؤرخة ١٨ صفر برسم أعضاء الديوان وقد وردت هذه الرسالة قبل انعقاد آخر جلسة للديوان ، ومع أنها صارت لغواً بعد التوقيع على الصلح فإن المسيو جيرار أمر المترجم بتلاوتها على مسامع الأعضاء ، وهى تتضمن الإعراب عن أحسن تمنيات منو لأعضاء الديوان ، وينبئهم فيها بأن جيوش الجمهورية الفرنسية قد انتصرت فى أوروبا ، وعما قريب ستقتصر فى مصر ، وطلب إليهم الاعتماد على الوكيل جيرار وعلى المسيو استيف « المأمور بتدبير الأمور » ، وأوصاهم بزوجه السيدة زبيده وولده سليمان مراد ، وأبدى أسفه لوفاة مراد بك وأطرى فضائله وعزى الست نفيسة خاتون زوجته ، وختم كتابه بدعوته إلى الله تعالى « أن ينعم عليكم وعلى عيالكم فى الأيام البشرى والاقبال » ، وأمضاء « عبد الله جاك منو » ، ويقول الجبرنى إن الرسالة من تراكيب لوماكا الترجمان ، وقد تسلم المسيو جيرار بعد تلاوة الرسالة وأعرب عن تمنياته للبلد ، ثم أعقبه المسيو استيف مدير الشؤون المالية فتلا خطه طويلاً بالفرنسية وتلا الترجمان روفائيل عربيتها ، وهذه الرسالة هى آخر وثيقة رسميه نليت

في الديوان دفاعاً عن الحكم الفرنسي في مصر ، أعرب فيها المسيو د استيف عن نيات نابليون الحسنة نحو البلاد وأهلها ، وأن الفرنسيين يريدون الخير لمصر ، وأعرب عن أمله في أن يذكر المصريون مدة حكمهم بالخير ، وأن يكون هذا الفراق إلى حين ، وأن فرنسا لم تقصد من بجيتها إلى الديار المصرية إلا حب الخير لأهلها ، وأعرب عن أمله في أن تدرك الدولة العثمانية التي استرسلت في مخالفتها لانيجلترا أن فرنسا لم تسكن تقصد من الحملة الفرنسية إلا محاربة الانجليز وإحباط مساعيهم في السيطرة على البحار واحتكار متاجر العالم ، ولما انتهى من تلاوة الرسالة قال الأعضاء : « إن الأمر لله ، والمملك له ، وهو الذي يمكن منه من شاء » ، وكان ذلك ختام آخر جلسات الديوان

خلاصة تاريخ الديوان

طويت بهذه الجلسة صحيفة الديوان الذي أسسه الفرنسيون في مصر ، ولهذه المناسبة نرى أن نذكر هنا خلاصة ما فصلناه عن تاريخ الديوان والأدوار التي تعاقبت عليه الدور الأول — أسس نابليون أول ديوان بالقاهرة في ٢٥ يولييه سنة ١٧٩٨ وجعله مؤلفاً من تسعة أعضاء وأمر كذلك بإنشاء ديوان في كل مديرية ، ثم أسس (ديوانا عاما) وهو هيئة تتألف من مندوبين يمثلون القاهرة وسائر مديريات القطر المصري ، ولم يجتمع (الديوان العام) إلا مرة واحدة في عهد الحملة الفرنسية ، وقد بسطنا الكلام عن هذه الدواوين ونظامها وتاريخها في الفصل الثالث من الجزء الأول (ص ٩٥ وما بعدها من الطبعة الأولى)

الدور الثاني — ولما ثارت القاهرة ثورتها الأولى (أكتوبر سنة ١٧٩٨) أبطل نابليون ديوان القاهرة عقاباً لأهلها على ثورتهم ، ثم بدا له بعد إخماد الثورة أن يعيده على نظام جديد في ديسمبر سنة ١٧٩٨ ، فجعله من هيتين (الديوان العمومي) وهو مؤلف من ستين عضواً^(١) يمثلون سكان القاهرة على اختلاف

(١) تجد بالصحيفة ١٦ من هذا الجزء أسماء هؤلاء الأعضاء ، وإذا راجعت أسماءهم وعددهم فقد يلتبس عليك الأمر إذ تجد أن عددهم ٦١ ، واسكن حقيقتهم ستون ، لأن اسم أحد المحروقي تسكرر ضمن تجار البن والبهار ثم ضمن تجار البضائع التركية باسم السيد أحمد العقاد المحروقي ، وقد ورد هذا التسكرر في أصل البيان المنشور في جريدة كوربيه دليجت ، جريدة الحملة الفرنسية ، لكنه اسم واحد لشخص واحد ، فعدة الأعضاء ستون

طبقانهم ، و (الديوان الخصوصى) ويتألف من أربعة عشر عضواً ينتخبهم أعضاء الديوان العمومى ، وقد بسطنا الكلام على نظام الهيئتين فى الفصل الأول من الجزء الثانى (ص ١٥ وما بعدها)

أما دواوين الأقاليم فقد بقى نظامها كما وضعه نابليون من قبل .

وقد استمر هذا النظام فى مجلته متبعاً على عهد كليبر إلى أن أبرمت معاهدة العريش ، فأبطل الديوان ثم نقضت وتجددت الحرب واثارت القاهرة ثورتها الثانية (مارس - أبريل سنة ١٨٠٠) ، فلما أخذها الجنرال كليبر استمر الديوان معطلا وظل كذلك بقية مدة كليبر .

الدور الثالث — ولما قتل كليبر وخلفه الجنرال (منو) أعاد الديوان على نظام جديد ، إذ جعله هيئة واحدة مؤلفة من تسعة أعضاء ووسع فى اختصاصه كما فصلنا ذلك فى الصحيفة ٢٠٥ وما بعدها .

وهذا الديوان هو الذى استمر إلى حين جلاء الفرنسيين عن القاهرة .

جلاء الفرنسيين عن القاهرة

أخلى الفرنسيون قلعة المقطم وباقى القلاع والحصون والمتاريس وانتقلوا إلى الروضة وقصر العيني والجيزة استعداداً لنزولهم فى السفن التى أعدت لنقلهم بالنيل إلى رشيد تنفيذاً لشروط الصلح ، ودخلت الجنود العثمانية المدينة .

وفى ١٤ يوليه سنة ١٨٠١ (٤ ربيع الأول سنة ١٢١٦) أدخلوا قصر العيني والروضة والجيزة وأقلعت بهم المراكب وعددها ثلثمائة مركب إلى رشيد ، وبذلك تم جلاؤهم عن القاهرة وضواحيها ، وأخذوا معهم رفات الجنرال كليبر ، وساروا من رشيد إلى أبو قير ومن هناك أبحرت بهم السفن فى أوائل شهر أغسطس سنة ١٨٠١^(١) إلى فرنسا وجلوا نهائياً عن الديار المصرية .

وكان عددهم يوم جلاؤهم نحو ١٣.٠٠٠ رجل ، منهم ٩.٠٠٠ مقاتل صالحون

(١) أول ٢ و ٦ و ٩ و ١١ أغسطس سنة ١٨٠١

للقِتال والباقيون من الجنود المرضى والرجال الملكيين ، وبذلك تم جلاء أكثر من نصف الجيش الفرنسي الذي كان يحتل مصر ، وبقى النصف الآخر في الإسكندرية ويقول نابليون في مذكراته إنه لما خرج الفرنسيون من القاهرة عجب الانجليز من كثرة عددهم وعتادهم واستعظموا الفوز الذي نالوه من غير قتال .

موقف (منو) في الاسكندرية

تم جلاء الفرنسيين عن القاهرة وآلت السلطة الفعلية فيها إلى قواد الجيش التركي والانجليزى ، وبقى فيها الجنرال هتشنسون عدة أيام يشرف على نظام الحكم الجديد ، ثم اعتزم العودة إلى الإسكندرية لمحاربة الجيش الفرنسي بها .

كانت الإسكندرية في حالة حصار من يوم انكسار الفرنسيين في معركة كانوب ، وخاصة من حين قطع سد أبو قير ، وقد ترك الجنرال هتشنسون قبيل زحفه على القاهرة قوة من الجنود بقيادة المايجور جنرال كوت Coot لتشد يد الحصار على الإسكندرية ، فساءت حالتها لقلة الزاد ونفاد المؤونة وغلاء الأسعار ، واستهدف الأتاهالى والجيش الفرنسي المجاعة .

وفي خلال ذلك وصلت البارجة الفرنسية « هليوبوليس » من نوع الفرقاطة إلى ثغر الاسكندرية يوم ٩ يونيه سنة ١٨٠١ ، فتجدد الأمل في نفوس الفرنسيين بقرب وصول المدد من فرنسا ، وظنوا أن البارجة القادمة هي طليعة الأسطول الفرنسي المنتظر ، والواقع أن نابليون بعد إخفاق الأميرال جانتوم في الوصول بأسطوله إلى المياه المصرية ورجوعه إلى طولون لام جانتوم على تقصيره في أداء مهمته وكلفه استئناف السفر لإمداد جيش فرنسا في مصر ، فأقنع بأسطوله للمرة الثالثة من طولون (١) وكانت التعليمات الصادرة إليه تقتضى أن يصل بالمدد إلى مصر ، وفي حالة مطاردة الأسطول الانجليزى يرسو في جهة من شواطئ أفريقية ليسير برأ إلى مصر ، وكان هذا المدد مؤلفاً من أربعة آلاف مقاتل مزودين بالذخائر والمهمات ، فلما اقترب جانتوم من الاسكندرية خشي الاصطدام بالبوارج الانجليزية ، فعاد أدراجهم

(١) يوم ٢٥ أبريل سنة ١٨٠١

محاذاً شواطئ أفريقية ، وانفصلت عنه البارجة هليوبوليس فوصلت سليمة إلى ميناء الإسكندرية^(١) وواصل جانتوم سيره إلى أن رسا ببنى غازى^(٢) وأراد أن ينزل الجنود إلى البر ، ولكن الأهالي حينما شعروا بهذه الحركة تسلموا جميعاً واستعدوا لقتال الفرنسيين عند نزولهم إلى الشاطئ ، فغشى الأميرال جانتوم عاقبة هذه المغامرة ورأى السلامة فى ارتداده ثانية إلى طولون .

نهت هذه المحاولة أذهان الانجليز إلى تشديد المراقبة على شواطئ مصر ، فشدوا الحصار البحرى على ثغر الإسكندرية ، فانقطع كل أمل للفرنسيين فى وصول المدد إليهم ، ولم يكن عدد جيشهم بها يزيد على سبعة آلاف مقاتل يقودهم الجنرال (منو) ويعاونه فى القيادة الجنرالات فريان ، ورامبون ، وسونجى Songis ودستانج ، وزايونشك ، والجنرال سانسون قائد فرقة الهندسة ، وكان الجيش الانجليزى العثمانى المحاصر للاسكندرية يزداد عدداً بما كان يتلقاه من المدد وخاصة بعد انتهاء الحرب فى القاهرة ، ومع ذلك أصر الجنرال (منو) على عناده ، ولما بلغه تسليم الجنرال بليار نار غضبه وأذاع منشوراً بين الجنود حمل فيه حملة شعواء على الجنرال بليار واعتبر تسليمه غريباً فى الشرف الحربى ، وأرسل إلى نابليون تقريراً يلقى على بليار تبعة الجلاء عن القاهرة ، على أنه لم يمض خمسون يوماً على تسليم القاهرة حتى أذعن الجنرال منو للتسليم بشروط أسوأ من الشروط التى قبلها الجنرال بليار .

وبيان ذلك أنه بعد أن تم جلاء الجنود الفرنسية عن القاهرة وأقلعت بهم السفن من أبو قير حشد الجنرال هتشنسون قواته حول الاسكندرية واستأنف قتال الفرنسيين المرابطين بها ، وشدت عليهم الحصار برأ وبحراً ، واحتل جنود الجنرال كوت Coot ساحل العجمى (غربى الاسكندرية) واستولوا على قلعة العجمى^(٣) ليلة ٢٢ أغسطس سنة ١٨٠١ ، ودخلت السفن الانجليزية الميناء الغربى ، فصارت المدينة فى حصار محكم ، وتقدم الجنرال كوت فاحتل طابية القمرية (غربى القبارى) بعد قتال شديد .

(١) يوم ٩ يونيه سنة ١٨٠١

(٢) بطرابلس الغرب

(٣) بجزيرة العجمى . انظر الجزء الأول من ١٦٥ و ٢٤٣ من الطبعة الأولى .

أشار الجبرتي إلى هذه الوقائع بقوله : « وفي يوم الأحد ٢٠ ربيع الثاني سنة ١٢١٦ (يوافق ٣٠ أغسطس سنة ١٨٠١) وردت أخبار من الاسكندرية بتملك العساكر الإسلامية والانجليزية متاريس الفرنسية وأخذهم المتاريس التي جهة العجمي وباب رشيد وجانباً من اسكندرية القديمة ، وتخطت المراكب وعبرت إلى الميناء وأن الفرنسية انحصروا داخل الأبراج وأخذ منهم نحو المائة وسبعين أسيراً وقتل منهم عدة وافرة ووقعت بين الفريقين مقتلة عظيمة لم يقع نظيرها ، وقتل الكثير من عساكر قبطان باشا وكذلك من الانجليز ، ثم انجلت الحرب عما ذكر فلما ورد الخبر بذلك ضربوا عدة مدافع وسر الناس بذلك . »

اشد الضيق بالحامية الفرنسية وفتسكت بها الأمراض ونفذت الأقوات حتى اضطروا أن يأكلوا لحوم الخيل الهزيلة ، ولم يبق من الحامية من يصلح للقتال أكثر من سبعة آلاف مقاتل يحاربون وهم على تمام الاعتقاد بأنها حرب عقيم لا تؤدي إلى نتيجة ، وأدرك القواد الذين تحت إمرة (منو) أن إطالة القتال ليس فيها إلا سفك الدماء ، فانفقوا على مفاتحته في وقف القتال ، فقابله الجنرال رامبون يوم ٢٥ أغسطس سنة ١٨٠١ وشرح له خطر الموقف وعقم الاستمرار في المقاومة وضرورة الجلاء عن الإسكندرية ، وعلم منو أن هذا هو رأي قواد الجيش ، فالت نفسه إلى المعاوضة ووقعت حادثة كان لها تأثير كبير في نفس منو جعلته يجمع إلى كف القتال ، ذلك أن زوجته المصرية وابنها وحاشيتها كانوا في القاهرة حينما جلا الفرنسيون عنها ، فطلبت من السلطات الانجليزية السماح لها باللاحاق بزوجها الجنرال في الإسكندرية ، فسهل لها الجنرال هتشنسون الوصول إلى الثغر ووصلت سالمة هي وحاشيتها ، فكان لهذا العمل الانساني أثر كبير في نفس منو .

المفاوضة في الجلاء

وأخيراً أرسل منو اثنين من ياورانه يوم ٢٦ أغسطس الساعة الرابعة بعد الظهر إلى الجنرال هتشنسون والجنرال كوت يطلب وقف القتال ثلاثة أيام ريثما يعد طلب التسليم ، فأجابه الجنرال هتشنسون إلى هذا الطلب ، وفي خلال هذه المدة دعا الجنرال منو قواد الجيش الفرنسي إلى الاجتماع في مجلس حربي على مثال المجلس الذي عقده الجنرال بليار في القاهرة قبل التسليم ليقرر قراراً حاسماً في الحالة ، فاجتمع المجلس الحربي بوكالة فرنسا بالاسكندرية يوم ٢٨ أغسطس سنة ١٨٠١ برئاسة

الجنرال منو وعضوية القواد فريان Friant ورامبون Rampon ، وسونجي Songis ، ودستايج Destaing ، وزايونشك Zayonchek ، وفوجيير Fugiere ، وسانسون Sonson وفولثرييه Faultrier ، وبوسار Boussart ، ودلجورج Delegorgue ، ولفيبر Lefebre ، ودارمنيك Darmagnac ، وهبلر Hepler ، ومدير مهمات الجيش سارتلون ، ومدير مهمات البحرية لروا Le Roy ، وقومندان الميناء ريشيه Recher ، فتداول المجلس في الموقف واستقر رأيه على أن الحالة لا تسمح باستمرار الدفاع عن الاسكندرية لأن نسبة الحامية إلى القوات التي تحاصرها كنسبة واحد إلى عشرة ، ولأن الحلفاء يحاصرون المدينة برأ وبحرا ولهم في البحر أربعون بارجة مخصصة للحصار فضلا عن أن الأمراض قد فتكت بالحامية ونفدت القوات من المدينة وانقطع ورود المياه العذبة إليها ، وعلى ذلك قرر المجلس تكليف الجنرال منو مفاوضة قواد جيوش الحلفاء على قاعدة جلاء الجيش الفرنسي عن الاسكندرية على أن تكون الشروط « مشرفة لرجال الجيش والملحقين به » .

وترك المجلس للجنرالات رامبون وفريان وسونجي وسانسون ودلجورج وضع شروط الجلاء على أن تعرض على المجلس ، فلما عرضت اختلف القواد بينهم وظهر الجنرال منو بمظهر المتردد ، وانتهى ميعاد الثلاثة الأيام المضروبة لتقديم طلب الجلاء ، فتهدد الجنرال هتشنسون باستئناف الهجوم على المدينة ، وأخيراً قبل مد الهدنة إلى صباح ٣٠ أغسطس ، وفي الموعد المحدد أرسل الجنرال منو شروط التسليم التي يرتضيها إلى الجنرال هتشنسون ، فأجاب هذا عليها بإرسال الشروط التي يقرضا الجيشان الانجليزى والتركى للجلاء .

اتفاقية الجلاء

٣١ أغسطس سنة ١٨٠١

تم الاتفاق على شروط الجلاء يوم ٣١ أغسطس سنة ١٨٠١ ووقع عليها كل من اللورد كيث والجنرال هتشنسون وحسين قبطان باشا والجنرال منو .

وتقتضى هذه الشروط أن يتم جلاء الجنود الفرنسية عن المدينة وقلاعها وملحقاتها في عشرة أيام من يوم التوقيع على الاتفاق ، وأن يسلم الفرنسيون السفن التي لهم ، وأن

تنقل الجنود الفرنسية على سفن الحلفاء وهمهم أسلحتهم وأمتعتهم وعشرة مدافع من مدافعهم ويسلوا باقي مدافعهم وذخيرتهم ثم نقلهم السفن إلى أحد الثغور الفرنسية بالبحر الأبيض المتوسط ، وأن يسلم أعضاء المجمع العلمي ولجنة العلوم والفنون جميع الآثار والمجاميع والخرط والرسوم والمخطوطات التي جمعوها في مصر إلى قواد الحلفاء .

رواية الجبرتي

قال الجبرتي في حوادث ٢١ ربيع الثاني سنة ١٢١٦ (١) : « وفيه ورد خبر من اسكندرية بانقضاء الحرب وطلب الفرنسيين الصباح بعد وقوع الغلبة عليهم وهزيمتهم وأخذ منهم عدة أسرى وانحصروا في الأبراج فأمنوهم وأجلوهم خمسة أيام آخرها يوم الخميس سابع عشرينه » .

وقال في موضع آخر : « وفي غايته (ربيع الثاني) عمل شنك ومدافع كثيرة وذلك لوصول خبر بتسليم الاسكندرية » .

جلاء الفرنسيين عن الإسكندرية

بدأ الفرنسيون يوم ٢ سبتمبر سنة ١٨٠١ يسلمون قلاع المدينة واستحكاماتها ومدافعها والسفن الحربية التي كانت لهم في الثغر ، ولما جاء دور تسليم مقتنيات أعضاء المجمع العلمي ولجنة العلوم والفنون احتج أولئك الأعضاء على حرمانهم ثمرة أبحاثهم وجهودهم واكتشافاتهم ، وأوفدوا ثلاثة منهم وهم جوفروا سان هيلير Geoffroni Saint Hilaire وسافيني Savigny ، ودليل Delille لمقابلة الجنرال هتشنسون لإقناعه بالعدول عن هذا الشرط ، فرفض طلبهم ، فأجمعوا رأياً على الامتناع عن تسليم تلك الكنوز العلمية . وأنذروا القائد الانجليزي بإحراقها بدلا من التفريط فيها وتسليمها ، وأبلغوه أنهم يلقون على عاتقه تبعة حرمان العلم من هذه النفائس في حالة إصراره على طلبه ، فبغت القائد الانجليزي أمام هذا التهديد ، وقبل مكرها أن يتنازل عن نقاذ هذا الشرط ، ورك لهم مقتنياتهم ، بيد أنه منعهم من أخذ العاديات التي أرادوا تهريبها معهم ، وحجزها بحجة أنها ملك مصر ، لكن مصر

حرمت منها ونقلها الانجليز إلى بلادهم وزانوا بها متاحفهم ، ومن هذه الآثار (حجر رشيد) المشهور الموجود إلى اليوم (سنة ١٩٤٧) في المتحف البريطاني بلندن وفي خلال الوقائع الحربية التي انتهت بها الحملة الفرنسية كانت المفاوضات بين فرنسا وانجلترا دائرة حول عقد الصلح بينهما لإقرار السلم في القارة الأوروبية ، وانتهت هذه المفاوضات بتوقيع مقدمات الصلح المعروفة بمقدمات لندن (أول أكتوبر سنة ١٨٠١) ، وهذه المقدمات تتضمن القواعد الأساسية التي بنيت عليها فيما بعد معاهدة الصلح المعروفة بمعاهدة أميان Amiens (٢٧ مارس سنة ١٨٠٢) التي أبرمت بين انجلترا وفرنسا وحليفاتها هولندا واسبانيا

جرت هذه المفاوضات والحرب قائمة في مصر بين الجيش الفرنسي والجيشين التركي والانجليزى ، وكان نابليون يعلم أن لا أمل له في إيجاد جيش الجنرال (منو) فرضى أن يكون أساس الصلح بالنسبة لمصر بجلاء الانجليز والفرنسيين معا ، فكان هذا الشرط أهم الشروط التي احتوتها (مقدمات لندن) أما الشروط الأخرى فخلاصتها أن تعيد انجلترا إلى فرنسا وحليفاتها هولندا واسبانيا الأملاك التي استولت عليها القوات البريطانية في البحار ما عدا جزيرة (سيلان) بالهند وجزيرة (ترينيتيه) (١) فقد استبقتهما انجلترا ورضيت بالجلاء عن الأملاك الأخرى وخاصة جزيرة مالطة

ومن مصادقات القدر أنه لم تسكد تنقضى ثمانى ساعات على إبرام (مقدمات الصلح) حتى ورد البريد إلى لندن يحمل نبأ تسليم الجنرال (منو) وتوقيعه شروط الجلاء عن مصر

أخذت السفن المقلدة للجنود الفرنسيين تقلع من الإسكندرية في خلال شهر سبتمبر سنة ١٨٠١ (٢) قاصدة إلى فرنسا ، وكان عددهم يوم رحيلهم ٧٢٠٠ من الجنود و ١٥٠٠ من البحارة و ١٤٠٠ من المرضى و ٦٨٠ من المملوكيين ، وكان آخر من أبحر منهم الجنرال (منو) الذي أصيب بالطاعون في أواخر أيامه ، فغادر ثغر الإسكندرية يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٨٠١ (٣)

وبجلاء الفرنسيين عن الإسكندرية طويت صحيفة الاحتلال الفرنسي في مصر

(١) من جزر الانتيل بأمريكا وكانت تابعة لأسبانيا

(٢) يقول المسيو مالوس في يومياته إن جلاء الفرنسيين عن الاسكندرية وقع بين ١٤ و ٣٠

سبتمبر سنة ١٨٠١

(٣) لم ينقم نابليون على الجنرال (منو) أخطاءه في مصر بل أعلن رضاه عنه لتمامه إياه وأنعم عليه في عهد الامبراطورية بلقب (كونت) وعينه حاكما لليبونت في إيطاليا ثم حيث مات بها سنة ١٨١٠

افضل الثالث عشر

نتائج ظهور العامل القومي

على مسرح الحوادث السياسية

المعنا في مقدمة الكتاب إلى أن بدء الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث يرجع إلى أواخر القرن الثامن عشر ، وأن أول دور من أدوارها هو عصر المقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر ، وقلنا في بيان هذه الحقيقة : « بدأ العامل القومي يظهر على مسرح الحوادث السياسية خلال الحملة الفرنسية ، ذلك حين نهضت الأمة لمقاومة الاحتلال الفرنسي بكل ما أوتيت من حول وقوة ، وجادت بكل تضحية ، واحتملت ضروب العنت وصنوف الأذى لتتخلص من احتلال الفرنسيين ، وظل العامل القومي محتفظاً بقوته بعد جلاء الجيش الفرنسي ، فلم يستطع الترك ، ولا المماليك ، ولا الانجليز ، أن يهزموه ، أو يقهروه ، أو يبعدوه عن الميدان ، وكان من نتائجه بعد انتهاء الحملة الفرنسية ثورة الشعب على حكم المماليك ، ثم على الوالي التركي ، ثم المناداة بمحمد علي والياً مختاراً على مصر ، ثم إخفاق الحملة البريطانية التي جردتها انجلترا لتحقيق أطماعها في وادي النيل ، وهزيمتها في رشيد والحماة » (١) .

ولقد فصلنا في الجزء الأول والفصول التي مرت بك من الجزء الثاني مبلغ مقاومة الأمة للاحتلال الفرنسي ومدى الحركات الشعبية التي حدثت في خلال تلك السنوات ، فانهينا من ذكر النتائج الأولى لظهور العامل القومي ، والآن فلنتكلم عن النتائج التي أعقبت جلاء الفرنسيين ، ونمهداً لهذا البيان يجدر بنا أن نوضح الحالة السياسية في مصر بعد انتهاء الحملة الفرنسية .

(١) الجزء الأول (ص ٥ من الطبعة الأولى و ٧ من الطبعة الثالثة) ، و (الحماة) واقعة بالبر الغربي للنيل جنوبي رشيد ، وتجد موقعها بالخرطة المنشورة ص ٥٦ من الجزء الثاني

الحالة السياسية في مصر

بعد جلاء الفرنسيين

جلا الفرنسيون عن مصر بعد احتلال ثلاثة أعوام وشهرين ، فتنازع السلطة في البلاد ثلاث قوات مختلفة المصالح متباينة الأغراض ، اتحدت وقتنا ما على محاربة الفرنسيين ، ولما تم لها النصر عليهم بدأت كل قوة تعمل على تحقيق أطماعها الخاصة في وادى النيل

هذه القوات الثلاث هي : الأتراك ، والانجليز ، والمماليك

الأتراك

تطلعت تركيا إلى بسط حكمها المطلق في مصر بحجة أنها فتحتها بحد السيف ، وأرادت أن تجعل منها ولاية أو عدة ولايات تحكمها كما كانت تحكم ولايات السلطنة العثمانية بولانها الذين لم تر البلاد منهم منذ عهد الفتح العثماني سوى الظلم والفوضى وسوء الإدارة

أرادت تركيا أن تستخلص مصر لنفسها ، لذلك استقر عزمها على محاربة المماليك والقضاء عليهم حتى لا ينازعوها سلطة الحكم في البلاد ، فكانت تعليماتها للصدر الأعظم يوسف باشا ضياء تقضى بإبادة بقية المماليك كيلا تقوم لهم قائمة ، أو لإبعادهم عن مصر وإسكانهم في ولاية أخرى من ولايات السلطنة العثمانية

كانت القوات العثمانية في مصر مؤلفة من جيشين ، الجيش الأول وعدده نحو ٢٥ إلى ٣٠ ألف مقاتل بقيادة الصدر الأعظم ، ويتألف من الانكشارية وحرس الوزير والجنود الذين حشدتهم في سورية ، والمعسكر العام لهذا الجيش في القاهرة ، وجنوده تحتل العاصمة ومعظم بنادر مصر الوسطى والصعيد كبنى سويف والمنيا وأسيوط

أما الجيش الثاني فكان مرابطاً شمالى الدلتا بقيادة حسين قبطان باشا قومندان العمارة العثمانية التي كانت راسية في خليج أبو قير ، وعدد هذا الجيش نحو ستة آلاف مقاتل معظمهم من الأرنؤود والانكشارية يحتلون المواقع القريبة من مرسى العمارة

الانجليز

كانت انجلترا تطمع في أن تبسط نفوذها في وادى النيل وتحتل بعض المواقع المهمة على شواطئها في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر تتضمن لنفسها السيادة في البحار وترقب طريقها إلى الهند كما سبق لنا بيان ذلك (ص ٢١١) ، وكان الجيش الانجليزى فى مصر مؤلفا من ستة عشر ألف مقاتل بقيادة الجنرال هتشنسون يحتلون الاسكندرية ورشيد ودمهور ويلحق به الجيش الذى قدم من الهند بقيادة الجنرال بيرد Baird وعدده نحو ستة آلاف مقاتل معسكرين فى الجزيرة .

كانت انجلترا ترمى إلى تخليد احتلالها لتلك المواقع ، وقد احتلتها مرتكئة على معاهدة التحالف المعقودة بينها وبين تركيا فى ٥ يناير سنة ١٧٩٩ ، على أنها لم تكن ترمى من هذه المعاهدة إلى طرد الفرنسيين من مصر فحسب ، بل كانت لها أطماع أخرى تضمهرها لواءى النيل ، ومع أن المعاهدة كانت مقصورة على ضمان الحكومة البريطانية سلامة أملاك السلطنة العثمانية بلا استثناء كما كانت قبل الحملة الفرنسية على مصر ، لكن اللورد إلجين Elgin سفير انجلترا المفوض فى الاستانة توصل إلى إضافة شرط ملحق بالمعاهدة وهو : أن الجيش الانجليزى لا يجلو عن مصر إلا بعد استئذان الأمن فى ربوعها .

فالحكومة الانجليزية لم تضع هذا الشرط الإضافى عبثا ، بل كانت ترمى إلى التذرع به لتعطيل أجل احتلالها للبلاد ، ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، وما أشبه هذا النص بالحجج التى تذرعت بها بعد ثمانين عاما لتسيغ لنفسها احتلال مصر سنة ١٨٨٢ وتطيل أجل هذا الاحتلال ، والتاريخ يعيد نفسه .

الماليك

أما الماليك فقد كانوا يطعمون بعد انتهاء الحملة الفرنسية فى استعادة حكمهم فى مصر ، وحجتهم أنهم حكامها الأقدمون الذين دامت لهم البلاد السنين الطوال ، وقد فطنوا إلى أن الأتراك يأتمرون بهم ويريدون التخلص منهم ، فاتجهوا بأنظارهم إلى الانجليز يطلبون حمايتهم ويستمدون منهم المعونة لتحقيق أطماعهم ، وكانت خطة الانجليز حيال الماليك مغرية لهم على الاسترسال فى أوهامهم وآمالهم ، ذلك أن الجنرال هتشنسون سعى قبل أن يزحف على القاهرة فى ضم الماليك من خلفاء مراد بك

إلى صفوفه ، وكانوا في ذلك الحين موالين للفرنسيين بحكم اتفاق مراد - كليبر ، فوعدهم أن يعيد لهم سلطتهم القديمة في مصر إذا هم انضموا إلى جيوش الحلفاء ، فرأى للمماليك أن صفقة الانجليز أربح وأن يجمع الفرنسيين آخذ في الأفول فانتقضوا عليهم ونكثوا اتفاق مراد بك وانضموا إلى صفوف الانجليز ، وعزم هؤلاء على أن يتخذوهم صنائع لسياستهم في وادي النيل ، فأيدوهم وناصروهم ومالوهم على استعادة سلطتهم القديمة في مصر ، ولا عجب في ذلك فإن حكم المماليك قائم على الظلم والفوضى ، ومن مصلحة انجلترا انتشار الفوضى والمظالم في البلاد لتجد سبيلا لاحتلالها والتدخل في شئونها ، من أجل ذلك وثقت عرا المودة بين المماليك والانجليز واعتقد المماليك أن سلامتهم في الاستقلال بحمايتهم ، ولما انتهت الحرب بجلاء الفرنسيين أبدى الجنرال هتشنسون عطفا كبيرا على مطالب المماليك .

على أن المماليك تضعفت قوتهم وتحطمت شوكتهم في المعارك التي نشبت بينهم وبين الفرنسيين خلال الحملة الفرنسية ، ولم يبق منهم سوى عدد يتراوح بين ثلاثة آلاف وخمسة إلى أربعة آلاف مملوك بمافهم بضع مئتين من الأرقاء الذين اشتروهم من القوافل القادمة من سنار ، وضموهم إلى صفوفهم ، وبضع مئات من الفرنسيين^(١) الذين لم يرحلوا مع الجنود الفرنسية حين الجلاء وآثروا البقاء في مصر فانضموا إلى صفوف المماليك ، فمثل هذه القوة لم تسكر لتقف أمام قوة الجيش العثماني المرابط في مصر وخاصة بعد أن منعت الدولة جلب الرقيق من بلاد الشركس ، فنضب معين المماليك وحرموهم إكمال النقص الواقع في صفوفهم ، هذا فضلا عن عوامل الانقسام والتنافس التي كانت تضعف قوتهم وتصدع وحدتهم ، فإن التنافس القديم الذي كان بين حزبي إبراهيم بك ومراد بك قبل الحملة الفرنسية قد استمر بعد انتهائها ، فكان لكل منهما أنصار وشيعة من الاتباع والبكوات ، ولما مات مراد بك استمر الانقسام بين أنصار إبراهيم بك وخلفاء مراد بك ، وقد استخدمت تركيا هذا التنافس لتضرب المماليك بعضهم ببعض ، وعمل الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا وحسين قبطان باشا على تحريك هذا التنافس القديم ، فكان كل منهما يعد كل حزب من حزبي المماليك بأن سكونه السلطة والسيادة في مصر ، وكان أنصار إبراهيم بك مقيمين في القاهرة لأنهم قدموا صاحبة الجيش العثماني ، أما خلفاء مراد بك فقد اصطحب معظمهم حسين باشا القبان ومضى بهم إلى شمال الدلتا وعهد إليهم حراسة الجنود الفرنسية عند

(١) قدرهم المسيو فلكس مانجان في كتابه بثمائة .

جلائها عن القاهرة في طريقها إلى رشيد ، وبعد أن تم رحيل الجنود الفرنسية تخلفوا بالاسكندرية وأبو قير يتلقون الأوامر من حسين باشا القبطان بعيددين عن إبراهيم بك وأنصاره ، فهذا التباعد بين المماليك والتنافس القديم بين زعمائهم نكح في ضعفهم وقلة من حدهم ، وكان المماليك مختلفين كذلك في وجهة النظر السياسية ، ففريق منهم وهو الأغلب كانوا يرون السلامة في الاستقلال بحماية الانجليز يتخذونهم حماة وأولياء ، وعلى رأس هذا الفريق محمد بك الألفي ، وفريق آخر كان يرى الاستنجا بفرنسا ومنهم عثمان بك البرديسي ، وفريق ثالث يرى السكف عن القتال والتزام الحياد وموالة الأتراك وعلى رأسهم عثمان بك حسن ، وكان الألفي والبرديسي زعيمى المماليك المرادية (أتباع مراد بك) ، وكان لا إبراهيم بك حزب آخر يتبعه يتنافس البسكوات المرادية في الزعامة والسلطة ، على أن إبراهيم بك قد تضعضعت شوكته لكبر سنه فلم يكن له من الاحترام إلا ما كان جديراً به أشيخوخته وسابق سلطته .

فالتباعد بين المماليك ، والتنافس بين زعمائهم ، وأطماعهم الشخصية ، واختلاف وجهة نظرهم السياسية ، كل هذه الظروف مجتمعة كانت من الأسباب التي جعلت بانقراض دولتهم وإراحة مصر من حكمهم .

العامل القومى

تلك هى القوات التي تنازعت النفوذ والسلطة في مصر ، وهناك قوة رابعة ظهرت على مسرح النضال السياسى وأخذت تنمو ويشد ساعدها دون أن تأبه لها تلك القوات الثلاث ، أو تحسب لها حساباً ، على أنها القوة الثابتة الخالدة المؤيدة بحقوقها الشرعى في تقرير مصير البلاد ، تلك هى قوة الشعب المصرى .

بدأت هذه القوة تظهر في الميدان خلال السنوات التي قضاها الجيش الفرنسى في البلاد ، ظهرت الأمة بشخصية جديدة ، وروح فنية ، وعزيمة قوية ، كوثتها الحوادث والشدائد ، وصقلتها التجارب والآلام ، كانت هذه السنوات الثلاث بمثابة مران على النضال والكفاح السياسى وتطور في الحياة القومية ، رأت الأمة خلالها من الحوادث والانقلابات ما فتح أعينها وهز أعصابها واستثار فيها روح التطلع إلى المجد والعلا ، رأت نابليون بونابارت يخطب ودها ، ويشيد بعظمتها ، ويتملق كبرياءها القومى ، ويتغنى بماضيا ، ويعلم حقها في أن تحسك نفسها بنفسها .

ثارت في وجه الحكم الفرنسي غير مرة ، فاعتادت مقاومة الاضطهاد ومكافحة القوة المسلحة ، وألفت خوض غمار الوقائع والمعارك ، قاومت نابليون قاهر الملوك ومزائل العروش ، رأت خلاصة علماء فرنسا وأطبائها ومهندسيها يعرضون عليها آثار علمهم وفلسفتهم وحضارتهم وتجاريهم ، رأت علوماً وأفكاراً جديدة ، ومنشآت ونظماً حديثة ، رأت « ديواناً » مؤلفاً من صفوة أبنائها بعد أن كان الديوان القديم مقصوراً على المماليك ، أيقظت الحوادث فيها روح المقاومة الشعبية ، تلك الروح التي تنهض بالأخلاق وترقى بالآفكار ، وتفتق الأذهان ، وتثير البصائر ، وتغرس الفضائل في النفوس ، وأخذ ترادف الحوادث في خلال تلك السنوات الثلاث يمزق أستار الصمت والجمود التي كانت تحجب عنها نور الحياة والنشاط ، فلا غرو أن ظهرت الأمة المصرية العريقة في الحضارة والمدنية بشخصية جديدة ولتتها الحوادث ، وأن تفتح ميدان النضال السياسي بروح معنوية جديدة تختلف كثيراً عن حالتها القديمة ، وكذلك الأمم المستعدة للرقى تنطور نفسياتها وتجدد شخصيتها تحت تأثير الحوادث السياسية والانقلابات ، وهنالك يظهر مبلغ استعداد كل أمة للرقى ، ومقدار ما هو كامن في قرارة نفسها من المواهب الدفينة ، فالأمة المصرية التي ظلت السنين الطوال رازحة تحت نير الاستبداد لم تفقد مواهبها القديمة التي ورثتها عن المدنيات المتعاقبة ، بل كانت هذه المواهب كامنة تحت الرماد ، يعلوها الصدأ ، فما إن صدمتها الحملة الفرنسية حتى أخذت تبدو للعيان كما تُصقل المعادن ويَجلى جواهرها في لهب النار ، ونهضت الأمة في وجه الاحتلال الأجنبي تحمل بين جنبها قوة حيوية كبيرة ، ظهر الشعب المصرى في الميدان قوياً فتياً لا يميل للجهاد ولا ينكسر على الأعقاب ، ولما طويت صحيفة الغزوة الفرنسية ظل يناضل عن كيانه في وجه العوامل المشبطة والقوات المتألبة عليه ، وإذا تتبعنا التقلبات التي أعقبت جلاء الفرنسيين رأيت العامل القومى ذا أثر فعال في سير الحوادث وتطورها ، فهذا العامل الوليد الذي تمخضت عنه المقاومة المستمرة في عهد الحملة الفرنسية أخذ ينمو ويتوسع ويشد ساعده ، وأبى أن يعود إلى نظام الحكم القديم أو يكون مطية لأهواء الدول الطامعة في وادى النيل ، وجعل يتطلع إلى نظام للحكم أرقى من النظم التي رزحت تحتها البلاد السنين الطوال .

في خلال تلك السنوات ، وفي غمار المنازعات والأطماع المختلفة ، أخذ الشعب ينظر بعين السخط والمقت إلى عودة حكم المماليك وحكم الانراك معاً ، أما حكم المماليك

فلم يكن قد نسي مظالمه القديمة ، وما جره على البلاد من الخراب ، وأما الحكم التركي فقد ظهر من سيئاته ومظالمه في خلال السنوات التي أعقبت جلاء الفرنسيين ما جعل الشعب يكره أن يعود إلى نيره القديم ، وكانت الجنود العثمانية التي ساقنها تركيا إلى مصر خليطاً من أردأ عناصر السلطنة العثمانية ، مجردة من النظام والرقى والتهذيب ، يتوعدوا رؤساء جهلاء لم يألفوا من أساليب الحكم سوى الظلم والارتكاب ، ولم يكن لهم هم سوى النهب والتخريب والاستهانة بأرواح الناس وإرهاق الشعب بمختلف أنواع المظالم والمغارم ، كما ستراه مفصلاً فيما يلي ، فلا جرم أن كره الشعب حكم المماليك والأتراك وأخذ يدأب ويعمل للنخلص من كلا الحكامين معا .

قادة الشعب وزعماءه

ظهر للشعب في خلال تلك السنين زعماء معدودون كوتهم الحوادث وثقتهم التجارب ، فكان لهم فضل كبير في إظهار شخصية الأمة وتوجيهها إلى ما فيه خيرها وصالحها ، نالوا هذه الزعامة بما كان لهم من المقام المحمود بين الناس قبل الحملة الفرنسية وما أكسبهم اضطهاد الفرنسيين من المحبة والجلال . وما اشتهروا به من نصرة المظلوم وحماية الضعفاء في وجه القوة والظلم .

وقد ساعد على زيادة نفوذهم بعد جلاء الفرنسيين أن التنازع بين المماليك والأتراك قد أضعف مركز الفريقين ، فاستطاع الشعب في خلال هذا التنازع أن يكسب نفوذاً جديداً وسلطة جديدة ، وظهر لزعماء الشعب صوت مسموع في حكومة البلاد وتطور الحوادث وعزل الولاة وتعيينهم ، فالنفوذ الجديد الذي اكتسبه الشعب وزعماءه هو من أكبر مميزات سنوات الانتقال التي أعقبت الحملة الفرنسية .

فلنستعرض شخصية أولئك الزعماء الذين ملسكوا قيادة الشعب في دور من أهم أدوار حياته القومية ، ونخص بالذكر من كانوا أكثرهم عملاً وأكبرهم أثراً في سير الحوادث وتطورها .

السيد عمر مكرم

هو أكبر شخصية ظهرت بين رجالات مصر في فجر النهضة القومية ، كان أكبر زعماء الشعب نفساً ، وأكثرهم شجاعة وإقداماً ، وأعظمهم نفوذاً ، وأرفعهم كلمة ، فلا غرو أن نعدّه زعيم الزعماء ورئيس الرؤساء .

قادة الشعب وزعماءه

في فجر النهضة القومية



الشيخ نجي السدر الشراقي



الشيخ محمد السادر



الشيخ محمد الأمير



الشيخ مصطفى الصاوي



الشيخ سييمان الفيومي



السيد أحمد المحروقي كبير المختار



الشيخ محمد المردي

صور قادة الشعب وزعمائه في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، ومن لم نعثر على صورهم اكتفينا بكتابة أسمائهم داخل الاطار (تاريخ الحركة القومية الجزء ٢ ص ٢٥٩ وما بعدها)

لا نعرف الشيء الكثير عن مولده ونشأته ، ذلك لأن الجبرتي لم يترجم له كما ترجم لمعظم معاصريه ، لأن عادة الجبرتي أن يذكر تراجم الوفيات من رجالات مصر ، وهو لم يدرك وفاة السيد عمر مكرم ، ولذلك حررنا ترجمة وافية لهذا الرجل النبيل من قلم مؤرخ محقق كانت ميزته البحث والاستقصاء ، على أننا مع ذلك لم نحرم لمساهاب الجبرتي في سرد أعمال السيد عمر مكرم والأدوار الخطيرة التي قام بها على مسرح الحوادث السياسية .

والذي عرفناه من خلال تحقیقات الجبرتي أن السيد عمر مكرم أسيوطى المولد والنشأة ، ولد في أسبوط ونشأ فيها ، ولذلك يسميه في بعض المواطن السيد عمر الأسيوطى ، وقد تحققنا أنه من سلالة الحسن بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

كان نقيباً للأشراف في مصر قبل مجيء الحملة الفرنسية ، فهو بحكم توليه النقيبة في مقدمة رجالات مصر منزلة وجاها ، فلما جاء الفرنسيون ظهرت شخصيته الكبيرة ونفسيته القوية بما دعا الشعب إليه من التطوع للقتال وما بثه في نفوس الجماهير من روح المقاومة ، يدلك على ذلك ما ذكره الجبرتي عن حالة القاهرة قبل واقعة الأهرام بأربعة أيام من النداء بالثغیر العام وخروج الناس بالمتاريس استعداداً للمقاومة ، قال : « وصعد السيد عمر أفندى نقيب الأشراف إلى القلعة فأنزل منها بیرقا كبيراً أسمته العامة البیرق النبوی فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق وأمامه ألوف من العامة » . وهذا هو بعينه استنفار الشعب إلى التطوع العام لصد هجمات الفاتح المغیر والسير في طليعة المتطوعين للقتال ، فتأمل في حالة نقيب الأشراف النفسية وهو ينزل من القلعة ناشراً علم الجهاد يشق المدينة من شرقها إلى غربها وحوله الألوف من الناس ذاهباً بهم إلى بولاق تجاه امبابه حيث وقعت الواقعة ، إن هذه الحالة النفسية هي أرقى ما يصف به زعماء الشعب في ساعة الشدة ، وهي لا تقل نبلا عن الدعوة للتطوع العام التي بثها زعماء الثورة الفرنسية في نفوس الشعب الفرنسى حينما نادوا « إن الوطن في خطر » ، فالسيد عمر مكرم كان إذن في طليعة المتطوعين للقتال المدافعين عن القاهرة في وجه الاحتلال الفرنسى ، ولما وقعت الهزيمة في معركة الأهرام لم يرض البقاء في القاهرة بعد أن أصبحت تحت رحمة الغزاة ، ولم تلتن قناته لهم على الرغم من أنهم اختاروه لعضوية الديوان الأول كما مر بيان ذلك بالجزء الأول (١) ،

فرفض عضوية الديوان وهاجر إلى سورية وأبى العودة إلى القاهرة ، ولو هو عاد إليها لنال من احترام الفرنسيين وعطفهم ما يغرى النفوس ويكسر من حدتها ، واسكنه أثر الهجرة والنفي وشظف العيش إباءاً للضم ونفورا من الذل ، وترك في مصر أملاكه وأمواله عرضة للنهب والمصادرة ، وظل في منفاه بمدينة (يافا) إلى أن احتلها الفرنسيون أثناء الحملة على سورية ، فقابلها نابليون ، وكان يعرف منزلته من قبل ، فأمر بإرجاعه إلى مصر معززا مكرما ، فعاد إليها ، اسكنه اعتزل الفرنسيين واعتكف في بيته ولم يشأ أن يتصل بهم أو يتقرب إليهم ، ولو أنه أراد ذلك لأغدقوا عليه النعم وخصوه بأعظم المزايا ليجتذبه إلى صفوفهم ، وبقي في عزلته إلى أن أبرمت معاهدة العريش ثم نقضت وتجددت الحرب بين الفرنسيين والعثمانيين وثارَت القاهرة ثورتها الثانية ، فكان من زعمائها ، وذلك باتفاق الجبرقي والمراجع الفرنسية ، ولما أخذ الفرنسيون تلك الثورة هاجر من مصر ثانية ، واستهدف في هذه المرة أيضا للنهب والمصادرة ، ثم عاد إلى مصر بعد جلاء الفرنسيين ، فزادت منزلته القديمة في نفوس الشعب وعادت إليه نقابة الأشراف التي تزعت منه أثناء هجرته الأولى ، وإذا تأملت في الحركات التي تابعت في البلاد بعد انتهاء الحملة الفرنسية تجد أن اسم السيد عمر مكرم يملأ الجو السياسي بما كان له من عظيم النفوذ والمكانة السامية والأثر البالغ في تطور الحوادث ، وتبين أن له اليد الطولى في الثورة التي قامت ضد حكم المماليك سنة ١٨٠٤ ، وضد الوالي التركي سنة ١٨٠٥ ، وكان منظورا إليه من الشعب كرئيس تستجاب دعوته وتطاع كلمته وماجأ يأوى إليه المظلومون فيرفع عنهم شر المظالم ويقهيم ظغيان الحكام .

فترجمته مقترنة بالحوادث الجسيمة التي وقعت في البلاد بعد جلاء الفرنسيين إلى ارتقاء محمد علي عرش مصر ، وتجد هذه الترجمة في تدبُّع الفصول الآتية ، ولقد أفردنا له فوق ذلك نبذة خاصة تحت عنوان (عمر مكرم روح الحركة) يتبين منها مبلغ ما كان له من الفضل في ثورة الشعب على الوالي التركي .

السيد محمد السادات

سليل بيت السادات العريق في المجد وشرف المحدث ، تربى في مهاد العز والنعمة ، وتلقى العلوم الشرعية واللغوية على شيوخ الأزهر فوصل في العلم والثقافة إلى ما وصل إليه علماء ذلك العصر ، وجمع بين العلم وشرف النسب ، ذلك إلى ما ورثه عن أسلافه

من الثروة والجاه ، تولى خلافة آل السادات ومشيشة سجادتهم سنة ١١٨٢ هجرية على عهد علي بك الكبير ، فعظمت مكانته وزادت منزلته لما انصف به من الشمم والإباء والحزم ، مع الكرم وحسن المعاشرة والترفع عن الصغائر ، وحسب المحاضرة في العلم والآداب ، وصفه الجبرتي من هذه الناحية وصفاً دقيقاً يعطيك صورة واقية عن نفسيته عند ما تولى خلافة أسلافه ، قال : « وأحسن سلوكه إشهامه وحشمة ورتاسة وثودة وأدب مع الأشياخ والأقران ، وتحجب إلى أرباب المظاهر والآكابر واستجلاب الخواطر وسلوكه الطرائق الحميدة والتباعد عن الأمور المخلة بالمروءة ، والأخذ بالحزم والرفق مع الاشتغال في بعض الأحيان بالمطالعة والمذاكرة في المسائل الدينية والأدبية ومعاشرة الأدباء والفضلاء والمناقشة معهم في النسكات ، واقتناء الكتب من كل فن ، كل ذلك مع الجد والتحصيل الأسباب الدنيوية وما يتوصل به إلى كثرة الإيراد بحسن تدخل وجميل طريقة مبعدة عما يخل بالمقدار » .

عاش السيد محمد السادات وافر الحرمة نافذ الحكمة عظيم المسكاة بين الناس سواء قبل الحملة الفرنسية وفي خلالها وبعد انتهائها ، كان جريئاً في الحق لا يهاب من يدهم سلطة الحكم ، وبحسبك أن تتأمل في موقفه حينما أوفدت الدولة العثمانية حسن باشا الجزائر سنة ١٧٨٦ إلى مصر لمحاربة المماليك واستعادة سلطتها المطلقة لتحكم على مبلغ ما اتصف به من الشهامه والمروءة ، فقد أسرف حسن باشا في القسوة والجبروت واستباح أموال المماليك وقبض على نسائهم وأولادهم وأمر بإزهايم سوق المزارد وبيعهم ، زاعماً أنهم أرقاء لبنت المال ، فاجتمع الشيوخ والعلماء وذهبوا إليه معترضين ، وكان السيد محمد السادات هو المتكلم عنهم ، فاشتد في مخاطبته وقال له : أنت أتيت إلى هذا البلد وأرسلك السلطان لإقامه العدل ورفع الظلم كما تقول أم لبيع الأحرار وأمهاة الأولاد وهناك الحرمان ؟ فقال حسن باشا : هؤلاء أرقاء لبنت المال ، فقال له : هذا لا يجوز ولم يقل به أحد ، فحق حسن باشا على السادات والمشايخ وتهدهم بأن يبالغ السلطان معارضتهم لأوامره ، فلم يعبأ السادات بهديده وأصر على معارضته حتى أخمعه وحمله على العدول عن قصده .

كان السادات في موقفه هذا معارضاً سياسة الدولة ، متحدياً نائنها ، مؤيداً قوما تعدم الدولة من العصاة ، ووقف كذلك في وجه حسن باشا عندما صادر أموال الأمراء المماليك ، فقد فر زعمائهم من القاهرة إلى الوجه القبلي حتى لا يبطش بهم

حسن باشا وأودع كبيرهم إبراهيم بك عند السادات ودائعهم الثمينة ، فعلم بذلك حسن باشا ، فأرسل يطلب الوديعة ، فرفض بإباء أن يسلمها وقال في ذلك :

« إن صاحبها لم يمت ، وقد كتبت على نفسه وثيقة بذلك فلا أسلمها ما دام صاحبها في قيد الحياة » ، فحنق عليه حسن باشا وكاد يبطش به ، لولا أن خشي نفوذه ومنزلته بين قومه .

وقف السادات هذا الموقف وهو أعزل لا سلاح معه إلا سلاح الحق ، وقاوم لإرادة وزير من وزراء الدولة جاء على رأس جيش ليعيد في مصر سلطة الحكومة العثمانية ، ولا يقف الرجل مثل هذا الموقف وخاصة في ذلك العصر إلا إذا كان على حظ عظيم من الشجاعة وعلو النفس ، فلا غرو أن يقول الجبرتي في هذا الصدد : « فاشتد غيظ حسن باشا منه وقصد البطش به فحماه الله منه ببركة الانتصار للحق ، وكان الباشا يقول لم أر في جميع الممالك التي ولجتها من اجترأ على مخالفتي مثل هذا الرجل » .

ومما يذكر عنه في مجابهة أمراء المماليك أنه لما جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ ووصلت العاصمة أخبار احتلال الإسكندرية وجمع إبراهيم بك ومراد بك المشايخ للتشاور في الأمر كان السيد السادات ضمن المجتمعين ، فوبخ الأمراء على سوء سياستهم وقال لهم : « إن كل هذا من سوء فعالكم وظلمكم ، وآخر أمرنا معكم أنكم ملكتمونا للإفرنج » ، وخص مراد بك بالتوبيخ قائلا له : « وخصوصا بأفعالكم وتعتديك أنت وأمرائك على متاجرهم وأخذ بضائعهم » .

فنقم عليه مراد بك هذه اللمحة في الخطاب ، وأسرها في نفسه ، قال الجبرتي في هذا الصدد إن مراد بك بعد أن اصطاح مع الفرنسيين أغراهم بالسيد السادات فكان هذا الإغراء من أسباب اضطهادهم إياه ، وقد ذكر عنه المسيو فلكس مانيجان (١) أنه لم يكن يحب المماليك وكان المماليك من جهتهم لا يحبونه ويحقدون عليه لمساكنته من الشعب

وقد رفض عضوية الديوان في عهد الحملة الفرنسية ، وظل محفوظ الكرامة مقبول

(١) في كتابه تاريخ مصر تحت حكم محمد علي

الشفاعة ، ولم تلن قناته للفرنسيين ، ولا هم كانوا يثقون به ، وحدثت بينه وبينهم مشادة في بعض المواطن ، فقد تقدم القول بأنهم اتهموه بزعامة ثورة القاهرة الأولى وقامت عليه البيئات بذلك ، ولكن نابليون رأى أن محاكمته تجعله شهيداً في نظر الشعب وأن الضرر من قتله أكثر من نفعه (١) ، فأبقى عليه ، وحدث أنه لما أمر نابليون بعزل ملا زاده ابن القاضى التركى واعتقله كان الشيخ السادات أكثر العلماء اعتراضاً على حبسه ، وعلم نابليون بموقفه في هذا الصدد ، فنقم ذلك منه فاستدعاء ولامه على مسلكه ، فتدخل بينهما الشيخ محمد المهدى (الذى كان موضع ثقة نابليون) والقوميسير الفرنسى للديوان فانتهت المسألة بسلام ، قال الجبرقى في هذا الصدد : فتسكلم بينهما الشيخ محمد المهدى ووكيل الديوان الفرنساوى حتى سكن غيظه وأمره بالانصراف إلى منزله بعد أن عوّقه (٢) حصّة من الليل »

ويقول عنه المسيو فيليكس مانجان أنه كان من زعماء ثورة القاهرة الثانية ، ووصفه بأنه رجل يميل إلى الهياج والشغب

وقد ناله من اضطهاد الفرنسيين في عهد كبير ومنو ما تقدم بيانه في الفصل التاسع والفصل الثانى عشر (٣) ، فلما جلا الفرنسيون عن البلاد علت منزلته في نظر الشعب واشترك في الحركات الشعبية التى قامت في مصر على النحو الذى بسطناه في هذا الجزء وفى الفصول الثلاثة الأولى من كتاب « عصر محمد على » ، ومع أن السيد عمر مكرم والسادات كانوا في مقدمة رؤساء الشعب منزلة ونفوذا فقد وقعت بينهما المجافاة في عهد محمد على باشا ، وانضم السادات إلى محمد على في الوقعة بالسيد عمر مكرم ، وتولى نقابة الاشراف بدله كما تراه مفصلاً في موضعه بالفصل الثالث من « عصر محمد على » ، وتوفى السادات سنة ١٢٢٨ هجرية

الشيخ عبد الله الشرقاوى

هو الشيخ عبد الله بن حجازى بن ابراهيم ، ولد كما يقول الجبرقى في حدود سنة ١١٥٠ هجرية في قرية (الطويلة) بأقليم الشرقية ، ولذلك سمي الشرقاوى ، وحفظ

(١) انظر الجزء الأول ص ٣٠٤ من الطبعة الأولى

(٣) ص ١٧٣ و ص ٢٢٢

(٢) أى حجزه

القرآن في قرية (القرين) القريبة من الطويلة ، ثم أرسله أبوه إلى الأزهر ليتلقى العلم على شيوخ ذلك العصر ، وكان شأنه شأن طلبة العلم الذين يقدون على الأزهر ويتلقون علومه ثم ينتظمون في سلك العلماء ، وتميز بالجد والمثابرة في التحصيل ، وكان شافعي المذهب وله مؤلفات في العلوم الفقهية والتصوف ، وكان في بداءة عهده « في قلة من خشونة العيش وضيق المعيشة » كما يقول الجبرتي ، فكان بعض معارفه يواسونه ويمدونه بالعون إلى أن اشتهر ذكره بين الناس ، فواصله بعض السراة والتجار بالهدايا والصلات « فراج حاله وتجميل بالملابس وكبر تاجه » وبعد وفاة الشيخ أحمد العروسي سنة ١٢٠٨ هـ تولى مشيخة الأزهر ، فعضمت منزلته وأكسبته المشيخة نفوذا كبيرا ومكانة عظيمة في مصر لأن شيخ الأزهر هو بمثابة كبير علماء العصر ، وكان أمراء الممالك يحترمون ويراعون نفوذه الأدبي والديني ، وله في مقاومة مظالمهم مواقف تدل على مبلغ ما له من النفوذ والجاه .

ذكر الجبرتي ما خلاصته أنه في سنة ١٢٠٩ هجرية أي قبل مجيء الحملة الفرنسية بعدة سنوات حضر إليه أهل قرية بالشرقية له فيها حصنة وذكروا له أن أتباع محمد بك الأتاني ظللهم وطلبوا منهم ما لا قدرة لهم عليه ، فغضب الشرقاوي ، وخاطب مراد بك وإبراهيم بك في رفع هذا الظلم ، فلم يكثرنا الأمر ، فحضر إلى الأزهر وجمع المشايخ وأقفلوا أبواب الجامع « وأمر المشايخ الناس بغلق الأسواق والخوانيت ، ثم ركبوا ثاني يوم إلى بيت السادات وتبعهم كثير من العامة ، وازدحموا أمام الباب والبركة بحيث يراهم إبراهيم بك ، فأرسل إليهم أيوب بك الدفتردار (مدير الشؤون المالية) فوقف بين أيديهم وسألهم عن مرادهم ، فقالوا يريد العدل وإبطال الحوادث والمكوسات التي ابتدعوها ، فقال لا يمكن لإجابة هذا كله ، فإننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعاش ، فقالوا له ليس هذا بعذر عند الله ، وما الباعث على الإكثار من النفقات والماليات ، والأمير يكون أميرا بالإعطاء لا بالأخذ . فقال حتى أبلغ وانصرف ، وانفض المجلس ، وركب المشايخ إلى الأزهر واجتمع أهل الأطراف وباتوا به « ، هذا ما ذكره الجبرتي ، ومعناه أن الشيخ الشرقاوي حرض الناس على الهياج والمقاومة ولبي الناس دعوته من أطراف القاهرة وجاءوا إلى الأزهر وباتوا به متحفزين للهياج ، والظاهر أن مراد بك خشي مغبة هذه الحركة لأن إقفال الخوانيت والأسواق ، وغلق أبواب الجامع الأزهر واحتشاد الجماهير أمام بيت إبراهيم بك ، كل ذلك من علامات الهياج ، قال الجبرتي : « فبعث مراد بك يقول أجيئكم

إلى ما ذكرتموه إلا شيئين : ديوان (جرك) بولاق ، وطلبكم المتأخر من الجامعية (الرواتب) ، ثم طلب أربعة مشايخ عينهم بأسمائهم ، فذهبوا إليه بقصره بالجيزة ، فلاحظهم والتمس منهم السعى في الصلح ، وفي اليوم الثالث اجتمع الأمراء والمشايخ في بيت إبراهيم بك وفيهم الشيخ الشرقاوى ، وانعقد الصلح على رفع المظالم ما عدا ديوان بولاق ، وأن يكفوا أتباعهم عن مد أيديهم إلى أموال الناس ويسيروا فيهم سيرة حسنة ، وكتب القاضى حجة بذلك وفر من عليها (أى وقع عليها) الباشا والأمراء وانجلت الفتنة وفرح الناس وسكن الحال .
فهذه الواقعة التى رواها الجبرتي تدلك على مبالغ نفوذ الشرقاوى ومكانته فى عهد المماليك

ولما جاء الفرنسيون تولى فى عهدهم رئاسة الديوان الذى أنشأوه ، وأسندت إليه رئاسته فى أدواره الثلاثة التى تعاقبت عليه ، فكان رئيسا للديوان الذى تأسس فى أول عهد الحملة ، ثم للديوان العام ، ثم الديوان العمومى والديوان الخصوصى اللذين أنشأهما نابليون فى ديسمبر سنة ١٧٩٨ ، ثم للديوان الذى تأسس فى عهد الجنرال منو ، وجمع بين رأسه الديوان ومشيخة الأزهر ، فعظم جباهه وازداد نفوذه وكان له مع الفرنسيين شأن طويل ، فقد غضبوا عليه ثلاث مرات ، الأولى فى عهد نابليون حينما رفض أن يرتدى طيلسان الجمهورية المثلث الألوان ورمى به إلى الأرض ، فغضب عليه نابليون وقال لأنه لا يصلح لرئاسة الديوان (١) .

والثانية فى عهد الجنرال (منو) ، فقد ارتاب الفرنسيون فى موقفه بعد مقتل الجنرال (كليبر) لأن قاتل كليبر كان يبيت فى الأزهر ويقيم به ، فأحضر الفرنسيون الشيخ الشرقاوى على اعتباره شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ أحمد العريشى قاضى مصر وحجزوها إلى منتصف الليل ، وألزموها البحث عن الأزهر بين الأربعة الذين ذكرهم سليمان الحلبي فى اعترافه وإحضارهم ، وكان من نتائج هذه الحادثة وما أعقبها من تفتيش الأزهر أن العلباء وعلى رأسهم الشرقاوى أقفلوا أبواب المسجد وظل مقفلا إلى أن شرع الفرنسيون فى الجلاء عن مصر .

والمرة الثالثة فى عهد (منو) أيضا حيث اعتقل فى القلعة كما فصلنا ذلك فى الفصل الثانى عشر (٢) .

وبعد الشرقاوى اعتقاله تشريفا له ، فقد ذكره بشيء من الفخر والزهو في كتابه (تحفة الناظرين) حيث قال متحدثاً عن نفسه : « وقد حبسونا في القلعة مع إخواننا العلماء خوفاً من قيام أهل البلد عليهم كما وقع منهم سابقاً ، فكشنا في القلعة مائة يوم من تسعة ذى القعدة إلى أواخر صفر سنة ١٢١٦ . وسبب خروجنا من الحبس وقوع الصلح بين المسلمين وبين الفرنسيين على أن يخرجوا من البلد ويسافروا إلى رشيد وأبي قير »

وفيما عدا هذه المرات الثلاث كان الشرقاوى يحامل الفرنسيين ويدارهم ، ويتبع حيالهم خطة المسالمة والمحاسنة ، ولعله شعر بما احتمل من تبعه أدبية جسيمة بانتهاج هذه الخطة ، فحاول في كتابه (تحفة الناظرين) أن يدافع عن نفسه وعن سلك مسلكه على عهد الحملة الفرنسية ، قال :

« والسبب الذي أوجب أهل مصر وقراها بعض الانقياد إليهم (إلى الفرنسيين) عجزهم عن مقاومة متهم بسبب هروب المماليك الذين معهم آلات القتال ، وأنهم عند قدومهم كتبوا كتباً فرقوها في البلاد وذكروا فيها أنهم ليسوا نصارى لأنهم يقولون إن الله واحد ، وأنهم يعظمون محمداً ويحترمون القرآن ، وأنهم يحبون العثمانيين (كذا) ولم يأتوا إلا لطرده المماليك الظلمة لأنهم نهبوا أموالهم وأموال تجارهم ولا يتعرضون للرعايا في شيء . »

هذه هي الروح التي أملت على الشرقاوى خطته في محاسنة المحتلين وبجاملتهم ، وقد كان يحمل بكبير علماء مصر ألا ينجح هذه الخطة ، وكان مطلوباً منه على الأقل أن يتبع خطة السيد عمر مكرم أو السيد محمد السادات ، ومهما دافع عن نفسه وعن خطته فدفاعه لا يثبت أمام البحث والتحقيق ، لأنه ليس صحيحاً أن الفرنسيين إنما جاءوا لطرده المماليك الظلمة وأنهم لا يتعرضون للرعايا في شيء ، فإنهم إنما جاءوا للفتح والعزو وإخضاع مصر والمصريين لحكمهم ، والشيخ الشرقاوى نفسه يعترف في كتابه أن الفرنسيين أخلفوا عهدهم الذي أعلنوه في كتبهم ومنشوراتهم ، فقد قال في هذا الصدد : « ولكن لما دخلوا مصر لم يقتصرُوا على نهب أموال المماليك بل نهبوا الرعايا وقتلوا جملة من الناس لما قامت عليهم أهل مصر بسبب طلبهم تفريد غرامة (فرض ضريبة) على البيوت وقتل منهم ما يقرب من الألف وهتكوا بعض الأعراس في مصر وقراها فإن كل قرية حاربتهم نهبوا أموالها وقتلوا رجالها وأخذوا نساءها وقتلوا من علماء مصر نحو ثلاثة عشر عالماً . »

فج اعتراف الشرفاوى بهذه الحقائق لا يقبل منه عذر فيما اختطه لنفسه حيال الفرنسيين من المداراة والمجاملة ، ولو أنه لم ينتفع في ذات نفسه من هذه السياسة لسكان محتملاً أن يكون اتباعه إياها نتيجة اعتقاد منه بصلاحها للبلاد ، ولكن انتفاعه من ورائها بما يدعو إلى الشك في أن خطته كانت عن عقيدة سليمة بريئة من الشوائب ، فالجبرتي وهو مؤرخ نزيه صادق يقول في ترجمته إن الدنيا قد اتسعت عليه في عهد الفرنسيين وزاد طمعه فيها ، ويقول إنه انتفع في أيامهم بما كان يؤدي له من راتب رأسية الديوان وما كان يحصل عليه من « قضايا وشفعات لبعض الأجناد المصرية ، وجمالات على ذلك ، واستيلاء على تركات وودائع خرج أربابها في حادثة الفرنسية وهلكوا واتسعت عليه الدنيا وزاد طمعه فيها واشترى داراً واسعة بظاهر الأزهر في مساكن الأمراء الأقدمين »

وقد ظل الشرفاوى مرعياً مشاراً إليه بالبنان لمساكنه العلمية ، ولما كانت تسبغته عليه مشيخة الأزهر من الاحترام والرأسية ، واشترك بعد جلاء الفرنسيين في الحوادث التي أدت إلى مبايعة محمد علي باشا ، واقترب اسمه بهذا الحادث العظيم في حياة مصر القومية . ويكفيك أنه ثاني اثنين ألبسا (محمد علي) خلعاً الولاية كما تراه مفصلاً فيما يلي . وكانت وفاته سنة ١٢١٧ هجرية

الشيخ محمد الأمير

من كبار العلماء المشار إليهم بالبنان ، ولد في (سنو)^(١) سنة ١١٥٤ هجرية وحفظ القرآن وطلب العلم على شيوخ عصره ، وتلقى علوم الهيئة والهندسة على الشيخ حسن الجبرتي والد المؤرخ الشهير عبد الرحمن الجبرتي ، فجمع بين العلوم الشرعية والرياضية ، وذلك إلى تضلعه في علوم الأدب واللغة ، واشتهر بمؤلفاته العديدة في مختلف العلوم ، فلا غرو أن وصفه الجبرتي بالعالم العلامة ، الفاضل الفهامة ، صاحب التحقيقات الرائقة ، والتأليفات الفائقة ، شيخ شيوخ أهل العلم ، وصدر صدور أهل الفهم ، المثقفين في العلوم كلها ، نقلها وعقلها وأدبها ، إليه انتهت الرياسة في العلوم بالديار المصرية^(٢) .

اشتهر ذكره في مصر وفي مختلف أنحاء الشرق ، فكانت نأيت الصلات من

(١) بمركز ديروط بمديرية أسيوط

(٢) الجبرتي الجزء الرابع .

سلطان المغرب الأقصى ومن مختلف نواحيه كل عام ، وبلغت شهرته الاستانة وذهب إليها وألقى بها دروساً حضرها علماء الاستانة وشهدوا له بالفضل والعلم .
وقد انتخب عضواً بالديوان في عهد نابليون ثم في عهد منو ، واعتقله الفرنسيون بالقلعة في شهر مايو سنة ١٨٠١ كما أسلفنا ذلك في الفصل الثاني عشر .

واشتهر بجرأته وشجاعته ، وكان فصيحاً متكلماً ، لا تأخذه في الحق لومة لائم ، يغلظ القول للبكوات المماليك والولاة الأتراك ، ذكر الجيرقي في ترجمته ما كان من خورشيد باشا الوالي واعتقاله السيدة نفيسة المرادية وغيرها من نساء المماليك بعد انتهاء الحملة الفرنسية ، فقال ما خلاصته انه لما شاع الخبر تغيرت خواطر الناس وركب القاضي ونقيب الأشراف (السيد عمر مكرم) والشيخ السادات والشيخ الأمير وذهبوا إلى الباشا وتحدثوا إليه في شأنها ، فاتهمها بأنها أرسلت إلى بعض كبار رؤساء الجند تستميلهم إلى المماليك العصاة وأنها وعدتهم بدفع رواتبهم ، وقال إنها ما دامت تستطيع أن تدفع للجند رواتبهم فينبغي أن تدفعها لخزانة الحكومة ، واتضح أن غرضه إرهاب السيدة نفيسة وابتزاز المال منها قهراً ، فقال الشيخوخ إن الأمر يحتاج إلى تحقيق ، وقام الشيخ سليمان الفيومي والشيخ محمد المهدي وخاطبا السيدة نفيسة في ذلك فأنكرت ما نسب إليها ، وقالت : « إذا كان قصده مصادرة أموال فلم يبق عندي شيء » فاهترض الشيخوخ على خورشيد باشا وحدث أخذ ورد بينهم وقال الشيخ الأخير غاضباً : إن هذا أمر غير مناسب ويترتب عليه مفساد ويقع اللوم علينا فإذا كان الأمر كذلك فلا علاقة لنا بشيء من هذا الوقت أو نخرج من هذا البلد ، ومعنى ذلك أن الشيخ الأمير يهدد الوالي بمقاطعة الشيخوخ له ، وهذا أمر له عواقبه ، فتوسط بعض أعوان خورشيد باشا في الخلاف وتحدثوا إليه في إطلاق صراح السيدة نفيسة المرادية والسماح لها بأن تقيم في بيت السادات ، فرضى الوالي بذلك وأنزلوها من القلعة إلى بيت السادات .

فهذه الحادثة تدل على مكانة الشيخ محمد الأمير وما كان له من الهيبة والجرأة في مقاومة مظالم الحكم .
وكانت وفاته سنة ١٢٣٢ هـ .

الشيخ سليمان الفيومي

ولد بالفيوم وحضر إلى مصر وحفظ القرآن وتلقى العلوم بالأزهر ، ومع قلة

بضاعته في العلم كما يقول الجبرتي فقد نال مكانة كبيرة بين الناس بما اشتهر عنه من الكرم والجود وحسن المعاشرة والبشاشة والتواضع والمواساة للكبير والصغير، فكان الناس يلجأون إليه لرفع المظالم وقضاء الحاجات فلا يمتثل على أحد بجاهه وسعيه

قال الجبرتي في هذا الصدد : « إنه اتفق له مرارا أن يركب من الصباح في حوائج الناس فلا يعود إلا بعد العشاء الأخيرة فيلأقيه آخر ذو حاجة في نصف الطريق أو آخره فينتهي إليه قصته إما بشفاعة عند أمير أو خلاص مسجون أو غير ذلك فيقف وهو راكب، فيقول في غد نذهب إليه فإن الوقت صار ليلا ، فيقول صاحب الحاجة إنه في داره في هذا الوقت فيعود من طريقه مع صاحب الحاجة إلى ذلك الأمير ولو بعدت داره ويقضى حاجته ويعود بعد حصة من الليل ، وهكذا كان شأنه ولا ينتظر ولا يؤمل جمالة ولا أجره نظير سعيه »

قال رجل لذن كان مثال الشهامة والمروءة ، فلا غرو أن نال احترام الناس ومحبتهم، قال الجبرتي : « قالت إليه القلوب ووفد إليه ذوو الحاجات من كل ناحية فلا يرد أحدا ويستقبلهم بالبشاشة وينزلهم في داره ويطعمهم ويكرمهم ويستمرون في ضيافته حتى يقضى حوائجهم ويزودهم ويرجعون إلى أوطانهم مسرورين ومحبورين شاكرين » ونال احترام الأمراء الممالك ونسائهم بما اشتهر عنه من مكارم الأخلاق والتعفف والتورع ، فكان يدخل بيوتهم ويتلقاه نساء الأمراء في مجالسهن ويجلس معهن ويسرن محادثته ويقفن — على رواية الجبرتي : « زارنا أبونا الشيخ ، وشاورنا أبانا الشيخ ، فأشار علينا بكذا ونحو ذلك »

وله مواقف مشهورة تدل على الشهامة والمروءة ، فمن ذلك ما ذكره الجبرتي أنه لما جاء حسن باشا الجزائر إلى مصر سنة ١٧٨٦ لإعادة الحكم التركي ومحاربة المماليك ارتحل هؤلاء إلى الصعيد وأحاط حسن باشا بدورهم وطلب الأموال من نسائهم واعتقل أولادهم وجواربهم وأزواجهم وأنزلهم إلى سوق المزاد ، فالتجأ إلى المترجم الكثير من نساء الأمراء فأواهن وأجهد نفسه في السعي لحمايتهن ومواساتهن مدة إقامة حسن باشا بمصر

ولما جاء الفرنسيون إلى مصر وطردها المماليك خرج نسائهم من بيوتهم وذهبن إليه أفواجا لاجئات إليه ، فامتلت بهن داره وما حولها من الدور ، فخماهن وتصدى الدفاع عنهن أمام الفرنسيين

وكان مرعى المسكانة مقبول الشفاعة في عهد الحملة الفرنسية ، وانتخب عضواً بالديوان في عهد نابليون ثم في عهد الجنرال (منو) ، وهو من أعضائه النابهين

وكان له ضلع في ثورة أمير الحج كما أوماًنا إلى ذلك بالفصل الثالث^(١) فقد أخذ يطوف البلاد مع مصطفى بك أمير الحج لإثارة الفلاحين ، وكتب عنه الجنرال (دوجا) في رسالة إلى نابليون أن طوافه مع أمير الحج كان من أسباب استفحال الثورة لما له من المسكانة بين الناس ، وقد رجع إلى القاهرة بعد إخماد ثورة أمير الحج ووضع تحت المراقبة .

وفي عهد الجنرال منو وضع الفرنسيون نظاماً جديداً لتعيين مشايخ البلاد (العمد) ، فأوجبوا أن يكون تعيين كل شيخ بلد بأمر من القائد العام وجعلوا لهيئة مشايخ البلاد مفتشين وجعلوا لها رئيسين أحدهما فرنسي وهو المسيو بريزون Brizon ، والآخر مصري وهو الشيخ سليمان الفيومي ، فصار كما يقول الجبرتي «شيخاً للشيخ» فازدحت داره بمشايخ البلدان يأتون إليه أفواجا وينهبون أفواجا .

وفي آخر عهد الحملة الفرنسية اعتقل في القلعة حين وردت أنباء الحملة الانجليزية العثمانية ، ولم يلبث قليلاً حتى أفرجوا عنه

وجاء العثمانيون والمترجم في عداد العلماء والرؤساء والمتصدرين « وافر الحرمة شهير الذكر ، بعيد الصيت ، مرعى الجانب ، مقبول القول عند الأكابر والأصاغر »

وقد لازمته سجيته التي اشتهر بها في إيوان المنكوبين ومواساتهم ، فلما وقعت الفتنة التي أدت إلى مقتل طاهر باشا مما سنّفصله في موضعه وقتل خليل أفندي الرجائي الدفتردار التجأ إليه أخو الدفتردار وحاشيته فأواهم في داره وأقاموا عنده وحماهم وواساهم حتى سافروا إلى بلادهم ، ومات سنة ١٢٢٤ هجرية

الشيخ مصطفى الصاوي

من كبار العلماء والفصحاء المشاهير بالبنان ، وسمى الصاوي نسبة إلى بلدة

أبيه (الصوة) من أعمال الشرقية ، وقد انتقل منها أبوه إلى السويس وولد بها المترجم فارتحل إلى مصر ، وكان والده من أعيان التجار فألحق ابنه بالأزهر ، حفظ القرآن واشتغل بالقراءة وحضر الدروس على شيوخ ذلك العصر ، وتصلح من العلوم وضرب بسهم في الأدب والبلاغة ، فكان كاتباً بليغاً وشاعراً أديباً ، وقد أورد الجبرقي شيئاً من نظمته ونثره ، وكان علماء الأزهر يعترفون له بالتفوق في الكتابة والفصاحة

وبذلك على منزلته من العلم أنه كان مرشحاً لمشيخة الجامع الأزهر بعد وفاة الشيخ العروسي ، وزاحم فيها الشيخ الشرقاوى ، فهو إذن قرين الشرقاوى ونده في العلم والمكانة ، ولكن مشيخة الجامع استقرت للشرقاوى ، وكان الشيخ الصاوى يتولى من قبل وظيفة التدريس في المدرسة الصلاحية المجاورة للضريح الإمام الشافعى ، وهى من وظائف مشيخة الأزهر ، فلما تولى الشرقاوى المشيخة بقيت وظيفة التدريس في يد الشيخ الصاوى وتلك ميزة تدل على ماله من المسكنة العلمية

ولما جاء الفرنسيون ووقعت هزيمة امبابه كان الشيخ مصطفى الصاوى هو والشيخ سليمان الفيومى على رأس الوفد الذى ذهب بالنيابة عن سكان القاهرة لمقابلة نابليون^(١) ، وانتخب عضواً بالديوان وظل عضواً به فى عهد نابليون وفى عهد الجنرال منو ، واضطهده الفرنسيون بعد إخماد ثورة القاهرة الثانية فقصوه بجزء من الغرامة التى فرضوها على سكان القاهرة ، واعتقلوه حتى سدد ما فرض عليه ، وكان نصيبه فى الغرامة خمسين ألف ريال .

واعتقلوه للمرة الثانية فى مارس سنة ١٨٠١ بعد وصول الحملة الانجليزية العثمانية ثم أفرجوا عنه لمرضه

وكانت وفاته فى شهر ذى القعدة سنة ١٢١٦ ، ولم يدرك ثورة الشعب على حكم المالك وعلى الوالى التركى

الشيخ محمد المهدى

عالم من كبار العلماء ، اشتهر بسعة العلم وحدة الذكاء وقوة المعارضة ، وضرب بسهم فى الأدب والإنشاء ، تردد اسمه كثيراً فى مذكرات نابليون وقواد جيشه وفى معظم المراجع الفرنسية

(١) انظر الجزء الأول ص ٩٢ من الطبعة الأولى

لعب دوراً كبيراً على مسرح الحوادث السياسية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر

ترجمه الجبرتي في وفيات سنة ١٢٣٠ هجرية فوصفه بالاستاذ الفريد واللودعي المجيد، الإمام العلامة، والتحرير الفهامة، الفقيه النحوي الأصولي الجدلي المنطقي الشيخ محمد المهدي الحفني، ولد في (ناحية) من أعمال الجيزة، وسبب تسميته بالحفني أن والده كان قبطياً وأسلم المترجم وهو دون البلوغ على يد الشيخ الحفني من شيوخ ذلك العصر وفارق أهله وحضنه الشيخ الحفني ورباه وأحبه واستمر بمنزله مع أولاده واعتنى بشأنه، فقرأ القرآن ولما ترعرع اشتغل بطلب العلم واجتهد في التحصيل ليلاً ونهاراً فظهرت عليه مخايل النباهة والجد وانتقل من التحصيل إلى التدريس في الأزهر سنة ١١٩٠ هـ فاشتهر بسعة العلم وحسن الإلقاء مع الفصاحة والبيان وسلامة التعبير وتحقيق المشكلات، فأدرك مكانة سامية بين أقرانه، وساعده الحظ بانضمامه إلى الأمير اسماعيل بك الذي كان ينافس مراد بك وإبراهيم بك في إمارة مصر أواخر القرن الثامن عشر، فلما فاز اسماعيل بك على خصميه بمعاونة حسن باشا الجزائرلى (١) نال الشيخ محمد المهدي حظوة كبيرة لديه وأغدق عليه الخلع والعطايا وأسندله وظائف بالضر بخانة (دار الضرب) وغيرها، وقد وقع في عهد اسماعيل بك ذلك الطاعون الجارف الذي أفنى كثيراً من أمراء مصر وحكامها ومات به عشرات الآلاف من الناس، فاختص الشيخ المهدي بما أحبه — كما يقول الجبرتي — مما انحل عن الموتى من إقطاعات ورزق (جمع رزقة) وغيرها وزادت ثروته ورغبته وسعيه في أسباب تحصيل الدنيا وعانى الشركات والمتاجر في كثير من الأشياء مثل السكتان والقطن والأرز وغير ذلك من الأصناف والتزم (٢) بعدة حصص بالبحيرة مثل شابور وخلافها وبالمنوفية والجيزة والغربية وابتنى داراً عظيمة بالأزبكية بناحية الرومي، (٣)

هذا ما ذكره الجبرتي عن حياة المترجم ومكانته إلى أن جاءت الحملة الفرنسية،

(١) انظر الجزء الأول ص ٢٢ من الطبعة الأولى

(٢) أي صار (ملتزماً) طبقاً لنظام الالتزام الذي كان معروفاً في ذلك العصر وقد شرحناه بالجزء الأول ص ٢٩ (من الطبعة الأولى)

(٣) الجبرتي الجزء الرابع

وهنا يبدأ عهد جديد للمهدى نستخلصه من المراجع الفرنسية وما ذكره الجبرتي ، فالشيخ المهدى قد نال من ثناء نابليون ومديحه مما جعله في نظره وفي نظر قواد الحملة الفرنسية في طليعة العلماء فقال عنه في مذكراته : « لأنه أذكى علماء الأزهر وأفصحهم لساناً وأكثرهم علماً وأصغرهم سناً » ، وكان يخصصه بالثقة في كثير من المواطن ، فقد كان سكرتيراً لأول ديوان أنشأه نابليون وأدرك من السلطة والنفوذ ما لم يتوافر لأحد من أعضاء الدايوان ولا لرئيسه ، وكان نابليون يعهد إليه بصياغة منشوراته في الغالب العربي المسجع ، ولما زحف على سورية واحتل قلعة العريش وعزم على أن يبلغ نبأ هذا الانتصار إلى المصريين أنفذ إلى الجنرال (دوجا) نائبه في القاهرة كتيبة من الجنود تحمل الأعلام التي استولى عليها من العثمانيين وعهد إليه أن يرفعها على منارات الأزهر ، وكتب إليه في هذا الصدد يقول : « أريد أن تقابلوا الشيخ المهدى وأعضاء الديوان وتفقوا معهم على إقامة احتفال صغير لمقابلة الأعلام المرسلة لكم (١) »

فاختصاص نابليون الشيخ المهدى بالذكر دليل على ما كان يشعر نحوه من الاحترام والثقة

وكان الجنرال دوجا الذي استخلفه نابليون في القاهرة أثناء الحملة على سورية يركن إلى المهدى ويشاوره في كثير من الأمور

ولما غضب نابليون على السادات لاعتراضه على اعتقال ملا زاده ابن القاضي التركي كان الشيخ المهدى هو الداخل في الصلح بينهما ، فهذه الوقائع تدل على ما كان للمهدى من المسكاة عند أقطاب الحملة الفرنسية

ولعل سبب هذه المسكاة أنه كان يداريهم ويحاملهم ، فهو من هذه الناحية قد فاق الشيخ الشرقاوى في موادة الفرنسيين ، وناله من وراء هذه السياسة من المنافع والمزايا أكثر مما نال الشيخ الشرقاوى ، قال الجبرتي في هذا الصدد : « ولما حضر الفرنسيون إلى الديار المصرية وخافهم الناس وخرج الكثير من الأعيان وغيرهم هاربين من مصر تأخر المترجم عن الخروج ولم ينقبض كغيره عن المداخلة فيهم ، بل

اجتمع بهم وواصلهم ، وانضم إليهم وسائرهم ولاطفهم في أغراضهم ، وأحبوه وأكرموه ، وقبلوا شفاعته ، ووثقوا بقوله ، فكان هو المشار إليه في دولتهم مدة إقامتهم بمصر ، والواسطة العظمى بينهم وبين الناس في قضاء حوائجهم ، وأوراقه وأوامره نافذة عند ولاية أعمالهم حتى لقب عندهم وعند الناس ب«كاتم السر»

ولا نعتقد أن الجبرتي فيما قاله عن الشيخ المهدي متحامل أو صادر عن هوى ، لأن ميزة الجبرتي في تاريخه أنه يتحرى الصدق ولا يميل عن الحق ، وهو في تاريخه لم يفته أن يثني على المهدي فيما يستحق الثناء ، اعتبر ذلك فيما ذكره عن اضطراب الأحوال في القاهرة أثناء غيبة نابليون في معركة أبو قير البرية ، وما كان للمهدي من موقف محمود ، فقد راجت الإشاعات بأن سكان القاهرة عاملون على إثارة الفتنة ، فاستدعى الجنرال دوجا الشيخ المهدي وكله في هذا الصدد ، لحاجه المهدي ، ونفي النعمة عن المصريين وانفقد الديوان في اليوم التالي وكذب المهدي أقوال الوشاة ودافع عن سكان العاصمة ، وأثنى الجبرتي على المهدي في موقفه هذا ، وقال إن هذا المقام من مقاماته المحمودة ، فالجبرتي إذن يذكر ما للمهدي وما عليه ، بل أغلب الظن أنه كان يميل إليه بعض الميل ، فإنه لما ذكر منشور نابليون الذي أذاعه على لسان الديوان عقب عودته من سورية قال : « إنه من ترصيف وتنميق بعض الفصحاء » والإشارة هنا إلى الشيخ المهدي ، لأنه باتفاق المراجع الفرنسية هو السكاكيت المنشور ، فعدم إفصاح الجبرتي عن اسمه والاكتفاء بالإشارة إلى أنه من ترصيف وتنميق بعض الفصحاء دليل على ما يختلج في قلبه من الميل إليه

وليس من شك في أن المهدي كان أكثر العلماء نفوذاً لدى الفرنسيين ، وهذا باتفاق الجبرتي والمراجع الفرنسية ، وذلك أنه لما أنشئ الديوان الأول كان سكرتيراً له ، وهو وإن لم يكن من أعضائه إلا أن نفوذه كان أكبر من نفوذ الأعضاء جميعاً ، ولما أعيد تنظيم الديوان في ديسمبر سنة ١٧٩٨ كان من ضمن أعضاء الديوانين العمومي والخصوصي ، وانتخب في هذه المرة أيضاً سكرتيراً للديوان ، فجمع بين العضوية والسكرتارية ، وكذلك كان عضواً في الديوان الذي أنشئ في عهد الجنرال منو وسكرتيراً له ، فاستقراره في سكرتارية الديوان في أدواره المتعاقبة دليل على ما ناله من ثقة الفرنسيين واحترامهم ، وقد كان في خلال تلك الأدوار يزداد انتفاعاً من مكانته لديهم ، قال الجبرتي . ولما رتبوا الديوان الذي رتبوه كان هو المشار إليه فيه ، وخدمة الديوان الموظفون فيه

تحت أوامره ، وإذا ركب أو مشى يمشون حوله وأمامه ، وبأيديهم العصي يوسعون له الطريق ، وراج أمره في أيامهم جداً وزاد إبراده وجمعه ، واحتوى بلاداً وجهات وأرزاقاً ، وأقاموه وكيلاً عنهم في أشياء كثيرة ، وبلاد وقرى يجي إليهم خراجها ،

ولما ثارت القاهرة ثورتها الثانية وأخذها الفرنسيون واستعادوا سلطتهم وضربوا عليها الغرامات الفادحة وخصوصاً بعض كبار العلماء والأعيان بنصيب جسيم من الغرامة استثنوا منها الشيخ المهدي والشيخ خليل البكري ، أما البكري فلما لقيه من إهانة العامة واعتدائهم عليه خلال الثورة ، وأما المهدي فقد قال عنه الجبرتي في هذا الصدد : « انه كان يستعمل المداينة وينافق الطرفين بصناعته وعادته » .

وذكر الجبرتي أن انهماكه في الاطماع الدنيوية قد صرفه عن التفرد لما يجب على العلماء ، قال في هذا الصدد : « إنه كان من خول العلماء ، يدرس الكتب الصعاب في المعقول والمنقول بالتحقيق والتدقيق ويقررهما بالحاصل ، وانتفع عليه الكثير من الطلبة ، ومنهم الآن مدرسون مشتهرون ويميزون بين نظرائهم من أهل العصر ، ولو استمر على طريقة أهل العلم السابقين وبعض اللاحقين ولم يشتغل بالانهماك في الدنيا لسكان نادرة عصره ، وقد أداه ذلك إلى قطع الاشتغال ، فكان إذا شرع في الإقراء لا يتم الكتاب في الغالب ويحضر الدرس في الجمعة يوماً أو يومين ويهمل كذلك ، ولم يصنف تأليفاً ولا رسالة في فن من الفنون مع تأله لذلك ، ولم يعان الشعر ولا النظم ، ونثره في المراسلات ونحوها متوسط في بعض القوافي السهلة » ، ذلك قول الجبرتي في المهدي ، وهو معاصره وصديقه ، وقد يكون للشيخ المهدي عذره في مداراة الفرنسيين إذ كانوا أصحاب الخول والطول ، فرأى من الحكمة مسامحتهم ، والواقع أنه لم يؤد إليهم خدمة ما ، ولم يسألهم عن عقيدة ، بل كان يحرص كثيراً على الدفاع عن مصالح مواطنيه أيام حكمهم ، ولعل أدق وصف لنفسيته من هذه الناحية ما ذكره المسيو بوسليج مدير الشؤون المالية في رسالة إلى نابليون حيث قال : « إن الشيخ المهدي رجل يطمع في الشهرة والتزلف للجماهير ولأنه يضحى بجميع الفرنسيين في سبيل ألا يفقد شيئاً من منزلته بين الناس » ، وهي شهادة حسنة للمهدي تدل على سلامة قصده في مسامحة

ولعل هذا المعنى هو الذي يقصده الجبرتي بقوله عن المهدي : وبالجمل فمكان لوجوده وتصدره في تلك الأيام النفع العام ، وسد بعقله نقوباً واسعة وخروقا ،

وداوى برأيه جروحاً وقتوا، لاسياً أيام اليها زاع ، والخصومات والننازع ، وما يكدر
الفرنساوية ، من مخارق الرعية ، فيتلافاه بمراحم كلماته ، ويسكن حديثهم بملاطفاته ،
والظاهر أنه لم يستهدف لغضب المحتلين إلا مرة واحدة أو مرتين ، فالمرّة الأولى
لما عاد نابليون بعد انتصاره فى معركة (أبو قير) البرية ، فقد ساءه ما علمه عن
المهدى أنه كان يعارض محافظ المدينة فى أحكامه وأظهر استياءه من سلوك المهدي
والصاوى وبقية أعضاء الديوان وعائتهم على مسلكهم ، واسكنه ما لبث أمام حسن
بيان الشيخ المهدي أن تجاوز عن عتابه ، قال الجبرتي : « فلما حضر عائتهم فى شأن
ذلك فلاطفوه حتى انجلى خاطره وأخذ يمدحهم عما وقع له من القادمين إلى أبي قير
والنصر عليهم وغير ذلك ،

والمرّة الثانية فى أواخر عهد الحملة الفرنسية حيث اعتقلوه بالقلعة ضمن من
اعتقلوه من أعضاء الديوان

وقد احتفظ الشيخ المهدي بمكانته بعد جلاء الفرنسيين فصار من المتقدمين
والمتصدرين فى الحركات الشعبية التى ظهرت على مسرح الحوادث السياسية ، واشترك
مع السيد عمر مكرم والسادات والشرقاوى وغيرهم فى تولية محمد على حكم مصر ،
وكان له فى هذا الصدد فضل مئود ومقام محمود ، وهو الذى تولى تحرير محضر اجتماع
العلماء وقرارهم بعزل خورشيد باشا ، وهو موقف تاريخى يشرف المترجم ويخلد اسمه ،
ولكنه بعد أن تم الأمر لمحمد على باشا كان قوام الواقعة بالسيد عمر مكرم ، مما تراه
مفصلاً فى الفصل الثالث من كتاب « عصر محمد على » ، ولم يزل مرعى المقام عظيم
المسكاة إلى أن توفاه الله سنة ١٢٣٠ هجرية عن نحو خمس وسبعين سنة

السيد أحمد المحرقى

كبير تجار القاهرة ، بل كبير تجار مصر فى ذلك العصر ، تختلف شخصيته عن
الشخصيات المتقدمة ، بأن نشأ فى غير البيئة التى نشأوا فيها ، فلا هو تخرج من الأزهر ،
ولا نال مكانته بانتسابه للعلم ، بل نشأ من بيت تجارى عريق ، ومارس التجارة فنال
فيها منزلة سامية ، وأدرك بفضلها مركزاً اجتماعياً كبيراً لا يقل رفعة وسموا عن منزلة
كبار الرؤساء والعلماء ، بل فاق بعضهم فى المسكاة والاعتبار ، وهذا يدل على
مبلغ ما للتجارة والأعمال الاقتصادية من الاحترام عند الشعب ، ولا غرو فقد كانت
طبقة التجارة هيئة ممتازة بين طبقات الأمة كما بينا ذلك فى الفصل الأول من الجزء الأول

وصفه الجبرتي في ترجمته بعين الأعيان ، ونادرة الزمان ، شاه بندر التجار ، والمرآة فيهمته إلى مقام الفخار ، النبيلة النجيب ، والحسيب النسيب ، السيد أحمد ابن أحمد الشهير بالمحروقي

وذكر عن منشئه ومرباه أن أباه كان من تجار الحرير بسوق العنبريين بمصر واشتهر بالصدق والأمانة والتدين والصلاح ، فأحسن تربية ابنه ، فلما ترعرع خالط الناس ومرن على السكتابة ، وكان على غاية من الخلق والنباهة ، وأخذ وأعطى ، وباع واشترى ، وشارك وتداخل مع التجار ، وحاسب على الألوف

وقد شارك المترجم في العمل تاجراً من كبار تجار الجملة بالقاهرة يسمى السيد أحمد بن عبد السلام ، فضرب في تجارة الصادرات والواردات بسهم وافر ، ولما مات السيد أحمد المذكور خلفه المترجم في مركزه التجاري وفي منصبه (شاه بندر التجار) ، فصار كبير تجار القاهرة ، وإذا لاحظنا أن القاهرة عاصمة القطر التجارية كان المحروقي كبير تجار مصر قاطبة ، وقد ظهرت مواهبه ومزاياه في مركزه الجديد « فزادت شهرته ، وعظم شأنه ووجاهته ، ونفذت كلمته على أقرانه » ، واتصل بأمرام مصر من المماليك مثل اسماعيل بك ثم مراد بك وإبراهيم بك وتصدى لقضاء مطالبهم وهم أصحاب الحل والعقد ويبدون سلطة الحكم ، فكانوا يبتاعون منه مطالبهم ومطالب الحكومة ، فاتسعت تجارته وذاع صيته في الأقطار البعيدة ، وصار أكبر تجار الصادرات والواردات ، وتعددت معاملاته التجارية مع سائر الأقطار الشرقية وبعض الأقطار الإفريقية ، قال الجبرتي في هذا الصدد ما خلاصته « ولم يزل طالعه يسمو ، وسعده يزيد وينمو ، وعاد مراد بك والأمراء المصريون (المماليك) بعد موت اسماعيل بك وانقلاب دوائه إلى إمارة مصر ، فاختره المترجم بخدمته وقضاء سائر أشغاله ، وكذلك إبراهيم بك وباقي الأمراء ، وقدم لهم الهدايا والطرائف ، وواسى الجميع ، أعلامهم وأدنانهم بحسن الصنيع ، حتى جذب إليه قلوب الجميع ، ونافس الرجال وانعطفت إليه الآمال ، وعامل تجار النواحي والأحصار ، من سائر الجهات والأقطار ، واشتهر ذكره بالأراضي الحجازية ، وكذا بالبلاد الشامية والرومية ، واعتمدوه وكتبوه ، وراسلوه وأودعوه الودائع وأصناف التجارات والبضائع ،

فالمحروقي إذن هو نموذج صالح يصح أن يقتدى به إلى اليوم في الاضطلاع بالأعمال التجارية والاقتصادية العظيمة المدى ، وفي إتمام ثروة مصر القومية .

ويدلك على مبلغ مكانته بين الناس أنه لما اعتزم أداء فريضة الحج سنة ١٢١٢ هجرية « كان يوم خروجه يوماً مشهوداً اجتمع الكثير من العامة والنساء وجلسوا بالطريق للفرجة عليه » كما يقول الجبرتي

وذكر أيضاً أنه لمناسبة زواج ابنه السيد محمد أقام مهرجاناً فخماً وصفه بقوله : « وزوج ولده السيد محمد وعمل له مهماً عظيماً افتخر به إلى الغاية ، ودعا إليه الأمراء والأكابر والأعيان وأرسل إليه إبراهيم بك ومراد بك الهدايا العظيمة المحملة على الجبال الكثيرة ، وكذلك باقي الأمراء ومعها الأجراس التي لها رنة تسمع من البعد ، ويقدمها جمل عليه طبل نقارية ، وذلك خلاف هدايا التجار وعطاء الناس والنصارى الأروام والأقباط الكتبة والإفرنج والأتراك والشوام والمغاربة وغيرهم ، وخلع الخلع الكثيرة »

فهذا الوصف الذي نقلناه كما أورده الجبرتي يعطيك صورة عن منزلة المترجم بين عظماء عصره وما أدركه من العز والجاه

وظل على هذه المكانة حينما جاء الفرنسيون إلى مصر ووقعت هزيمة إسماعيل أثناء رجوعه من الأقطار الحجازية ، وقد جاء في قافلة تبعها العربان بالقرب من بلبيس ، وكان نابليون وقتئذ يتعقب إبراهيم بك في الشرقية ، فقابله وعرف مكانته فأكرم مشواه ووعدته برد ماذهب منه وأرسل يتعقب المعتدين ورد إليه ما أمكنه استخلاصه ، ورجع إلى القاهرة ، فكان لمنزله التجارية والمالية موضع احترام الفرنسيين ، وانتخب عن التجار ضمن أعضاء الديوانين العمومي والخصوصي اللذين أنشأ في ديسمبر سنة ١٧٩٨ ، واصطحبه نابليون في رحلته إلى السويس ، ولما وقعت ثورة القاهرة الثانية كان من زعمائها والمنصرين لتنظيمها بماله وهمته ونفوذه ، وإلى ذلك يشير الجبرتي بقوله :

« ووصل عرضي^(١) العثمانية والأمراء المصرية (الماليك) فخرج فيمن خرج للملاقاتهم ، وحصل بعد ذلك ما حصل من نقض الصلح^(٢) والحروب ، واجتهد المترجم في أيام الحرب وساعدت تصدى بكل همته وصرف أموالاً جمة في المهمات والمؤن .

يتبين مما تقدم أن السيد المحروقي لم يكن متوفراً على أعمال تجارته الواسعة بحسب ، بل كان يشترك في الحياة العامة ، فارتفع إلى مستوى زعماء الشعب ، فهو من هذه الناحية خير مثال لسكبار الأعيان والتجار يقندى به في الجمع بين تنمية الثروة الشخصية وأداء الواجبات الوطنية ، والواقع أن إنماء الثروة وتعهدا بالحزم وحسن التدبير ليس عملاً شخصياً بحسب ، بل هو عمل قومي جليل لأنه إنماء للثروة القومية العامة ، والخير فيها يعم البلاد وأهلها

اشترك المترجم في ثورة القاهرة الثانية ، ولما أخفقت هاجر إلى سورية بحجة السيد عمر مكرم نقيب الأشراف ، ولأزمه في منفاه وهجرته ، وصادر الفرنسيون أملاً له في غيبته ، ولم يعد إلى مصر إلا بعد جلاء الفرنسيين ، وازدادت مكانته وعظم جاهه بعد عودته من منفاه ، وصار موضع الاحترام عند ولاية الأمور والجمهور معا ، وزاره الصدر الأعظم يوسف باشا ضيفاً في بيته تكريماً له ودامت الزيارة ساعة من الزمن ، ويكفيك لتعرف مبلغ ما وصل إليه من النفوذ والجاه بعد جلاء الفرنسيين أن ترجع إلى قول الجبرتي عنه : « فصار المترجم هو المشار إليه في الدولة ، والتزم بالإقطاعات والبلاد ، وحضر الوزير ^(١) إلى داره وقدم إليه التقادم والهدايا ، وبأشر الأمور العظيمة ، والقضايا الجسيمة ، وما يتعلق بالدول والدواوين ، والمهمات السلطانية ، وازدحم الناس ببابه وكثرت عليه الاتباع والأعوان والقواسم والفراشون وعساكر رومية (تركية) ومترجمون وكلا رومية ووكلاء ، وحضرت مشايخ البلاد والفلاحون بالهدايا والتقادم والأغنام والجمال والخيول ، وضافت داره بهم فأتخذ دوراً بجواره وأنزل بها الوافدين » .

وعظم نفوذه في عهد خسرو باشا فاختص به اختصاصاً كلياً وسلم إليه المقاليد الكلية والجزئية ، وجعله أمين الضريبة ^(٢) وزادت صولته وشهرته ، وطار صيته ،

(١) الصدر الأعظم يوسف باشا ضيفاً .

(٢) مدير دار الضرب وكانت من أكبر مناصب الدولة في ذلك العصر وقد ذكر الجبرتي في حوادث ربيع الثاني سنة ١٢١٧ (أغسطس سنة ١٨٠٢) أن السيد المحروقي لما تقلد أمانة الضريبة أقام مهرجاناً بائهاجا بتقلده هذا المنصب « وفرق ذهباً كثيراً وعمل ليلة بالمشهد الحسيني ودعا الباشا (خسرو) والدقردار (مدير الشؤون المالية) وأعيان الدولة والعلماء . وأولم لهم وليمة عظيمة ، وأوقد بالمسجد وقدة كبيرة وقدم للباشا تقديماً ، وفي صباحها أرسل مع ولده هدية وتعبية أقمشة نفيسة ، فخلع عليه الباشا فروة سمور »

واتسعت دائرته وصار بمنزلة شيخ البلد^(١) بل أعظم ، ونفذت أوامره في الإقليم المصرى والرومى والحجازى والشامى ، وأدرك من العز والجاه والعظمة ما لم يتفق لأمثاله من أولاد البلد ، وكان ديوان بيته أعظم الدواوين بمصر ، وتقرب وجهاء الناس لخدمته ، والوصول إلى سدته ، ووهب وأعطى ، وراعى جانب كل من انتهى إليه وأغدى عليه»

فالسيد المحروق قد نال إذن من المنزلة الاجتماعية والسياسية بفضل كفايته الاقتصادية والمالية ما سماه به إلى الصف الأول من الرؤساء والزعماء في جبر النهضة القومية ، فلا غرو أن نعهده شخصية ممتازة من شخصيات ذلك العصر .

وقد استهدف لمظالم طاهر باشا الذى تولى الحكم بعد الفتنة العسكرية التى انتهت بطرد خسرو باشا ، فنهب الجنود المتمردون داره بالأزبكية لما اشتهر عنه من ولائه لخسرو واعتقله طاهر بالقلعة ، فكان لاعتقاله وقع أليم فى النفوس ، وتوسط العلماء فى أمره ، فأفرج عنه طاهر وأمره أن يلزم بيته وجعله رهن مراقبة الجنود وفرض عليه اتاوة كبيرة من المال يفتدى بها نفسه ، ولم ينج المحروق من شرور طاهر باشا إلا بعد مقتله ، وقد جاء ذكره فى تقرير السكولونل سباستيانى الذى أوفده نابليون إلى مصر فى أكتوبر سنة ١٨٠٢ ليتعرف أحوالها ويرقب موقف الانجليز فيها ، مما سيجىء بيانه ، فبعث إلى نابليون بتقرير عن الحالة فى مصر ورد فيه أسماء بعض كبار مصر فى ذلك العهد فذكر السيد عمر مكرم والسيد محمد السادات والشيخ سليمان الفيومى وذا الفقار (الذى كان كتيخدا نابليون فى عهد إقامته بمصر) والسيد المحروق ، وقال عنه إنه أكثر الأعيان نفوذا عند خسرو باشا^(٢)

وظل محتفظا بمكانته واسع الجاه عظيم المقام والاحترام إلى أن أدركته الوفاة سنة ١٢١٩ هجرية

أولئك هم قادة الشعب وزعماءه فى جبر النهضة القومية ، ومهما لاحظت فى تراجم

(١) هو اللقب الذى كان يعطى لكبير الممالك فى إبان سلاطنتهم وهو بمثابة أمير مصر

(٢) تقرير السكولونل سباستيانى المنشور بتاريخ ٣٠ يناير سنة ١٨٠٣ والوارد فى مجموعة معاهدات الباب العالى للبارون دى تسنا الجزء الثانى

بعضهم من مواطن ضعف أو نقد ، فلا تنس أنهم رجال ظهوروا على مسرح الحياة القومية منذ نيف ومائة وثلاثين عاما ، أى قبل أن يسبقهم غيرهم إلى تمهيد سبيل العمل والجهاد فى عهدهم ، ففضلهم فى هذه الناحية لا يصح أن ينكر ، وحقهم لا يجوز أن يغمط ، ولا تنس أيضا أنك إذا طلبت لإيهم أن يقدموا حسابا أمام التاريخ وأمام الأجيال المتعاقبة عن نصيبهم فى الحركة القومية ، فسيبهم أنهم فى مجموعهم أصحاب الفضل الأكبر واليد الطولى فى الحركات الشعبية التى ظهرت فى توجيه إرادة الأمة إلى مقاومة الحكم الفرنسى ، ثم مقاومة حكم المماليك ، ثم مقاومة الحكم التركى ، ثم لإحياء سلطة الأمة باختيار ولى الأمر وإجلاسه على عرش مصر ، فهم إذا دعاة التطور السياسى الذى شهدته مصر فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، وهم فى تواضعهم ونحول ذكر الأكرهين منهم قد قام على أكتافهم وإرادتهم أكبر انقلاب فى نظام الحكم ، فهم الذين أعلنوا حق الشعب فى تقرير مصيره بخلعهم الوالى التركى وإسناد زمام الحكم إلى عبقرية محمد على ، ولا يعزب عن البال أن هذا الانقلاب كان فاتحة الخير والاستقلال لمصر والمصريين ، وهو الأساس الذى شيدت عليه دعائم الدولة المصرية فى تاريخ مصر الحديث

ظهور محمد على

قلنا إن القوات الثلاث التى تنازعت السلطة فى وادى النيل تجاهلت العامل القومى الذى ظهر فى الميدان ولم تحسبه حساباً ، لكن رجلاً واحداً قد أدرك مبلغ تأثير هذا العامل الجديد فى مصير البلاد ، ورأى بثاقب نظره أن النصر مكفول لمن يستعين به ويضمن تأييده فى ميدان الكفاح والنضال ، هذا الرجل هو محمد على الكبير .

نشأ محمد على بمدينة (قوله) من ثغور مقدونية موطن الاسكندر الأكبر ، ولد سنة ١٧٦٩ فى السنة التى أنجبت طائفة من عظماء الرجال ، فيها ولد نابليون وولنجتون^(١) ، كان أبوه إبراهيم أغا رئيس الحرس المنوط به خفارة الطرق ببلده وكان له سبعة عشر ولداً لم يعيش منهم سوى محمد على ، ومات عنه صغير السن يتيماً من الأبوين لا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره فكفله عمه طوسون ، ثم توفى عمه بعد ذلك بمدة سيرة ، فكفله حاكم المدينة (الشوربجى) وكان صديقاً لوالده ، فلما بلغ محمد على

(١) وفيها ولد شاتوبريان الكاتب الفرنسى الشهير وكوفيه العالم الكيمياى وشر الشاعر الألمانى

أشده انتظم في ملك الجهادية ، وسرعان ماتجملت شجاعته في الميدان قبل أن يظهر نجمه في الأفق ، فقد حدث أن امتنعت إحدى القرى ^(١) التابعة لمتصرفية قوله عن دفع ماعليها من الضرائب ، فثار المتصرف في أى طريق يساهمة ، فعرض عليه محمد على أن يعهد إليه في إجبار أهل القرية على أداء ماعليهم ، فدهش المتصرف لهذه الجرأة لأن القرية كانت خالية من حامية عسكرية ترهب الأهالي وتكرههم على الدفع ، لكنه إزاء الحاح محمد على قبل أن يعهد إليه في هذه المهمة ، فسار محمد على إلى القرية مصطحباً عشرة من الجند ، ولما بلغها ذهب رأساً إلى المسجد دون أن يبدو عليه أنه قادم لمهمة ذات شأن ، وأخذ يؤدى فريضة الصلاة ، فظنه الناس زائراً أو سائحاً ، وهناك أرسل يستدعى أربعة من أعيان القرية بحجة مقابلته في شأن يخصهم ، فجاء الأعيان دون أن يعلموا أن في الأمر محظوراً ، وما هو إلا أن دخلوا المسجد حتى أمر محمد على رجاله فانقضوا عليهم وكبلوهم في الحديد وساقوهم إلى قوله ، فلما علم الأهالي بما حل بأعيانهم أقبلوا سراعا لتجديتهم وفك أسارهم ، لكن محمد على سدّد الأسلحة على الأعيان المعتقلين وتوعد بقتلهم إذا هم أهل القرية بإطلاق سراحهم ، فاشتوا عن قصدهم ، ووصل محمد على إلى (قوله) وفي ركابه الأعيان مأسورين ، وبهذه الوسيلة دفع الأهالي ماعليهم من الضريبة ليقتدوا رؤسائهم ، فأعجب المتصرف بمهارة محمد على ورسالته في هذه الحادثة ورقاه إلى رتبة بلوك باشى .

والواقع إن هذه الحادثة تدل على ما جبلت عليه نفس محمد على منذ صباه من الجرأة واقتحام المخاطر ، إذ كان من المحتمل أن يذهب ضحية مغامرته في هذه القرية الشائنة ، فالشجاعة التي ظهرت عليه منذ نعومة أظفاره كانت من أخص صفات محمد على بل هي من أسباب نجاحه في تأسيس مملكة العظم .

وقد زوجه متصرف قوله بقرية له مطلقة ذات ثروة واسعة وهي التي أنجبت له ابراهيم وطوسون وإسماعيل ، وفرغ لتجارة الدخان فربح منها ، وكان لممارسته التجارة دخل كبير في تنقيف ذهنه ومرانه على معالجة الشؤون المالية ولعلها السبب فيما بدا عليه بعد أن تولى الحكم من الخلق في المسائل التجارية والاقتصادية ، وقد لازمه الميل إلى ممارسه التجارة والتطلع إلى أرباحها الوفيرة حتى أنه احتكر تجارة القطر المصرى بأجمعها كما سيجىء بيانه .

وكان في المدينة تاجر يدعى المسيو (ليون) عرف محمد على في صباه وأخلصه



محمد علي باشا

في أوائل حكمه — أخذت هذه الصورة بالإسكندرية سنة ١٨١٨ ونقلناها عن رسوم
كتاب الميسو مانجان الذي ظهر في عصر محمد علي

الود والعطف ، وأفاده بخبرته في التجارة ، فلم ينس محمد على بعد ما وصل إلى قمة المجد فضل ذلك الناجح ، فاستفسر عنه وعلم أنه عاد إلى مرسيليا فأرسل سنة ١٨٢٠ يستدعيه إلى مصر ، لكن المنية عاجلته في الوقت الذي اعتزم تلبية دعوة الباشا ، فأسف عليه محمد على وبعث إلى أخته بعشرة آلاف فرنك إعراباً عن أسفه على وفاة أخيها .

مارس محمد على تجارة الدخان ، وكانت تجارته ولم تزل من أهم موارد مقدونية ومن أعظم صادراتها ، على أنه ما لبث أن عاد إلى الحياة العسكرية التي مهر فيها قبل أن يمارس التجارة ، ذلك أنه لما أغار ناليون على مصر وشرع الباب العالي في تعبئة جيوشه لمحاربة الفرنسيين فيها صدر الأمر إلى تصرف قوله بتقديم ماله من الجنود ، فألف كتيبة من ثلثمائة جندي انتظم محمد على في سلسكها ، وكان ابن الحاكم (على أغا) رئيساً لها ومحمد على معاوناً له ، جاءت هذه الكتيبة على ظهر العمارة التركية التي رست في ساحل أبو قير بقيادة حسين قبطان باشا في شهر مارس سنة ١٨٠١ .

جاء محمد على إلى مصر ، فوجد الميدان خصباً لظهور مواهبه وعبقريته ، واشترك في المعارك الأخيرة التي دارت رحاها بين الإنجليز والأتراك من جانب والفرنسيين من جانب آخر ، وظهر اسمه في هجوم الجيش التركي على الرحمانية إذ كان يدافع عنها الجنرال لاجرانج Lagrange ، وناط به حسين قبطان باشا مهاجمة القلعة واحتلالها ، فساعده الحظ في مهمته بانسحاب الفرنسيين من قلعة الرحمانية فاحتلها محمد على دون عناء .

وقد شهد انتهاء عهد الحملة الفرنسية وبقي في مصر وارتقى في غضون ذلك إلى مرتبة كبار الضباط ، فنال رتبة (بكباشي) قبل جلاء الفرنسيين ، ثم رقاء خسرو باشا في أواخر سنة ١٨٠١ إلى رتبة سرجهشمه أي (لواء) ، وأخذ يرقب تطور الصراع بين القوات الثلاث التي كانت تتنازع السلطة في مصر ، ولمح من خلال الأفق أن هذه القوات مصيرها إلى الزوال ، ووضع لنفسه خطة تدل على أصالة رأيه وبعد نظره ، خطة لم يسبقه إليها في ذلك العصر قائد أو حاكم سياسي ، وهي أن يتحجب إلى الشعب ويستميل إليه زعماءه ويستعين به للوصول إلى قمة السلطة .

وفي الحق إن هذه الخطة كانت جديدة ، بل كانت غير مألوفة في ذلك العصر ، وخاصة في الشرق ، فالقوات التي تنازعت السلطة في مصر كانت تعتمد على قوة الجند ، ولم تكن تحسب حساباً لإرادة الشعب ، أما محمد على فهو أول من استعان بالعامل

القومى الذى ظهر على مسرح الحوادث السياسية ، فهو من هذه الناحية ثمرة من ثمرات الحركة القومية ، وهو دور من أدوارها التاريخية ، اقترن ظهوره بظهور العامل القومى ، وكانت ولايته نتيجة اختيار وكلاء الشعب ومناداتهم به واليا مختاراً على مصر ، ولقد برهن بعد أن تولى الحكم على أنه أكبر بناء فى صرح القومية المصرية . فمحمد على هو غرس الإرادة القومية ، ولولا تلك الإرادة لدفنت عبقريته ومواهبه فى ولاية من أفاصى السلطنة العثمانية أو فى ناحية من نواحي « المابين » .

الصراع بين القوات الثلاث

تلك كلمة إجمالية وصفنا بها حالة مصر السياسية خلال السنوات التى أعقبت جلاء الفرنسيين ، والآن فلنتنقل من الإجمال إلى التفصيل ولنستعرض الحوادث من بدء الصراع بين القوات الثلاث إلى أن تمت مبايعة محمد على والياً على مصر بإرادة الشعب .

تعيين خسرو باشا والياً لمصر

أخذت القوات الثلاث يرقب بعضها بعضاً مدى شهرين كل منها بمرصد الأخرى لتحين الفرص لتحقيق أطماعها ، وفى خلال هذه المدة ظل يوسف باشا ضيا (الصدر الأعظم) فى معسكره بالقاهرة صاحب الحول والطول ينظم الإدارة ويعزل من شاء ويولى من شاء من صنائعه .

وتقلد محمد خسرو باشا ولاية مصر ، وهو أول وال عثمانى عين بعد جلاء الفرنسيين ، وكان قبل توليته كمتخدا (وكيل) حسين قبطان باشا ومن خاصة أصدقائه ، وهو الذى سعى له فى تقليده ولاية مصر^(١) وقد بقى الوالى بأبو قير بجانب رئيسه قبطان باشا واكتفى بإرسال خازن داره إلى القاهرة .

(١) كان خسرو باشا من ممالك قبطان باشا قبل أن يكون وكيله ، وقد وقع خلاف بين حسين باشا والصدر الأعظم على هذا التعيين لأن الصدر الأعظم كان يرغب إسناد ولاية مصر إلى محمد على أبى مرق أحد رؤساء الجيش العثمانى الذى جاء صحبة الصدر الأعظم ودخل معه القاهرة على أن يكون والياً لمصر . لكن تفوذه حسين قبطان باشا تغلب على رغبة الصدر الأعظم إذ كان حسين باشا مقرباً إلى السلطان سليم وله عنده حرمة الود وقد تربى معه . وكان له فضلاً عن ذلك مكانة ممتازة نالها من كونه مجدد العمارة التركية ومنشئ معظم سفنها فى ذلك العصر ، فاستطاع بنفوذه لدى السلطان أن يستصدر فرماناً بإسناد ولاية مصر إلى خسرو باشا .

كان الصدر الأعظم يتظاهر بالود للماليك ، فاغتره هؤلاء بظاهره ، على حين كان في الوقت نفسه يعمل على الفرقة وإيقاع الانقسام بينهم ليضربهم بعضهم ببعض تمهيداً للقضاء عليهم جميعاً عند سنوح الفرصة ، فعين محمد بك الأتاني أميراً على الصعيد وكان هذا المنصب مطمح كثير من البسكوات الماليك لحنقوا ونفسوا على الأتاني انفراده بهذه الإمارة ، واعتزم الصدر الأعظم وحسين باشا القبطان أن يأخذا رؤسهم غيلة ، وكانت هذه الأساليب مألوفة في ذلك العهد ، فاتفقا على أن يدعوا كل منهما فريقاً من زعماء الماليك إلى الاجتماع به ، الأول في القاهرة والثاني في الإسكندرية ، بحجة تكريمهم وتقليدهم سلطة الحكم في البلاد . فإذا ما اجتمعوا فنك بهم الجند أو غللوهم في الحبوس وأرسلوهم إلى الاستانة لتقرر الحكومة التركية في مصيرهم ما تراه .

المؤامرة على الماليك

في أوائل أكتوبر سنة ١٨٠١ أرسل حسين باشا يدعو كلا من عثمان بك الطنبورجي زعيم الماليك وخليفة مراد بك وعثمان بك البرديسي ومراد بك الصغير وغيرهم من البسكوات من بيت مراد بك (أتباعه) إلى زيارته بمعسكره بأبو قير ، وأعلمهم أن الغرض من هذه الزيارة هو الاتفاق معهم على تخويلهم سلطة الحكم في القاهرة بدلا من ابراهيم بك وأنصاره ، فلبى الماليك الدعوة وساروا لمقابلته في معسكره وبالغ في الحفاوة بهم وظلوا في ضيافته أياما عدة ثم عقد اجتماعا تلا عليهم فيه فرمانا قال إنه صدر من السلطان بإعلان رضاه عن الماليك وإبقائهم في مناصبهم التي كانوا عليها من قبل في حكومة البلاد ، ثم دعاهم لهذه المناسبة إلى زيارة بارجته الراسية في خليج أبو قير ، فنزل البسكوات في زورقه الخاص به لينقلهم إلى بارجة القبطان باشا ، وبعد أن ابتعد الزورق عن البر وأصبح في اللجة التقوا بمركب آت من عرض البحر وفيه جماعة من السعادة أخبروا أن لديهم رسالة باسم قبطان باشا ، فنهض الباشا وتركهم بحجة الاطلاع على الرسائل وانتقل إلى المركب الآخر وأمر أن يدفع به ، وبقى الماليك وحدهم ، فكانت هذه العلامة نذيراً بإفناذ المؤامرة ؛ فما هي إلا لحظة حتى أخذ الرصاص ينهال عليهم من رجال قبطان باشا ، وعدلوا أنهم وقعوا في الفخ الذي نصب لهم ، فدافع الماليك عن أنفسهم دفاعاً شديداً وقتلوا كثيراً من العساكر الذين عهد إليهم بالفتك بهم ، ولسكنهم غلبوا على أمرهم أمام كثرة الجنود والبحارة ، فقتل في هذه المؤامرة من زعماء الماليك عثمان بك الطنبورجي خليفة

مراد بك وعثمان بك الأشقر^(١) ومراد بك الصغير ، وعلى بك أيوب ، ومحمد بك المنفوخ ومحمد بك الحسيني ، وإبراهيم كتنخدا السناري (وكيل مراد بك) ، وجرح كل من عثمان بك البرديسي وحسين بك . وسليمان أغا ، جروحا بليغة ، وسيقوا مع باقي المماليك إلى بارجة قبطان باشا واعتقلوا بها .

كان الانجليز يجهلون تدبير المؤامرة ، فلما علموا بها غضب الجنرال هتشنسون غضباً شديداً واعتبرها عملاً عدائياً موجهاً ضد الانجليز ، وعدها وحشية ، وكادت الحرب تنشب بين الانجليز والعثمانيين لولا أن سلم حسين باشا القبطان بإطلاق سراح المماليك المسجونين وتسليم جثث القتلى منهم ، وانتقل المماليك من معسكر أبو قير إلى الاسكندرية ليسكنوا في حمى الانجليز ، واحتفل هؤلاء بدفن قتلى المماليك احتفالاً عظيماً بالاسكندرية ، وأرسل الجنرال هتشنسون نبأ هذه المؤامرة إلى الجيش الانجليزي المرابط بالجيزة .

رواية الجبرتي

وإليك ما ذكره الجبرتي من خبر هذه المؤامرة :

« وفيه^(٢) وردت الأخبار بأن حسين باشا القبطان لم يزل يتحيل وينصب الفخاخ للأمراء الذين عنده وهم محترزون منه وخائفون من الوقوع في حباله فكانوا لا يأتون إليه إلا وهم متسلحون ومحترزون وهو يلاطفهم ويبش في وجوههم إلى أن كان اليوم الموعد به فعزم عليهم في الغليون الكبير الذي يقال له « ازج عنبرلي » فلما طلعوا إلى الغليون وجلسوا فلم يجدوا القبودان فأحسوا بالشر . وقيل إنه كان بصحبتهم فحضر إليه رسول وأخبره أنه حضر معه ثلاثة من السعاة بمسكينة . فقام ليرى تلك المراسلة . فما هو إلا أن حضر إليهم بعض الأمراء وأعلمهم أنه ورد خط شريف باستدعائهم إلى حضرة مولانا السلطان وأمرهم بنزع السلاح فأبوا ، ونهض محمد بك المنفوخ وسل سيفه وضرب ذلك الكبير

(١) هو من ممالك إبراهيم وممن تبعوه إلى سورية بعد موقعة الأهرام وعاد معه صحبة الجيش العثماني ثم سافر مع حسين باشا القبطان إلى أبو قير وقتل في المؤامرة .

(٢) الخميس ٢٠ جمادى الثانية سنة ١٢١٦ (٢٨ أكتوبر سنة ١٨٠١)

فقتله فما وسع البقية إلا أنهم فعلوا كفعله وقتلوا من بالغليون من العساكر وقصدوا الفرار . فقتل عثمان بك المرادى الكبير ، وعثمان بك الأشقر . ومراد بك الصغير وعلى بك أيوب . ومحمد بك المنفوخ ومحمد بك الحسينى وإبراهيم كتنخدا السنارى وقبض على الكثير منهم وأنزلوهم المراكب ، وفر البقية مجروحين إلى عند الانكليز ، وكانوا واقعين عليهم من ابتداء الأمر فاجتاز الانكليز وانحازوا إلى اسكندرية وطردها من بها من العثمانيين وأغلقوا أبواب الأبراج وحضر منهم عدة وافرة وهم طواير بالسلاح والمدافع واحتاطوا بقبطان باشا من البر والبحر ، فتهيأ عساكره لحربهم فتمنعهم . فطلب الانجليز برونه بعساكره لحربهم ، فقال لم يكن بيننا وبينكم حرب . واستمر جالسا في صيوانه . فحضر إليه كبير الانجليز (الجنرال هتشنسون) وتسكلم معه كثيراً وصمم على أخذ بقية الأمراء المسجونين فأطلقهم له فقتلهم وأخذ أيضا المقتولين . ونقل عرضى (معسكر) الأمراء من محطتهم إلى جهة الإسكندرية ، وعملوا مشهداً للقتلى مشى فيه عساكر الانجليز على طريقتهم في موتى عظمتهم »

مؤامرة القاهرة

وحدث للماليك القاهرة ما حدث لإخوانهم بالاسكندرية ، غير أن الصدر الأعظم كان أقل فظاعة من حسين باشا

ذلك أنه دعا إبراهيم بك والبكوات المماليك الذين كانوا في القاهرة وضواحيها إلى ديوان عقده بقصره وأمر بتلاوة فرمان يشبه فرمان الذى تلاه حسين باشا في مؤامرة أبو قير ، وزاد فيه أن إبراهيم بك عين « شيخ البلد » وهو اللقب الذى كان يعرف به رئيس حكومة مصر في عهد المماليك ، وبعد أن أغدق عليهم الهدايا ومناهم بالعود الخلابه قلب لهم ظهر المحن وأمر بتلاوة فرمان آخر ينقض فرمان الأول ويقضى بالقبض عليهم وتخليتهم بالحديد وإرسالهم مخفورين إلى الاستانة ، وقد قبض عليهم فعلاً وسبقوا إلى سجن القلعة ، وأصدر يوسف باشا أوامره للجنود العثمانية بالقبض على كل من يعثرون عليه من المماليك في القاهرة وضواحيها وتهديد من يؤويهم من الناس ، وأنفذ طاهر باشا أحد قواد الجند الألبانيين بطائفة من جنوده ليقبض على محمد بك الألفى في الصعيد ، وذهبت طائفة أخرى إلى سليم بك أبى دياب أحد زعماء المماليك وكان مقبياً بالمنيل لاعتقاله ، ولكنها لم توفق إلى القبض عليه

لهربه واحتوائه بالجيش الانجليزى الذى كان رابطا بالجيزة ، وطلب سليم بك أبو دياب وباقى المماليك الذين لم يقبض عليهم حماية الانجليز فمؤم وطلب الجنرال هتشنسون من الصدر الأعظم لإطلاق سراح الأمراء المماليك وإلا أعلن الحرب على الجنود العثمانية ، وأنفذ لهذا الغرض الجنرال ستوارت Stuart فحضر إلى الجيزة يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٨٠١ ، فغشى الصدر الأعظم عاقبة القتال وأفرج عن السجناء .

رواية الجبرقى

وليك ما ذكره الجبرقى عن هذه المؤامرة :

« وفى يوم الثلاثاء (حادى عشر جمادى الثانية) (١) عمل الوزير الديوان وحضر عنده الأمراء فقبض على إبراهيم بك الكبير وباقى الأمراء الصناجق وحبسهم ، وأرسل طاهر باشا بطائفة من العساكر الأرنؤود إلى محمد بك الأناى بالصعيد وكان أشيع هروبه إلى جهة الواحات ، وذهبت طائفة إلى سليم بك أبى دياب وكان مقباً بالمنيل فلما أخذ الخبر طلب الحرب وترك حملته . فلما حضر العسكر إليه ولم يجدوه نهبوا القرية وأخذوا جماله وهى نحو السبعين وهجنه وهى نيف وثلاثون هجينا وذهبت إليه طائفة بناحية طرة فقاتلهم ووقع بينهم بعض قتلى ومجاريح ثم هرب إلى جهة قلى من على الحاجر ووقفت طائفة العسكر والأرنؤود بالأخطاط والجهات وخارج البلد يقبضون على من يصادفونه من المماليك والأجناد . ونودى فى ذلك اليوم بالآمن والأمان على الرعية والوجاقلية . وأطلق الوزير (الصدر الأعظم) مرزوق بك ورضوان كئخدا إبراهيم بك وسليمان أعا كئخذاه المسمى بالحنقى وأحاطت العسكر بالأمراء المعتقلين واختفى باقهم ونودى عليهم وبالتعهد لمن أخفاهم أو آواهم وبأنوا ليلة كانت أسوأ عليهم من ليلة كسرتهم وهزيمتهم من الفرنسيين (فى معركة الأهرام) وخاب أملهم وضاع تعبهم وطمعهم . وكان فى ظنهم أن العثملى يرجع إلى بلاده ويترك لهم مصر ويعودون إلى حالتهم الأولى يتصرفون فى الأقاليم كيفما شاؤوا . فاستمروا فى الحبس ثم نبين أن سليم بك أبى دياب ذهب إلى عند الانجليز والتجأ إليهم بالجيزة ،

هذا وقد ذهب المماليك بعد إطلاق سراحهم إلى الجيزة يصحبهم رجالهم وأتباعهم، وهناك التقوا بمن فروا من إخوانهم وانضم إليهم المماليك الناجون من مؤامرة أبو قير وباغ عددهم جميعا نحو ٢٥٠٠ مملوك وانفقوا على الانتقام من الأتراك وقد كسب الانجليز بهذا التدخل بجانب المماليك، وأصبحوا حماهم، وصار القوم صنائع لهم في قضاء مآربهم، على أن الحوادث السياسية خيمت آمال الفريقين فحلصت البلاد من المماليك ومن الدسائس الانجليزية كما سيراه القارىء فيما يلي انتهت المؤامرة على المماليك بالفشل، وتخرج مركز حسين باشا القبطان أمام حلفائه الانجليز، فلم يلبث أن سافر من أبو قير إلى الاسكندرية في أواخر نوفمبر سنة ١٨٠١ (رجب سنة ١٢١٦)

تغير وقتى في وجهة النظر الانجليزية

جمع المماليك شملهم واجتمع زعماءهم الذين نجوا من مؤامرة الاسكندرية بمن نجوا من مؤامرة القاهرة، وبقوا بالجيزة يعدون العدة لقتال الأتراك وينتظرون المدد والعون من الانجليز، على أن السياسة الانجليزية اقتضت أن تتظاهر مؤقتاً بالانزاع الحياد وأن تدخرهم لوقت آخر، ذلك أن فرنسا أخذت تقترب إلى الباب العالي بعد جلاء جيشها عن مصر وتسمى لإعادة روابط الصداقة القديمة التي كانت تصلها بتركيا وتراخت مدة الحملة الفرنسية، فلما زالت أسباب الجفاء سمعت في عقد معاهدة صلح من شروطها إعادة العمل بالمعاهدات القديمة بين الدولتين، أبرمت هذه المعاهدة في باريس يوم ٩ أكتوبر سنة ١٨٠١^(١) ووقعها الميسيو (تاليران) وزير خارجية فرنسا والسيد على أفندى سفير تركيا في باريس، فلما علمت بها الحكومة الانجليزية ساء لها أن ترى فرنسا منافستها وعدوتها اللدود تسترد مركزها في الشرق بالاتفاق مع تركيا، فأخذت تسعى لدى الباب العالي في منع التصديق على المعاهدة، وقد وجدت بادية الأمر فتورا من الحكومة التركية لما بلغها من معاونتها للمماليك العصاة وتأبيدها لمطالبيهم، فاضطرت انجلترا أن تنسك هذه المعاونة، وأنسكرت موقف الجنرال هتشينسون والجنرال ستوارت، واستدعت أولهما لإرضاء لتركيا، وسعى اللورد (إلجين) Elgin سفير انجلترا في الاسكندرية سعيًا متواصلًا

(١) مجموعة معاهدات الباب العالي للبارون دى تستالجزء الأول

ليحمل الباب العالى على أن يعدل عن تصديق المعاهدة ، وكان لنفوذه الفعال على شاطئه البوسفور أثر كبير فى نجاح مسعاه ، فلم يقبل الباب العالى من شروط المعاهدة إلا ما لا يتعارض مع مقدمات الصلح الى أبرمت بين فرنسا وانجلترا فى لندن بتاريخ أول أكتوبر سنة ١٨٠١ (١) ، وهذا معناه عدم التصديق على المعاهدة

رحل الجنرال هتشنسون إذاً عن مصر ، وخلفه فى قيادة الجيش الانجليزى الماجور جنرال اللورد كافان Cavan ، وجاء إلى مصر المستر ستران Straton سكرتير السفارة الانجليزية فى الاستانة يحمل تعليمات الحكومة البريطانية عن سياستها فى مصر ، وأفهم اللورد كافان والمستر ستران زعماء المماليك أن نصيحة الحكومة إلى « أصدقائها البسكوات » أن يقبلوا شروط الصدر الأعظم ، ومعنى ذلك أنها تخلت وقتاً ماعن حمايتهم

رأى المماليك أن ينظروا إلى أن تحين فرصة جديدة تساعدهم فيها الحكومة الانجليزية ، فانتقلوا فى أواخر يناير سنة ١٨٠٢ إلى الصعيد لينظموا قواتهم استعداداً لقتال الأتراك ، وأصبحت السلطة فى القاهرة والوجه البحرى فى يد الأتراك لا ينازعهم فيها منازع ، واعتزم الصدر الأعظم الرحيل إلى الاستانة ، فاستدعى محمد خسرو باشا ليسله زمام الحكم قبل ارتحاله ، فحضر إلى القاهرة يوم ٢١ يناير سنة ١٨٠٢ واستقر فى الحكم ثم ارتحل الصدر الأعظم إلى سورية يصحبه جزء من الجيش العثمانى ، وصار محمد خسرو صاحب الجبل والعقد فى العاصمة .

استنجد المماليك بنابليون وإخفاقهم

ولما وجد المماليك أن حمايتهم الانجليز تخلوا عنهم وتركوهم لأعدائهم الأتراك ، ولوا وجوههم شطر فرنسا ، فأنفذ ابراهيم بك وعثمان بك البرديسى رسولا يحمل إلى نابليون - وكان وقتئذ فنصلاً أول - كتابا يستنجدونه لتحقيق آمالهم ، وهذا الكتاب يعطيك صورة من نفسيتهم قالوا فيه :

« لقد هدمتم سلطتنا التى كانت ثابتة فى مصر من سنوات عديدة ، والآن يحق لنا أن نلجأ إلى عطفكم لتعيدوا لنا تلك السلطة ، لقد وقع الانقسام فى صفوفنا بعد وفاة مراد بك ، وصرنا من ذلك إلى أحوال نعسة هى التى اضطررنا أن نلجأ إلى الحماية

(١) هى المقدمات التى وضعت فيها قواعد معاهدة الصلح المعروفة بمعاهدة اميان

الانجليزية ، وان الأتراك قد أعلنوا علينا حرباً ظالمة ، ولا غرو فإن الغدر من أخص صفاتهم ، وأن لدينا من القوة ما يمكننا من مقاومتهم ، ولكننا في حاجة إلى عضد يأتينا من الخارج ، فأليك نلجأ ، ومنك نطلب النجدة ، وفيك وضعنا كل ثقتنا ، فساعدنا بوساطتك لدى الباب العالي ، ونحن على استعداد لقبول الشروط التي تفرضونها علينا ، وعرفانا لجيالك فإننا نتعهد بأن نخمس تجارة الأمة الفرنسية بأعظم المزايا »

وقد سافر الرسول بهذا الكتاب إلى ثغر (ليفورن)^(١) وتسلمه منه الجنرال برون Bron حاكم الثغر ، فبعث به إلى باريس ليطلع عليه نابليون ، ولكنه لم يعره التفاتا ، لأن سياسة فرنسا في ذلك الوقت كانت متجهة إلى كسب صداقة تركيا ، وكان السفير العثماني قد وصل إلى باريس منذ عهد قريب وابتدأت المفاوضات لإعادة العلاقات الودية بين الدولتين ، فلم يجد نابليون وجها لمعاوضة المماليك ، وأرسل إلى حاكم ليفورن يطلب إليه ألا يسمح لرسول المماليك بالذهاب إلى باريس.

وهكذا كان المماليك يتحولون من ناحية إلى أخرى يبحثون عن يحمون به يستعيدوا في البلاد سلطتهم المفقودة .

جلاء الانجليز عن الجزيرة

أخذ مركز خسرو باشا يبدو وطيدا في مصر ، وزاد في ثباته أن الحكومة الانجليزية أرسلت إلى الجيش الم رابط بالجزيرة تأمره بالعودة إلى الهند ، فانسحب الجيش الانجليزي من معسكره في شهر مايو سنة ١٨٠٣ ، وسلم الجزيرة إلى خسرو باشا ، ومضى إلى السويس فأقلعت به السفن إلى الهند في أوائل يونيه ، ولم يبق من جيش الاحتلال الانجليزي في مصر سوى القوى الم رابطة بالاسكندرية

ولإليك خلاصة ما ذكره الجبرقي في صدد الجلاء عن الجزيرة ، قال في حوادث

٩ محرم سنة ١٢١٧ (٢) :

« أخذ الباشا (خسرو باشا) في الاهتمام بتشهيل الانكليز المسافرين إلى السويس

(١) من ثغر لإيطاليا وكانت وقتئذ تحت سيطرة فرنسا

(٢) يوافق ١٢ مايو سنة ١٨٠٣

والقصير وما يحتاجون إليه من الجمال والأدوات وجميع ما يلزم ولما حضر الانكليز إلى عند الباشا دعوه للحضور إلى عندهم فوعدهم ليوم الجمعة ، فلما كان يوم الجمعة ثالث عشر ركب الباشا وصحبته طاهر باشا في نحو الخمسين ، وعدى إلى الجزيرة بعد الظهر ، ووقفت عساكر الانكليز صفوفا رجالا وركبانا وبأيديهم البنادق والسيوف وأظهروا زينتهم وأبهتهم وذلك عندهم من التعظيم للقادم ، فنزل الباشا ودخل القصر فوجدهم كذلك صفوفا بدلهيز القصر ومحل الجلوس ، فجلس عندهم ساعة زمانية ، وأهدوا له هدايا وتقادم ، وعند قيامه ورجوعه ضربوا له عدة مدافع على قدر ما ضرب لهم هو عند حضورهم إليه ، فقد أخبرني بعض خواصهم أن الباشا ضرب لهم سبعة عشر مدفعا ، ولقد عدت ما ضربه الانكليز للباشا ، فكان كذلك ،

وذكر الجبرتي أن عددهم عند جلائهم نحو خمسة آلاف « واستمرت طائفة كبيرة من الانكليز بالاسكندرية حتى يريد الله »

وقال أيضا في حوادث ١٤ محرم (١) :

« شرع الانكليز المتوجهون إلى جهة السويس في تعدية البر الشرقى ونصبوا وطاقهم عند جزيرة بدران ، وبعضهم جهة العادلية ، وذهبت طائفة منهم جهة البر الغربى متوجهين إلى القصير ، واستمروا يعدون عدة أيام ويحضروا كبارهم عند الباشا (خسرو باشا) ويركبون فيرمون لهم مدافع حال ركوبهم إلى أماكنهم ، وفي يوم الاثنين ثانى عشرين عدى حسين بك وكيل القبطان إلى الجزيرة وتسلمها من الانكليز وأقام بها وسكن بالقصر ،

الحرب بين الأتراك والمماليك

كان خسرو باشا يعتمد في تأييد سلطته على الجيش التركى المؤلف من نحو سبعة عشر ألف مقاتل موزعين بين العاصمة والبنادر المهمة ، ومعظمهم من الجنود الألبانيين (الأرناؤد) ، ومن رؤسائهم طاهر باشا وحسن باشا ومحمد على باشا ، على أن هذه السلطة لم تكن ثابتة وطيدة لأنها تتركز على جيش لا نظام فيه مؤلف من جنود ميايين إلى التمرد والعصيان .

بدأ خسرو باشا حركاته الحربية بتجريد حملة على المماليك في الصعيد للقضاء عليهم ، فأنفذ إليهم جزءاً من جيشه بقيادة حسن باشا ، وكان المماليك قد انتشروا في الفيوم وبني سويف والمنيا .

فلما علموا بزحف الجيش العثماني على الصعيد أرسلوا إلى خسرو باشا يطلبون إليه وقف القتال لمدة خمسة أشهر ريثما يعرضون الأمر على الباب العالي ليؤكدوا له إخلاصهم ، ولكن خسرو باشا رأى في هذا الطلب دليل ضعف فأجابهم بأن لا كلام بينهم وبينه إلا أن يحضروا إلى مصر ويظهروا خضوعهم كما فعل زميلهم عثمان بك حسن من قبل ، وقد أعطاهم الأمان على ذلك مستثنياً إبراهيم بك وعثمان بك البرديسي ومحمد بك الآلاني ومسلم بك أبا دياب .

هزيمة الأتراك في 'هو'

كان هذا الجواب إذلالاً لزعماء المماليك ، ففسوا مؤقناً أحقادهم واختلافاتهم القديمة واتحدوا على قتال الأتراك ، فالتقوا بهم على مقربة من ('هو')^(١) وكان الترك بقيادة البكباشي أجدر بك ، فظهر المماليك عليهم وغلبوهم واستولوا على مدافعهم وقتلوا أجدر بك .

قال الجبرتي في هذا الصدد :

« وفيه^(٢) وردت الأخبار بوقوع حادثة بين الأمراء القبالي (المماليك) والعثمانية وذلك أن شخصا من العثمانية يقال له (أجدر) موصوفا بالشجاعة والإقدام أراد أن يكبس عليهم على حين غفلة ليسكون له ذكر ومنقبة في أقرانه ، فركب في نحو الألف من العسكر المعدودين وكانوا في طرف الجبل بالقرب من الهو فسبق العين إلى الأمراء وأخبرهم بذلك فلما توسطوا سطح الجبل وإذا بالمصرية (المماليك) أقبلت عليهم في ثلاثة طوابير فأحاطوا بهم فحضر العثمانية بنادقهم طلقا واحداً لا غير ، ونظروا وإذا بهم في وسطهم وتحت سيوفهم ففتكوا بهم وحصدوهم ولم ينج منهم إلا القليل ، وأخذ كبيرهم أجدر المذكور أسيراً ، وانجالت الحرب بينهم وأحضروا أجدر بين يدي الآلاني ، فقال له لاى شىء سموك أجدر ، فقال الأجدر معناه الآلاني

(١) (هو) قرية في الصعيد تابعة لمركز نجم حمادى الآن بديرية قنا .

(٢) ٩ جمادى الأولى سنة ١٢١٧ (٧ سبتمبر سنة ١٨٠٢) .

العظيمة ، وقد صرت من أتباعك ، فقال لكن يحتاج الأمر إلى تطريكم وإخراج
سمك أولا ، وأمر به فأخذوه وقتلوه وأسنانهم ثم قتلوه ، وأخذوا جميع ما كان معهم
ومن جملة ذلك أربعة مدافع كبار ، (وفيه) قلدوا أحمد كاشف سليم إمارة أسيوط
وعزل أميرها مقدار بك العثماني بسبب شكوى أهل النواحي من ظلمه ،

ويقول الجبرقي إن من أسباب هزيمة الجنود العثمانية في الصعيد كثرة المظالم التي
ارتكبوها في البلاد والغرامات التي فرضوها على الأهالي والنهب والتخريب فنفر
منهم سكان الأرياف وانضموا إلى المماليك في محاربتهم ، على أن المماليك لم يقلوا
عن الأتراك في النهب وارتكاب المظالم

معركة دمنهور

٢٠ نوفمبر سنة ١٨٠٢

وفي أثناء ذلك تغير موقف الانجليز في مصر وعادوا إلى خطتهم الأولى في معاونة
المماليك ، ذلك أن الحكومة الفرنسية تغلبت على مساعي السيادة الانجليزية وعقدت
هي وتركيا معاهدة صلح بتاريخ ٢٦ يونيو سنة ١٨٠٢ صدق عليها السلطان في ٢٥
أغسطس من تلك السنة ، فساءها ذلك التقرب بين الدولتين ، وعادت تدس لتركيا
في مصر واستخدمت لهذا الغرض صنائعها القداماء (المماليك) ، وعينت الجنرال
ستوارت Stewart قائدا للقوات البريطانية في الاسكندرية بدلا من اللورد كافان ،
وكانت خطته أن يؤيد المماليك في مطالبهم

سعى الجنرال ستوارت لدى حكومة الاسكندرية ثم لدى خسرو باشا في أن يعيد
للمماليك امتيازاتهم القديمة في الحكم . ولكن مساعيه لم تصادف إلا لرفضاً ، وزحف
المماليك على الوجه البحري واتصلوا اتصالاً وثيقاً بالجنرال ستوارت ، ومن المحقق
أنهم لولا اعتمادهم على معونة الجيش الانجليزي المربط في الاسكندرية لما زحفوا
على الوجه البحري ولبقوا ممتنعين بالصعيد

وصل المماليك في زحفهم إلى مديرية البحيرة ، فجرد خسرو باشا جيشين
لمحاربتهم ، أولهما بقيادة يوسف كتنخدا (وكيل الباشا) ، والآخر بقيادة محمد علي ،
وامتنع المماليك بقيادة عثمان بك البرديسي ومحمد بك الآفاني ، في ٢٠ نوفمبر سنة

١٨٠٢ هـ جيش يوسف بك على المماليك بالقرب من دمنهور ، فانتصر عليه
البرديسي انتصاراً عظيماً مع قلة عدد رجاله بالنسبة لعدد الجنود العثمانية ، وفقد الجيش
العثماني في هذه المعركة نحو خمسة آلاف بين قنيل وأسير ، واستولى المماليك على
مدافع الجيش العثماني وذخيرته

رواية الجبرتي

وإليك مذكره الجبرتي عن معركة دمنهور :

« وفي خامس عشرين رجب سنة ١٢١٧ (١) تواترت الأخبار بوقوع معركة بين
العثمانيين والأمراء المصرية (المماليك) بأراضي دمنهور وقتل من العساكر العثمانية
مقتلة عظيمة ، وكانت الغلبة للمصريين وانتصروا على العثمانيين ، وصورة ذلك أنه
لما تراءى الجمعان واصطفت عساكر العثمانيين الرجال ببنادقهم واصطف الخيالة
بخيولهم ، وكان الأتقي بطائفة من الأجناد نحو الثمانمائة قريباً منهم وصحبهم جماعة
من الانكليز فلما رأوهم مجتمعين لحربهم قال لهم الانكليز ماذا تصنعون ؟ قالوا
نصدمهم ، ونحاربهم ، قال الانكليز انظروا ما تقولون ، إن عساكرهم الموجهين
إليكم أربعة عشر ألفاً وأنتم قليلون ، وقالوا النصر بيد الله ، فقالوا دونكم ، فساقوا
إليهم خيولهم واقتحموا إلى الخيالة فقتل منهم من قتل ، فانهزم الباقون وتركوا
الرجال خائفهم ، ثم كروا على الرجال ، فلم يتحركوا بشيء وطلبوا الأمان ، فساقوا
منهم نحو السبعائة مثل الأغنام ، وأخذوا الجبخانه (الذخيرة) والمدافع وغالب
الجملة ، والانكليز وقوف على علوة ينظرون إلى الفريقين بالنظارات » .

كان جيش محمد علي على مقربة من الواقعة ، لكنه لم يحرك ساكناً لئلا يجده يوسف
كتخدائاً قائداً للجيش الآخر . ذلك أنه رأى من مصلحته أن يدع الترك والمماليك
يتطاحنان . فيفنى بعضهم بعضاً . وبذلك تخلص البلاد من الفريقين معاً ويتوصل
هو بإرادة زعماء الشعب إلى الاستيلاء على زمام الحكم . وقد تحقق خسرو باشا
أن (محمد علي) تعتمد الامتناع عن نجدة يوسف بك ، فأزمع التشكيل به سراً ،
وكتب إليه أن يوفيه في منتصف الليل لمخبرته في بعض الشئون ، فأدرك محمد علي

مراده ولم يجب الدعوة ، وبدأ الصراع من ذلك الحين بين الاثنين ، وأخذ كل منهما يسعى للتخلص من خصمه ، وإلى ذلك يشير الجبرتي بقوله : فكانت بينهم (١) واقعة عظيمة برأى من الانكليز ، وكانت الغلبة له (لمحمد بك الألفي) على العسكر وأخذ منهم جملة أسرى ، وانهمزم الباقون شر هزيمة ، وحضروا إلى مصر في أسوأ حال ، وهذه الكسرة كانت سبباً لحصول الوحشة بين الباشا (محمد خسرو باشا) والعسكر فإنه غضب عليهم وأمرهم بالخروج من مصر فطلبوا علاتهم (رواتبهم) فقال بأى شيء تستحقون العلات ولم يخرج ، وكان المشار إليه فيهم محمد علي ، فأراد الباشا اصطياده فلم يتمكن منه أشدّة احتراسه »

جلاء الانجليز عن مصر

ورحيلهم عن الاسكندرية

في ٢٧ مارس سنة ١٨٠٢ أبرم الصلح المعروف بصاح (أميان) Amiens بين فرنسا وانجلترا وهولندا وأسبانيا ، ومن شروطه جلاء الانجليز عن مصر ، لكنهم رغم عهودهم أخذوا يماطلون في الجلاء ويعملون باتفاقهم مع صنائعهم الماليك على إطالة أجل احتلالهم ، وقد كان نابليون ينظر بعين القلق إلى مماطلة انجلترا في الجلاء عن مصر ، لأنه رأى بثاقب نظره أن رسوخ قدمهم فيها يهدد السلام في البحر الأبيض المتوسط وما يليه وييسر نفوذ انجلترا وسيطرتها في نواحيه وفي البلاد المفضية إليه ويمسكها زمام التجارة في الشرق

فلما رأى مماطلتها في الجلاء أنفذ إلى مصر السكولونل سيباستيانى Sebastiani ليتعرف نيات الانجليز ويدرس الحالة في مصر (٢) ، والسكولونل سيباستيانى هذا من خاصة رجالات نابليون الذين حاربوا تحت لوائه واعتمد عليهم في مهمات سياسية وقد عهد إليه برحلة سياسية إلى الشرق وخاصة في مصر وتركيا سنة ١٨٠٢ ، ورفعته إلى درجة قائد فرقة بعد واقعة « استرلنز » ثم عينه سفيراً لفرنسا في تركيا وبقي على هذا المنصب إلى سنة ١٨٠٧

(١) الترك والماليك

(٢) مراسلات نابليون الجزء الثامن وثيقة رقم ٦٢٧٦ و ٦٣٠٧

جاء سباستياني إلى الاسكندرية خلال شهر ١ أكتوبر سنة ١٨٠٢ ، وطالب الجنرال ستوارت قائد القوات البريطانية بالجلء عنها ، لكنه رأى منه العزم على البقاء وألقى الانجليز غير مكترئين لعهودهم ، وكذلك شأنهم في كل عهود الجلء التي قطعوها على أنفسهم قديماً وحديثاً ، وما أشبه الليلة بالبارحة !

ولما علم المصريون أن الكولونل سباستياني قادم ليستعجل الانجليز في الجلء عن البلاد ، قابله كبارهم وعلماءهم بالحفاوة والإكرام ، وقد أُلِّع في تقريره الذي رفعه إلى نابليون بعد عودته إلى مبلغ ما لقيه منهم من كرم الوفاة ، وذكر أسماء كبار مصر في ذلك العصر الذين قابل بعضهم ، كالسيد عمر مكرم والسيد محمد السادات والشيخ الشرقاوى والشيخ سليمان الفيومى والشيخ محمد المسيرى والسيد احمد المحروقي (١) ، وكذلك قوبل من خسرو باشا الوالى بالإكرام لأن العلاقات بين تركيا وانجلترا اعتراها وقتئذ شيء من الجفاء والفتور لتلك الانجليز في الجلء ومعاونتهم المماليك واتجاه الباب العالى إلى مصادقة فرنسا

أحدثت زيارة الكولونل سباستياني ضجة في مصر ، وأخذ الناس يخوضون في حديثها ، وقد أشار إليها الجبرتي في حوادث شهر جمادى الثانية سنة ١٢١٧ ، وهذا يدل على أنها من الحوادث البارزة في ذلك الحين ، وهو وإن لم يذكر اسم الكولونل إلا أن سياق العبارة وتاريخها وقراءتها تدل بيقيننا على أنه يعنى الكولونل سباستياني ، قال : « وفيه ورد الخبر بورود مركب من فرنسا وبها إلجى (٢) وقنصل وصحبتهما عدة فرنسيس ، فعمل لهم الانكليز شنكا ومدافع بالاسكندرية ، فلما كان ليلة الثلاثاء ثامن عشر منه وصل ذلك الإلجى وصحبته خمسة من أكابر الفرنسيس إلى ساحل بولاق ، فأرسل الباشا لمسلقاتهم خازنداره وصحبته عدة عساكر خيالة وبأيديهم السيوف المسلوطة ، فقابلوهم وضربوا لهم مدافع من بولاق والجيزة والأزبكية ، وركبوا إلى دار أعدت لهم بحارة البنادقة وحضروا في صبحها عند الباشا وقابلوه وقدم لهم خيلا

(١) تقرير الكولونل سباستياني المنشور بتاريخ ٣٠ يناير سنة ١٣٠٨ والوارد في مجموعة معاهدات الباب العالى للبارون دى تستا De Testa الجزء الثانى
(٢) كلمة إلجى مأخوذة من الفارسية (إلجى) ومعناها سفير

معددة وأهدى لهم هدايا وصاروا يركبون في هيئة وأبهة معتبرة ، وكان فيهم جبير^(١) ترجمان بونا بارت ،

وقال في حوادث رجب سنة ١٢١٧ (نوفمبر ١٨٠٢) :

« وفي خامسه يوم الثلاثاء سافر الإلجى الفرنساوى وأصحابه فنزلوا إلى بولاق وأمامهم بمالك الباشا بزيينهم وهم لا بسون الزروخ والخذ وبأيديهم السيوف المسلوله وخلفهم العبيد المختصة بالباشا ، وعلى رؤوسهم طراير حر ، وبأيديهم البنادق على كواهلهم ، فلم يزالوا صحبتهم حتى نزلوا بيت راشو^(٢) بولاق ثم رجعوا ثم نزلوا المراكب إلى دمياط ، وضربوهم مدافع عند تعويمهم السفن ،

انتهى السكولونل سباستيانى من رحلته بمصر ، وغادرها إلى بعض الثغور السورية ثم إلى الاسكندرية ثم رجع إلى فرنسا وقدم إلى نابليون تقريرا عن مهمته ، وما فقه نابليون يطالب إنجلترا بالجلاء حتى اضطرت أن تجلو عن مصر وأرسلت أوامرها بذلك إلى الجنرال ستوارت

موقف الممالك بعد جلاء الانجليز

أبلغ الجنرال ستوارت زعماء الممالك أوامر حكومته بجلاء الجنود الانجليزية عن مصر ، فوقع هذا الخبر كالصاعقة على رؤوسهم ، لأنهم كانوا ينظرون إلى الانجليز كحماة وأولياء لهم ، وقد نصحتهم الجنرال ستوارت بالعودة إلى الصعيد في انتظار ما تبذله الحكومة الانجليزية من المراسل لصالحهم ، وكان ستوارت قد خبر نفسية الممالك ، وعجم عودهم ، فاستيقن أنهم قوم آفاقيون لا يهتمهم إلا قضاء ألباناتهم ولو باعوا في سبيلها حقوق مصر ومصالحها ، ورأى أن إنجلترا رغم جلائها عن مصر تستطيع أن تدخرهم في المستقبل لتحقيق أطماعها في وادى النيل وأن تتخذهم أداة

(١) هو الميسو جوير Jaubert أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون التي اصطحبها نابليون في مصر مدة الحملة الفرنسية وقد جاء في تقرير السكولونل سباستيانى أنه جاء معه في رحلته إلى مصر ، وهذا يؤيد رواية الجبرتي
(٢) هو الميسو روسي Rosetti قنصل النمسا في مصر ، وقد ورد اسمه في تقرير السكولونل سباستيانى

لبسط نفوذها في البلاد ، فرغب إلى محمد بك الآلاني أن يسافر إلى إنجلترا ليطلب منها مساعدة الممالك على حكم البلاد ويساومها في هذا الشأن .

ولم يكن الآلاني أقل منه رغبة في الرحلة إلى إنجلترا ، فقد كانت هذه الرحلة تحتاج في صدره منذ حين ، حتى ذهب بعض المؤرخين إلى أنه هو الذي عرض على الجنرال ستوارت أن يأذن له باصطحابه إلى لندن ، وسواء أكان الآلاني هو المبتكر لفكرة الرحلة أم أن الجنرال ستوارت هو الموعز بها إليه فما لا جدال فيه أنه رحل إلى لندن معتمداً على وعود الجنرال ستوارت وإغرائه ، قال (فولابل) في هذا الصدد (١) « لقد دعا الجنرال ستوارت الآلاني بك إلى مغادرة مصر والسفر إلى لندن ليبرهن للحكومة الانجليزية على سهولة الاستيلاء على مصر واستغلالها سياسياً واقتصادياً ، ولما كان عليه الآلاني من الطمع والتطلع إلى المنافع اغنم هذه الفرصة وعزم على استغلالها لصالح نفسه دون أن يتعرف الغاية من وراء هذه الحركة ، ولم يفهم أن الانجليز إذا سمحوا له باصطحابهم فلن يكون لديهم رهينة لبقاء الممالك على ولائهم ثم ليتخذوه آلة مسخرة في أيديهم يستخدمونه كيفما يريدون لمحاربة زملائه أو لمحاربة الأتراك ، وبدلاً من أن يبحث في هذه الناحية نظر إلى رحلته كفرصة للظهور بمظهر الأبهة في البلاد الأوروبية ووسيلة إلى تحقيق أطماعه في الحكم ،

اعتزم الآلاني إذاً أن يرحل إلى إنجلترا ليعرض عليها ولاءه وولاء زملائه

وأتى الجنرال ستوارت معدات الجلاء ، ثم سلم قلاع الاسكندرية وأبراجها إلى خورشيد باشا محافظ المدينة يوم ١٤ مارس سنة ١٨٠٣ ، وأقلعت العمارة البريطانية من الثغر يوم ١٦ نقل الجنود الانجليز وعددهم ٤٠٠ وع ٤٠٠ مقاتل

وبذلك خلصت مصر من الاحتلال الانجليزي الأول .

سافر محمد بك الآلاني صحبة العمارة الانجليزية وأخذ معه أموالاً طائلة مما نهبه في الوجه القبلي مدة إمارته .

قال الجبرتي : « وفي يوم الأربعاء ٢٢ ذى القعدة سنة ١٢١٧ تحقق الخبر بنزول

(١) في كتابه (مصر الحديثة) وهو معاصر لتلك الحوادث

طائفة الانكليز وسفرهم من نهر الاسكندرية في يوم السبت حادى عشر ونزل بصحبتهم محمد بك الألفى وصحبته جماعة من أتباعه »

تجدد الحرب بين المماليك والأتراك

صار الأتراك أصحاب الحول والطول في الاسكندرية ، فأصبحت خطرا على المماليك بعد أن كانت ملجأ لهم مدة الاحتلال البريطانى ، ولم يطمئنوا إلى مقامهم بالبحيرة رغم انتصارهم في دمنهور فانسحبوا بقيادة عثمان بك البرديسى إلى الصعيد حيث كان الجيش التركى محتلا بعض البنادر الكبيرة وأهمها المنيا وأسيوط وجرجا

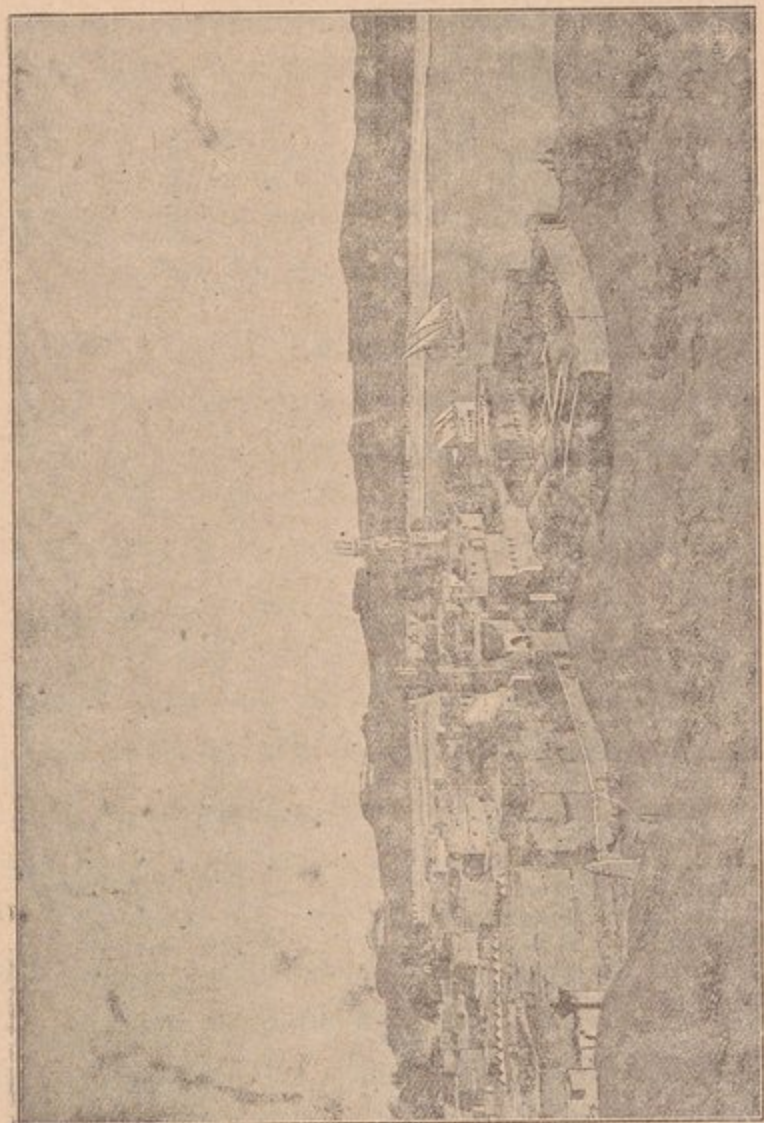
احتلال المماليك المنيا

فهاجم البرديسى المنيا واحتلها بعد قتال شديد ، وكانت الجنود العثمانية تدافع عنها بقيادة حاكم المدينة (سليم كاشف) وهو من المماليك الذين انضموا إلى الأتراك فلما تم للمماليك احتلال المنيا أعملوا فيها النار وقتلوا من فيها من الأهالى والجنود

وإليك ما ذكره الجبرتى في هذا الصدد :

« وفيه (١) وردت أخبار بأن الامراء المصرية (المماليك) وصلوا إلى منية ابن خصيب ، فأرسلوا إلى حاكمها بأن ينتقل منها ويعدى هو ومن معه من العسكر إلى البر الشرقى حتى أنهم يقيمون بها أياماً ويقضون أشغالهم ثم يرحلون ، فأبوا عليهم وحصنوا البلدة وزادوا في عمل المتاريس ، وحاكمها المذكور سليم كاشف تابع عثمان بك الطنبرجى المرادى المقتول فإنه سالم العثمانيين وانضم إليهم فألبسوه حاكما على المنية وأضافوا إليه عساكر فذهب إليها ولم يزل مجتهدا في عمل متاريس ومدافع حتى ظن أنه صار في منعة عظيمة ، فلما أجا بهم بالامتناع حضروا إلى البلدة وحاربهم أشد المحاربة مدة أربعة أيام بلياليها حتى غلبوا عليهم ودخلوا البلدة وأطلقوا فيها النار وقتلوا أهلها وما بها من العسكر ، ولم ينج منهم إلا من ألقى نفسه في البحر (النيل) وعام إلى البر الآخر أو كان قد هرب قبل ذلك ، وأما سليم كاشف فانهم قبضوا عليه حيا وأخذوه أسيرا إلى ابراهيم بك فوبخه وأمر بضربه فضر به علقه بالنبايت »

النيا كما كانت في أوائل القرن التاسع عشر



كان لاحتلال المنيا أثر كبير في سير القتال لأنه جعل الملاحة في النيل تحت رحمة المالك واستطاعوا أن يمنعوا وصول الغلال من الصعيد إلى القاهرة والوجه البحرى ، وصارت الحاميات العثمانية في أسبوط وجرجا في خطر ، وقد أسرف الفريقان المنحاربان في ظلم الأهالى وسلب أموالهم ، فكلموا مروا بالقرى طلبوا من أهلها دفع الأتاوات والغرامات ووضعوا أيديهم قوة واقتداراً على ما يملكه الناس من مال وحاصلات ، فضج الناس من مظالم الفريقين وتمنوا الخلاص منهما

ثورة الجنود على الوالى

هال خسرو باشا استيلاء المالك على المنيا ، وعزم على تجريد جيش بحارهم ويقف تقدمهم ، فاستدعى قوات طاهر باشا ومحمد على ، فوصل الجيشان إلى القاهرة ودخل جنود طاهر باشا المدينة وبقي جنود محمد على في ضواحيها ، ورأى محمد على أن الفرصة سانحة للنخاض من خسرو باشا ، فأوعز هو وطاهر إلى الجنود - ومعظمهم من الأرنؤود - بالمطالبة برواتبهم المتأخرة ، فسرعان ما لبوا الدعوة وتمردوا وخاصة لما علموا بمشروع تجريدهم على الصعيد

تكررت حوادث تمرد الجنود حتى صارت القاهرة في فتنة مستمرة ، ففي ٢٣ أبريل سنة ١٨٠٣ ذهب جماعة من رؤساء الجنود إلى خسرو باشا يطالبون برواتبهم المتأخرة فأحاطهم على الدفتردار (١) (مدير الشؤون المالية) فذهبوا اليه فأحاطهم هذا على محمد على ، فذهبوا إليه ، وكان قد وعدهم بدفع رواتبهم في ذلك اليوم ، لكنه اعتذر إليهم بأنه لم يقبض شيئاً ، فثار الجنود أمام بيت محمد على ، ولم يخش شرهم لأنه يعلم أن هذه الفتنة ليست موجهة ضده وإنما وقعت بإيعاز منه ، وذاع خبر الفتنة في المدينة فتوجس التجار شراً مستطيراً لأن الجنود اعتادوا عند تمردهم للمطالبة برواتبهم المتأخرة أن يبيحوا لأنفسهم النهب والسلب ، فأقفل التجار حوانيتهم وأخذوا ينقلون منها إلى بيوتهم ماخف حمله ، فنجاة به من النهب ، ثم وعد الجنود بدفع رواتبهم بعد ستة أيام ، فسكنت الفتنة ، والظاهر أن هذا السكون لم يكن إلا وقتياً وأن الأيام الستة انقضت في العمل على استئناف التمرد

(١) خليل افندى الرجائى .

ففي اليوم التاسع والعشرين من شهر ابريل احتشد الجنود المتمردون وقصدوا بجمعهم إلى ميدان الأذربكية وحاصروا منزل الدفتردار وطالبوه برواتبهم ، فبعث إلى خسرو باشا يطلب أن يوافيه بالمال ليكمل ما عنده ويدفع ما يستطيع دفعه من زواجب الجند ، فكان جواب الباشا أن أمر بضرب الجند بالمدافع من القلعة ، فثارت نائرتهم ونهبوا منزل الدفتردار وعظمت الفتنة وتسامع الناس دوى المدافع والبنادق فساد الذعر في المدينة وأغلق التجار حوانيتهم ، ولم يعبأ خسرو باشا بهذه الفتنة وظن أن في استطاعته إخمادها بالقوة ، وجاء إليه طاهر باشا يتظاهر بالوساطة بينه وبين الجند ، فرفض خسرو باشا مقابله وأمره أن يلزم داره واستمر القتال إلى اليوم التالي (السبت الموافق ٣٠ ابريل - ٩ محرم) ناشباً بين الجند المتمردين والعسكر المواليين للوالى وتمسكن طاهر باشا وجنوده من الاستيلاء على القلعة وأخذوا يضربون قصر خسرو باشا بالمدافع وأصبحت المدينة في قبضتهم

فأسقط في يد الباشا ، واستمرت الفتنة إلى يوم الأحد ، فاستولى الجنود الأرناؤود على أهم مواقع المدينة وأضرموا النار في قصر الوالى^(١) وحاصروه ، فلم يسع خسرو باشا إلا أن يلوذ بالهرب وفر هو وعائلته وحاشيته وبقية من جنوده ، وخرج من المدينة وقصد إلى قليوب فالمنصورة فدمياط واستقر بها ، وأخذ يستعد لاسترجاع ولايته ، ومن غريب أمره أنه وهو في محنته وفي فراره ضرب الضرائب على البلاد التي مر بها وأخذ من الأموال ما استطاع نهبه ، ذكر الجبرقى أنه فرض على أهل المنصورة تسعين ألف ريال وضرب الضرائب على كثير من بلاد الدقهلية والغربية ، وبفرار خسرو باشا انتهت ولايته الفعلية ، فكانت مدتها سنة وثلاثة أشهر وواحداً وعشرين يوماً ، وكان كما يقول الجبرقى « سبيء التدبير لا يحسن التصرف ، يميل إلى سفك الدماء ولا يضع شيئاً في محله » . وقال عنه إنه في آخر مدته داخله الغرور وطاوع قرناء السوء المحدثين به والتفت إلى المظالم وفرض الضرائب على الناس وأهل القرى « حتى أنهم حرروا دفاتر فردة (ضريبة) على عامة الدور والأماكن بأجرة ثلاث سنوات ، وقيل أشنع من ذلك ، فأنقذ الله عباده وسلط عليه جنده وعساكره وخرج مرغوماً مقهوراً » .

(١) هو بيت محمد بك الأتلى القديم بالأذربكية الذى سكنه نابليون ثم كبير ثم منو وكان كل منهم يدخل فيه تحسينات وعمارات جديدة وسكن به الوالى خسرو باشا وأدخل فيه عمارة كبيرة وقد التهمت النيران مبانيه العظيمة حتى لم يبق منه إلا الجدران

تعيين طاهر باشا قائممقاماً

ثم مقتله

وفي مساء هذا اليوم كانت المدينة في يد قبضة طاهر باشا قائد الجنود الألبانيين (الأرناؤود) وصار منصب الولاية على مصر شاغراً ، فطلب طاهر باشا إلى المشايخ وكبار العلماء ، والوجاقلية أن يختاروا من يشغل هذا المنصب

فاجتمع المشايخ يوم الجمعة ١٤ محرم سنة ١٢١٨ (٦ مايو سنة ١٨٠٣) ببית القاضى (دار المحكمة) وذهبوا صحبتهم إلى بيت طاهر باشا وأعلنوه باختياره قائممقام ، إلى أن تحضر له الولاية أو يعين وال آخر ، وطلبوا منه رفع المظالم التي كان الناس يشكون منها ، وفي هذا المجلس نفسه عرض المشايخ رسالة من البسكوات المماليك في الوجه القبلى أرسلوها قبل حدوث الفتنة العسكرية التي انتهت بخلع خسرو باشا يعرضون فيها الصلح والكف عن القتال ، ويلقون تبعة استمرار الحرب على عاتق الصدر الأعظم وخسرو باشا ، ويطلبون من المشايخ أن يتوسطوا لهم في الصلح ، فانهز طاهر باشا هذه الفرصة ليجتذب إليه المماليك ، وكتب اليهم جواباً يدعوهم إلى الحضور والافتراق من القاهرة

ظهرت للمشايخ في هذا التعيين سلطة رسمية ، وإن كانت في الواقع اسمية ، لأن طاهر باشا إنما وصل إلى القائمة مقامية بحد السيف ، لكن مجرد استشهاده بضرورة اتفاق العلماء على اختياره هو تسليم منه بأن لهم شأنًا في حل الأزمات ، كما أن تدخلهم في الوساطة بين البسكوات المماليك والوالى أكسبهم نفوذاً على الفريقين ، ومساعدتهم في رفع المظالم أعلنت مكانتهم وزادت في التفاف الناس حولهم

مظالم طاهر باشا

وقد كان للعلماء مقام محمود في مقاومة المظالم التي ارتكبها طاهر باشا ، فإن أول عمل له أنه ألحق القبض على جماعة من كبار الموظفين والأعيان بحجة أنهم من أنصار خسرو باشا ، منهم السيد أحمد المحرقى كبير التجار ، ورئيس الانكشارية ، وكاتب خزانة خسرو باشا ، ومصطفى الوكيل وغيرهم ، وسجنهم في القلعة ، فتدخل المشايخ

وتوصلوا إلى إطلاق سراح السيد المحروق فنزل من القلعة في اليوم التالي لاعتقاله ،
وتدخل السادات للإفراج عن مصطفى الوكيل وأخذوه معه إلى بيته وكان ذلك يوم
الجمعة ٢١ محرم سنة ١٢١٨ ، فلما كان يوم الأحد أرسل طاهر باشا يطلب مصطفى
الوكيل من عند الشيخ السادات فذهب معه السادات إلى طاهر باشا ليحمله من بطشه ،
فلما رآه الجنود ألقوا القبض عليه ثانية وأخذوه إلى القلعة ، فحنق السيد السادات من
هذا الظلم ودخل على طاهر باشا واعترضه اعتراضا شديداً أو كما يقول الجبرقي
« تشاجر معه » ، فأطلعه طاهر باشا على خطاب مرسل إلى مصطفى الوكيل من
خسرو باشا ليبرهن له على أنه موال لخسرو وأن اعتقاله واجب ، فقال السادات
إن هذا لا يؤاخذ به وإنما يؤاخذ إذا كان المكتوب منه إلى خسرو باشا ، وكان
طاهر باشا مصمماً على قتله ، فأنهى الأمر على ألا يقتله وأن يبقى ببيت السادات
مشمولاً بحمايته ، وخشى طاهر باشا من تغير خاطر السادات بسبب هذه الحادثة
فذهب إليه في بيته يسترضيه ويعتذر إليه

ومن مظلالم طاهر باشا أنه أمر بقتل المعلم ملطى من كبار الكتبة الأقباط ، وهو
الذي كان متوالياً القضاء في زمن الفرنسيين ، وأمر كذلك بقتل المعلم حنا الصباحاني
أحد التجار السوريين ، ولم يذكر الجبرقي سبب قتلها ، ولكن لا نزاع في أن مرجعه
الطمع في أموالهما ، وأمر أيضاً بقتل اثنين من كبار الوجاقلية (الجهادية) وهما :
أحمد كتنخدا على باش اختيار وجاق الانكشارية ومصطفى كتنخدا الرزاز كتنخدا
وجاق العزب

على أن طاهر باشا لم يدم له الأمر ، فقد اشتهر بالظلم والجبروت وأطلق لجنوده
الألبانيين عنان السلب والنهب وضرب الغرامات الفادحة على التجار ، وكان الجنود
الانكشارية الذين في المدينة قد قاموا يطالبون برواتبهم المتأخرة مقتدين بالجنود
الآرناؤود ، فرفض طاهر باشا طلبهم وظهر تحيزه إلى الأرناؤود وتحامله على
الانكشارية ، فبينما كان يغدق المال على أولئك كان يضن به على هؤلاء ، وإذا
طالبوه برواتبهم المتأخرة صارحهم بأن ليس لهم عنده رواتب إلا من عهد ولايته
وأحالهم على خسرو باشا الوالي المطرود ، فحنقوا عليه ، وزاد من سخطهم أن
الأرناؤود أدلّوهم في عهده وكانوا يعتبرون انتصارهم على خسرو باشا فوزاً على
الانكشارية أجمعين ، فشمخوا بأنوفهم وجعلوا ينظرون إليهم بعين الاحتقار

والزراية ، فأوغر كل ذلك صدور الانكشارية وبيتوا فيما بينهم أن ينتقموا من الأرنؤود وعزموا على الفتك بطاهر باشا وتعيين أحد رؤساء الانكشارية بدله

فلما كان يوم ٢٦ مايو سنة ١٨٠٣^(١) ذهب رهط منهم يبلغ عدده نحو ٢٥٠ في أسلحتهم إلى طاهر باشا وعلى رأسهم اثنان من أغواتهم (رؤسائهم) وهما موسى أغا واسماعيل أغا ، فدخلا على طاهر باشا وكلماه في الشكوى من تأخير دفع الرواتب ، قاتهرهما ورفض أن يسمع إلى شكواهما واشتد الجدل والخصام بينهما فجرد أحدهما سيفه وضرب طاهر باشا فقطع رأسه ورمىاه من الشباك ، فعادت السلطة مؤقتا إلى الانكشارية وأحرقوا دار طاهر باشا ونهبوها ، وكانت مدة حكمه أياما معدودة ، قال الجبرتي : « ولو طال عمره أكثر من ذلك لأهلك الحرث والنسل »

تعيين أحمد باشا

كانت قوات المماليك وجنود محمد على على أبواب القاهرة ، فرأى الانكشارية أن يبادروا إلى تعيين وال منهم يخلف طاهر باشا في الحكم ليضعوا المماليك ومحمد على أمام الأمر الواقع ، فوقع اختيارهم على أحمد باشا والى المدينة المنورة ، وكان موجوداً وقتئذ بالقاهرة فولوه الحكم وأرسل يستميل إليه محمد على الذي احتل القلعة وأصبح بعد موت طاهر باشا قائد الجنود الألبانيين وعددهم نحو ٤٠٠٠ مقاتل

تحالف محمد على والمماليك

لكن محمد على رأى من مصلحته الاتفاق مع المماليك للتخلص من القوة التركية أولا ، على أن يعود فيتخلص بعد ذلك من المماليك ، وكان محمد على ملتزما بالحيدة ظاهراً وإن لم يكن بعيداً عن حركة الألبانيين التي انتهت بهزل خسرو باشا ، وظل في القاهرة متظاهراً بالحيدة أثناء ولاية طاهر باشا ، يرقب الحوادث عن كثب ، وينتظر الفرصة السانحة ليحقق برنامجه ، فلما عين الانكشارية أحمد باشا صمم على الخروج من حيدته وعزم على التحالف مع المماليك

وأراد أحمد باشا أن يستميل إليه العلماء ويستخدم نفوذهم لتثبيت مركزه وإقناع

محمد على بقبول ولايته ، فأحضرهم وطلب إليهم أن يذهبوا إلى محمد على ويخاطبوه في الإذعان للطاعة ، فذهبوا إليه وخاطبوه في ذلك فأجاب بأن أحمد باشا ليس واليا على مصر ، وإنما هو والي المدينة المنورة وليس له علاقة بمصر ، وقال : « إني أنا الذي وليت طاهر باشا لكونه يحافظ الديار المصرية من طرف الدولة وله شبهة في الجلمة ، وأما أحمد باشا فليس له شبهة فيجب أن يخرج من البلد يأخذ معه الانكشارية ونجيزه ويسافر إلى ولايته » ، فقام العلماء على ذلك ، وطلب إليهم أحمد باشا أن يأمروا الرعية بالقيام على الألبانيين وقتلهم ، فلم يجيبوه إلى طلبه ، وقاموا من عنده ليتشاوروا في الأمر ، فطلب إليهم أحمد باشا أن يبقوا عنده وأن يرسلوا للناس بما يأمرهم به ، وكان غرضه أن يكرههم فيملى عليهم فلا يعصوا له أمراً ، فقالوا : « إن عادتنا أن يكون جلوسنا في المهمات بالجامع الأزهر نجتمع به ونرسل إلى الرعية فإنهم عند ذلك لا يخالفوننا » ، ولم يزالوا به حتى تخلصوا وخرجوا من عنده

أما محمد على فقد جاهر بتحالفه والمماليك ، واجتمع بابراهيم بك في الجيزة ، وألقى في روعه أنه يؤيده وأنه أولى الناس بولاية مصر ، فدحل محمد على و ابراهيم بك وعثمان بك البرديسي وباقي زعماء المماليك القاهرة متحالفين ، وطردها أحمد باشا ، فكانت مدة ولايته يوما وليلة ، وأعلنوا في المدينة تحالف المماليك والألبانيين واستولوا على زمام الحكم ، وقتل الأرنؤود اسماعيل أغا وموسى أغا اللذين قتل طاهر باشا ، وقتلوا أيضا خليل أفندي الرجائي الدفتردار السابق ويوسف كنتخدا بك وكيل خسرو باشا بعد أن نهبوا منازلهما

بدأت سلطة محمد على تظهر في الميدان ، ونادى المنادون في القاهرة « بالآمان حسب ما رسم ابراهيم بك حاكم الولاية وأفندينا محمد على » فكان هذا النداء في شوارع القاهرة إعلانا باقتسام السلطة بين ابراهيم بك ومحمد على . وليذكر القاريء هذا النداء ، فإن عبارة « حسب ما رسم به فلان » هي إعلان باسم من أصبح قابضا على زمام السلطة في ذلك العصر .

اتفق محمد على و ابراهيم وعثمان البرديسي على التخلص من الأتراك ، فخاصر أتباعهم قلعة جامع الظاهر التي كان الانكشارية يقيمون بها ، ولم يزالوا بهم حتى أخرجوهم منها ونزعوا أسلحتهم وطردهم من القاهرة ، وكذلك طردوا منها جميع الانكشارية والأتراك والبشتاق ، ونادوا بتحذير الناس من إيوائهم

اعتقال خسرو باشا

كانت الصلات بين المماليك ومحمد على في ذلك الحين على أتم صفاء ووثام ، لكن محمد على ترك السلطة ظاهراً للمماليك حتى يحتملوا تبعه الأحداث التي تقع في البلاد ، وبالغ في التودد إليهم ، فسلمهم قلعة القاهرة ، واتفق وإياهم على تجريد حملة على دمياط للقضاء على سلطة خسرو باشا ، وحملة أخرى للقضاء على الحامية العثمانية في رشيد ، فسارت الحملة الأولى إلى دمياط بقيادة عثمان البرديسي واشترك محمد على ، وجردوا الثانية إلى رشيد بقيادة سليمان كاشف ، ففاز البرديسي على خسرو باشا في دمياط ، وانتهت الحملة بالقبض عليه وإرساله إلى القاهرة سجيناً ، وقد ارتكب المماليك والآرناؤود في دمياط كثيراً من الفظائع والمظالم والنهب والسلب ، وابتهج المماليك لهذا النصر ابتهاجا عظيماً وظنوا أن مصر دانت لهم ، ونادى إبراهيم بك بنفسه « قام مقام مصر »

تعيين على باشا الجزائرلى واليا

علبت الحكومة العثمانية بعزل خسرو باشا وفراره إلى دمياط ودخول البسكوات المماليك القاهرة وعودة السلطة إليهم ، فهاها ما أصاب هينتها من التصدّع ، وعزمت على استرداد سلطتها ، فعينت على باشا الجزائرلى واليا لمصر بدلا من خسرو باشا ، وأوفدته إلى مصر ليعيد الحالة إلى نصابها ويكبح جماح المماليك

وعلى باشا الجزائرلى هذا كان مملوكاً لمحمد باشا حاكم الجزائر ، ولذلك سمي الجزائرلى ، ويسميه الجبرتي على باشا (الطرابلسي) لأنه تقلد ولاية طرابلس الغرب ، وقد اشتهر فيها بالظلم وارتكاب الجرائم ، فثار به أهلها واضطر إلى الهرب وفر إلى مصر ولجأ إلى مراد بك زعيم المماليك ، فظل في حماه وضيافته إلى أن جاءت الحملة الفرنسية ، فقاتل قليلاً في صفوف المماليك ورحل خلال الحملة إلى سورية ومنها إلى الامستانة إلى أن اختاره الباب العالي لولاية مصر ، ولم يكن متصفاً بأى صفة تؤهله لهذا المنصب لا من جهة الأخلاق ولا من ناحية المواهب الإدارية أو الكفاية الحربية ، ولكنه بلغ هذا المنصب من طريق التقرب إلى الصدر الأعظم ووعدته بأن يبذل الأموال الطائلة لخزاة الدولة إذا أسندت إليه ولاية مصر

جاء على باشا الجزائرلى إلى الاسكندرية فى أوائل يولييه سنة ١٨٠٣ ومعه قوة من ألف جندى ، وكانت هذه القوة أضعف من أن توطد سلطته فى البلاد وخاصة بعد انتصار المماليك وتحالفهم مع محمد على ، فأخذ يكانب البسكوات المماليك ويدعوهم إلى الولاء لحكومة الاستانة ويلومهم على ما فعلوه من دخول القاهرة وطرده الأتراك والانكشارية منها ، فأجابه إبراهيم بك أن المماليك لم يدخلوا المدينة إلا بناء على دعوة المشايخ والعلماء لوضع حد للفوضى التى عصفت بها ، وأنهم يرفضون الخروج من مصر ويصرون على البقاء فيها

وقد فطن المماليك إلى أن الوالى الجديد إذا ترك وشأنه سار بجنوده إلى القاهرة ليعيد الحسك العثمانى ، فاعتزموا محاربته ، وسار البرديسى بجنوده صحبة محمد على إلى رشيد ليستردوها من يد الأتراك ، فاحتلوها وامتنعت الجنود التركية فى قلعته بقيادة السيد على القبطان أخى على باشا الجزائرلى ، فحاصرها المماليك وشددوا عليها الحصار حتى سلمها الأتراك (أغسطس سنة ١٨٠٣) وفرض المماليك على رشيد غرامة فادحة بلغت ثمانين ألف ريال ، ونهبوا المدينة ، وأقام البرديسى على رشيد مملوكه يحيى بيك وحصن فيها القلعة والبوغاز وعزم من ثم على مواصلة القتال ومطاردة الأتراك إلى أن يحتل الاسكندرية

موقف محمد على

كان البرديسى موطداً عزمه على أخذ الاسكندرية لأنها كانت آخر موقع للأتراك فى مصر ، لكن محمد على رغب عن الزحف إليها ، ذلك أنه رأى استيلاء المماليك عليها يثبت قدمهم ويؤيد سلطانهم ويحول دون إنقاذ برناجه ، وبرناجه يقتضى إخضاعهم ليعجل بالتخلص منهم عند منوح الفرصة ، ورأى أن بقاء الاسكندرية فى يد الوالى التركى لا يضره شيئاً لأن سلطة الوالى التركى مزعزعة مضطربة لا تحتاج إلى مجهود كبير للقضاء عليها والتخلص منها فى الوقت المناسب ، فأثر العودة بجنوده إلى القاهرة ، وكنتم عن البرديسى غايته من هذا الرجوع ، وتظاهر بأن حجته فى ذلك أن لجنوده رواتب متأخرة لم تدفع لهم ، فارتاب البرديسى فى هذا الرجوع المفجائى وتغير موقفه تبعاً لذلك وعدل عن حصار الاسكندرية ، واعتزم هو أيضاً الرجوع إلى القاهرة ، ذلك أنه رأى قواته نقصت بما اصطاحه محمد على من الجنود الأرنؤود وعلم من جهة أخرى مناعة موقع الاسكندرية وصعوبة الاستيلاء عليها ، وزاد

موقفه حرجا نقص النيل فى تلك السنة (أغسطس سنة ١٨٠٣) وما أفضى إليه من غلاء الأسعار وقلق الخواطر وتبليبل الأفكار ونقص الأقوات والمؤن فى معسكره وتدمير جنوده المماليك من قلة الزاد ، وإلحاقهم فى طلب رواتبهم المتأخرة ، وبالرغم من أنهم نهبوا الكثير من أموال الأهالى وحاصلاتهم فأنهم كانوا يدعون « أن ما يأخذونه من المنسوبات لا يدخل فى حساب رواتبهم ١١ » (١) ، وكان المماليك فى أثناء ذلك لا يفتأون يفرضون الضرائب والغرامات على البلاد « حتى خرب الكثير من القرى والبلاد وجلا أهلها عنها خصوصا إقليم البحيرة فانه خرب عن آخره (٢) »

ومن ثم رجع البرديسى عن زحفه على الاسكندرية وعاد أدراجه إلى القاهرة (سبتمبر سنة ١٨٠٣)

حضور المسيو ماسيو دلسبس

وبين هذه الحوادث ، فى يوايه سنة ١٨٠٣ . حضر إلى الاسكندرية المسيو ماسيو دلسبس Mathieu Delesseps قنصل فرنسا فى مصر (٣) ، فاستقبله البرديسى أثناء حصار رشيد وذهب إلى القاهرة فتلقاء ابراهيم بك بالرعاية والإكرام ، قال الجبترى فى هذا الصدد :

« وفى ثالث عشر ربيع الثانى سنة ١٢١٨ (٤) حضر (إلى القاهرة) قنصل الفرنسيس فعملوا شنكا ومدافع وأركبوه من بولاق بموكب جليل وقدامه أغات الانكشارية والوالى (رئيس الشرطة) وأكابر الكشاف المعروف بالافرنجى وعساكره الذين مثل عسكر الفرنسيس وهيئته لم يتقدم مثلها بين المسلمين ، ونصب بنديرته فى بركة الازبكية من ناحية قنطرة الدكة على صارى طويل مرتفع فى الهواء واجتمع إليه كثير من النصارى الشوام والأقباط وعملوا جمعيات وولائم وازدهموا على بابهِ وحضر صحبته كثير من الذين هربوا عند دخول المسلمين مع الوزير وكان المحتفل بذلك حسين

(١) و(٢) الجبترى الجزء الثالث

(٣) هو والد المسيو فردينان دلسبس فاتح قناة السويس

(٤) يوافق ٢ أغسطس سنة ١٨٠٣

كاشف الافرنجى ، والجبرقى وإن لم يذكر اسم القنصل إلا أن التاريخ الذى أورده عن حضوره للقاهرة يدل على أنه يعنى المسيو ماسيو دلسبس

قطع سد أبوقير

وكان على باشا الجزائرلى مجدأ فى تحصين الاسكندرية ليدفع عنها هجوم الممالك ، وما نذرع به فى هذا العمل أنه قطع سد أبوقير لتطفى المياه حوالى الاسكندرية ويمنع وصول الممالك إليها ، اسكنها فكرة حمقاء ، لأنها حرمت الثغر من ورود المياه العذبة ، وهذا السد هو الذى قطعه الانجليز سنة ١٨٠١ كما مر بك بيانه ، ويقول المسيو فيلسكس مانجان (١) إن المهندس السويدي ردون Redon قد باشر لإصلاحه بعد جلاء الفرنسيين ، لكن الجبرقى يقول إن الذى أصلح السد هو مهندس تركى لا سويدي يدعى صالح افندى أرسلته الدولة خصيصا لإصلاحه وقضى سنة ونصفا فى عمله إلى أن قطعه على باشا ثانية ، ويلوح لنا أن رواية المسيو مانجان أرجح من رواية الجبرقى إذ يؤيدها ماورد فى تقرير السكولونل سباستيانى الذى جاء مصر فى أكتوبر سنة ١٨٠٢ ، فهو يقول إن الذى تولى إصلاح السد هو مهندس سويدي أوفده الباب العالى لهذا الغرض (٢)

وقد كان لقطع سد أبوقير أولا وثانيا أسوأ الأثر فى حالة الاسكندرية وقسم عظيم من مديرية البحيرة ، فإن البحر طغت مياهه على شمال البحيرة وخرّب كثيراً من القرى والأراضى وأتلف ترعة الاسكندرية (المحمودية الآن) التى كانت تروى الثغر بالمياه العذبة ، فانقطعت المياه عن الاسكندرية ، وتعطلت المواصلات إليها ، فأمعنت فى التقهقر وزادت حالتها سوءاً واشتد الضيق بأهلها ، واضطر الكثيرون منهم إلى الهجرة مما أدى إلى تناقص عدد سكانها حتى بلغ عددهم فى أوائل عهد محمد على نحو ستة آلاف نسمة ، وقد ذكر الجبرقى ما أصاب الاسكندرية والبحيرة من الخراب بعد قطع السد على عهد الحملة الفرنسية وبعد انتهائها قال : « فسالت المياه المسالحة على الأراضى إلى قرب دمنهور واختلطت بخليج (ترعة) الأشرفية وشرقت

(١) فى كتاب مصر تحت حكم محمد على

(٢) تقرير السكولونل سباستيانى إلى نابليون المنشور فى الجريدة الرسمية الفرنسية بتاريخ ٢٠ يناير سنة ١٨٠٣ والوارد فى مجموعة معاهدات الباب العالى للبارون دى تستا De Testa الجزء الثانى

الأراضي ، وخربت القرى والبلاد ، فتنفت المزارع ، وانقطعت الطرق حول الاسكندرية من البر ، وامتنع وصول ماء النيل إلى أهل الاسكندرية فلم يصل إليهم إلا ما يصلهم من جهة البحر في النقاير (مراكب المياه) أو ماخزنوه من مياه الأمطار بالصهاريج وبعض العيون المستعذبة ، فلما استقر العثمانيون بمصر حضر شخص من طرف الدولة يسمى صالح أفندى معين لخصوص السد وأحضر معه عدة مراكب بها أخشاب وآلات ، وبذل المهمة والاجتهاد في سد الجسر ، فأقام العمل في ذلك نحو سنة ونصف حتى قارب الإتمام وفرح الناس بذلك غاية الفرح واستبشر أهل القرى والنواحي ، فما هو إلا وقد حصلت هذه الحوادث وحضر على باشا إلى الثغر وخرج الأجناد المصرية (الماليك) وحاربوا السيد على القبطان^(١) على برج رشيد تخاف حضورهم إلى الاسكندرية ففتحه ثانياً ورجع التلف كما كان ، وذهب ما صنعه صالح أفندى المذكور في الفارغ بعدما صرف عليه أموالاً عظيمة ، وأما أهل اسكندرية فإنهم جلوا عنها ونزل البعض في المراكب وسافر إلى أزمير وبعضهم إلى قبرص ورودس والأضات وبعضهم أكثرى بالأيام وأقاموا بها على الثغر ولم يبق بالبلدة إلا الفقراء والعواجز الذين لا يجدون ما ينفقونه على الرحلة وهم مستوفزون وعم بها الغلاء لعدم الوارد وانقطاع الطرق »

مقتل على باشا الجزائرلى

أما على باشا فإنه بقى بالاسكندرية إلى أواخر سنة ١٨٠٣ ثم غادرها يوم ٢٢ ديسمبر قاصداً إلى القاهرة ليتقلد منصب الولاية وذلك بناء على دعوة من الأمراء الماليك تظاهروا فيها بالرغبة في الوفاق ، ولكن هذه الدعوة كانت نفا نصيوة له للفتك به فلما وصل إلى شلقان (٢) التقى به جماعة من أمراء الماليك وعساكرهم وهناك أبلغوه أنهم يمنعونه من دخول القاهرة وأركبوه صحبة جماعة منهم لحراستهم والذهاب به إلى حدود سورية ، ولم يكتبوا بذلك بل أغروا به حراسه فقتلوه في الطريق (يناير سنة ١٨٠٤)

(١) هو أخو على باشا الجزائرلى كما تقدم بيانه

(٢) بمركز قلوب

موقف محمد على

كان محمد على هو الرأس المدبر للحملة على خسرو باشا ، ثم على أحمد باشا ، ثم على باشا الجزائرلى ، لكنه ظل بعيداً عن الميدان وترك عثمان بك البرديسى ياتمر بعلى باشا الجزائرلى ويتولى أمر قتله ليحتمل تبعه هذا العصيان الخطير فى نظر الباب المالى إذا ما جاء وقت الحساب ، والواقع أن مقتل الجزائرلى كان فيه القضاء على مظهر السلطة العثمانية فى مصر ، وبذلك تخلص محمد على من إحدى القوتين اللتين كان يعمل على سحقهما ، ولم يبق أمامه إلا قوة المماليك . فبدأ يعمل على التخلص منها ، وتمهيداً لهذه الغاية ترك لزعماء المماليك السلطة ظاهراً حتى يحملهم تبعه الحكم ومساوئهم ويجهلهم هدفاً استخط الشعب

عودة محمد بك الألفى

وفشل خطته السياسية

علمت أن محمد بك الألفى سافر إلى إنجلترا حين جلاء الإنجليز عن الاسكندرية ، وغايته أن يطلب من الحكومة الإنجليزية . هاوثة المماليك على رجوعهم للحكم قضى الألفى فى هذه الرحلة طويلاً من الزمن وقعت خلاله الحوادث الخطيرة التى تكلمنا عنها ، وكانت الرحلة على جانب كبير من الخطورة ، ولو نجح الألفى فى مهمته لتغير وجه التاريخ المصرى الحديث

فالألفى كان بلا نزاع أقوى زعماء المماليك شكيمة وأشدهم بأساً وأبعدهم نظراً ، وحسبك أن الجبرتى يقول عنه إنه « آخر من أدركنا من الأمراء المصريين شهامة وصرامة ونظراً فى عواقب الأمور ، وكان وحيداً فى نفسه ، فريداً فى أبناء جنسه ، وبموته اضمحلت دولتهم وتفرقت جمعيتهم ، وانكسرت شوكتهم ، وزادت نفرتهم وما زالوا فى نقص وإدبار وذلة وهوان وضعاف ، ولم تقم لهم بعده راية وانقرضوا وطردهوا إلى أقصى البلاد فى النهاية »

فهذا الرجل البعيد النظر الذى بموته اضمحلت دولة المماليك لعب دوراً خطيراً على مسرح الحوادث المصرية ، والنقطة البارزة فى تاريخه أنه يمثل خطة سياسية معينة رسمها واتبعها ودعا إليها زملاءه المماليك ، وكان لا ينفك يسعى لنجاحها ، تلك الخطة

هي الاستقلال بحماية إنجلترا وتحويلها احتلال ثغور الاسكندرية ورشيد ودمياط مقابل مساعدتها المماليك على الاستقرار في مصر والاستئثار بزمام الحكم فيها ، ولو نجحت هذه الخطة لوقعت مصر مند نيف ومائة عام في قبضة الانجليز ، ولما تكونت الدولة المصرية العظيمة التي أسسها محمد علي

إن (محمد علي) كان يمثل الاستقلال المصري ، أما الالفى فكان يمثل الحماية الانجليزية ، ومن هنا نتبين لماذا ساعدت إنجلترا الالفى وحاربت محمد علي طوال مدة حكمه كان محمد بك الالفى صنيعة السياسة الانجليزية في مصر ورسول المماليك لدى الانجليز في الاستقلال بحمايتهم ، وكان الانجليز كما قدمنا لا يفتأون يساعدون المماليك على تولى زمام الحكم في مصر ، وقد بذلوا لهم فوق مساعدتهم في مصر نفوذهم السياسى فى الاستانة ليضمنوا لهم الحكم وخاصة بعد أن أبرم صلح أميان Amiens الذى يقضى بجلاء القوات البريطانية عن مصر ، فإنهم عزموا إذا هم جلوا عنها أن يتخذوا المماليك صنائع وأولياء لهم فى البلاد ليضمنوا بسط نفوذهم فيها واحتلالها يوما ما ، فسعوا لدى الباب العالى لاستنائه إلى المماليك ، ولكنهم أخفقوا فى مسعاهم ولم يرض السلطان رجوعهم إلى الحكم ، ومن ثم تجددت الحرب بينهم وبين الأتراك فى الوجه القبلى فكان النصر حليفهم وزحفوا على الوجه البحرى وفازوا على الترك فى معركة دمنهور كما قدمنا ، ولما جلا الانجليز عن الاسكندرية رحل معهم الالفى وولى وجهه قبله الحكومة الانجليزية يستمد منها المعونة والنجدة ليتولى المماليك زمام الحكم فى مقابل ولائهم وإخلاصهم لها واحتلالها ثغور مصر ، وهذا معناه طلب الحماية الانجليزية

وصل الالفى إلى لندن بعد رحلة طويلة ، فأكرم الانجليز مشواه ورحبت به الصحف البريطانية ، وبقي فى عاصمة الانجليز من أوائل اكتوبر سنة ١٨٠٣ إلى أواخر ديسمبر من تلك السنة ، وقابل خلال إقامته بها أقطاب السياسة الانجليزية وحظى بمقابلة الملك جورج الثالث وولى عهده ، وعرض على الحكومة الانجليزية كتابة أن تشمل المماليك بمساعدتها وحمايتها ، وكانت إنجلترا وفتشد تسعى فى كسب ثقة تركيا لتحول بينها وبين صداقة فرنسا فلم تشأ أن تفضب الحكومة التركية بإعلان حمايتها للمماليك وأهملت شأن الالفى زمنأ ما ، لكنها ما لبثت أن غيرت خطتها حياله وأخذت توجه إليه عنايتها والنفاتها ، ذلك حين تواترت الأنباء الواردة من مصر

بفوز المماليك واستيلائهم على زمام الحكم وتضعضع نفوذ الترك في مصر ، فتغيرت وجهة النظر البريطانية — والسياسة الانجليزية دائما — بتغير الظروف وتقلب الأحوال — وأرادت أن تستخدم هذا الانقلاب الجديد لتشد أزر المماليك ، وتحقق ارتباطها معهم ، فكتبت وزارة الخارجية إلى الألفي رسالة (١) وعده فيها بالسعى بوساطة سفيرها في الاستانة للتوفيق بين الباب العالي والمماليك وأن تعمل كذلك على حماية مصالح البكوات في مصر على قاعدة المزايا التي كانوا يتمتعون بها قبل الحملة الفرنسية برّت الحكومة الانجليزية بوعدها للألفي وأرسلت إلى القائم بأعمال سفارتها بالاستانة مذكرة بوجهة نظرها ليفضى بفحواها إلى الباب العالي أعربت فيها عن رغبتها في توطيد النظام والسكينة في مصر ، ونوهت بما بذلته من الجهود في سبيل إخراج الفرنسيين منها وما أداه المماليك من الخدمات للجيش الانجليزي بها . وأن هذه الخدمات تخول لهم الحق في استرداد امتيازاتهم القديمة في مصر ، وطلبت من الباب العالي تسوية علاقته مع المماليك على قاعدة اعترافهم بسيادة تركيا وأدائهم الجزية السنوية لها في مقابل استرجاعهم زمام الحكم وتمتعهم بالمزايا التي كانت لهم قبل الحملة الفرنسية ، وطلبت الحكومة الانجليزية في مذكرتها أن يتعهد لها الباب العالي بتنفيذ هذه التسوية

هذه هي مطالب الحكومة الانجليزية من الباب العالي ، ومعناها أنها اعتبرت نفسها صاحبة الحماية الفعلية على مصر ، وأنها انتحلت لنفسها حق التدخل في نظام الحكم فيها ، وتأمل في تذرعها بالرغبة في توطيد النظام والسكينة في مصر ، تجد أن هذه الحجة ما فتئت تتخذها وسيلة للتدخل في شئون البلاد قديما وحديثا ، على أنها هي التي تخلق أسباب العبث بالأمن والنظام ، ولعمري ان إعادة المماليك لى الوسيلة الفعلية لنشر الفوضى والظلم في مصر

أخفقت إنجلترا في مسعاها بالاستانة ، ولو أنها نجحت لوقعت مصر فريسة في أيدي المماليك ولرزحت تحت نير الظلم والتأخر أحقابا طويلة ولصارت على يدهم إلى الحماية البريطانية ، لكن الحوادث خيبت ظنونهم فسلمت مصر من حكم المماليك ومن حماية الانجليز معاً

(١) بتاريخ ١٥ ديسمبر سنة ١٨٠٣ ، انظر البحث المنشور في مجلة المجتمع العلمي المصري الجزء السابع سنة ١٩٢٥ للمسيو دوان Douin عن (سفارة الألفي بك في لندن)

رجع الألفى من إنجلترا نقله سفينة حربية جعلتها الحكومة الانجليزية تحت تصرفه ، عاد واثقاً من نجاح مسعى إنجلترا في الاستانة مثلثاً أملاً في أن يكون حاكماً لمصر مشمولاً بحماية الدولة البريطانية

وصل إلى أبو قير يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٠٤ وسار من فوره إلى رشيد وهناك التقى بالمستر بروتشي Petrucci نائب القنصل البريطاني وخلا به عدة ساعات ثم أقلته سفينة القنصل في النيل يرفرف على مؤخرها العلم الانجليزي واتحدت به إلى القاهرة

علم (محمد علي) بعودة الألفى إلى مصر ، فأوجس في نفسه خيفة ، لأن محمد علي كان يحسب الألفى حساباً كبيراً ويعده أقوى خصومه وأشدّهم بأساً وأصعبهم مراساً ، لكن الحظ ساعده بأن سخر له عثمان بك البرديسي ليخلصه من خصمه ، ذلك أن البرديسي قد دبت في نفسه عقارب الحسد من عودة زميله وصديقه القديم من إنجلترا ، ودخله الخوف من أن يرى الألفى ينافسه النفوذ والسلطة مؤيد الجانب من إحدى الدول العظمى ، فاعزم الفتك به والتخلص منه ، وكان في الواقع لا يخدم نفسه بل يخدم برنامج محمد علي ، وهكذا كان للحظ دخل أيما دخل في نجاح محمد علي باشا

أنفذ البرديسي رجاله للقبض على الألفى وقتله ، وكاد الألفى يقع في الشراك لولا أن لجأ إلى الاختفاء والفرار واستطاع أن ينجو بنفسه وذهب إلى الصعيد حيث أخذ يسعى في تكوين حزب يناصره ، وهكذا انقسم الماليك وتفرقت أهواؤهم ، فكان ذلك من الأسباب التي عجّلت بزوال دولتهم

لم يكن انزعاج بين البرديسي والألفى قوامه الفكرة السياسية ، بل كان منشؤه الحسد والتنافس على السلطة والحكم ، فما كان البرديسي أقل من خصمه رغبة في الاستقلال بالحماية الانجليزية ، فقد ذكر المسيو مانجان (١) والمسيو مورييه (٢) أن البرديسي قد اتصل قبل أن يتخلص من خصمه بالماجور ميسيت Misset قنصل إنجلترا العام في مصر وتعددت بينهما المقابلات والاجتماعات الخاصة ، وكان موضوع الحديث فيها رغبة البرديسي في التحقق من الحماية البريطانية والثقة منها ، فوعده القنصل — كما يقول المسيو (مورييه) بتأييد الحكومة الانجليزية إذا هو قبل

(١) في كتاب مصر تحت حكم محمد علي

(٢) في كتاب (تاريخ محمد علي)

الحماية البريطانية وأن تنفذ إلى مصر جيشاً ينجىء من الهند ليشد أزره وأن تحجز منافسه (الآففى) فى انجلترا حتى لا يزاحمه فى الحكم ، وهكذا نجحت فى اتخاذ زعماء الممالك على اختلاف مشاربهم وأهوائهم صنائع لها لى تضمن نجاح سياستها الاستعمارية على يد أى منهم ، ولم يحبط هذه السياسة إلا انقراض دولة الممالك والقضاء عليهم

ثورة الشعب على الممالك

مارس سنة ١٨٠٤

تخلص عثمان بك البرديسى من منافسه وزميله القديم محمد بك الآففى، وأمن على سلطته فى الحكم ، على أن هذه الحوادث إنما خدمت سياسة محمد على ، لأن البرديسى بدأ يحتل تبعه الحكم أمام الشعب ويواجه مقاومة قوية أخذت تشتد وتقوى حتى انتهت بسقوط دولة الممالك ، ذلك أن الحالة فى القاهرة كانت تزداد تفاقمًا بسبب تدمير الشعب من كثرة وقوع المظالم وإرهاقه بمختلف الضرائب والمغارم ، وكان الممالك لا يدعون فرصة إلا ويفرضون على الناس غرامة أو ضريبة جديدة ، فاشتد الضيق بالاهلين ، وزاد فى سوء الحالة ما مر بك من نقص النيل فى تلك السنة (أغسطس سنة ١٨٠٣) نقصاً فاحشاً ، فأثر هذا النقص فى حالة الزراعة واستولى الذعر على الناس فى القاهرة وازدحموا على شراء الغلال ، فارتفعت أسعارها وشح الخبز فى الأسواق واشتد الضيق بالفقراء وأواسط الناس ، وهم السواد الأعظم من السكان ، واجتمع إلى هذا الضيق اعتداء الممالك والجنود الألبانيين على مابأيدى الناس من الأموال والغلال والمتاع ، وفى خلال ذلك (نوفبر سنة ١٨٠٣ — شعبان سنة ١٢١٨) شك الناس إلى كبار العلماء من ترادف هذا الاعتداء ، فذهب السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير إلى البسكوات الممالك وطلبوا إليهم منع اعتداء العساكر على الناس ، فوعدهم بالتدخل وركب الآغا (المحافظ) والوالى (رئيس الشرطة) وأمامه جماعة من عسكر الأرنؤود والمنادى ينادى بالآمن والأمان للرعية وأنه إذا وقع من الجنود اعتداء أو نهب فللناس أن يضربوهم وإن لم يقدرُوا عليهم فليأخذوهم إلى رؤسائهم ، على أن مثل هذه الوعود والتنبيهات ذهبت عبثاً ، واستمر الجنود والممالك فى اعتدائهم على الأهالى ، وأخذ جو المدينة يكفر منظرها بوقوع حوادث خطيرة .

بدأت هذه الحوادث بمطالبة الجنود برواتبهم المتأخرة ، وذهبوا إلى دار عثمان بك البرديسى يضجون ويتوعدون ، ولم يكن محمد على بعيداً عن تدبير هذه الحركة ، فاستنجد البرديسى بصديقه محمد على ، فتدخل هذا في الأمر وهذا حركة الجنود في مقابل وعد من البرديسى بأن يدبر في بضعة أيام المال اللازم لدفع رواتبهم المتأخرة

كانت خزانة الحكومة خالية من المال بسبب سوء الإدارة وتلف الاراضى الزراعية وتعاقب الفتن وما أدى إليه الظلم من انقباض أيدي الناس عن العمل ، ففكر البرديسى في ابتداع الوسائل للحصول على المال ، ففرض على تجار القاهرة ضريبة جديدة ، لكنه لم يحصل على المال السكافي لسد حاجة الجنود الذين كانوا يزدادون كل يوم ضجة وصخباً ، فاعتزم البرديسى في شهر مارس سنة ١٨٠٤ (ذى القعدة سنة ١٢١٨) أن يفرض ضريبة جديدة على جميع الأهالى بلا استثناء ، ضربها على العقارات والبيوت أجرة سنة موزعة على الأملاك والمستأجرين ، وكلف عمال الحكومة بأن يحصلوها من كل فرد من أفراد القاهرة من ملاك ومستأجرين .

كانت فداحة الضرائب من أهم أسباب الثورات في مختلف العصور والبلدان ، كذلك كانت هذه الضريبة الجديدة المنطوية على الإرهاق والظلم سبباً في ثورة القاهرة على المماليك ، لأنها نزلت بالناس في وقت اشتداد الضيق ووقوف حركة الأعمال .

أخذ عمال الحكومة وكتائبها ، يماورهم جنود المماليك ، يجوبون أحياء المدينة وشوارعها وحاراتها يكتبون أسماء الملاك والتجار والمستأجرين ، ويلزمون كل مالك وكل ساكن بدفع نصيبه من الضريبة على النحو الذى قرره الحكومة بالاتفاق مع رؤساء التجار والطوائف ، فبدأ الناس يتذمرون ، وامتنع كثير من الناس عن دفع المطلوب منهم إما لعجزهم أو لاستنكارهم لهذا الظلم ، فوقعت الملاحاة بينهم وبين عمال الحكومة ، واشتد سخطهم وعلا صياحهم ، واحتشدوا يوم ٢٥ ذى القعدة سنة ١٢١٨ وجأهروا باستنكار هذه المظالم وامتناعهم عن دفع الضرائب ، وخرج الناس من بيوتهم يضجون ويصخبون ، واحتشدوا في الشوارع حاملين الرايات والدفوف والطبول ، وأخذوا يستمطرون اللعنات على الحكام ، وكادت صيحاتهم منصبة على الحكام المماليك الذين بيدهم الحل والعقد ، فأخذت جموعهم تنادى : « إيش تأخذ من تفلىسى ! يا برديسى ! » ، وأغلق التجار وكالاتهم

ودكا كينهم ، واتجهت جموع الناقمين إلى الأزهر لمقابلة المشايخ والاحتجاج لديهم على الضريبة الجديدة ، فقام المشايخ إلى الأمراء المماليك يطلبون إلغائها .

كان احتشاد الجماهير وغضبهم وتجمهرهم من منذر الثورة والنمرد ، فأخذت روح الثورة تنتقل من حى إلى حى حتى عمت أنحاء المدينة ، فاضطرب عثمان بك البرديسى أمام رؤية الشعب الثائر يستولى على الميادين والشوارع ، وكانت الحركة موجهة ضد حكم المماليك من جهة وضد مساوى الجنود الأرنؤود من جهة أخرى .

وخشى محمد على أن تصيب الثورة جنوده بالأذى ، فبادر إلى كشف المماليك أمام الشعب وجعلهم وحدهم هدفا لغضب الجماهير ، وجاهر بانضمامه إلى العلماء والمشايخ ، ونزل فى الشوارع واختلط بالجماهير الصاخبة ، وقابل العلماء بالأزهر وتعهد لهم بأن يبذل نفوذه لرفع هذه الضريبة . كما أنه أوصى جنوده الأرنؤود بأن يحترموا الشعب . فاختلطوا بالناس وأعلنوا عدم رضاهم عن الضريبة وجاهروا أنهم إنما يطلبون رواتبهم من الحكومة لا من الأهالى . قال الجبرقى فى هذا الصدد: « وفى وقت قيام العامة كان كثير من العسكر منتشرين فى الأسواق . فداخلهم الخوف . وصاروا يقولون لهم إنا معكم سواء . وأنتم الرعية ونحن العسكر ، ولم نرض بهذه الضريبة . ورواتبنا على الميرى لا عليكم » .

يتبين من رواية الجبرقى أن ثورة الشعب كانت على جانب من الخطورة وأن جنود محمد على أوجسوا منها خيفة وحسبوا لها حساباً كبيراً ، ولولا ذلك لما « داخلهم الخوف » كما يقول الجبرقى . ولما ترضوا الشعب باعلان انضمامهم إليه فى ساعة غضبه ، ويؤيد رواية الجبرقى ما ذكره المسيو (فولابل) الذى عاصر تلك الحوادث قال (١) يصف حالة القاهرة وما وقع فيها :

« انتشر عمال الحكومة ومعهم طوائف من الجنود المماليك فى أحياء القاهرة وشوارعها يطلبون كل مالك وكل تاجر بأن يدفع لفوره حصته فى الضريبة التى فرضت عليهم ، وبدأت المطالبة هادئة يعقبها الدفع ، ثم مالبثت أن نارت الاحتجاجات وامتنع كثير من التجار عن دفع ما يطلب منهم إما لكونهم أكثر احتياجاً عن دفعوا

(١) فى كتابه مصر الحديثة

الضريبة أو أكثر شجاعة منهم ، فاشتدت المناقشة وعلا الصخب ، واحتشد الجيران ، ثم لم يلبث الشعب أن احتشد بأجمعه في الشوارع ، واتجهوا إلى المساجد التي اتخذوها ملتقى لاجتماعاتهم ، فسرعان ما غصت المساجد بمجموع الشعب ، وأثار اجتماعه في نفوس الجماهير روح الحماسة والشعور بالقوة والحق ، وقبضت الجماهير في ساعة الغضب الأولى على بعض جبابة الضرائب وقتلوه .

« كان لهذا الموقف الجريء الذي ركبته الشعب أثر دهشة وروعة في نفوس الحزبين اللذين يتنازعان السلطة (المماليك والأرناؤود) ، ولم يعلما عند أي حد تقف حركة الشعب الثائر يستولى على الشوارع والميادين والمباني ويستعد للمقاومة العنيفة ، ولم يكن خافياً على زعماء الأرناؤود أن جنودهم قد استهدفوا باعتداءاتهم وفضائهم لسكراة الأهالي مثلما استهدف لها المماليك سواء بسواء ، فلبجأ المماليك إلى وساطة العلماء ، أما محمد علي فكان أكثر منهم حزماً وإقداماً ، ولا غرو فقد امتاز بصدق النظر في الأمور ، فألهمته قريحتة أن يبادر إلى اغتنام الفرصة لخدمة برنامجه وأن يستفيد من الحوادث التي لا مفر من وقوعها ، فانضم إلى المشايخ واتصل بالجماهير واختلط بالعامية وتعهد ببذل جهوده حتى يصل إلى رفع هذه الضريبة ، فبدأت وعوده من روع الشعب الغاضب ، وتفرقت الجموع وأسنتها نلجج بفضائل قائد الجنود الألبانيين وحكمته » (١) .

كسب محمد علي بهذه السياسة الحكيمة عطف الشعب وثقة زعمائه ، وبدأ الناس ينظرون إليه كرجل عادل يكره الظلم ويحب خير الشعب ، ونادى العلماء بإبطال الضريبة ورفعها ، أما عثمان بك البرديسي فقد قابل هذه الثورة بالخطرة والكبرياء ، ونقم على المصريين قيامهم في وجهه وخروجهم على حكمه ، وتوعدهم بالشر والنكال ، وفي ذلك يقول الجبرتي : « أظهر البرديسي الغيظ والانحراف من أهل مصر وخرج من بيته مغضباً إلى جهة مصر القديمة وهو يلعن أهل مصر ويقول لا بد من تقريرها (الضريبة) عليهم ثلاث سنوات ، وأفعل بهم وأفعل حيث لم يمتثلوا لأوامرنا .

فالبرديسي والبسكوات نقموا من المصريين أنهم « لم يمتثلوا لأوامرهم » ، وكانوا يريدون منهم الطاعة العمياء والرضوخ للظلم والقهر ، ولقد جهلوا أن روحاً جديدة

دبت في نفوس المصريين وحفزتهم إلى التطلع لحياة أرق ومركز أسمى مما كانت البلاد تعانيه في ذلك العصر ، وأخذ المماليك يستعدون لمقاومة الثورة ويجمعون جموعهم ويستدعون رجالهم الذين كانوا موزعين في الأقاليم ، ولكنهم أبطأوا في الحضور لانهما كهم في نهب القرى وتحصيل الجبايات ، وانهز محمد على فرصة غضب الشعب على المماليك وثورته عليهم وتوزع جنود المماليك في الأقاليم ليستخلص منهم ، فأمر جنوده فهاجموا المماليك الموجودين بالقاهرة^(١) وحاصروا بيت إبراهيم بك ببركة الفيل وبيت عثمان بك البرديسي بالناصرية وبيوت باقي المماليك في أنحاء العاصمة ، واستمر الحصار إلى اليوم التالي .

أسقط في أيدي المماليك ورأوا أنفسهم حيال قوتين ، ثورة الأهالي من جهة ، وجنود محمد على من جهة أخرى ، فلم يجدوا سبيلا للنجاة سوى الفرار من القاهرة بعد أن قتل منهم من قتل ، وكان أول الفارين عثمان بك البرديسي وهو كان من قبل يشمخ بأفقه ويهدد ويتوعد ، ومع أن بيته^(٢) كان أشبه بقلعة تحيط بها الأبراج المحصنة وفيها الجنود وآلات الحرب والقتال ، إلا أنه لاذ بالفرار إلى مصر القديمة ومنها إلى ناحية البساتين ثم إلى حلوان ، وفر كذلك إبراهيم بك إلى الرميطة ثم إلى الصحراء ، وكان جنود المماليك يحتلون قلعة الجبل ويطلقون القنابل على الأزبكية ، فلما علموا بفرار زعيمهم عثمان بك البرديسي وإبراهيم بك وقع الرعب في قلوبهم وأبطلوا الرمي وأخلوا القلعة ونزلوا من باب الجبل ولحقوا بإبراهيم بك في فراره ، وتسلم القلعة لجنود محمد على ، وخرج المماليك من المدينة على أسوأ حال ، وذهبوا إلى الوجه القبلي يستعدون لاستئناف الحرب والقتال ، وينهبون القرى ويفرضون عليها الغرامات والاتاوات ، وكانوا في فرارهم من القاهرة على غير الشجاعة التي كانوا يتفاخرون بها في أيام الرخاء ، وفي ذلك يقول الجبرتي : « غلب عليهم الخوف والحرص على الحياة والجبن ، وخابت فيهم الظنون ، وذهبت نفختهم في الفارغ ، وجازاهم الله بغيهم وظلمهم وغرورهم ، ونزل بهم ما نزل ، ولا يحيق المسكر السي إلا بأهله » .

(١) يوم ٢٨ ذى القعدة سنة ١٢١٨ — ١١ مارس سنة ١٨٠٤ .

(٢) هو قصر حسن كاشف الذي كان من قبل دارا للمجمع العلمي في عهد الحملة الفرنسية (ومكانه الآن المدرسة السفية) .

قتل من المماليك وأجنادهم في ذلك اليوم نحو ثلثمائة وخمسين ، وارتحل الباقون منهم عن المدينة ، وانتفض الشعب في رشيد ودمياط وسائر العواصم على الحكم المماليك ، فمروا إلى الصعيد ، ودالت دولتهم وانقضت حكمهم من البلاد ، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة .

وفي اليوم التالي أبطلت الضريبة التي كانت سبباً في اشتعال نار الثورة .

ثورة الشعب على الوالى التركى

مايو سنة ١٨٠٥

الحالة السياسية في القاهرة

كانت الفرصة سانحة ليحقق محمد على آماله ويتولى سلطة الحكم في مصر ، فالمماليك قد دالت دولتهم ، والقوة التركية قد تلاشت من البلاد ، والوالى التركى خسرو باشا فى القلعة سجين ، وليس ثمت قوة حربية سوى الألبانيين (الأرنؤود) الذين تحت قيادته ، ولكن محمد على كان طويل الأناة ، بعيد النظر ، فرأى ألا يصل إلى سلطة الحكم بقوة الجند ، وآثر أن ينتظر حتى يصل إلى تلك الغاية بإرادة الشعب ، وبذلك يبرهن أنه لم يناوئ المماليك لمطامع شخصية ، بل لمحض الصالح العام ، فيزداد الشعب تعلقاً به .

وهنا لا بد أن تعرض لرواية ذكرها بعض المؤلفين الفرنسيين وإليها يرجعون صعود نجم محمد على وتقلده ولاية مصر ، فيقولون أن المسيو ماسيو دلسبس لما عين قنصلاً لفرنسا فى مصر أخذ يبحث عن رجل يؤيده فرنسا وتشد أزره وتساعدته على تقلده حكم مصر وأنه لم يكن يعرف أحداً فى مصر ، فسأل قوامس القنصلية واسمه عمر أغا عن الرجل المنشود ، فدلّه على محمد على لأنه يعرفه من قبل ، فكتب دلسبس إلى حكومته يوصيها بشد أزr محمد على ومساعدته على تقلده ولاية مصر ، ويقيناً أن هذه رواية خيالية لا أصل لها ولا يؤيدها منطق الحوادث ، ولا تستند إلى مصدر موثوق بصحته ، ولم ترد فى المصادر المعتمدة ككتاب المسيو مانجان أو كتاب كلوت بك ، وكلاهما عاصر (محمد على) ويههما وهما فرنسيان أن يذكرّا تلك الرواية لو أن لها أصلاً ، على أن تسلسل الحوادث التي بسطناها تدل على أن محمد على لم يصل إلى منصب

الولاية إلا بفضل تحجبه إلى الشعب المصري وزعمائه واختيارهم إياه واليا ، ولم يكن للسيو ماسسيو دلسبس ولا لعمر أغا أى دخل فى وصوله إلى ذلك المنصب ، أما كون فرنسا رأت من مصلحتها السياسية أن تشد أزر محمد على بعد تقلده الولاية وتؤيده ضد دسائس السياسة الانجليزية فهذه مسألة أخرى لاعلاقة بينها وبين حكاية عمر أغا .

والآن نعود إلى موضوع الحالة السياسية فى القاهرة ، اختار محمد على خسرو باشا الوالى القديم الذى كان سجيناً منذ ثمانية أشهر ليعيده إلى مركزه ، ويتولى هو إدارة الشؤون باسمه ، فذهب إلى القلعة وفكّ أسار الباشا ونزل به المدينة معلناً أنه صاحب الولاية فى البلاد ، ونادى المتأدى بالآمان وحسباً رسم محمد باشا خسرو ومحمد على ، فازداد الشعب تعلقاً بمحمد على لما رأى فيه من التعفف وعدم الرغبة فى تولى سلطة الحكم ، وكسب محمد على مغنا آخر ، ذلك انه بإعادته الوالى التركى إلى ولايته يكسب عطف الباب العالى ويبرهن له أنه لم تسكن له يد فى الفتن التى أدت إلى عزل خسرو باشا وقتل على باشا الجزائرلى ، على أن أقرباء طاهر باشا لم يرضوا بتعيين خسرو باشا ، لأنهم لم ينسوا عداوه القديم لقريبتهم فثاروا عليه وعزلوه وأرسلوه إلى رشيد ومنها إلى الاسكندرية ، فلم يعارضهم محمد على فى فعلهم ، لكنه أصر على رغبته فى أن يجعل زمام الولاية بيد أحد الباشوات الأتراك ، ولذلك سعى فى تعيين خورشيد باشا محافظ الاسكندرية^(١) واليا على مصر ، فاجتمع الشيوخ وزعماء الجند وأجمعت آراؤهم على تعيين خورشيد واليا وتعيين محمد على قائمقاما ، وأوفدوا إلى الاسكندرية رسولا يدعو خورشيد باشا إلى الحضور للقاهرة ليتولى منصب الولاية .

ولاية خورشيد باشا

وصل خورشيد باشا إلى بولاق فى أواخر مارس سنة ١٨٠٤ ، وهو خامس من تقلد ولاية مصر فى نحو سنتين ، فأولهم خسرو باشا وقد خلع ، ثم طاهر باشا وقد قتل ، ثم أحمد باشا وقد طرد ، ثم على باشا الجزائرلى وقد قتل ، ثم جاء

(١) كان محافظاً للاسكندرية منذ شهر ذى الحجة سنة ١٢١٦ فى عهد ولاية خسرو باشا .

خورشيد باشا وفي عهده قامت الثورة التي مستحكم عنها فيما بلى ، ولا جرم أن هذه التعيينات والتقلبات تدلك على مبلغ تزلزل النفوذ التركى فى البلاد وما آلت إليه سلطة الوالى من الضعف والانحلال ، والواقع أن الوالى العثمانى لم تكن سلطته تتعدى حدود مدينة القاهرة وكانت أبداً عرضة لتمرد الجنود وعصيانهم .

لم يفقد المماليك أملهم فى استعادة سلطتهم القديمة بالرغم من طردهم من القاهرة وعواصم الوجه البحرى وتشتمهم فى الوجه القبلى ، فجمعوا شملهم وعادوا إلى الجيزة بقيادة عثمان بك البرديسى و ابراهيم بك يريدون فتح القاهرة ، ونفرت جماعات منهم فى الشرقية والقليوبية والمنوفية والغربية يعيشون فى البلاد فساداً وينهبون حاصلات الأهالى ومواشيهم ويفرضون عليهم الأناوات والغرامات ، وأصبحت القاهرة فى شبه حصار ، واستمرت الحرب سجالات بين المماليك وجنود الوالى ومحمد على عدة أشهر إلى أن ارتدوا عن القاهرة ، وكان فيضان النيل من أهم أسباب ارتدادهم لأن المياه غمرت البلاد التى كانوا مرابطين فيها فاضطروا إلى الرحيل عنها وانسحبوا ثانية إلى الصعيد ، وفى أثناء ذلك أخذ خورشيد باشا يدبر الوسائل للتخلص من محمد على ، فاستصدر من الاستانة فرماناً بعودة الألبانيين ورؤسائهم إلى بلادهم ، وجاء فرمان يحمله رسول إلى القاهرة ، فأدرك محمد على سر هذه المكيدة وعلم أن الغرض منها إبعاده عن مصر ، على أنه تظاهر بالإذعان وأعد عدته للرحيل ، بيد أن العلماء لما علموا بأمر هذا فرمان طلبوا إلى محمد على البقاء بمصر لمسا عهده فيه من العدل والاستقامة وردع الجنود عن الاعتداء على الأهالى ، واضطربت القاهرة لنبا هذا الرحيل ، وأقفلت الأسواق والدكاكين ، وكاد حبل الأمن يضطرب ، فقبل محمد على طلب العلماء وأعلن بقاءه لإرضاء للرأى العام ، فلما تحقق خورشيد باشا عدول محمد على عن السفر أدرك أن مكيدته قد أخفقت ، واضطر للإذعان مؤقتاً للائمر الواقع والاستعانة بمحمد على فى محاربة المماليك بالصعيد ، ورأى فى تكليفه هذه المهمة ذريعة لإبعاده هو وجنوده عن القاهرة ليخلو له الجو فيها .

سار محمد على من القاهرة على رأس جنوده الأرنؤود وعددهم نحو ثلاثة آلاف مقاتل يوم ١٧ أكتوبر سنة ١٨٠٤ (١٢ رجب سنة ١٢١٩) وكان يعاونه جيشان آخران جردهما الوالى ، الأول بقيادة سلحداره وعدده نحو أربعة آلاف ، والثانى بقيادة حسن باشا وعدده نحو ١٢٠٠ مقاتل ، فأخذت هذه القوات تطارد المماليك فى الصعيد واستولت على المنيا يوم ١٥ مارس سنة ١٨٠٥ بعد حصار دام ستة وخمسين يوماً

كان محمد على منهمكاً في قتال المماليك بالضعيد ، لكنه علم بما كان يدبر ضده في القاهرة من المكاييد بتدبير خورشيد باشا ، ذلك أن خورشيد أراد أن يتخلص من منافسه في السلطة ، فطلب من الحكومة العثمانية إمداده بقوات جديدة ، فصادف هذا الطلب هوى في نفسها لأنها لم تنظر بعين الرضا إلى تضعضع نفوذ ممثلها الرسمي في مصر فأفغذت إليه جيشاً من الدلاة^(١) ، احتشد في سوريا وسار منها إلى مصر ، فلما وصل إلى محمد على ، نبأ وصول هذا الجيش ورأى بشاقب نظره أنه هو المقصود بقدره عجل بالعودة هو وزميله حسن باشا إلى القاهرة ليمحيط بسياسة خورشيد باشا قبل أن ترسخ قدم الدلاة في البلاد

كان غرض خورشيد أن يستعين بجيش الدلاة ليتغلب على محمد على ، لكن هذا الجيش كان السبب في القضاء المبرم على سلطة الوالي كما سيحكي بيانه

سوء سياسة خورشيد باشا ونفوذ العلماء

كان خورشيد باشا سيئ الرأي فاسد التدبير ميالاً إلى الظلم غير مكترث بميول الشعب ، معتمداً على القوة الغشوم ، سكن القلعة من اليوم التاسع من صفر سنة ١٢١٩ (٢٠ مايو سنة ١٨٠٤) فكان انتقاله إليها نذيراً بالنتجائه إلى القوة المسلحة في إخضاع المدينة ، تعددت مظالمه ، فتدخل العلماء غير مرة لرفعها عن الناس ، ومن أجل هذا عظم نفوذهم ، فسكوا موئل الشعب ، يفرع إليهم عند وقوع الملمات ، وكانت مساوىء خورشيد باشا هي الباعثة على ذلك ؛ ففي عهده قوى سلطان العلماء وبلغ نفوذهم أقصى مداه حتى أثاروا الشعب واقتلعوا بقونه الوالي عن كرسي ولايته وأجلسوا (محمد على) مكانه ، ولم يسبق لهم هذا النفوذ من قبل ، كما لم يخص لهم مثله بعد انقضاء هذا العصر

مقدمات الثورة

فرض خورشيد باشا في شهر مايو سنة ١٨٠٤ اناوة جديدة على أرباب الحرف والصنائع ، فضجوا منها لما كانوا فيه من الضيق وسوء الحال ، وأقبلوا حواذيتهم وحضروا إلى

(١) جمع ديلي وهي كلمة تركية معناها الجنون ، وأطلقت كلمة دلاة أو دلانية على هذا الجيش لشهرة رجاله بالتهور في البسالة ، ومعظمهم من الأكراد

الجامع الأزهر يشكون أمرهم إلى العلماء ، وكان لإقفال الحوانيت من نذر الثورة ، فر المحافظ ورئيس الشرطة في الأسواق ينادون بالأمان وفتح الحوانيت ، فلم يفتح منها إلا القليل

وظلت الخواطر في هياج يومى السبت والاحد (١٦ — ١٧ صفر سنة ١٢١٩) وفي يوم الاثنين (١) اشتد الهياج ، واقفلت جميع الدكاكين والأسواق ، واحتشدت جموع الصناع وأرباب الحرف وجماهير الناس بالجامع الأزهر ومعهم الطبول ، وصعد كثير منهم إلى المنارات يصرخون ويدقون الطبول ، فوصل دوى نذاتهم إلى نواح بعيدة في المدينة ، وسمعه الوالى وهو بالقلعة ، ووصله خبر التجمهر ، فأرسل إلى السيد عمر نقيب الأشراف رسولا ينبئهم بأنه رفع الأناوة عن الفقراء منهم ويطلب لئيه فض الجماهير ، فقال السيد عمر مكرم : « إن هؤلاء الناس وأرباب الحرف والصنائع كلهم فقراء وما كفاهم ما هم فيه من الكساد وسوء الحال حتى تطلبون منهم مغارم لرواتب العسكر » ، ومعنى هذا أن السيد عمر مكرم طلب رفع الأناوة عن الجميع ، فرجع الرسول بذلك إلى الوالى وحضر الأغا (محافظ المدينة) ومعه عدة من الجنود وجلس بالغورية يأمر الناس بفتح الدكاكين ، ويتوعد من يتخلف ، فلم يحضر أحد ولم يسمعوا قوله ، فاضطر الوالى أمام هذه الحركة إلى رفع الأناوة في ذلك اليوم وأعلن إبطالها ، ونادى المنادى بذلك فاطمأن الناس وتفرقوا

كان الشعب اذا مستعداً للهياج متحفظاً للاقتضاض والثورة ، وقد كان لهذه الحركة أثرها في نفوس الناس لانهم أيقنوا أن في استطاعتهم ، رفع المظالم باجتماعهم وتقرير الإضراب العام وامتناعهم عن دفع الضرائب ، فانظر ماذا جرى بعد ذلك وكيف تطورت الحوادث .

فظائع الجنود الدلاة

وهياج الشعب

كان جيش الدلاة الذى جلبه خورشيد باشا مؤلفاً من ثلاثة آلاف مقاتل من أردا عناصر السلطنة العثمانية ، فأخذوا يعمشون في الأرض فساداً ويرتكبون الجرائم ويعتدون على الأموال والأرزاق والأرواح ، قال الجبرتي : « ودخلوا بيوت الناس

بمصر وبولاق وأخرجوا منها أهلها وسكنوها ، وكانوا إذا سكنوا داراً أخرجهوا وكسروا أخشابها وأحرقوها لوقودهم ؛ فإذا صارت خراباً تركوها وطلبوا غيرها ففعلوا بها كذلك ، وهذا دأبهم من حين قدومهم إلى مصر حتى عم الخراب سائر النواحي وخصوصاً بيوت الأمراء والأعيان وبقي دور بركة الفيل وما حولها من بيوت الأكابر وقصورهم ^(١) .

وقعت هذه مظالم وترادف اعتداء الجنود الدلاة ، واضطر الوالى إلى الإغضاء عن سيئاتهم ليستعين بهم على محاربة محمد على ، ومد لهم فى حبل السلب والنهب ، وعلم خورشيد أن محمد على راجع إلى القاهرة .

سعى خورشيد باشا فى استئالة العلماء إليه ، ولكنه أخفق فى مسعاه ، فأراد أن يجمعهم تحت رقبته ، فطلبهم وطالب السيد عمر مكرم والوجاقلية فى اليوم الحادى عشر من شهر محرم سنة ١٢٢٠ (١١ ايريل سنة ١٨٠٥) فلما اجتمعوا به قال لهم أن محمد على وحسن باشا راجعان من الوجه القبلى من غير إذن وطالبان شراً فيما أن يرجعا من حيث أتيا ويقانلا المماليك ، ولما أن يذهبا إلى بلادهما أوتوليا ولايات ومناصب فى غير مصر ، وقال إن لديه أمراً من السلطان « أعزل من أشاء وأولى من أشاء وأعطى من أشاء وأمنع من أشاء » ، وطلب إليهم أن يبقوا عنده (بالقلعة) يقيمون صحبة كبار الضباط ، ففهم العلماء أن الوالى يريد أن يقيهم فى القلعة ليكونوا رهائن تحت يده ، فاعتذروا بأن بعضهم وهم الشرفاوى والبسكري والمهدى غائبون عن مصر ، فقال إذا نرسل لهم بالحضور ، وانتهى الاجتماع على أن يبيت بالقلعة كل ليلة اثنان من المشايخ ، واثنان من الوجاقلية (الجهادية) ، وأعدوا لهم مكانا بالضربخانة (دار الضرب)

رجوع محمد على إلى القاهرة

وفما كان الوالى يستعد للانتار بخصمه رجع محمد على وحسن باشا بجنودهما إلى طره ، وكان خورشيد باشا قد أنفذ إليهما قوة من الدلاة لصددهما عن التقدم ، لكن محمد على تمكن بدهائه وحسن سياسته من أن يجتاز هذا المعفل دون أن يلقي اية مقاومة ، ذلك أنه لما اقترب من قلعة طره طلب أن يقابل بعض ضباط الحامية

للتحدث إليهم ، فأجابوه إلى طلبه ، فلما اجتمع بهم تبسط في الكلام معهم وحادثهم حديثاً ودياً ، وقال لهم إن الباشا لم يدفع للجنود رواتبهم المتأخرة وقد جئنا لنتطالب بها ، فهل يضركم ذلك ؟ فقالوا : كلا ، والحق أن حجة (محمد علي) كانت قوية ومقنعة ، وقدارتاح لها الضباط الدلاة لأنهم رأوا أن المطالبة بالرواتب لاتهم الجنود الألبانيين وحدهم ، بل تهم الدلاة أيضاً ، وأنه إذا وجب قتال جنود محمد علي لأنهم يطالبون بحقوقهم ، فسكذلك يفعل الوالى معهم إذا هم طالبوا برواتبهم ، فأجمعوا رأيهم ألا يتعرضوا لجيش محمد علي ، وأخلوا له الطريق ، فواصل سيره حتى بلغ القاهرة سالماً ، ونزل بداره بالأزبكية يوم ١٩ أبريل سنة ١٨٠٥ ، فبدأ الصراع بينه وبين الوالى وجهاً لوجه ، وأخذ كل منهما يعد العدة لينتصر على خصمه

وجد محمد علي أن القوة التى يستطيع أن يكسب بها المعركة ويصل بها إلى قمة السلطة هى قوة الشعب ، فبالغ في استمالة علماء المدينة وأعيانها واستنكار تصرفات الوالى . وكان الشعب يعتبر الوالى مسئولاً عن فظائع الدلاة ومظالمهم لأنه هو الذى جلبهم لتأبيد سلطته ، فأخذ تيار السخط العام يتحدر نحو الوالى ، وعبّ عبا به ، ولم يبق بين السخط والثورة إلا أن تقع حادثة تشعل نار البركان .

أيام الثورة

أول مايو — ٩ يولييه سنة ١٨٠٥

فى يوم الأربعاء أول مايو سنة ١٨٠٥ اعتدى الجنود الدلاة على أهالى مصر القديمة وأخرجوهم من بيوتهم ونهبوا مساكنهم وأمنعتهم وقتلوا بعض الأهالى الآمنين ، فعظم الهياج فى مصر القديمة وحضر جميع سكانها رجالاً ونساء إلى جهة الجامع الأزهر ، وانتشر خبر الاعتداء والهياج بسرعة البرق فى أنحاء المدينة ، واجتمع العلماء وذهبوا إلى الوالى وخاطبوه فى وضع حد لفظائع الجنود الدلاة ، فأصدر الوالى أمراً للجنود بالخروج من بيوت الناس وتركها لأصحابها ، وكان هذا الأمر صورياً ، لأن الجنود لم يخضعوا ولم ينفذوه ، فخطب الوالى ثانياً فى الأمر فطلب مهلة ثلاثة أيام ليرحل الجنود من المدينة قاطبة ، فلما علمت الجماهير بهذا الجواب اشتد ضجيجهم وتضاعف سخطهم وتألبت جموعهم ، وبدأت علائم الثورة تلوح فى أفق المدينة ، وفى اليوم التالى (الخميس ٢ مايو) عمت الثورة أنحاء العاصمة ،

فاجتمع العلماء بالأزهر وأضربوا عن إلقاء الدروس ، وأوقفت دكاكين المدينة وأسواقها ، واحتشدت الجماهير فى الشوارع والميادين يصيحون ويصخبون ، فأدرك الوالى خطر الحالة ، وأرسل وكيله صحبة رئيس الانكشارية (المحافظ) إلى الأزهر لمقابلة العلماء ومفاوضتهم لوقف الهياج ، فلم يجدهم بالأزهر . فذهب إلى بيت الشيخ الشرفاوى وهناك حضر السيد عمر مكرم وزملاؤه . فأغلقوا له فى القول . فانصرف على غير جدوى . ومضى يقصد القلعة ، لكن الجماهير لم تسكد تبصره حتى انهاروا عليه رجماً بالأحجار . ورفض العلماء أن يتدخلوا لإيقاف الهياج . وطلبوا جلاء الجنود الدلاة عن المدينة . وكانت لإجابة الطلب صعوبة التحقيق لأن الوالى يستحيل عليه أن يبعد الجنود عن القاهرة وهم من جهة عدته فى القتال ومن جهة أخرى فإن لهم روائب متأخرة والخزاة خالية من المال ، فظل العلماء مضربين عن إلقاء الدروس ، وبقيت الدكاكين والأسواق مقفلة أكثر من أسبوع . وامتنع العلماء عن مقابلة الوالى طوال هذه المدة .

تبين لك مما تقدم أن حركة شعبية قوية قامت تناوى سلطة الوالى التركى ، كانت هذه الحركة قوامها الشعب وزعماءه . ومن الخطأ أن يظن أحد أن محمد على هو الموعز بهذه الحركة ، فإن منطق الحوادث يدل يقيناً على أنها نتيجة تدمير الجماهير وتبرمها من مظالم الحكم . وإنما اغتنم محمد على تلك الحركة لتحقيق وجهة نظره . ورأى بثاقب رأيه أن يؤيدها ويناصر الشعب وزعماءه ليكسب تأييدهم . كما فعل فى ثورة الشعب على حكم الماليك ، وإليك ما قاله المسيو (فولابل) فى هذا الصدد . قال يسرد حوادث القاهرة فى ذلك الحين ، وكلامه كما ترى لا يختلف فى مجموعه عن رواية الجبرتى : « اجتمع العلماء بالأزهر وحوّلهم الجوع الحاشدة من الناس نخشى خورشد باشا أن يسفر هذا الاجتماع عن حركة ثورية وأراد أن يتلافى عواقبه . فأوفد إلى الأزهر كتخده (وكيله) وأغا الانكشارية (المحافظ) . ولكن سيلا من الاحجار انصب على الرسولين من كل صوب . فاضطرا إلى الرجوع وتمسكنا مع ذلك من المخبرة فيما جاءنا من أجله وانفقت جمعية العلماء على أن يضعوا حداً لهذه الحركة بشرط أن يطرد خورشد باشا الجنود الدلاة من القاهرة وضواحيها فى مدة ثلاثة أيام . وكان إنقاذ هذا الشرط من الصعوبة بمكان . لأن خزاة الوالى كانت خالية من المال والدلاة يطالبون بروائب ثلاثة أشهر متأخرة . وكان العلماء يعلمون ذلك فانتظروا أن تنتهى المدة التى حدودها ، فالنزاع كما يتضح مما تقدم كان منحصراً بين خورشد باشا والشعب ،

وقد بقي الالبانيون بعبيدين عنه . لكن محمد علي اتبع في هذه الظروف الخطه التي سلكها منذ حين . ذلك أنه في خلال فترة الانتظار لم ينهك يتردد على كبار الشيوخ ويضم صوته إلى شكواهم ويعدم ببذل جهوده ووساطته لتأييدهم » (١)

تعيين محمد علي والياً لجدة

ومحاولة إبعاده عن مصر

وأثناء ذلك مافىء خورشيد باشا ببذل الوسائل لإقصاء محمد علي عن مصر . وكان من قبل يسعى سعيًا حثيثاً لدى الباب العالي لهذه الغاية . وقد نجح في مسعاه ، إذ ورد فرمان سلطاني بتقليد محمد علي ولاية (جدة) . وكان الغرض من هذا التعيين إبعاد محمد علي عن مصر بأية وسيلة ولو بترقيته . فابتهج خورشيد باشا لورود هذا فرمان وظن أنه سيخلصه من خصمه اللدود . وأرسل إلى محمد علي يستدعيه إلى القلعة ليسلمه فرمان ويخضع عليه خلعة الولاية الجديدة . لكن محمد علي أدرك مافى هذا التعيين من الدسيسة وخشى القدر به إذا هو صعد إلى القلعة تلبية لدعوة الوالى . فأرسل يئبئه أنه مستعد لتلقى أمر التعيين فى أى منزل يختاره الوالى . فغضب خورشيد باشا من هذا الجواب ، وكاد الأمر يستفحل لولا تدخل الشيوخ ، فانفقوا على أن يكون الاجتماع فى منزل سعيد أغا وكيل دار السعادة وصديق محمد علي ، فرضى خورشيد باشا بهذا الحل مرغماً ، وذهب فى الميعاد (٣ مايو سنة ١٨٠٥) إلى دار سعيد أغا بالأزبكية ، وأمر بتلاوة فرمان القاضى بتعيين محمد علي والياً لجدة ، وكان ذلك بحضور علماء المدينة وكبرائها ، ولما انتهى الاجتماع خرج محمد علي ومضى إلى داره فرحاً مبتهجاً ، وعاد الوالى إلى القلعة بعد أن كاد الجنود المطالبون برواتبهم المتأخرة يفتسكون به ، ولم ينل خورشيد باشا من وراء هذه الدسيسة سوى الخيبة والفشل ، فإن محمد علي قد زادت مرتبته بتقلده الولاية دون أن يبتعد عن الميدان أو يذهب إلى جدة .

اجتماع زعماء الشعب ومطالبهم .

١٢ مايو سنة ١٨٠٥

انتهت الفترة التي حددها العلماء لجلاء الجنود الدلاة عن المدينة يوم السبت ١١ مايو ، واستطاع الوالى أن يبعد رهطا منهم تهدئة للخواطر الثائرة ، ولكن بقي منهم بالقاهرة نحو ألف وخمسمائة ، وعلم زعماء الشعب أنهم ممنعون عن الجلاء حتى تدفع رواتبهم وأن الوالى لا يريد إخراجهم حتى تؤدى لهم تلك الرواتب وأنه لا سبيل إلى دفعها مع خلو خزانة الحكومة من المال إلا بفرض ضريبة جديدة على المدينة

أحدثت هذه الأنباء هياجا عظيما في الخواطر ، وبات الناس ليلة الأحد في هرج ومرج ، والزعماء يتشاورون فيما يعدونه للغد ، وعند ما تبليج صبح يوم ١٢ مايو سنة ١٨٠٥ (١٢ صفر سنة ١٢٢٠) اجتمع زعماء الشعب وانفقوا رأيا على الذهاب إلى المحكمة الكبرى (بيت القاضى) لاختصاص الوالى وإصدار قراراتهم في مجلس الشرع

ولم تكدر تعلم الجماهير بما استقر عليه رأى الزعماء حتى احتشدت جموعهم وانجحت إلى دار المحكمة ، وأقبلت الجموع من كل صوب على دار العدل ، واحتشدت بفنائها وحولها ، وبلغت عدتها أربعين ألف نسمة ، فكان اجتماع هذا البحر الزاخر من الخلائق هو الثورة بعينها ، وظهرت روح الشعب قوية ناقمة على الوالى وعلى الحكم التركى ، ويكفيك لتعرف نفسية الشعب فى ذلك اليوم العصيب أن تتأمل فيما ذكره الجبرقى عن صيحاتهم التى كانوا ينادون بها ، فقد كانوا يصيحون « يارب يامتجلى ، اهلك العثملى » فهذا النداء يدل على ما كان يجيش بنفوس المصريين من روح السخط على الحكم التركى واعتزام التخلص منه ، وهذا يعطيك صورة لما أحدثته الروح القومية من الأثر البالغ فى النفوس

اجتمع زعماء الشعب فى دار المحكمة ، وطلبوا من القاضى أن يرسل باستدعاء وكلاء الوالى ليحضرُوا مجلس الشرع ، فأرسل يستدعيهم على عجل ، فحضروا ، وعندما انعقد المجلس عرض الزعماء ظلامه الشعب وحرروا مطالبهم وهى :
ألا تفرض من اليوم ضريبة على المدينة إلا إذا أقرها العلماء وكبار الأعيان .
أن تجلو الجنود عن القاهرة وتنتقل حامية المدينة إلى البجيزة .

ألا يسمح بدخول أى جندى إلى المدينة حاملا سلاحه .
أن تعاد المواصلات فى الحال بين القاهرة والوجه القبلى .

هذه هى المطالب التى أملاها وكلاء الشعب فى اجتماع ١٢ مايو وسلموا صورتها
إلى القاضى ، وقام وكلاء الوالى ليلبغوها إلى خورشيد باشا بالقلعة .

نقلنا بيان هذه المطالب عن المسيو فولابل الذى دونها فى كتابه وأسمها « وثيقة
الحقوق » تشبيهاً لها « بوثيقة إعلان الحقوق » التى قررها البرلمان البريطانى سنة
١٦٨٨ وأيد فيها حقوق الشعب الانجليزى وأهمها أن لا يجوز للملك أن يفرض
ضريبة إلا بعد موافقة البرلمان

وقد رجعنا إلى الجبرى فرأيناه يوردها بصيغة أخرى تختلف قليلا عن رواية
فولابل ، وإن كانت تتفق وإياها فى مجموعها قال : « فحضر الجميع وانفقوا على كتابة
غرض حال بالمطلوبات ، ففعلوا ذلك وذكر فيه تعدى طوائف العسكر والإيذاء منهم
وإخراجهم من مساكنهم والمظالم والفرد (الضرائب) ، وقبض مال الميرى المهمل
وحق طرق المباشرين ، ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة وغير ذلك وأخذوه
(وكلاء الوالى) ووعدوا برد الجواب فى ثانى يوم ،

رأى الوالى أن الحركة خطيرة ، وأن الثورة تؤذن أن تقتله من مقره ، وكان
السيد عمر مكرم نقيب الأشراف فى مقدمة زعماء الحركة وأكبرهم نفوذاً ، وفى
ذلك يقول فولابل : « إن السيد عمر مكرم ظهر فى الصف الأول من صفوف
المجاهدين الذين رآهم الشعب لأول مرة ينافعون عن مصالحه » ، فأراد الوالى أن يلقي
القبض عليه ويعتقله بالقلعة ليشل الحركة القائمة فى المدينة ، فلما وصلتته رسالة
القاضى أرسل إليه يستدعيه ويستدعى السيد عمر مكرم والعلماء إلى القلعة ليشاور
معه فى الأمر ، لكن السيد عمر فطن إلى مقاصد الوالى وخشى الغدر ، فأشار برفض
الذهاب إلى القلعة ، وكان عمقاً فى حذره لأنهم علموا بعد ذلك أن الوالى أعد
انتحاصاً لاغتيالهم فى الطريق .

خلع خورشيد باشا

والمناداة بمحمد علي والياً لمصر

١٣ مايو سنة ١٨٠٥

لم يحب أحد من زعماء الشعب دعوة الوالي ولم يذهبوا إلى القلعة ، فخلق عليهم ، وعد امتناعهم عن الذهاب إليه تمرداً وعصياناً ، وتلقاه ذلك رفض إجابة المطالب التي قرروها .

كان هذا الرفض معجلاً لسير الحوادث ، فاجتمع وكلاء الشعب من العلماء ونقباء الصناع في اليوم التالي (الاثنين ١٣ مايو — ١٣ صفر سنة ١٢٢٠) بدار المحكمة ليتداولوا في الموقف ، واحتشدت الجماهير في فناء المحكمة وحولها يؤيدون وكلاءهم ، وهناك اتفقت كلمة نواب الشعب وأجمعوا رأيهم على عزل خورشيد باشا وتعيين محمد علي والياً بدله ، وعندئذ قاموا وانتقلوا إلى دار محمد علي لتنفيذ قرارهم ، وأبلغوه ما اتفقوا عليه وقالوا :

« إننا لا نريد هذا الباشا والياً علينا ولا بد من عزله من الولاية » .

ونادى السيد عمر مكرم بالنيابة عنهم وقال :

« إننا خلعناه من الولاية » .

فقال محمد علي : « ومن تريدونه والياً » .

فقال الجميع بصوت واحد : « لا نرضى إلا بك ونسكون والياً بشروطنا لما تنوسه فيك من العدالة والخير » .

فأظهر محمد علي تردداً وامتناعاً حتى لا ينسب إليه أنه المحرض على هذه الثورة ، وقال لأنه لا يستحق هذا المنصب وإن هذا التعيين قد يمس حقوق السلطان ، فألح وكلاء الشعب عليه وقالوا جميعاً قد اخترناك برأى الجميع والسكافة ، والعبرة برضا أهل البلاد ، وأخذوا عليه العهود والمواثيق أن يسير بالعدل وألا يبرم أمراً إلا بمشورتهم .

فقبل محمد علي ولاية الحكم ونهض السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي وألبساه خلع الولاية ، وكان ذلك وقت العصر .

وبذلك تمت مبايعة نواب الشعب لمحمد على ، وأمروا بأن ينادى به في أنحاء المدينة والياً لمصر .

هذا هو اليوم المشهود الذي تولى فيه محمد على حكم مصر بإرادة الشعب ، وهو من الأيام التاريخية المعدودة في تاريخ الحركة القومية ، ففيه تم انقلاب عظيم في نظام الحكم ، فيه وضعت مصر لنفسها أساس حريتها واستقلالها ، فيه أعلنت عن حقها في تقرير مصيرها ، فيه تجلّت سلطة الأمة ممثلة في أشخاص زعمائها وذوى الرأى فيها ، تجلّت سلطة الأمة في خلع الوالى الذى لم ترتض حكمه وإسناد ولاية الأمر إلى من انتخبه زعماء الشعب ووكلاؤه ، وتلك أول مرة في تاريخ مصر الحديث يعزل الوالى ويختار بدله بقوة الشعب وإرادته ، لقد كان الولاة يعزلون بقوة الجند وإرادة رؤسائهم من المماليك ، لكن هذه المرة كان الانقلاب شعبياً ، فوقع بإرادة الشعب وبقوة الشعب ، تم انتخاب محمد على للولاية على الرغم من صدور فرمان السلطان بإسناد ولاية جدة إليه ، وكان معروفاً أن الحكومة التركية تؤيد خورشيد باشا وتناصره في موقفه ، تخلع خورشيد باشا وانتخاب محمد على والياً لمصر فيه معنى الاستقلال عن الحكومة التركية ومقاومة تدخلها في حكم مصر .

ويمتاز هذا الانقلاب بأنه لم يكن مقصوراً على مجرد انتخاب وكلاء الشعب لولى الأمور ، بل كان مقروناً باشتراطهم أن يرجع إليهم في شئون الدولة ، فوضعوا بذلك قاعدة الحكم الدستورى في البلاد ، وفي ذلك يقول الجبرتي عن ولاية محمد على : « تم الأمر بعد المعاهدة والمعاهدة على سيره بالعدل وإقامة الأحكام والشرائع والإقلاع عن المظالم وألا يفعل أمراً إلا بمشورته ومشورة العلماء وأنه متى خالف الشروط عزلوه » .

وتمتمة ميزة أخرى أكسبت ذلك الانقلاب بهاء وجلالا ، ذلك أنه تم في دار المحسنة ، في ساحة القضاء ، فاتخذ معنى الاحتكام إلى العدالة والتمسك بالحق ، وهى فكرة جليلة امتازت بها الثورة المصرية ، ولا نظن ثورة أخرى غربية أو شرقية تسامت إلى هذا المعنى البديع ، فالثورة إذأ كان قوامها المطالبة بالحق والاحتكام إلى العدل ، كان أساسها الحق ومن ورائه قوة الشعب تسانده وتؤيده ، وما أحوج الثورات والحركات القومية إلى أن تحافظ في كل أدوارها على معانى الحق والعدل والنزاهة ، فأنها بذلك تسلم من الانحدار في مهاوى الرذيلة والفساد ، والفوضى والطغيان .

القتال بين الشعب والوالى

أبلغ زعماء الشعب قراراتهم الى خورشيد باشا ، وذهب وفد منهم الى القلعة لمقابلته ، فأجابهم : « انى مولى من طرف السلطان فلا أعزل بأمر من الفلاحين ، ولا أنزل من القلعة إلا بأمر من السلطنة »

ومعنى ذلك أنه رفض الإذعان لمطالب وكلاء الشعب وكبر عليه أن يصدر منهم أمر أو نهى ، وأنكر عليهم هذا الحق بأسلوب يدل على مبلغ ما كان يشعر به بالحكام من الازدراء بإرادة الشعب ، فلم يكن بد من نشوب القتال بين الشعب والوالى

وقد حرر نواب الشعب يوم اجتماعهم محضراً بعزل خورشيد باشا وتعيين محمد على بدله ، ولم يذكر الجبرتى أنهم حرروا محضراً إلا فى يوم ١٦ صفر (١٦ مايو) حينما طلب منهم خورشيد باشا سنداً شرعياً بالعزل ، لكن (فولابل) يقول إنهم حرروا محضراً يوم ١٣ مايو أى قبل المحضر الثانى ، ويقول إن الذى تولى تحريره هو الشيخ محمد المهدي ، واقتبس منه العبارة الآتية وقال عنها إنها جديرة بالثقات النظر إليها ، وهى « إن للشعوب طبقاً لما جرى به العرف قديماً ولما تقضى به أحكام الشريعة الإسلامية الحق فى أن يقيموا الولاية ولهم أن يعزلوه إذا انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم لأن الحكام الظالمين خارجون على الشريعة »

وأخذ الوالى يحصن القلعة ويتزود من الميرة والذخيرة ويستعد للقتال لإخضاع المدينة وإخماد الثورة ، وأخذ زعماء الشعب من ناحيتهم يعدون الوسائل لحصار القلعة لإجبار خورشيد باشا على التسليم ، فدعوا الأهالى إلى حمل السلاح ، واحتشد الثائرون فى ميدان الأزبكية حتى ملأوه ، واعتزم الزعماء أن يعيدوا لإبلاغ الوالى قرارهم ويطلبوا إليه احترامه منعاً للفتنة وحققنا للدماء ، فبعثوا برسالة إلى عمر بك وصالح قرش^(١) يذكرون فيها « ما اجتمع عليه رأى الجمهور من عزل الباشا وأنه لا ينبغي مخالفتهم لما يترتب على ذلك من الفساد العظيم وخراب الإقليم^(٢) »

فأرسل عمر بك وزميله يطلبان سنداً شرعياً مثبتاً لعزله ، فاجتمع الزعماء فى يوم

(١) هما من خاصة مستشارى الوالى وكافا من ضباط الأركان

(٢) الجبرتى الجزء الثالث

الخمس (١٦ مايو — ١٦ صفر) بدار المحكمة (بيت القاضي) وحرروا محضرا في شكل سؤال وجواب على نحو الفتاوى التي كانت تصدر بخلع السلاطين في الاسانة، ووقعوا على المحضر وأرسلوه إلى الوالى ومستشاريه، فلم يقتنعوا به ولم يتعقلوه، واستمر الوالى على عناده، فأخذ السيد عمر مكرم يحرض الناس على الاجتماع والاستعداد للقتال، ولبي الأهل إلى الدعوة متطوعين حاملين ماوصلت إليه أيديهم من الأسلحة والعصى، فأقاموا المتاريس والاستحكامات بالقرب من القلعة وتحصنوا بها « وحمل السلاح كل قادر على حمله، وخلت مخازن الأسلحة بما فيها من آلات الكفاح^(١) »، واشتركت جميع طبقات الشعب في حمل السلاح على اختلاف أعمارهم ومراكزهم وطوائفهم، وبلغ عدد الثوار أربعين ألفاً حاملين الأسلحة والعصى^(٢) « وكان الفقراء من العامة يبيعون ملابسهم أو يستدينون ويشتررون الأسلحة^(٣) »

وأرسل خورشيد باشا إلى القاضي يطلب الرواتب المتأخرة لجنوده وبقائه في القلعة إلى أن يرد جواب الدولة، وقال في رسالته إن إقامته بالقلعة ليس فيها ضرر على الرعية، فأجابه القاضي: « إن إقامتكم بالقلعة هي عين الضرر فإنه حضر يوم تاريخه نحو الأربعين ألف نفس بالمحكمة طالبين نزولكم أو محاربتكم، فلا يمكننا دفع قيام هذا الجمهور، وهذا آخر المراسلات بيننا وبينكم والسلام^(٤) »

هذا ما ذكره الجبرتي عن المفاوضات بين زعماء الشعب وخورشيد باشا، ولم يذكر لنا في هذه النقطة مركز محمد على خلال تلك المفاوضات، لكن « فولابل » يلقى على هذه الناحية شيئا من الضوء، فيقول في كتابه إن (محمد على) كان يميل بعد المتناداة بمبايعته إلى أخذ خورشيد باشا بالحسن، لأن اقتراب المماليك من القاهرة في خلال تلك الأيام قد أفلق باله، هذا فضلا عن أنه لم يكن ينتظر بعين الارتياح إلى استمرار الشعب نائراً حاملا السلاح، لأنه رأى في ذلك مصدر قلق على سلطته الجديدة، فرغب إلى الشيوخ أن يفاوضوا خورشيد باشا في طريقة سلمية ترضى الفريقين، فأجاب خورشيد بأنه لا يسلم القلعة كما صرح بذلك من قبل إلا إذا جاءه أمر من السلطان، على أنه مع ذلك يكف عن ضرب المدينة إذا تعهد له الشيوخ بأنهم

(١) الجبرتي الجزء الثالث

(٢) فولابل، مصر الحديثة

(٣) و (٤) الجبرتي الجزء الثالث

لا يتمسكون بمحاسنته على الأموال التي دخلت خزانته وأن يمكنوه من تزويد القلعة بالمؤونة اللازمة لجنود الحامية ، ويقول فولابل أن الشيوخ قبلوا الشرط الثاني ، أما الشرط الأول فكان محمد علي ميالا إلى قبوله ، لكن زعماء الثورة رفضوه بتاتا وأصروا على ضرورة محاسبة خورشيد على الضرائب التي جباها ، فلما علم بنتيجة المفاوضات أضر على رفض أي اتفاق على غير الأساس الذي عرضه ، فعاد الفريقان إلى استئناف الحرب والقتال ، وبعث خورشيد باشا إلى سلحداره ليفادر الصعيد بجيشه ويحجم إلى القاهرة لنجدته .

عمر مكرم

روح الحركة

كان للشعب زعماء عديدون يجتمعون ويتشاورون ويبتكرون في تدبير الأمور ، ولكل منهم نصيبه وميزته ، ولكن من الإنصاف أن يعرف للسيد عمر مكرم فضله في هذه الحركة ، فقد كان بلا جدال روحها وعمادها ، كان أكثر الزعماء شجاعة وإقداما ، وأقوام إخلاصا وإيمانا ، وأكثرهم عملا ، وأبعدهم نظرا ، كان يتقدم الصفوف ، ويشدد العزائم ، ويدعو إلى مواصلة الجهاد ، ويتلا في أسباب الخلاف والانقسام ، تتجلى شخصيته في كلماته ومواقفه وأعماله ، فهو أول من دعا إلى الاجتماع في دار المحكمة الكبرى لإعلان خلع خورشيد باشا واختيار محمد علي باشا بدله ، وهو أول من دعا إلى محاصرة القلعة بعد أن أبى خورشيد النزول منها ، وأول الثابتين في إيمانهم بعدالة قضية الشعب ، التقى يوما بعمر بك أحد مستشاري خورشيد باشا ، فوقع بينهما جدل طويل في صدد القرارات التي أصدرها زعماء الشعب ، ومن جملة ما قاله عمر بك اعتراضاً على تلك القرارات : « كيف تعزلون من ولاء السلطان عليكم وقد قال الله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ؟ » ، فأجابه عمر مكرم على الفور : « أولو الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل ، وهذا رجل ظالم ، وقد جرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة ، وهذا شيء مألوف من زمان ؛ حتى الخليفة والسلطان إذا سار في الناس بالجور فإنهم يعزلونه ويخلعون » ، فقال عمر بك : « وكيف تحصروننا وتمنعون عنا المساء والاكل ونقاتلوننا ؟ أنحن كفره حتى تفعلوا معنا ذلك ؟ » فقال عمر مكرم : « قد أفتى العلماء والقاضى بجواز قتالكم ومحا ربكم لأنكم عصاة »

فهذه الكلمات التي فاه بها بداهة تدل على ما يجيش في صدره من المبادئ والأفكار العالية وكان عمر مكرم قائماً على تنظيم حركة المقاومة ، يتعهدا ويتولى قيادة الصفوف فيها ، فتاريخها مرتبط بجهاده وأعماله

حرض الجماهير على الاجتماع والاستعداد لحصار القلعة ، وركب هو والعلماء إلى بيت محمد علي بالأزبكية يتبعهم الكثير من الوجاهة والعامة مسلحين بالأسلحة والعصى ، وواصلوا السهر ليل في الشوارع والحارات ، وأقاموا المتاريس بالقرب من القلعة بجهات الرميلة والصليبة والحطابة والطرق النافذة إليها مثل باب القرافة والحصرية (درب الحصر) وغيرها ، ومنعوا الصعود إلى القلعة والنزول منها ، وأخذ الفريقان يترامون بالبنادق ، وصعد جماعة من الثوار إلى منارة جامع السلطان حسن يرمون منها القلعة ومن فيها

وصف الجبرتي وقائع الثورة في تلك الأيام وصف شاهد عيان ، فذكر ما خلاصته أنه في يوم الأربعاء ٢٢ صفر (٢٢ مايو سنة ١٨٠٥) ركب السيد عمر مكرم والمشايخ ومعهم جمع كثير من الناس إلى الأزبكية ، وبعد ركوبهم حضر الجمع الكثير من العامة وطوائف الأجناد من سائر النواحي وخاصة الحسينية والعطوف والقرافة والرميلة والحطابة والصليبة ومعهم الطبول والبنادق حتى غصت بهم الشوارع وذهبوا إلى الجامع الأزهر ثم رجعوا إلى الأزبكية.

وكان الغرض من هذه الحركات وما تخللها من ذهاب ورجوع إذكاء نار الحماسة في نفوس الشعب ، ودعوة طبقاته إلى تأييد الثورة والانضواء تحت لوائها ، قال المسيو (فلنكس مانيجان) في هذا الصدد : « إن هذه الجولات الحربية وما بدا على الجموع من روح القوة أثرت في نفوس جنود الوالي الذين انكمشوا أمام هذه المظاهرات »

ولحققت الجموع بالمشايخ وخرج هؤلاء من عند محمد علي واستمرت الحال كذلك إلى ليلة الجمعة ٢٤ مايو سنة ١٨٠٥ ، وفي تلك الليلة فيما بين المغرب والعشاء خرج جنود الوالي من القلعة يريدون الاستيلاء على متاريس الثوار ، فتبادل الفريقان إطلاق الرصاص إلى ما بعد العشاء ، ثم ارتد جنود الوالي على أعقابهم إلى داخل القلعة ، ويقول الجبرتي إن المساكر الأرنؤود من جنود محمد علي كانوا في هذه الملاحم يحاربون جنود الوالي بفنور مراعين أنهم « من أجناسهم لأن غالبهم منهم » ، فهذه

الشهادة قوية الدلالة على أن الثورة التي انتهت بإجلاس محمد علي على عرش مصر قامت على أكتاف الشعب دون جنود محمد علي أنفسهم ، وملاحظة الجبرتي يؤيدها أن أكبر أعوان خورشيد باشا وأخوه مستشاريه وهما عمر بك وصالح قوش كانا من الرؤساء الأرنؤود يعملان بكل الوسائل لمناصرته وضم الأرنؤود إلى جانبهم ، فلم يجد محمد علي التأييد والإخلاص من زعماء الشعب وأفراده لما وصل إلى قمة السلطة، ويؤيد هذا المعنى قول الجبرتي في موطن آخر : « انتصر محمد علي بالسيد عمر مكرم النقيب والمشايخ والقاضي وأهل البلدة والرعايا ، ويقصد الرعايا جمهور الشعب استمرت الحرب سجالا ، ففي يوم الجمعة ٢٤ مايو نزل عمر بك من القلعة وأشاع بين الجناهير أن خورشيد باشا عزم على النزول من القلعة والتسليم ، ولم يكن ذلك القول إلا خدعة أراد بها أن يفت في عضد الثوار ويضعف من عزائمهم وليتزوّد من الذخيرة والميرة ، فلما كان يوم الاثنين ٢٧ مايو تجدد القتال وشدّد السيد عمر مكرم في حصار القلعة ، قال الجبرتي يصف ما رآه في هذا الصدد :

« ركب السيد عمر مكرم وصحبته الوجافلية وأمامه الناس بالأسلحة والعسد والأجناد ، وأهل خان الخليلي والمغاربة شيء كثير جداً ، ومعهم بيارق ولهم جلبة وازدحام ، بحيث كان أولهم بالموسكى وآخرهم جهة الأزهر ، وانفصل الأمر على رجوع عمر بك إلى القلعة ونزول عابدي بك^(١) بعد أن قضوا (أى جنود خورشيد) أشغالهم وعبوا ذخيرتهم واحتياجهم من الماء والزاد والغنم ليلاً ونهاراً مدة ثلاثة أيام ، وقد كانوا أشرفوا على طلب الأمان وتبين أنهم إنما فعلوا ذلك من باب المكر والخديعة واتفق الحال على إعادة المحاصرة » ، ثم ذكر الجبرتي ما بذله السيد عمر مكرم في إعداد معدات الحصار ، قال : « ورجع السيد عمر إلى منزله وأخذ في أسباب الإحاطة بالقلعة كالأولى وذلك بعد العشاء ليلة الثلاثاء (٢٨ صفر) ووقع الاهتمام في صباحها بذلك ، وجمعوا الفعلة والعرجمية وشرعوا في طلوع طائفة من العسكر والعرب وغيرهم إلى الجبل (المقطم) - لضرب القلعة - وأصعدوا المدافع ورتبوا عدة جمال لنقل الاحتياجات والخبز وروايا الماء تطلع وتنزل كل يوم مرتين ، وطلع إليهم الكثير من باعة الخبز والتكعك والقهاوى وغير ذلك ، واستهل شهر ربيع الأول

(١) هو أخو حسن باشا أحد قواد الجنود الألبانيين وقد ذهب إلى القلعة موفداً من قبل أخيه لإقناع خورشيد باشا بالكف عن المقاومة فلم يوفق .

والأمر على ذلك مستمر من تجمع الناس وسهرهم الليل في سائر الأخطاط» (١)، أى أن حالة الثورة صارت حالة عادية أفها الناس ، وكان الفتور قد تسرب إلى جنود الأرنأود الذين يشاركون الثوار في القيام على المناريس ، وطلبوا رواتبهم من محمد على باشا فاستمهلهم حتى يسلم خورشيد باشا فأبوا « ولم يمتثلوا وتركوا المناريس التى حوالى القلعة وتفرقوا فذهب جماعة من الرعية وترسوا في مواضعهم » (٢) ، هذه شهادة الجبرقى ، وهى صريحة فى أن الشعب هو صاحب اليد الطولى فى تلك الثورة وأنه كان يسد الفراغ الذى يحدث فى الصفوف بانصراف الجنود الأرنأود عن القتال .

كان السيد عمر مكرم شديد اليقظة والحذر ، يرقب تطور الحوادث بنظر ثاقب وجناز ثابت . رأى أن بعض المفسدين يسعون فى الإيقاع بين الشعب وجنود محمد على لإحباط الحركة ، لأن هؤلاء الجنود لم يكتفوا بالتقاعد عن القتال بل كان كثير منهم يهاجمون الثوار فى منازلهم وينهبون ويعتدون . فسعى جهده فى إحباط الفتنة وحال دون استفحال الشر ، وكان له الصوت المسموع والكلمة التى لا ترد فى تلك الأيام التاريخية . تعقد الاجتماعات فى داره وينادى باسمه فى الأسواق وتعلن الأوامر منسوبة إليه . قال الجبرقى فى حوادث يوم السبت عشرة ربيع الأول سنة ١٢٢٠ (٨ يونيه سنة ١٨٠٥) : « حضر حسن نجاتى المحتسب وأمر الافندى بالمناداة . فر وأمامه المنادى يقول : حسبما رسم السيد عمر الافندى والعلماء لجميع الرعايا بأن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم ويحترسوا فى أماكنهم وأخطاطهم » . من ذلك يتبين أن سلطة الحكم فى تلك الأيام التاريخية كانت فى يد السيد عمر مكرم والعلماء . وكان هو المرجع لحل المعضلات فى تلك الحركة . فكان محمد على يتوود إليه ويراسله ويتردد على بيته ويرجع إليه فى مهمات الأمور .

وحدث أن خورشيد باشا بعث برسالة إلى الجنود الدلاة يستنجد بهم و « يطلبهم للحضور ويذكر لهم أنه يجب عليهم معاوته صيانة لعرض السلطنة وإقامه لناموسها وناموس الدين وأن الفلاحين محاصروه ومانعون عنه الأكل والشرب » . فلما وصلت الرسالة إلى الدلاة فى قلوب أعرضوا عن تلبية الدعوة وبعثوا بالرسالة إلى محمد على فأرسلها إلى السيد عمر مكرم والنقيب

وقال الجبرتي عن الاجتماعات التي عقدت في داره : « وفي ليلة الأربعاء رابع عشر ربيع الأول (١٢ يونيه سنة ١٨٠٥) حضر كئندا (وكيل) محمد علي وجرجس الجوهري (كبير المباشرين الأقباط) إلى بيت السيد عمر وحضر أيضاً الشيخ الشرفاوي والشيخ الأمير والقاضي ، وتشاوروا على أمر ورأى رأي محمد علي باشا ، ولم يذكر الجبرتي ذلك الرأي الذي كان موضوع الاجتماع والتشاور ، ولعله كان سرّاً لم يمح به المجتمعون ، فلم يصل إلى علم الجبرتي ، على أن المسيو (فلسكس مانجان) قد ذكره في كتابه (١) فقال لهم اتفقوا في هذا الاجتماع على مضاعفة الجهد لإجبار خورشيد باشا على تسليم القلعة ، فن ذلك أنهم قرروا زيادة عدد الخافر في الاستحكامات والمتاريس وعهدوا إلى السيد عمر إرسال المؤونة والماء كل يوم إلى المقاومة المرابطين بالمقطع

وكان ليقظة السيد عمر مكرم وانتباهه فضل كبير في نجاح الحركة ونجاحها من الفشل ، فقد حدث في مدة الحصار أن حضر على باشا السلحدار (٢) بجنوده من (المنيا) لمجدة خورشيد باشا ، ورابط بمصر القديمة وماجاورها ، وأمكنه أن يتصل بالقلعة من طريق الجبل وأن يمد حاميتها بالمؤونة والذخيرة ، وأخذ يعمل من جهة أخرى على الاتصال بجنود محمد علي ليفسدهم ويصرفهم عن تأييد الحركة ، فانضم إليه فعلا كثير منهم ، واعتزم أن يركب فيمن معه من الجنود ويهجم على متاريس الأهالي جهة الصليبي ، فأرسل ليلة السبت ١٥ يونيه (١٧ ربيع الأول) إلى خورشيد باشا ينبئ به عزمه ويطلب إليه في حالة هجومه من تلك الناحية أن يساعده هو من القلعة بضرب المدينة والمتاريس بالمسدافع ، فينزعهج الناس ويدب في صفوفهم الرعب ويستولى جنود الوالي على المتاريس ويتم ما دبره ، وأراد أن يحكم تديره بالمكر والحداع ، فأوعز إلى اثنين من كبراء ضباطه أن يكتبوا إلى السيد عمر مكرم خطابا مضمونه أنهما يريدان الحضور إلى جهة القاعة ليسعيا في الصلح ، وأنهما يطلبان الإذن لهما بالذهاب إلى القلعة ويلمسان إصدار الأمر إلى المرابطين في المتاريس من الأهالي بإخلاء الطريق لهما ، ولكن رجلا صادقا أميناً من رجال عمر مكرم علم بهذه المسكيدة وجاءه بعد الفجر وأخبره بها فأخذ أهبطه لإحباطها .

(١) تاريخ مصر في عهد محمد علي . الجزء الأول

(٢) قائد الجيش التركي في الصعيد .

قال الجبرتي : « فأرسل السيد عمر أفندي إلى من بالنواحي والجهات وأيقظهم وحذرهم ، فاستعدوا وانظروا وراقبوا النواحي ، فنظروا إلى ناحية القرافة قرأوا الجمل التي تحمل الذخيرة الواصلة من على باشا السلحدار إلى القلعة ، ومعها أنفار من الخدم والعسكر ، وعدتها ستون جملا ، فخرج عليهم (حجاج الحضري) ومن معه من أهالي الرميلة فضربوهم وحاربوهم وأخذوا منهم تلك الجمل وقتلوا شخصين من العسكر وقبضوا على ثلاثة وحضروا بهم وبرءوس المقتولين إلى بيت السيد عمر ، فأرسلهم إلى محمد على باشا ، فأمر بقتل الآخرين ، فلبسوا رأى من بالقلعة ذلك فعندها رموا بالمدافع والقنابل على البلد وبيت محمد على وحسن باشا وجهة الأزهر ولم يزالوا يرسلون الرمي من أول النهار إلى بعد الظهر فلم ينزعج أهل البلد من ذلك لما ألفوه من أيام الفرنسيين وحروبهم السابقة . »

و (حجاج الحضري) الذي ورد ذكره في هذه العبارة هو شيخ طائفة الحضرية في ذلك العصر ، وإليه تنسب البوابة المعروفة ببوابة حجاج ، وتسمى أيضاً بوابة الخلاه قبلي مسجد السيدة عائشة بشارع باب القرافة ، وقد ذكره الجبرتي غير مرة ، فقال عنه إنه : « الشهير بنواحي الرميلة ، وكان مشهوراً بالإقدام والشجاعة طويل القامة عظيم الهمة وكان شيخاً على طائفة الحضرية صاحب صولة وكلمة ومكارم أخلاق بتلك النواحي ، وهو الذي بنى البوابة بآخر الرميلة عند عرصة الغلة أيام الثورة ، وشنق مظلوماً ، وقال عنه إنه خرج من القاهرة عقب رحيل خورشيد باشا خوفاً على نفسه من اعتداء العسكر (الأوناود) وذهب إلى بلده (المنوات) ثم عاد وأرسل إلى السيد عمر مكرم « فسكتب له أماناً من الباشا (محمد علي) فحضر بذلك الأمان وقابل الباشا وخلع عليه ونادوا له في خطئه بأنه على ما هو عليه في حرفته وصناعته ووجاهته بين أقرانه فصار يمشي في المدينة وصحبته عسكري ملازم له . »

ثم ذكر الجبرتي أنه أختفي بعد ذلك بسبب ما داخله من الوهم والخوف من العسكر ، والظاهر أنه اعتقد أنهم ينوون قتله غيلة .

وقد ذكره المسيو (فلكس مانجان)^(١) وقال عنه إنه كان يتولى القيادة في الاستحكامات القريبة من القلعة وإنه علم من أحد أعوانه بقدوم الحملة التي بعث بها

(١) في كتابه مصر تحت حكم محمد علي

السلحدار إلى خورشيد باشا ، وقال لهذه المناسبة إنه اشتهر ذكره في حصار القلعة وإنه جمع رجاله وهجموا على الحملة واستولى على الجبال ، وروى الواقعة كما ذكرها الجبرتي

استمر القتال متراسلا بين الشعب والوالى إلى أوائل شهر يوليه سنة ١٨٠٥ ، وفى غضون ذلك أشار محمد على على السيد مكرم أن يأمر رجاله بنقل مدفع كبير من طابية قنطرة الليمون^(١) وتركيبه بالجبل لضرب أسوار القلعة كي يكون الضرب أشد أثرا من المدافع التى كان الثوار يستعملونها فى القتال ، فجمع السيد عمر رجاله وجلب الأبقار لجر هذا المدفع الثقيل ونقلوه من مكانه وأخرجوه من باب البرقية وركبوه عند باب الوزير ، واستمروا فى جره يومين كاملين ، وبعد أن تم تركيبه أخذ القواد يضربون به القلعة واستمر الضرب من الجانبين شديداً متراسلا ، وحاول بعض جنود الوالى أن يهجموا على ذلك المدفع لتعطيله فردهم الثوار وضربوهم وقتلوا كبيرهم ، وكانت مدافع القلعة تصوب قنابلها على حى الأزهر وعلى بيت محمد على وبيت حسن باشا

يتبين من الحوادث المتقدمة أن السيد عمر مكرم هو المنظم للثورة الشعبية فى ذلك العصر ، وقد شهد له بذلك كتاب الأفرنج فيما دونوه من وقائع تلك الثورة ، قال (فولابل) فى هذا الصدد :

« كان من الصعب أن يسود النظام وتدير التدابير المحكمة بين الجنود الذين اعتادوا عيشة الفوضى ، والأهالى الذين لم يألفوا من قبل حركات القتال ومتاعبه ، ولكن السيد عمر مكرم قد سد هذا النقص من جميع النواحي بجمته ونشاطه وشجاعته ، فكان دائماً دائب العمل واليقظة ، يحرك الجوع ويرتب موافقهم ويبعث الحمية فى نفوسهم ويشعل فى كل لحظة نار الحماسة كلما خمدت جذوتها أو دب إليها ديب الفتور ،^(٢)

سرد الجبرتي حوادث الثورة الشعبية ، ومر عليها كأنها حوادث عادية لا تختلف عن الوقائع والأنباء التى كان يدونها فى تاريخه العظيم ، ومع أنه كان دقيقاً فى تدوينها وفاق

(١) من القلاع التى أنشأها الفرنسيون بالقاهرة - انظر الجزء الأول من ٣١٢ من الطبعة الأولى

(٢) فولابل . مصر الحديثة

في بيانه واستقرائه جميع الكتاب والمؤرخين الافرنج الذين كتبوا عنها سواء أكانوا من شهدوها أم سمعوا بها ، فانه لم يلفت نظر قارئه إلى ما تنطوى عليه من السمو والعظمة ، على أنها مجموعة وقائع تاريخية رائعة . ولا غرو فهي تمثل نفسية جديدة للشعب المصرى ولدتها الحركة القومية التي ظهرت في أفق البلاد أواخر القرن الثامن عشر ، ولقد كانت هذه الحوادث رابع ثورة قام بها الشعب في تاريخ مصر الحديث في فترة من الزمن لا تتجاوز تسع سنوات ، فالثورة الأولى قاومها نابليون ، والثورة الثانية قاوم بها كليبر ، والثالثة قام بها في وجه المماليك ، والرابعة في وجه الوالى التركى ، كل ذلك يدل على مبلغ حيوية الشعب في تلك الحقبة من الزمن .

ولقد فطن الكتاب الافرنج إلى ما في ثورة مايو سنة ١٨٠٥ من معان سياسية كبيرة ، فلم يفتهم أن ينوهوا بها فيما كتبوه عن وقائعها ، قال (فولابل) (١) في هذا الصدد :

« إن الحوادث التي سردناها تسترعى النظر ، فلأول مرة وقّع تغيير سياسى خطير في ولاية من ولايات السلطنة العثمانية بإرادة الشعب وباسم الشعب ، ولا جدال أن المطالب التي فرضها الشيوخ على خورشيد باشا تدل على ما يجيش بصدورهم من الإحساس بالحرية وما يشعرون به من الحاجة إلى أخذ الضمانات السكافية التي تكفل مراقبة الحكومة ، ولقد كان هذا الشعور إلى ذلك العصر مجمولا في الشرق ، وإذا كانت أنظار الشعب قد اتجهت في تلك الآونة إلى محمد علي وأجمعت آراء زعمائه على تقليده سلطة الحكم فما ذلك إلا لأن (محمد علي) قد دعا إلى مبادئ الحرية وأعلن في كل لحظة دفاعه عن حقوق الشعب ومصالحه ونادى بأن علة المحن التي حلت بالبلاد راجعة إلى سوء سياسة الولاة الأتراك وعدم وجود أية رقابة على الحكومة »

هذا ما كتبه (فولابل) ، وفيه كما ترى إطراء للثورة الشعبية وتمجيد لها ، ولذلك لم يفت الكاتب أن ينوه بأن ظهور هذا الشعور الجديد يرجع الفضل فيه إلى إقامة الفرنسيين في مصر وما نشره فيها من مبادئ الحرية

ونحن من ناحيتنا نفهم هذا الفضل بمعنى آخر غير المعنى الذى قصده المسيو (فولابل) ، نفهم أن هذا الشعور المجيد يرجع الفضل في ظهوره إلى روح المقاومة

الشعبية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر ، فإن المقاومة الأهلية من شأنها أن تثير في نفوس الشعب روح التطلع إلى الحرية وإباء الضيم ، والأخذ بأسباب الحياة القومية والنظم السياسية ، فالروح التي حفزت الأمة إلى مقاومة الاحتلال الفرنسي هي التي أهابت بها إلى مقاومة حكم المماليك ثم مقاومة الحكم التركي ويقول كلوت بك^(١) وهو من أصدقاء محمد علي وأخص مستشاريه : « لقد أغرى الشيوخ (محمد علي) بتملذ زمام الأحكام ، وهم بما لهم من النفوذ الأدنى والديني والسلطة التقليدية كانوا بالبداية نواب الأمة ووكلاءها ، وغنى عن البيان أنه لو لم يستوثق محمد علي من تأييد الجمهور له لسقط تحت أعباء المهمة التي أخذ على نفسه القيام بها »

ختام الثورة

ظلت الحرب بين الشعب والوالي سجالا إلى أن جاء القاهرة من الاستانة يوم ٩ يولييه سنة ١٨٠٥ (١١ ربيع الثاني سنة ١٢٢٠) رسول يحمل فرمانا يتضمن الخطاب لمحمد علي باشا « والى جدة سابقا » بتثيته واليا على مصر « حيث رضى بذلك العلماء والرعية وأن خورشيد باشا معزول عن ولاية مصر » فبطل الضرب من القلعة ، وأبطل الثوار الضرب من الجبل مع استمرار الحصار وبقاء المتاريس ومرابطة الثوار بالجبل إلى أن أذن خورشيد باشا وسلم القلعة يوم الاثنين ٥ أغسطس سنة ١٨٠٥ (٩ جمادى الأولى سنة ١٢٢٠) ونزل منها ثم رحل عن البلاد ، فكان آخر وال عثماني حكم مصر بإرادة الاستانة وأوامرها وبذلك توجت الثورة بفوز إرادة الأمة ، واستقر الحكم من اختاره نواب الشعب ولياً للامر ، ولله عاقبة الأمور

(١) في كتابه (لحة عامة إلى مصر)

الفصل الرابع عشر

وثائق تاريخية

وثيقة رقم ١

منشور نابليون بإعادة الديوان

(انظر ص ١٥)

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من أمير الجيوش الفرنسية خطاباً إلى كافة أهالي مصر الخاص والعام ، نعلمكم أن بعض الناس الضالين العقول الخالين من المعرفة وإدراك العواقب سابقاً أوقعوا الفتنة والشروع بين القاطنين بمصر فأهلكهم الله بسبب فعلهم ونيتهم القبيحة ، والبارئ سبحانه وتعالى أمرني بالشفقة والرحمة على العباد ، فامتثلت أمره وصرت رحماً بكم شفوفاً عليكم ، ولكن كان حصل عندي غيظ وغم شديد بسبب تحريك الفتنة بينكم ، ولأجل ذلك أبطلت الديوان الذي كنت رتبته لنظام البلد وصلاح أحوالكم من مدة شهرين ، والآن توجه خاطرنا إلى ترتيب الديوان كما كان لأن حسن أحوالكم ومعاملتكم في المدة المذكورة أنسانا ذنوب الأشرار وأهل الفتنة التي وقعت سابقاً ، أيها العلماء والأشراف أعلوا أمتكم ومعاشر رعيبتكم بأن الذي يعاديني ويخاصمني إنما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره ، فلا يجد مايجأ ولا يخلصا ينجييه مني في هذا العالم ، ولا ينجو من بين يدي الله لمعارضته لمقادير الله سبحانه وتعالى ، والعاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله تعالى وإرادته وقضائه ، ومن يشك في ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة ، وأعلوا أيضاً أمتكم أن الله قدر في الأزل هلاك أعداء الإسلام وتسكير الصليبان على يدي ، وقدر في الأزل أني أجيء من المغرب إلى أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها وإجراء الأمر الذي أمرت به ، ولا يشك العاقل أن هذا كله بتقدير الله وإرادته وقضائه ، وأعلوا أيضاً أمتكم أن القرآن العظيم صرح في آيات كثيرة وقوع الذي حصل وأشار في آيات أخرى إلى أمور تقع في المستقبل ، وكلام الله في كتابه صدق وحق لا يتخلف ، إذا تقرر هذا

وثبتت هذه المقالات في آذانكم فالنرجع أمتكم جميعا إلى صفاء النية وإخلاص الطوية فإن منهم من يمتنع عن الفنى وإظهار عداوتى خوفا من سلاحى وشدة سطوتى ، ولم يعلموا أن الله مطلع على السرائر يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والذي يفعل ذلك يكون معارضا لأحكام الله ومنافقا وعليه اللعنة والنقمة من الله علام الغيوب ، واعلموا أيضا أنى أقدر على إظهار ما فى نفس كل أحد منكم لأننى أعرف أحوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد ما أراه وإن كنت لا أتكلم ولا أنطق بالذى عنده ولكن يأتى وقت ويوم يظهر لكم بالمعاينة أن كل ما فاعنته وحكمت به فهو حكم إلهى لا يرد ، وإن اجتهد الإنسان غاية جهده ما يمنعه عن قضاء الله الذى قدره وأجره على يدى ، فطوبى للذين يسارعون فى اتحادهم ومهمتهم مع صفاء النية وإخلاص السريرة والسلام (١) »

وثيقة رقم ٢

منشور الديوان الخصوصى إلى الشعب لمناسبة إعادة الديوان

(انظر ص ١٩)

« الخد لله وحده . هذا خطاب إلى جميع أهل مصر من خاص وعام ، من محفل الديوان الخصوصى من عقلاء الأنام علماء الإسلام والوجاقات والتجار الفخام ، نعلبكم معاشر أهل مصر أن حضرة سارى عسكر الكبير بونا برته أمير الجيوش الفرنساوية ، صفح الصفح الكلى عن كامل الناس والرعية ، بسبب ما حصل من أراذل أهل البلد والجمعيدية ، من الفتنة والشر مع العساكر الفرنساوية ، وعفا عفواً شاملا ، وأعاد الديوان الخصوصى فى بيت قائد أغا بالأزبكية ، ورتبه من أربعة عشر شخصا أصحاب معرفة وإتقان ، خرجوا بالقرعة من ستين رجلا كان انتخابهم بموجب فرمان ، وذلك لأجل قضاء حوائج الرعايا وحصول الراحة لأهل مصر من خاص وعام ، وتنظيمها على أكل نظام وإحكام ، كل ذلك من كمال عقله وحسن تدبيره ، ومزيد حبه لمصر وشعبته على سكانها من صغير القوم قبل كبيره ، رتبهم بالمنزل المذكور كل يوم لأجل خلاص المظلوم من الظالم ، وقد اقتص من

عسكره الذين أساءوا بمنزل الشيخ محمد الجوهري (١) وقتل منهم اثنين بقراميدان ، وأنزل طائفة منهم عن مقامهم العالى إلى أدنى مقام ، لأن الخيانة ليست من عادة الفرنسيين ، خصوصا مع النساء الأرامل فإن ذلك فيبيع عندهم لا يفعله إلا كل خسيس ، ووضع القبض بالقلعة على رجل نصراني مكاس ، لأنه بلغه أنه زاد المظالم في الجرك بمصر القديمة على الناس ، ففعل ذلك بحسن تدبيره ليمتنع غيره من الظلم ومراذه رفع الظلم عن كاهل الخلق ويفتح الخليج الموصل من بحر النيل إلى بحر السويس لتخف أجرة الحمل من مصر إلى قطر الحجاز الأنخم وتحفظ البضائع من اللصوص وقطاع الطريق وتسكث عليهم أسباب التجارة من الهند واليمن وكل فج عميق ، فاشتغلوا بأمر دينكم وأسباب دنياكم ، وانركوا الفتنة والشروع ولا نظيموا شيطانكم وهواكم ، وعليكم بالرضا بقضاء الله وحسن الاستقامة لأجل خلاصكم من أسباب العطب والوقوع في الندامة ، رزقنا الله وإياكم التوفيق والتسليم ، ومن كانت له حاجة فليأت إلى الديوان بقلب سليم إلا من كان له دعوى شرعية فليتوجه إلى قاضى العسكر المتولى بمصر المحمية ، بخط السكرية ، والسلام على أفضل الرسل على الدوام (٢) »

وثيقة رقم ٣

منشور نابليون إلى أعضاء الديوان

عن انتخاب قاضى قضاة مصر (انظر ص ٦٥)

(١) نص المنشور كما عربناه عن الأصل الفرنسى الوارد فى مراسلات نابليون

الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٢٢٤

« المعسكر العام بالقاهرة فى ٩ مسينور من السنة السابعة (٢٧ يونيه سنة ١٧٩٩)

« تلقيت رسالتكم صباح اليوم ، وأخبركم أنى لم أعزل القاضى ، بل القاضى نفسه

(١) ثم جماعة من الجنود الفرنسيين تسللوا ليلا إلى دار الشيخ محمد الجوهري أحد علماء مصر الأعلام فى ذلك العصر وكانت داره بالأزبكية ولم يكن بها سوى الخدم من رجال ونساء فشرع الخدم بدخول الجنود واستيقظ النسوة فصرهجن الجنود وقتلوا واحدة منهم وأرادوا هتك عرض فتاة أخرى ففرت منهم وسرقوا ما وصلت إليه أيديهم من متاع الدار ، وقد وقعت هذه الحادثة أثناء رحلة نابليون بالسويس ، وكان للشيخ الجوهري منزلة كبيرة لدى أعضاء الديوان لما اشتهر عنه من العلم والتقوى ، فلما عاد نابليون شكوا اليه أمر هذا الاعتداء فأمر نابليون باعدام اثنين من المعتدين عقابا لهما على ما اقترفاه ، وكانت وفاة الشيخ محمد الجوهري سنة ١٢١٥ هجرية

(٢) نشر يوم ٢٩ شعبان سنة ١٢١٣

هو الذى نقض عهده بعد أن أوليته المعروف والإحسان ونسى واجباته فانفصل عن شعبه وغادر مصر ذاهبا إلى الشام، وقد رضيت أن ينسب عنه ابنه ليقوم مقامه مؤقتا أثناء مهمته التى كان عليه أن يقوم بها فى الشام، لكننى ما قبلت قط أن يتولى هذا الشاب منصب القاضى على الدوام لصغر سنه وعدم كفايته، وعلى ذلك صار منصب قاضى القضاة شاغرا، فإذا كان ينبغى على عمله اتباعا لتعاليم القرآن الصحيحة؟ رأيت من الواجب أن أعهد إلى جمعية العلماء اختيار القاضى، وهذا ما قمت به، والآن وقد نال الشيخ العريشى ثقتكم فإن مقصدى أن تتم توليته ويتقلد منصب القضاء، وليس ذلك بدعا فإن الخلفاء الراشدين كانوا يتولون الخلافة بانتخاب جمعية المؤمنين عملا بتعاليم القرآن

« وأخبركم أننى عندما جاء ابن القاضى للقائى قد تلقيته بالرعاية والإكرام، ولا أبغى أن يناله أذى ما، وإذا كنت قد أمرت باعتقاله بالقلعة — حيث يلقى بها من حسن الوفادة والإكرام مثلما يجد فى بيته — فبأنى لم أفعل ذلك إلا محافظة على الأمن ومنعا للفتنة، وفى عزمى بعد تنصيب القاضى الجديد وتولييه أعباء عمله أن أطلق سراح ابن القاضى السابق وأرد له أمواله وأسهل له ولعائلته الذهاب أنى شاءوا، لأننى قد جعلت هذا الشاب فى أمان وحمايتى الخاصة وأنا على يقين أن أباه الذى عرفت صفاته وفضائله لم يفعل فعلته إلا مسوقا بعامل التضليل والغواية

« وعليكم بأعضاء الديوان أن تهدوا الناس الحسنى القصد إلى الصواب، وأن تعرفوا أهل مصر كافة أن قد آن الوقت لانتهاء حكم العثمانيين، فإن حكومتهم أشد قسوة من حكومة المماليك، وهل يوجد انسان يعتقد أن علماء مصر المولودين بها ليس فيهم من تؤهله كفايته وفضائله إلى الاضطلاع بمنصب قاضى القضاة؟

« أما الذين أسوء مقاصدهم وتحديثهم أهواؤهم بالخروج على إرادتى فعليكم أن تعرفونى عنهم لأقتص منهم فإن الله قد وهبى القوة على معاقبتهم ويجب أن يعرفوا أن يدي قوية ليس بها ضعف ولا وهن

« ومرادى أن يجد الديوان ويجد الشعب المصرى فى خطى هذه دليلا قائما على ما يمكنه فؤادى من عواطف الخير وتمنيات السعادة والرخاء لهم، وإذا كان النيل هو أكبر أنهار الشرق فخير بالشعب المصرى أن يكون تحت حكمى أسعد الشعوب وأعظمها»

٢ — نص المنشور كما عربه ترجمة نابليون وتلى في الديوان ونشر في الجبرق
الجزء الثالث

« جواب إلى محفل الديوان من حضرة سارى عسكر الكبير بونابارته أمير
الجيوش الفرنسية بحب أهل الملة المحمدية خطاباً إلى السادات العلماء ، انه وصل
لنا مکتوبکم من شأن القاضى نخبرکم أن القاضى لم أعزله وإنما هو هرب من إقليم مصر
وترک أهله وأولاده وخان صحتنا من المعروف والاحسان الذى فعلناه معه ، وكنت
استحسنتم أن ابنه يكون عوضاً عنه فى محل الحکم فى مدة غيبته ويحكم بدله ، ولم
يکن ابنه قاضياً متولياً الأحكام على الدوام لأنه صغير السن ليس هو أهلاً للقضاء ،
فعلتم أن محل حکم الشريعة خال الآن من قاض شرعى يحکم بالشريعة ، واعلموا أنى
لا أحب مصر خالية من حاکم شرعى يحکم بين المؤمنين ، فاستحسنتم أن يجتمع علماء
المسلمين ويختاروا باتفاقهم قاضياً شرعياً من علماء مصر وعقلائهم لأجل موافقة
القرآن العظيم باتباع سبيل المؤمنين ، وكذلك مرادى أن حضرة الشيخ العريشى
الذى اخترتموه جميعاً أن يكون لابسا من عندى وجالسا فى المحكمة ، وهكذا كان
فعل الخلفاء فى العصر الاول باختيار جميع المؤمنين ، وأخبرکم أنى تلقيتم ابن
القاضى بالحب والإكرام لما حضر لى وقابلنى ولم أزل لهذا الوقت أكرمه ولم أحب
أن يضره أحد حکم أمانتاً له ، ولما رفعناه إلى القلعة لم نرد ضروء بل رفعناه مكرماً
مثل ما يكون فى بيته بالراحة والإكرام ، وسبب ما رفعناه إلى القلعة سكون الفتن
والإصلاح بين الناس ، وبعد لبس القاضى الجديد وجلسه فى محل الحکم مرادى أن
أطلق ابن القاضى وأنزله من القلعة وأرد له كامل تعلقاته وأطلق سبيله هو وعياله
يتوجهون حيث أرادوا باختيارهم ، لأنه فى أمانى وتحت حمايتى ، وأعرف أن أباه
ما كان يكرهنى ولسكنه ذهب عقله وفسد رأيه وأنتم يا أهل الديوان تهدون الناس إلى
الصواب والنور من جنابكم لأهل العقول ، وعرفوا أهل مصر أنه انقضت وفرغت
دولة العثمانى من أقاليم مصر ، وبطلت أحكامها منها ، وأخبروهم أن حکم العثمانى أشد
تعباً من حکم الملوك^(١) وأكثر ظلماً ، والعاقل يعرف أن علماء مصر لهم عقل وتدبير
وكفاية وأهلية للأحكام الشرعية يصلحون للقضاء أكثر من غيرهم فى سائر الأقاليم ،
وأنتم يا أهل الديوان عرفوني عن المنافقين المخالفين أخرج من حقهم لأن الله تعالى

(١) المراد الممالك كما هو أصل المنشور بالفرنسية ولعل هذا التعريف من ناقل نسخة الجبرق الأصلية

أعطاني القوة العظيمة لأجل ما أعاقبهم ، فإن سيفنا طويل ليس فيه ضعف ، ومرادى أن تعرفوا أهل مصر أن قصدى بكل قلبي حصول الخير والسعادة لهم مثل ما هو بحر النيل أفضل الأنهار وأسعدها ، كذلك أهل مصر يكونون أسعد الخلائق أجمعين يا ذن رب العالمين والسلام »

وثيقة رقم ٤

معاهدة العريش (١)

٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ أنظر (ص ١٢٨)

« معاهدة للجلاء عن مصر محررة بين الستويان (٢) (ديزيه) قائد فرقة والستويان (بوسليج) مدير الشؤون المالية المفوضين عن الجنرال كليبر القائد العام للجيش الفرنسي، وبين مصطفى رشيد أفندي الدفتردار ومصطفى راسخ أفندي رئيس الكتاب المفوضين عن الصدر الأعظم

» إن الجيش الفرنسي في مصر رغبة منه في الإعراب عن مقاصده في حقن الدماء ووضع حد للنزاعات الضارة التي قامت بين الجمهورية الفرنسية والباب العالي قد قبل أن يحلو عن مصر طبقا لشروط هذه المعاهدة آملا أن يكون ذلك تمهيدا للصالح العام في أوروبا

المادة ١

ينسحب الجيش الفرنسي بأسلحته وأمتعته ومنقولاته إلى الإسكندرية ورشيد وأبو قير ومن هناك ينتقل إلى فرنسا على سفنه أو السفن التي يقتضى أن يقدمها الباب العالي لهذا الغرض ، ويرسل الباب العالي إلى قلعة الاسكندرية بعد شهر من التصديق على هذه المعاهدة مندوبا (قوميسيرا) يصحبه خمسون شخصا لتعجيل تهية هذه السفن للنقل

(١) صرفنا النظر عن الترجمة العربية الواردة في الجبرتي لكثرة ما حوته من أغلاط وعبارات ركيكة غير مفهومة ، وعربنا المعاهدة عن الأصل الفرنسي الوارد في مجموعة المعاهدات لدى مارتانس الجزء السابع)

(٢) كلمة فرنسية تؤدي معنى (مسيو) وهي من مصطلحات الثورة الفرنسية

المادة ٣

تُعقد هدنة ثلاثة أشهر في مصر تبدأ من يوم التوقيع على المعاهدة وإذا انقضت هذه المدة قبل أن يعد الباب العالي السفن فتمد الهدنة إلى أن يتم نقل الجنود بحرا ، ويلاحظ الطرفان أن يبذلا كل الوسائل لعدم الإخلال بطمأنينة الجيش والأهالي وراحتهم خلال الهدنة

المادة ٣

يتبع في نقل الجيش الفرنسي النظام الذي يضعه مندوبون يختارهم الباب العالي والجزرال كليبر لهذا الغرض ، وإذا حصل خلاف بين المندوبين أثناء انتقال الجنود إلى السفن فيختار السكودور السرسدي سميت مندوبا من قبله ليفصل في الخلاف طبقا للوائح البحرية البريطانية .

المادة ٤

تخلي الجنود الفرنسية موقعي (قطية) و (الصالحية) في اليوم الثامن وعلى الأكثر في اليوم العاشر بعد التصديق على المعاهدة ، ومدينة (المنصورة) في اليوم الخامس عشر ، و (دمياط) و (بلبيس) في اليوم العشرين ، والسويس قبل إخلاء القاهرة ستة أيام ، والبلاد الأخرى الواقعة بالبر الشرق للنيل في اليوم العاشر ، وتخلي بلاد الدلتا بعد خمسة عشر يوما من إخلاء القاهرة ، ويبقى البر الغربي للنيل وملحقاته في يد الفرنسيين إلى حين الجلاء عن القاهرة ، وبما أن هذه الجهات يحتلها الجيش الفرنسي إلى أن يجيء الجنود الفرنسية من الوجه القبلي فيجوز أن تبقى إلى تمام الهدنة إذا لم يتيسر إخلاؤها قبل ذلك ، وتسلم الجهات التي يصير إخلاؤها إلى الباب العالي بالحالة التي هي عليها الآن

المادة ٥

يعتبر إخلاء القاهرة بعد أربعين يوما أو على الأكثر خمسة وأربعين يوما من التصديق على المعاهدة

المادة ٦

يتمهد الباب العالي بأن يبذل كل عنايته ليضمن للجنود الفرنسية التي تخلي مواقعها بالبر الغربي وتسحب بأسلحتها وبأمتعتها نحو معسكر الجيش العام أن لا تضار ولا تؤذى في أشخاصها ولا في أموالها وكرامتها سواء من أهالي مصر أم من العسكر السلطاني العثماني

المادة ٧

تنفيذا لل مادة السابقة ومنعا لكل خلاف وخصام تتخذ الوسائل اللازمة لتكون الجنود التركية بعيدة البعد الكافي عن الجنود الفرنسية

المادة ٨

بمجرد التصديق على المعاهدة يطلق سراح الترك والرعايا العثمانيين على اختلاف أجناسهم المحجوزين أو المحبوسين في فرنسا أو الذين اعتقلتهم السلطة الفرنسية في مصر وكذلك يطلق سراح الفرنسيين المحجوزين أو المحبوسين في مدن السلطنة العثمانية ونفورها والأشخاص التابعين للوكالات والقنصليات الفرنسية على اختلاف أجناسهم

المادة ٩

الأشخاص الذين صودرت أموالهم وأملاكهم من الجانبين يستردون هذه الأملاك والأموال أو ترد لهم قيمتها ، ويبدأ بذلك فوراً بعد الجلاء عن مصر ، وتم تسوية ذلك في الاستانة بوساطة لجان تؤلف لهذا الغرض من الجانبين

المادة ١٠

لا يضاراً أحد من سكان مصر من أى دين كان ولا يؤذى في ملكه ولا في شخصه بسبب اتصاله أو ارتباطه بالفرنسيين مدة احتلالهم مصر

المادة ١١

تعطى للجيش الفرنسى جوازات سفر وعمود بعدم التعرض لأفراد في الطريق من تركيا وحلفائها أى إنجلترا والروسيا وكذلك تقدم له السفن اللازمة لرجوعه إلى فرنسا

المادة ١٢

عند ما ينزل الجيش الفرنسى بالسفن يتعهد الباب العالي وحلفاؤه أن لا يحصل له أى تعرض حتى يصل إلى فرنسا ، ويتعهد الجزائر كليبر والجيش الفرنسى من ناحيتهما أن لا يحصل منهما خلال هذه المدة أى تحرش أو عمل عدائى ضد أساطيل تركيا أو حلفائها أو أى بلد من البلدان التابعة لها وأن لا ترسو السفن المقلة للجيش في أى جهة عدا الشواطىء الفرنسية مالم تقض بذلك الضرورة القصوى

المادة ١٣

ينتج عن الهدنة التي تقرر عقدها لمدة ثلاثة أشهر لجلاء الجيش الفرنسى عن مصر أنه إذا وصلت خلال هذه المدة بعض السفن الفرنسية إلى الإسكندرية بغير علم قواد أساطيل الحلفاء فقد اتفق الطرفان على أن تقلع منها بعد أن تنزود بما يكفيها من الماء والمؤونة وتعود إلى فرنسا مزودة بجوازات مرور من الحكومات المتحالفة ، وفى حالة احتياج بعض هذه السفن إلى الترميم فلها دون سواها أن تبقى إلى أن يتم ترميمها ومن ثم تقلع فوراً إلى فرنسا حينما تطيب لها الريح

المادة ١٤

للجنرال كبير أن يرسل من فوره نبأ معاهدة الجلاء عن مصر إلى الحكومة الفرنسية ويعطى للركب المقلدة للرسالة جواز المرور اللازم للوصول إلى فرنسا

المادة ١٥

نظراً لما اتضح من حاجة الجيش الفرنسى إلى المؤونة اليومية مدة الثلاثة الأشهر التى يجب أن يتم فيها جلاؤه عن مصر وثلاثة أشهر أخرى ابتداء من يوم نزوله السفن فقد تم الاتفاق على أن يقدم الباب العالى الكميات اللازمة من القمح واللحم والأرز والشعير والتبن وذلك بموجب القوائم التى تقدم من المفاوضين الفرنسيين بما يكفى لمدة إقامة الجيش فى مصر ومدة سفره ويخصم من ذلك ما يأخذه الجيش من المخازن بعد التصديق على المعاهدة

المادة ١٦

لا يسوغ للجيش الفرنسى ابتداء من يوم التصديق على المعاهدة أن يجبى أى ضريبة فى مصر ، وعليه بالعكس أن يترك للباب العالى قيمة الضرائب العادية التى يحل موعد تحصيلها لغاية يوم رحيله ، وكذلك الجنال والهجن والذخائر والمدافع وغير ذلك من الأشياء التى يملكها ولا يرى أن يأخذها معه ، وكذلك شون الغلال التى جبيت نوعاً من ضرائب الاطيان ومخازن الماء كولات ، لجميع هذه الأشياء يصير حصرها وتقدير قيمتها بمعرفة مندوبين يرسلهم الباب العالى لهذا الغرض على يد قائد القوات البريطانية بالاتفاق مع وكلاء الجنرال كبير القائد العام ويتسلمها المندوبون المذكورون بقيمتها لغاية ثلاثة آلاف كيس وهو المبلغ المتفق على أدائه للجيش

الفرنسي بمثابة نفقات لازمة لتعجيل الجلاء والرحيل فإذا لم نف تلك الأشياء بهذه القيمة فعلى الباب العالى أداء الفرق بصفة سلفة تردها الحكومة الفرنسية طبقا لسننات الاستلام التى تحرر بقيمتها من وكلاء الجزال كليب

المادة ١٧

بما أن الجيش الفرنسى يلزمه لإنفاق المصاريف اللازمة للجلاء فيتسلم بعد التصديق على المعاهدة المبالغ المتفق عليها لهذا الغرض على النحو الآتى : خمسمائة كيس فى اليوم الخامس عشر بعد التصديق على المعاهدة ، وخمسمائة أخرى فى اليوم الثلاثين ، وثلثمائة كيس فى اليوم الأربعين ، وثلثمائة أخرى فى اليوم الخمسين ، وثلثمائة أخرى فى اليوم الستين ، وثلثمائة أخرى فى اليوم السبعين ، وثلثمائة أخرى فى الثمانين ، وخمسمائة فى اليوم التسعين ، بواقع الكيس خمسمائة قرش عثمانى

وتؤدى هذه المبالغ بصفة سلفة بواسطة مندوبين يوفدهم الباب العالى لهذا الغرض وتسهيلا لتنفيذ هذه العهود يرسل الباب العالى بعد تبادل التصديق على المعاهدة فوراً مندوبين عنه إلى القاهرة والمدن الأخرى التى يحتلها الجيش الفرنسى

المادة ١٨

الضرائب التى يمكن أن يجبها الفرنسيون بعد التصديق على المعاهدة وقبل إذاعة هذه المعاهدة فى أنحاء القطر المصرى تخصم قيمتها من الثلاثة آلاف كيس المنصوص عنها آنفا

المادة ١٩

تسهيلا وتعجيلا لإخلاء المدن والمواقع نخول لسفن النقل الفرنسية التى توجد بالثغور المصرية حرية الانتقال والملاحة من دمياط ورشيد إلى الإسكندرية ومن الإسكندرية إلى رشيد ودمياط مدة الثلاثة الأشهر المتفق على جعلها مهلة للجلاء

المادة ٢٠

بما أن سلامة أوروبا من الأوبئة تقتضى اتخاذ الاحتياطات التامة لمنع انتشار عدوى الوباء إليها فلا يباح لأى شخص مصاب بالطاعون أو مشتبه فى إصابته به النزول إلى السفن ، والجنود الموبوءون أو المصابون بأى مرض آخر يحول دون إمكان نقلهم فى الموعد المحدد للجلاء يبقون بالمستشفيات التى يعالجون بها فى أمان

الصدر الأعظم وحمايته ويعالجهم أطباء من الجيش الفرنسي يقولون لهذا الغرض بحاجتهم إلى أن يتم شفاؤهم ويتسنى لهم السفر بحيث يتم ذلك في أقرب وقت ممكن ، وتسرى عليهم أحكام المادتين ١١ و ١٢ من هذه المعاهدة كما تطبق بالنسبة لباقي الجند ، ويتعهد القائد العام للجيش الفرنسي بأن يصدر تعليماته المشددة إلى ضباط الفرق التي تنزل بالسفن بأن لا يسمح لسفن النقل بالرسو في غير الموانئ التي يعينها أطباء الجيش ويتوخون في اختيارها أن تتوافر فيها الوسائل الضرورية للحجر الصحي

المادة ٣١

كل ما يحدث من المشاكل مما لا تناوله أحكام هذه المعاهدة يحسم بالطرق الودية بمعرفة مندوبين يعينهم لهذه الغاية الصدر الأعظم والقائد العام الجنرال كليبر بالطريقة التي تؤدي إلى تسهيل وتعجيل الجلاء

المادة ٣٢

لا تسرى أحكام هذه المعاهدة إلا بعد التصديق عليها من الجانبين ، ويتم تبادل التصديق في خلال ثمانية أيام ، وعندئذ يتحتم على الطرفين مراعاة تنفيذ أحكامها بتمام الدقة

» تحررت هذه المعاهدة ووقع عليها بأختامنا الخاصة بنا بالمعسكر الذي وقعت به المفاوضات بالقرب من العريش يوم ٤ بلوفيز من السنة الثامنة للجمهورية الفرنسية الموافق ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ ميلادية و ٢٧^(١) من شهر شعبان سنة ١٢١٤ هجرية

» لمضامات (ديزيه) قائد فرقه ، (بوسليج) المفوضين عن الجنرال كليبر ، و (مصطفى رشيد) الدفتردار و (مصطفى راسخ) رئيس السكتاب المفوضين عن الصدر الأعظم »

(١) جاء في الجبرتي أن تاريخ المعاهدة ٢٨ شعبان لا ٢٧ ، وكذلك في مجموعة المعاهدات لدى مارتانس ، ولكن يلوح لنا أن هذا تحريف في النقل لأنه مما لا نزاع فيه أن التاريخ الميلادي للمعاهدة هو ٢٤ يناير ١٨٠٠ ، وهذا يطابق ٢٧ شعبان سنة ١٢١٤ لا ٢٨ ، فضلا عن أن النسخة الواردة في كتاب (التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية الجزء السابع) فيها أن التاريخ العربي ٢٧ شعبان لا ٢٨

« طبق الأصل المحرر بالفرنسية والمسلم إلى المفوضين الترك في مقابل النسخة التركية المسلمة منهما : إمضاء ديزيه ، بوسليج »

تصديق كليبر^(١)

أنا الموقع أدناه القائد العام للجيش الفرنسى فى مصر أوافق وأصدق على أحكام المعاهدة المذكورة أعلاه لتنفيذ بفحواها ومعناها ، وللتحقق من مطابقة الصيغة التركية المدون فيها الاثنان وعشرون شرطا للترجمة الفرنسية الموقع عليها من مفوضى الصدر الأعظم والمصدق عليها من سموه فسيصير الرجوع إلى صيغة الترجمة الفرنسية فى حالة وجود أى خلاف

المعسكر العام بالصالحية يوم ٨ بلوفيز من السنة الثامنة (٢٨ يناير سنة ١٨٠٠) إمضاء « كليبر »

وثيقة رقم ٥

معاهدة الصلح بين كليبر ومراد بك

(انظر ص ١٥٦)

بسم الله القدير

نظرا لما أبداه الأمير سامى المقام الحائز لسكمال الشرف والاعتبار مراد بك محمد من الرغبة فى أن يعيش فى سلام ووافق مع الجيش الفرنسى بمصر ، ولما يرغبه القائد العام كليبر من الإعراب عماله فى نفوس الفرنسيين من الاحترام الذى استوجبته شجاعته واقتضاه مسلكه حيالهم ، فقد تم الاتفاق على ما يأتى :

المادة ١

يعترف القائد العام للجيش الفرنسى بالنيابة عن الحكومة بمراد بك محمد أميرا وحاكما للوجه القبلى ويخوله بهذا الوصف سلطة الحكم والانتفاع فى البلاد الكائنة بالبر الشرق والبر الغربى للثيل ابتداء من ناحية بلصفورة بمديرية جرجا إلى أسوان فى

(١) لم ترد صيغة هذا التصديق فى مجموعة (دى مارتانس) فرجعنا فيها إلى ريبو الجزء السابع

مقابل أن يؤدي للجمهورية الفرنسية الخراج الواجب دفعه عن تلك الجماعات لصاحب الولاية على مصر

المادة ٢

يحدد هذا الخراج السنوي بمبلغ ٢٥٠ كيس بواقع الكيس ٢٠٠ ر. ٠٠٠ باره علاوة على ١٥٠ ر. ٠٠٠ أردب قمح و ٢٠ ر. ٠٠٠ أردب شعير و غلال أخرى

المادة ٣

الخراج الذى يدفع نقداً يؤدي على أربعة أقساط متساوية كل ثلاثة أشهر قسط، وتبدأ السنة بحساب التقويم الفرنسى ، أما الخراج الذى يؤدي نوعاً فيورد في شون القاهرة من أول فلور يال إلى ٣٠ فركتييدور ، ويحاسب مراد بك على مصاريف نقل الغلال بواقع الأردب أربعين بارة وتخضع من الخراج الذى يدفع نقداً

المادة ٤

يكون لمراد بك دخل جمر ك القصير و جمر ك إسنا ، وتحتل ميناء القصير حامية فرنسية لا تقل عن مائتي جندي وعلى مراد بك أن يؤدي نفقات هذه الحامية ويصرف لها ضعف ما يدفع عادة للجند ، وعليه أن يخصص كتيبة من المالك ترابط في القصير لمساعدة الحامية الفرنسية ، وما يدفعه لنفقات الحامية يخصم له من الخراج المذكور في المادة الثانية

المادة ٥

بما أن أمير الوجه القبلى ليس له إلا الدخل الناتج من الضرائب فليس له أن يتصرف في ملكية أى بلد إلى حاشيته المتصلين به ، ولكن له إدارة هذه البلاد بالطريقة التى يراها مرضية ، والحكومة الفرنسية تضمن للأهالى ملكية الاراضى التى يملكونها بالطرق المشروعة وتمنع وقوع أى اعتداء عليها

المادة ٦

على كل طرف أن يرد إلى الطرف الآخر الجنود اللاجئين إليه من جيش الطرف الآخر ، وليس لمزارعى القرى التابعة لأى من الفريقين أن يلجأوا إلى البلاد التابعة للفريق الآخر بقصد التخلص من أداء الضرائب أو لأى سبب آخر من هذا النوع

المادة ٧

يجعل الأمير حاكم الصعيد مدينة (جرجا) مقرآ له . وعليه أن يرسل للقائد العام حرسا من خمسة وعشرين مملوكا ، وعليه أن يوفد أحد البسكوات من أتباعه مندوبا مفوضا عنه يقيم باستمرار في القاهرة

المادة ٨

يضمن قائد الجيش الفرنسي لمراد بك الانتفاع بدخل حكومته ويتعهد بحمايته في حالة مهاجمته وإذا استهدفت الجهات التي تحتلها الجنود الفرنسية لهجوم عدائي أيا كان نوعه فعلى مراد بك أن ينفذ عددا من جنوده يبلغ على الأكثر نصف قواته لمعاونة القوات الفرنسية ، وعليه أن يقدم بالثمن المعتاد أدوات النقل المطلوبة ، ومؤونة الجنود التي ينفذها تكون على نفقة الحكومة الفرنسية

المادة ٩

يعد القائد العام كليبر بأن لا يوافق على أى اقتراح أو اتفاق يحرم مراد بك من المزايا المبينة أعلاه وعليه أن يبلغ المعاهدة الحالية إلى الحكومة الفرنسية لترعى مصالح مراد بك في المعاهدات التي قد تبرم بشأن مصر

المادة ١٠

إن الشروط الواردة في المعاهدة الحالية والتي تقررت بمعرفة كل من الجنرال داماس قائد فرقة ورئيس أركان الحرب العام والمستويان جلونيه قوميسير الحكومة (لدى الديوان) ومدير الشؤون المالية المفوضين عن القائد العام كليبر ، وعثمان بك البرديسي المفوض عن مراد بك يصير التوقيع عليها من القائد العام كليبر ومن الأمير المعظم والملاذ الأنخم مراد بك محمد

وثيقة رقم ٦

وثيقة زواج الجنرال منو بالسيدة زبيدة المصرية

كما اكتشفها العلامة على بك بهجت في دفترخانة محكمه رشيد الشرعية (انظر ص ١٩٧) « بمحضر كل من مولانا العلامة السيد أحمد الخطرى المفتى الشافعى ،

ومولانا الشيخ محمد صديق النائب والمفتي الحنبلي ، ومولانا السيد محمد غرا النائب
والمفتي المالكي ، والسيد أحمد بدوى نقيب الأشراف حالا ، والامير محمد بدوى
جوريجى سردار مستحفظان ، وأحمد أبى جاويز مستحفظان ، والحاج أحمد جاويز
العسال ، والحاج محمود اللوى المغربى ، وإبراهيم الجمال الرزاز ، والحاج محمد ميتو
وعبد الله بربر ، والحاج بدوى الشناوى ، وأزون اسماعيل السلانكى ، وعلى
جاويز كتبخدا البيك دام كالمهم

« بعد أن أقر واعترف منوباشا سارى عسكر بالقطر المصرى حالا بصريح لفظه
وفصيح نطقه بكلمتى الشهادتين وهما أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول
الله عارفاً معتقداً معناهما ومصداقاً بمضمونهما تاركاً لدين النصرانية والأديان الردية
على الترتيب والولاء وإعادة التشهد واستيفاء الشروط المعتمدة فيهما شرعاً طائعاً مختاراً
من غير إكراه ولا إجبار وبمقتضى ذلك صار له ما للمسلمين وعليه ما عليهم وظهر
منه الرغبة والحب للمسلمين والميل إليهم وسمى نفسه عبد الله باشا وأشهد على نفسه
الجماعة المذكورين بجميع ذلك لإشهاداً شرعياً ثم بعد ذلك رغب عبد الله باشا المذكور
فى تزوجه بامرأة مسلمة فخطبها خطبة شرعية وأجيب إلى ذلك بعد إبرازه لفتياً شريفة
لفظ سؤالها ما قواسمك دام فضلكم فى رجل أحب الإسلام وأهله ورغب فيهما تاركاً
لدين النصرانية ناطقاً بكلمتى الشهادتين مصداقاً على الوجه الأكمل ثم أراد أن
يتزوج امرأة مسلمة على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم فهل يجوز له حينئذ
التزوج بها والعقد عليها بشروطه الشرعية أفيدوا الجواب ، وبأدناه الحمد لله حيث
كان الحال ما شرح فى السؤال فيجوز للرجل المسلم المذكور خطبة المرأة المسلمة والعقد
عليها بشروطه الشرعية والله أعلم كتبه العبد الفقير أحمد الحضرى الشاهى لطف
الله به وبأدناه الحمد لله حيث أقر الرجل المذكور بالشهادتين بشروطهما الشرعية فيجوز
له أن يعقد على المرأة المسلمة عقداً شرعياً مستوفياً لشرائطه الشرعية والله سبحانه
وتعالى هو الموافق كتبه الفقير محمد صديق الحنبلى عفى عنه وبأدناه الحمد لله حيث
رغب الرجل المذكور فى الإسلام ونطق بكلمتى التوحيد جاز له أن يتزوج المرأة
المسلمة وأن يعقد عليها العقد الشرعى بشروطه الشرعية والله أعلم كتبه الفقير محمد
غرا المالكي غفر له وعفى عنه ، فبمحضر كل من ذكر أعلاه تزوج عبد الله باشا
المذكور بمخطوبته زبيدة المرأة بنت محمد البواب التى كانت زوجاً لسليم أغا نعمة الله

وطلقها وانقضت عدتها منه شرعاً على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم وصداق
بجملته ألفا ريال اثنتان معاملة ومائة دينار ذهباً محبوباً فالحال لها من ذلك المائة دينار
المذكورة أقبضها لوكيلها الحاج حسين بن السيد محمد الموقت فقبض منه ذلك عدداً بالمجلس
بمعاينة من ذكر أعلاه وعليه الخروج من عهدة ذلك لها شرعاً والباقي ألفا ريال
الاثنتان يحلان لها عليه بموت أو فراق زوجها له بذلك ، وعقد نكاحها عليه وكيلها
الحاج حسين الموقت المرقوم بإذنها له في ذلك بشهادة كل من أخيها لأمها السيد علي
الحامى بن حسن البواب والسيد أحمد وشقيقه السيد إبراهيم المكلف كل منهما ابني
السيد سليمان النقرزان تزويجاً شرعياً قبله للزوج المرقوم وكيله الحاج أحمد شهاب
حسباً وكله صريحاً بالمجلس بشهادة شهوده المذكورين ، وعلى عبد الله باشا الزوج
المذكور القيام لزوجه المذكورة في كل سنة تمضي من تاريخه أدناه بقضاء كسوة أقمشة
شواء وصيفاً لاثنين بحالهما القيام الشرعى ، وثبت ذلك لدى مولانا أفندى بعد أن
ثبت لديه معرفة زبيدة المذكورة المعرفة الشرعية التى لاجهالة معها شرعاً بشهادة كل
من شهود توكيلها المذكورين ثبوتاً شرعياً وحكم بموجبه حكماً شرعياً فى الخامس
والعشرين من رمضان سنة ثلاثة عشرة ومائتين وألف » (نسختان متطابقتان)

صورة عقد الاتفاق

بين منو وزوجه

ولديه بمحضر كل من مولانا الشيخ أحمد الخضرى المفتى الشافعى ومولانا الشيخ
محمد صديق النائب المفتى الحنبلى ومولانا السيد محمد غرا النائب والمفتى المالكي
والسيد أحمد بدوى نقيب الاشراف والامير محمد بدوى جربجى سردار مستحفظان
وأحمد آق جاویش مستحفظان والحاج أحمد جاویش العسال والحاج محمود اللوى
المغربى وإبراهيم الجمال الرزاز والحاج محمد ميتو وعبد الله بريير والحاج بدوى
الشناوى وأوزن اسماعيل السلانسكرى وعلى جاویش كتخد البيلك ولوى يوسف
ويكتور جليان صارى عسكر حاكم ولاية الثغر ولوى أوجست دوزى رئيس طائفة
عسكرية وكتخد صارى عسكر الآتى ذكره فيه وجان فرانسوا لوى لويكه مهندس
وميقاق الجيش الفرنساوى ولوى باس حكيم القرنقينة دام كالم صدر
التوافق والتراضى بين الحاج حسين بن السيد محمد الميقاقى الوكيل الشرعى عن زبيدة
المرأة بنت السيد محمد البواب الثابت معرفتها وتوكيله عنها فيما يذكر فيه بشهادة كل

من أخيه لأمه السيد علي الحامى بن حسن البواب والسيد أحمد وشقيقه السيد إبراهيم ابني السيد سليمان النقرزان الثبوت الشرعى وبين الحاج أحمد شهاب الحاضر معه بالمجلس القائم في ذلك بوكالته الشرعية عن عبد الله باشا منو صارى عسكر القطر المصرى حالا الثابتة صريحاً بالمجلس وبتصديقه على ذلك التصديق الشرعى وهو زوج زبيدة الموكلة بموجب كتاب الزوجية المسطر بمحكمة الشجر المؤرخ بخامس عشرين شهر تاريخه أدناه على شروط تكون وتوجد بين عبد الله باشا منو وبين زوجته زبيدة بإقرار الوكيلين المذكورين

الشرط الأول منها أن زبيدة الزوجة أقامت وأذنت زوجها المذكور وكيلا عنها في سائر ما تملكه يدها الآن وفيما يوجد لها من المال يتصرف لها في ذلك بحسن نظره السعيد

(الثانى) أن عبد الله باشا منو الزوج المذكور أقر بأن كامل ما هو تحت يدها من متاع ومصاغ وحلى فهو ملك لها بمفردها

(الثالث) عبد الله باشا منو الزوج المرقوم أعطى لوكيله الحاج أحمد شهاب المذكور مائة محبوب كل واحد منها بمائة وثمانين نصفاً فضة في نظير صداق زوجته المذكورة وأن الحاج أحمد شهاب سلم جميع ذلك ليد وكيلاها الحاج حسين المذكور فسلمها ذلك عدداً بالمجلس وذلك على حسب عادة عقود المسلمين

(الرابع) أن الزوج المذكور شرط على نفسه أنه إن حصل بينه وبين زوجته فراق يدفع لها ألفاً ريال اثنان معاملة في نظير فراقه لها وكل ما كان تحت يدها وقت ذاك يكون جميعه ملك لها حسب عادة دفع مؤخر صداق المسلمين

(الخامس) أن زبيدة الزوجة المذكورة إن كانت تطلب طلاقها من زوجها المذكور بحسب شرع المسلمين لم يكن لها من الألفين ريال المذكورة ولا نصف فضة ما عدا ما تحت يدها من مصاغ وغيره فهو لها

(السادس) زبيدة لم تزل وارثة في كل ما كانت ترثه شرعاً

(السابع) أن زبيدة أقرت بنفسها أنه إن مات زوجها المذكور وهى في عصمته تأخذ من ماله الألفين ريال المذكورة وليس لها مقارشة ولا طلب في تركته وذلك في نظير إرثها الشرعى حسب رضاها بذلك

(الثامن) أنه إن مات الزوج المذكور وخلف أولاداً من زوجته المذكورة وهم قصر يقام عليهم رجلان ناظران ووصيان واحد فرنساوى والثانى ابن عرب يتصرفان فى أموالهم بحسب المصلحة فى طريقة الفرنساوية وطريقة المسلمين

(التاسع) أن الزوجة المذكورة إن ماتت وخلفت أولاداً من زوجها المذكور فى حياته يكون أبهم هو الوكيل الشرعى على أولاده وعلى مالهم
(العاشر) الناظر الوصى الفرنساوى المذكور فى الشرط الثامن يقام من طرف حكام الفرنساوية الموجودين فى بر مصر وقت ذاك والناظر الوصى الثانى يقام بحسب عادة المسلمين وإن حصل تداعى بسبب اختلاف تقام على يد الحاكم الشرعى إن كان ببر مصر أو ببر الفرنسوية

(الحادى عشر) عبد الله باشا منو وزوجته إن ماتا جميعاً وخلفا أولاداً تكون أولادهما تحت حماية جمهور الفرنسوية والزوجين المذكورين يقصداً فضل الحكم الخمسة التى ببلاد فرنسا يكونوا نظاراً على أولادهما وأن الزوج والزوجة أقرأ واعترفا برضاهما على هذه الشروط المذكورة على يد وكيلهما الاقرار والاعتراف الشرعيين الصادرين منهما بالمجلس بحضور من ذكر أعلاه وأنهما التزما بهذه الشروط ليفعلانها وقت الاحتياج لهما من غير إكراه ولا إجبار التزاماً مرضياً وثبت ذلك لدى مولانا أفندى ثبوتاً شرعياً وحكم بموجبـه فى سابع عشرين رمضان سنة ثلاث عشر ومائتين وألف
نسختان متطابقتان (١)

وثيقة رقم ٧

معاهدة الجلاء عن مصر (أنظر ص ٢٤٢)
(أبرمها الجنرال بليار قائد الجيش الفرنسى فى القاهرة)

٢٧ يونيه سنة ١٨٠١

« معاهدة لجلاء الجيش الفرنسى بقيادة الجنرال بليار عن مصر أبرمت بين كل من البريجاديه جنرال هوب Hope بالنيابة عن القائد العام للجيش الإنجليزى فى

(١) وقد راجعنا الوثقتين على الأصل فى دفتر خزانة محكمة رشيد الشرعية ونقلناهما عنه حرفياً بما فىهما من الأغلاط اللغوية والنحوية

مصر ، وعثمان بك بالنيابة عن الصدر الأعظم ، وإسحق بك بالنيابة عن قبطان باشا ، والجنرال دنزلو Donzelot والجنرال موران Morand والسكولونيل تارير Tarayre بالنيابة عن الجنرال بليار قائد فيلق الجنود الفرنسيه ومن يتبعه ، اجتمع المندوبون المذكورون أعلاه في مكان المفاوضات وبعد تبادل الصفات والسلطات المخولة لهم اتفقوا على الشروط الآتية :

المادة ١

ان الجنود الفرنسية من كافة الأسلحة والملاحقين بهم بقيادة الجنرال بليار يحلون عن القاهرة والقلعة وحصون بولاق والجيزة وعن كل الجهات التي يحتلونها الآن في القطر المصري

المادة ٢

ينتقل الجنود الفرنسيون والملاحقون بهم بأسلحتهم وأمتعتهم ومدافعهم وذخائرهم إلى رشيد بطريق البر الغربي للنيل ومن هناك يبحرون إلى الثغور الفرنسية بالبحر الأبيض المتوسط ومعهم أسلحتهم ومدافعهم ومنقولاتهم على نفقة الدول المتحالفة ، ويتم إقلاعهم في أقرب ما يمكن من الوقت بحيث لا يتأخر عن الخمسين يوماً التالية لتاريخ التصديق على هذه المعاهدة ومن المتفق عليه أن ينتقل الجنود المذكورون إلى الثغور الفرنسية بأقرب وأسرع طريق

المادة ٣

تقف الأعمال العدائية من الجانبين بمجرد التوقيع والتصديق على هذه المعاهدة وتسلم قلعة سلاكو سكي^(١) وباب مدينة الجيزة المسمى باب الأهرام إلى جيش الحلفاء ويحدد خط المخافر الامامية لجيوش الطرفين بمعرفة مندوبين يعينون لهذا الغرض وتعطى الأوامر المشددة للجنود بأن لا يجتازوا هذا الخط وذلك منعا لكل اصطدام بين جنود الطوفين ، وإذا وقع أى اصطدام فيحسم بالطرق الودية

المادة ٤

يخلى الجنود الفرنسيون والملاحقون بهم مدن القاهرة والقلعة وبولاق وقلاعها في اليوم الثاني عشر بعد التصديق على هذه المعاهدة ، وينسحبون إلى قصر العيني

والروضة والجيزة ، ومن هناك يرحلون إلى الثغور المعدة لإقلاعهم ويكون هذا الرحيل في أقرب وقت ممكن بحيث لا يزيد عن خمسة أيام ، ويتكفل قواد الجيوش البريطانية والتركية بنفقات نقل الجنود الفرنسيين بطريق النيل من الجيزة

المادة ٥

تنظم طريقة رحيل الجنود الفرنسيين باشتراك قواد جيوش الطرفين أو ضباط أركان الحرب الذين ينتدبون لهذا الغرض من الجانبين ، ولكن من المتفق عليه أنه طبقاً لهذه المادة يكون لقواد جيوش الحلفاء تحديد عدد الأيام التي يقتضيها احتشاد الجيش الفرنسي ورحيله وبناءً على ذلك يصحب الجيش الفرنسي في رحيله مندوبون من الانجليز والترك يكلفون تقديم المؤن اللازمة له أثناء الرحيل

المادة ٦

تعهد حراسة الأمتعة والأثقال والذخائر وسائر المهمات التي ينقلها الجنود الفرنسيون بطريق النيل شراذم من الجيش الفرنسي وإلى السفن المسلحة التابعة لدول الحلفاء

المادة ٧

تقدم المؤن الكافية للجنود الفرنسيين والملحقين بهم من يوم رحيلهم من الجيزة إلى حين وصولهم إلى فرنسا وتبسع في هذا الصدد لواشح الجيش الفرنسي في المسافة بين الجيزة والثغر الذي يقلعون منه ، واللواشح البحرية البريطانية في طريقهم بمرأ لغاية وصولهم إلى فرنسا

المادة ٨

يقدم قواد القوات البرية والبحرية الانجليزية والتركية مراكب النقل اللازمة لنقل الجنود الفرنسية إلى ثغور فرنسا الواقعة على البحر الأبيض المتوسط وكذلك لجميع الفرنسيين والأشخاص الآخرين الملحقين بالجيش الفرنسي ، ويعهد في هذه المهمة وفي تدبير المؤن الكافية إلى مندوبين يعينهم لهذا الغرض الجنرال بليار وقواد الحلفاء البريين والبحريين بعد التصديق على هذه المعاهدة مباشرة ، ويتوجه هؤلاء المندوبون إلى رشيد وأبو قير لتدبير الوسائل اللازمة للنقل

المادة ٩

يقدم الحلفاء أربع سفن (أو أكثر من هذا العدد عند الإمكان) خاصة لنقل الجياد والمياه والعلف الكافي لمدة السفر

المادة ١٠

يعود الجنود الفرنسيون والملحقون بهم إلى فرنسا في حراسة سفن الحلفاء ، وتضمن الدول المتحالفة للذين يركبون السفن منهم أن لا يصابوا بأذى ما إلى أن يبلغوا الشواطئ الفرنسية ويتعهد الجنرال بليار هو والجنود الذين تحت قيادته بأن لا يصدر عنهم أثناء رحلتهم أى عمل عدائى ضد السفن أو البلاد التابعة لصاحب الجلالة البريطانية أو الباب العالي وحلفائهما

ولا يجوز للسفن المقتلة للجنود أو للرعايا الفرنسيين أن ترسو فى أى ثغر آخر غير الثغور الفرنسية مالم تقض بذلك الضرورة القصوى

ويتعهد قواد القوات البريطانية والتركية والفرنسية بالعهود المبينة أعلاه مدة إقامة الجيش الفرنسى فى مصر من يوم التصديق على المعاهدة إلى حين نزوله إلى السفن ويتكفل الجنرال بليار قائد القوات الفرنسية بالنيابة عن حكومته بأن السفن التى تقل الجنود الفرنسية أو تتولى حراستها فى البحر لا تتحجز ولا تضبط فى موانئ فرنسا بعد نزول الجنود منها وأن يكون لقباطيتها الحق أن يشقروا على حسابهم حاجتهم من الزاد والمؤونة مما يكفيهم للعودة ، ويتكفل الجنرال بليار أيضاً بالنيابة عن حكومته أن لا تضار هذه السفن فى عودتها إلى ثغور الحلفاء ما دامت لا تحاول القيام بمحركات حربية عدائية أو المشاركة فيها بأى وسيلة ما

المادة ١١

جميع الرجال الإداريين وأعضاء لجنة العلوم والفنون وبالجلة كل الأشخاص الملحقين بالجيش الفرنسى يتمتعون بالازايا المخولة فى هذه المعاهدة لأفراد الجيش ولرجال الإدارة وأعضاء لجنة العلوم والفنون أن يأخذوا معهم الأوراق المتعلقة بوظائفهم وأعمالهم وأوراقهم الخاصة والأشياء الأخرى التى تتعلق بهم

المادة ١٢

يحق لأى من سكان مصر على اختلاف أجناسهم إذا رغب للحاق بالجيش الفرنسى فى رحيله أن يرحل معه ولا يجوز بعد رحيله أن تؤذى عائلته أو تصادر أملاكه

المادة ١٣

لا يضار أحد من سكان مصر من أى دين كان ولا يؤذى فى شخصه ولا فى ماله بسبب علاقته أثناء الاحتلال الفرنسى بالسلطات الفرنسية ما دام يخضع من الآن لقوانين البلاد (١)

المادة ١٤

المرضى الذين لا يستطيعون السفر يبقون فى مستشفى حيث يتولى علاجهم أطباء من الفرنسيين أو أشخاص من مواطنيهم إلى أن يتم شفاؤهم وعندئذ يرسلون إلى فرنسا طبقاً للأحكام التى تسرى على الجنود، وعلى قواد الحلفاء أن يقدموا لهم حاجاتهم فى ذلك المستشفى وعلى الحكومة الفرنسية أن ترد قيمة هذه الحاجات

المادة ١٥

عند تسليم المواقع والقلاع المقتضى تسليمها طبقاً لهذه المعاهدة يعين مندوبون لتسلم المدافع والذخائر والأوراق والمحفوظات والرسوم وغير ذلك من الأشياء والمنقولات التى يجب على الفرنسيين تركها للحلفاء

المادة ١٦

يرسل قائد القوات البحرية للحلفاء سفينة تبحر فى أقرب وقت إلى طولون وعليها ضابط ومندوب من الجيش الفرنسى يعهد لهما بإبلاغ الحكومة الفرنسية نص هذه المعاهدة

المادة ١٧

جميع ما ينشأ من الخلاف فى شأن تنفيذ هذه المعاهدة يحسم بالطرق الودية على يد مندوبين يعينون لهذا الغرض من الجانبين

المادة ١٨

بعد التصديق على هذه المعاهدة يصير الإفراج فوراً عن الأسرى الانجليز

(١) فى النص المنشور فى مجموعة دى مارتانس أن هذه المادة تنصرف إلى الأشخاص الذين يرحلون مع الجيش الفرنسى ، لكن هذه الاضافة لم ترد فى النص الوارد فى ريبو ، وقد اعتمدنا على الصيغة التى فى ريبو لأن الاضافة لا تستقيم مع المعنى المستفاد من ختام المادة

والعثمانيين المحبوسين في القاهرة وعلى قواد الحلفاء أن يفرجوا من ناحتهم عن
الأسرى الفرنسيين الذين في معسكراتهم

المادة ١٩

يتبادل الحلفاء والفرنسيون الرهائن لضمان تنفيذ هذه المعاهدة من الجانبين
وتكون الرهائن من ضباط من الطرفين متساوين في الرتبة ويطلق سراح الرهائن
بمجرد وصول الجنود الفرنسية إلى موافى فرنسا

المادة ٢٠

يبلغ أحد الضباط الفرنسيين هذه المعاهدة إلى الجنرال منو بالإسكندرية ، ولهذا
الآخر أن يقبلها بالنسبة للجنود الفرنسيين ومن يلحق بهم ممن تحت إمرته برأ وبحراً
في تلك المدينة وعليه في حالة القبول أن يبلغ ذلك إلى قائد القوات البريطانية المرافطة
أمام الإسكندرية في مدة اليومين التاليين لتبليغه نص المعاهدة

المادة ٢١

يصير تبادل التصديق على هذه المعاهدة من قواد الطرفين في مدة أربع وعشرين
ساعة بعد التوقيع عليها

حرر من هذه المعاهدة أربع نسخ بالمسكان الذي حصلت فيه المفاوضات بين
مندوبي الطرفين ظهر يوم ٢٧ يونيه سنة ١٨٠١ الموافق ١٦ صفر سنة ١٢١٦ هجرية
أى ٨ مسيدور من السنة التاسعة للجمهورية الفرنسية

إمضاءت : هوب Hope بريجاديه جنرال . عثمان بك وكيل الصدر الأعظم .
إسحق بك وكيل حسين قبطان باشا . دنزولا Donzelot قائد لواء . موران قائد لواء
تارير Tarayre كولونل

نوافق ونصدق على هذه المعاهدة ، ٩ مسيدور (٢٨ يونيه سنة ١٨٠١) : بليار
قائد فرقة . نوافق : هلى هتشنسون القائد العام (للجيش الإنجليزي) - نوافق بالنيابة
عن اللورد كيث : ستفنسن قبطان بالبحرية الملكية -

صدقنا على مواد هذه المعاهدة الحاج يوسف ضيا . حسين باشا قبطان

ملحق إضافي وتفسيرى للمعاهدة

١ — أن مدافع الميدان التى يسوغ للجيش الفرنسى تحت إمرة الجنرال بليار أن ينقلها معه فى انسحابه من القاهرة ويأخذها لفرنسا هى : مدفعا من مدافع الميدان عن كل طابور ومدفع عن كل سرية وما يتبعها من العربات والذخيرة

٢ — من المتفق عليه أيضاً أن الجنود الفرنسيين الذين يركبون سفناً حربية من سفن الحلفاء يودعون أسلحتهم وذخيرتهم فى الأماكن المخصصة لها على ظهر تلك السفن تحت رقابة قباطينها ثم تسلم للجنود الفرنسيين عند نزولهم من السفن فى الموانئ الفرنسية ، أما الجنود الذين يركبون سفناً غير حربية وغير مسلحة فيستبقون أسلحتهم وذخيرتهم مدة رحلتهم ويكونون تحت رقابة ضباطهم

٣ — تنتقل زوجة الجنرال منو وابنه وياوره من القاهرة إلى الإسكندرية بطريق النيل على سفينة يعدها الحلفاء لهذه الغاية وترسل معهم منقولات الجنرال منو

٤ — بما أنه يوجد بالقاهرة الآن بعض زوجات الضباط والجنود وباقي الفرنسيين المرابطين فى الإسكندرية فلن كامل الحرية فى الانتقال إلى تلك المدينة ، وتعد لهم وسائل الانتقال اللازمة لهذا الغرض وفى حالة عدم قبولهم فى الإسكندرية ينتقلون إلى فرنسا عند إقلاع الجيش الفرنسى الذى تحت قيادة الجنرال بليار أوفى أى وقت ممكن ، ويخولن جميع المزايا المنصوص عنها فى هذه المعاهدة

٥ — الفرنسيات من نساء ضباط الجيش الفرنسى وجنوده أو نساء الموظفين الفرنسيين الملاحقين بهذا الجيش ينتقلن مع أزواجهن إلى فرنسا ويعطين المأونة السكافية ويخولن المزايا المبينة فى هذه المعاهدة وتبعب فى ذلك اللوائح البحرية البريطانية

٦ — إذا وجد بالقاهرة منقولات وأمتعة تابعة لأفراد الحامية الفرنسية المرابطة فى الإسكندرية تنقل وتودع فى رشيد أو ترسل إلى فرنسا إذا أمكن ذلك

٧ — يجوز لمدير الإيرادات العامة للجيش الفرنسى أن ينتقل إلى الإسكندرية أو يرسل إليها مندوبا عنه ويعطى كل التسهيلات الممكنة لهذا الغرض

٨ — إذا كان من بين الرهائن التى تعطى من الجانبين ضباط من الجيش البرى فلقواد الجيوش الثلاثة أن يستبدلوا بهم عند نزول الجيش الفرنسى الى السفن ضباطا بحريين من مرتبتهم

- ٩ — الخيول والجمال التي يتركها جيش الجزائر بليار في مصر تسلم عند الجلاء إلى مندوبين يعينهم قواد جيوش الحلفاء
- ١٠ — من المتفق عليه أن الحصون التي يصير تسليمها تسلم بحالتها دون أن يمسها أى هدم أو تخريب ويلفت نظر الضباط والمهندسين إلى الألغام التي بها
- حرر في معسكر المفاوضات يوم ٨ مسيدور من السنة التاسعة (٢٧ يونيه سنة ١٨٠١ - ١٦ صفر سنة ١٢١٦) (الامضاءات السابقة)

وثيقة رقم ٨

معاهدة الجلاء عن الاسكندرية (انظر ص ٢٥٠)

« شروط التسليم المعروضة يوم ٣٠ أغسطس سنة ١٨٠١ ^(١) من عبد الله جاك فرنسوا منوالقائد العام للجيش الفرنسى بالإسكندرية على قواد القوات البرية والبحرية التابعة لصاحب الجلالة البريطانية ولللباب العالى

الشرط ١

ابتداء من اليوم لغاية ٣٠ فركتيدور (١٧ سبتمبر سنة ١٨٠١) تمتد الهدنة بين الجيش الفرنسى والجيوش الانجليزية والتركىة بالشروط المنبئة الآن وتحدد خطوط المخافر الامامية بين الجيشين تحديداً - ديداً بمقتضى اتفاق ودى يبرم بين قواد الجانبيين منعاً لوقوع أى تصادم بين الجنود (الجواب) — مرفوض

الشرط ٢

إذا لم يصل المدد الكافى للجيش الفرنسى قبل الميعاد المحدد فى المادة السابقة ينسحب من الاسكندرية وقلاعها واستحكاماتها بالشروط الآتية (الجواب) — مرفوض

الشرط ٣

ترتد الجنود الفرنسية يوم ١٨ سبتمبر إلى داخل الاسكندرية والقلاع المجاورة

(١) عرضت الشروط يوم ٣٠ أغسطس وتم الاتفاق يوم ٣١ أغسطس كما بينا ذلك ص ٢٥٠

لها ، وتسلم إلى الحلفاء المعادل والاستحكامات الواقعة أمام سور المدينة وكذلك قلعتي لتورك ودقيفيهيه (١) وما فيها من المدافع والذخائر (الجواب) تسلم جميع الاستحكامات وقلعتا لتورك ودقيفيهيه إلى قوات الحلفاء بعد التوقيع على معاهدة التسليم بثمان وأربعين ساعة أى ظهر يوم ٢ سبتمبر وكذلك يسلم ما بها من المدافع والذخائر وينسحب الجنود الفرنسيون من الاسكندرية وباقي قلاعها وملحقاتها بعد التوقيع على المعاهدة بعشرة أيام بحيث ينزل الجنود الفرنسيون في هذا الموعد إلى السفن المعدة لرحيلهم

الشرط ٤

كل فرد من أفراد الجيش الفرنسى أو الملحقين به من العسكريين والملكيين وكذلك أفراد الجنود على اختلاف أجناسهم وبلدانهم وأديانهم ممن كانوا بمصر قبل مجيء الحملة الفرنسية يستبقون بملكاتهم وأمتعتهم وأوراقهم بحيث لا يسوغ خصها وتفتيشها

الجواب — مقبول ، بشرط أن لا يأخذوا شيئاً من أملاك حكومة الجمهورية الفرنسية عدا المنقولات والأمتعة والأشياء الأخرى ملك الفرنسيين والتابعين لهم ممن اشتغلوا في خدمة الجيش الفرنسى مدة ستة أشهر وكذلك الأشخاص الملحقين بخدمة الجيش الفرنسى في الوظائف الملكية أو العسكرية على اختلاف أجناسهم وبلدانهم وأديانهم

الشرط ٥

تنزل القوات الفرنسية ومن يقبها من الأشخاص المشار إليهم في البند السابق إلى السفن في نهر الاسكندرية بين ٥ و ١٠ من شهر فاندسمير من السنة العاشرة للجمهورية (من ٢٧ سبتمبر إلى ٢ أكتوبر سنة ١٨٠١) على الأكثر بأسلحتهم وذخائرهم وأمتعتهم ومنقولاتهم وجميع ما يملكونه من الأوراق الرسمية والودائع ، ويلحق بكل طابور وسرية مدفع من مدافع الميدان وذخيرته ، وتقلع السفن بكل ذلك إلى ميناء فرنسية بالبحر الأبيض المتوسط يعينها قائد الجيش الفرنسى

(الجواب) — ينزل الجنود الفرنسيون ومن يتبعهم من الجنود والأشخاص المشار إليهم في البند الرابع إلى السفن من نهر الإسكندرية إلا إذا تم الاتفاق الودى

على إقلاع جزء منهم من أبو قير ، ويكون نزولهم إلى السفن عقب إعداد السفن لهم ،
وتتعهد دول الحلفاء بنقل الجنود في عشرة أيام بعد التوقيع على معاهدة التسليم إذا
أمكن ذلك ، ويؤدي إلى الجيش الفرنسي الاحترام العسكري ، ويأخذ معه أسلحته
وأمتعته ولا يعتبر أفراد أسرى حرب ، ويأخذ معه كذلك عشرة مدافع من عيار ٤
بوصات ومن الذخيرة ثمانى طلقات أو عشر لكل مدفع إلى أحد الثغور الفرنسية
بالبحر الأبيض المتوسط

الشرط ٦

تقلع السفن الحربية الفرنسية كاملة الأسلحة مع الجيش الفرنسي وكذلك السفن
التجارية مهما اختلفت جنسية أصحابها ولو كانوا من رعايا الدول المعادية للحلفاء أو
كانوا من التجار أو البحارة التابعين لدول الحلفاء قبل مجيء الحملة الفرنسية بحيث
تعاد السفن الحربية إلى الحكومة الفرنسية وتعاد السفن التجارية لأصحابها
(الجواب) — مرفوض وتسلم جميع السفن إلى الحلفاء بالحالة التي هي عليها

الشرط ٧

كل سفينة فرنسية تصل الاسكندرية ابتداء من اليوم لغاية ٣٠ فركتيدور (١٧
سبتمبر) قادمة من ثغور فرنسا أو حلفائها تسرى عليها أحكام هذه المعاهدة ، والسفن
الحربية أو التجارية التابعة لفرنسا أو حلفائها التي تصل في مدة العشرين يوما التالية
للجلاء عن المدينة لا تعتبر غنيمة حربية بل يطلق سراحها هي وركبها وحوائها وتعطى
جواز مرور من الحلفاء
(الجواب) — مرفوض

الشرط ٨

الجنود الفرنسيون والموظفون العسكريون والملكيون التابعون للجيش وجميع
الأشخاص المنوه عنهم في البنود السابقة يبحرون على ظهر السفن الفرنسية الراسية في
ثغر الاسكندرية إذا كانت صالحة للسفر أو على ظهر السفن الانجليزية أو التركية في
المواعيد المحددة بالبند الخامس

(الجواب) — يختار الاميرال الانجليزى ما يشاء من هذه السفن

الشرط ٩

يعين مندوبون من الجانبين لوضع نظام النقل من جهة عدد السفن اللازمة ومقدار حملتها من الرجال وبالجملة تسوية كل ما يمكن أن ينشأ من الصعوبات في تنفيذ هذه المعاهدة ويعهد إلى هؤلاء المندوبين تحديد مواقع السفن الموجودة في الميناء والسفن التي يقدمها الحلفاء بحيث تكون الوسائل التي تتبع كافية لمنع وقوع أى نزاع بين البحارة المختلفة أجناسهم .

(الجواب) — كل هذه التفاصيل تعهد تسويتها إلى الأميرال الانجليزى وإلى ضابط بحرى فرنسى . قائد العسام للجيش الفرنسى

الشرط ١٠

التجار وأصحاب السفن على اختلاف أجناسهم وأديانهم وكل من يرغب من سكان مصر أو من رعايا البلاد الأخرى المقيمين الآن في الاسكندرية كالسوريين والاقباط والاروام والعرب واليهود الخ في مصاحبة الجيش الفرنسى في رحيله يركبون السفن مع الجنود الفرنسية وتسرى عليهم المزايا المقررة للجيش الفرنسى ولهم الحق في أن يأخذوا معهم ماشاءوا من أموالهم من أى نوع كانت وأن يوكلوا من شاءوا في التصرف فيما لا يستطيعون نقله وتحرم تصرفاتهم ومعاملاتهم والعقود الصادرة منهم بشأن ممتلكاتهم ويضمن قواد الحلفاء نفاذها ، والذين يفضلون منهم البقاء في مصر فترة من الزمن لتسوية معاملاتهم يسمح لهم بذلك ويكونون مشمولين بحماية الحلفاء ، أما الذين يؤثرون الإقامة في مصر إلى ما شاء الله فيتمتعون بكافة الحقوق والمزايا التي كانت لهم قبل الحملة الفرنسية

(الجواب) — جميع المتاجر التي توجد في الاسكندرية أو على ظهر السفن الراسية في الميناء تسلم مؤقتاً إلى الحلفاء إلى أن يبت في شأنها طبقاً للقواعد المرعية ولأحكام القوانين المتبعة بين الدول ولمن يشاء من الأفراد أن يصحبوا الجيش الفرنسى أو يبقوا في مصر في أمن وطمأنينة .

الشرط ١١

لا يضار أحد من سكان مصر أو من رعايا أمة أخرى مهما كان مذهبه بسبب

مسلسكة مدة الاحتلال الفرنسى وخاصة لمحاربته فى صفوفهم أو استخدامهم إياه .
(الجواب) - مقبول

الشرط ١٢

مؤونة الجنود والملحقين بهم فى البحر لغاية الوصول إلى فرنسا تكون على نفقة الحلفاء وطبقاً للوائح البحرية الفرنسية وعلى الحلفاء أن يقدموا كل ما يلزم لتسهيل النزول إلى السفن

(الجواب) - مؤونة الجنود ومن يركب السفن معهم تكون على حساب الحلفاء لغاية بلوغهم فرنسا وتتبع فى ذلك القواعد المرعية فى البحرية البريطانية

الشرط ١٣

القناصل والممثلون للدول المتحالفة مع فرنسا وكذلك الموظفون القنصليون التابعون لتلك الدول يستمر تمتعهم بالمزايا والحقوق المخولة لموظفى السلك السياسى طبقاً للقواعد المتبعة بين الدول المتعدنة وتكون أملاكهم ومنقولاتهم وأوراقهم موضع الرعاية والاحترام فى كنفالة دول الحلفاء ولهم الحرية فى أن يرحلوا أو يبقوا فى البلاد كما يشاءون

(الجواب) - للقناصل ولباقى الموظفين القنصليين التابعين لحلفاء الجمهورية أن يرحلوا أو يبقوا فى البلاد حسبما يرغبون وتحفظ لهم أملاكهم ومنقولاتهم على اختلاف أنواعها ، وكذلك أوراقهم ماداموا يسرون سيرة صادقة ويتبعون القواعد المقررة فى القانون الدولى

الشرط ١٤

المرضى الذين تقرر اللجان الصحية للجيش أن فى استطاعتهم السفر يركبون السفن مع باقى الجنود، وتخصص لهم سفن مستشفيات تتوافر فيها الأدوية الكافية والأغذية وكل ما يلزم للرضى ويتبعهم صيدليون فرنسيون ، أما المرضى الذين لا تسمح حالتهم بالسفر فيبقون فى رعاية دول الحلفاء وعنايتهم ويبقى معهم بعض الأطباء الفرنسيين ، وتخصص لهم وسائل العناية الكافية وتكون نفقاتهم على حساب دول الحلفاء، وعلى هذه الدول أن تبعث بهم إلى فرنسا عندما تسمح لهم صحتهم بالسفر، ولهم أن يأخذوا معهم كل ما يملكون من المنقولات طبقاً للقاعدة المتبعة بالنسبة لباقى الجنود

(الجواب) — مقبول وتعد بعض السفن لتسكون مستشفيات ينتقل إليها الجنود الذين يطرأ عليهم المرض في مدة السفر وعلى اللجان الصحية لجيوش الطرفين أن تتفق على الوسائل الواجب اتخاذها بالنسبة للبرضى المصابين بأمراض معدية بحيث يمنع اتصالهم بباقي الجنود

الشرط ١٥

تخصص بعض سفن النقل لخل الخيول بحيث تسع كل سفينة ستين جواداً والعلف الكافي لهذه الجياد مدة السفر
(الجواب) — مقبول

الشرط ١٦

يحق لأعضاء المجمع العلمي المصرى ولجنة العلوم والفنون أن يأخذوا معهم جميع الأوراق والرسوم والمذكرات وبجاميع التاريخ الطبيعى وجميع آثار الفنون والعاديات القديمة التى جمعوها فى مصر
(الجواب) — أعضاء المجمع لهم أن يأخذوا معهم جميع الآلات الفنية والعلمية التى جاءوا بها من فرنسا ، ولكن المخطوطات العربية والتماثيل وباقى المجاميع التى جمعت للجمهورية الفرنسية تعتبر من الأملاك العامة ومن ثم تسلم لقواد الحلفاء
(وقد اعترض الجنرال منو على هذا التعديل ولكن الجنرال هوب صرح أنه لا يمكن العدول عنه واتفق القائدان على عرض الأمر على القائد العام للجيش الانجليزى)

الشرط ١٧

مراكب النقل التى ستخصص لنقل الجيش الفرنسى ومن يتبعه تسير بحراسة السفن الحربية التابعة للحلفاء وتعهده هذه الدول أن لا تضار هذه المراكب مدة سفرها ، أما المراكب التى قد تنفصل عن عمارة النقل بفعل العواصف أو لآى حادثة فاعلمى قواد الحلفاء أن يضمّنوا سلامتها ، وعلى المراكب التى تنقل الجيش الفرنسى أن لا ترسو بأى شاطئ غير شواطئ فرنسا ما لم تقض بذلك الضرورة القصوى
(الجواب) — مقبول ، وعلى القائد العام للجيش الفرنسى أن يتعهد من ناحيته أن لا تضار أى سفينة من سفن الحلفاء أثناء إقامتها فى فرنسا أو فى عودتها وأن تزود فى فرنسا بكل ما يلزمها طبقاً للعرف الجارى بين الدول الأوروبية

الشرط ١٨

عندما تسلم القلاع والاستحكامات طبقاً لنص الشرط الثالث يصير إطلاق
سراح الأسرى من الجانبين (الجواب) - مقبول

الشرط ١٩

يعين مندوبون لتسلم المواقع الموجودة في المدينة والقلاع وكذلك الذخائر
والمخازن والمدافع والأشياء الأخرى التي تترك للحلفاء وتحرر قوائم بكل ذلك
يوقع عليها مندوبون من الطرفين كما يجري تسليم القلاع والمخازن للحلفاء.
(الجواب) - مقبول ، وعلى الفرنسيين تسليم الخراط المحتوية على تخطيط
مواقع الاسكندرية وقلاعها وتخطيط مدن القطر المصري إلى المندوبين الانجليز ،
وتسلم البطاريات والشحنات والمباني العامة الأخرى بالحالة التي هي عليها الآن

الشرط ٢٠

يعطى جواز سفر لسفينة حربية فرنسية تبحر إلى طولون بعد تسليم المدينة
وقلاعها تقل الضباط الذين يعهد إليهم القائد العام للجيش الفرنسي لإبلاغ نبأ
هذه المعاهدة إلى الحكومة الفرنسية
(الجواب) - مقبول ولكن إذا كانت السفينة فرنسية فلا تكون مسلحة

الشرط ٢١

عند تسليم القلاع والاستحكامات المنوه عنها في المواد السابقة يجري تبادل الرهائن
من الجانبين لضمان تنفيذ هذه المعاهدة ويختارون من بين ضباط الجيش من مرتبة
واحدة بحيث يكون عددهم أربعة من ضباط الجيش الفرنسي واثنين من ضباط الجيش
الانجليزى واثنين من الجيش التركي وينزل الضباط الفرنسيون الأربعة ببارجة
الأميرال قومندان عمارة الحلفاء والضباط الانجليز والترك بإحدى السفن المقلدة للقائد
العام للجيش الفرنسي ، ويجري تبادل أوائل الضباط عند وصولهم إلى فرنسا
(الجواب) - يسلم القائد العام للجيش الفرنسي أربعة ضباط كرهائن أحدهم من
ضباط البحرية الانجليزية والثاني من الجيش الانجليزى والثالث والرابع من الجيش
التركى وعلى القائد العام للجيش الفرنسي أن يسلم قائد الجيش الانجليزى أربعة ضباط
من مرتبة الضباط المذكورين وتسلم الرهائن وقت نزول الجنود إلى السفن

الشرط ٢٢

إذا قام أى خلاف أثناء تنفيذ هذه المعاهدة فيجسم بالطرق الودية على يد
مندوبين من الطرفين
(الجواب) — مقبول

توقيعات : هلى هتشنسون لفتنت جرنال قائد عام ، حسين قبطان باشا ، عبد الله
جماك فرنسوا منو القائد العام للجيش الفرنسى ، جمس كمت Kempt لفتنت كولونل
وسكرتير

تصويبات

صفحة	سطر	خطاً	صواب
١٢	١	بالقول	بالقبول
١٢	١٤	اللدودة	اللدود
١٧	٩	العاط	العابط
٢١	١٠	يانقاز	يانقاز
٢٢	٢	الأولى	الأول
٢٤	١ هامش	ثيبو	تيبو
٢٩	٢٠	قومندنا	قومندانا
٣٢	٢٢	إليهم	فذهب إليهم
٣٧	٩	ذارة	داره
٤٣	١ هامش	ولم	رقم
٤٤	٢٤	حذم	حذوم
٤٤	١ هامش	٧٩٩	١٧٩٩
٥١	١٧	أوفدها	أوفدها
٦٣	٨	الأوقات	الأوقاف
»	٢٤	القضاة	القضاء
٦٨	٥	القطري	القطر
٩٠	١٤	وسلة	وسله
١٠٨	١٧	للمجتمع	للمجمع
١١٩	١٥	الديركتور	الديركتور
١٢٥	٦	يرجوا	يرجو
٢٢٨	٢١	السعادة	السعاة
٣٠١	٨	وضربوا	وضربوا
٣٠٨	١٤	متواليا	متوليا

فهرست الجزء الثانى

صفحة

٣		مقدمة الطبعة الثالثة والثانية
٥		مقدمة الطبعة الأولى
٧		خلاصة الجزء الأول

الفصل الأول

١٠ إعادة الديوان

١٤	منشور نابليون بإعادة الديوان	١٠	أسباب إعادة الديوان
١٥	نظام الديوان الجديد	١٢	احتلال السويس ورحلة نابليون إليها
١٥	الديوان العمومى وأعضاؤه	١٣	رواية الجبرتى عن احتلال السويس
١٨	الديوان الخصوصى وأعضاؤه	١٤	رواية الجبرتى عن رحلة نابليون إليها

الفصل الثانى

٢١ الحملة على سورية

٢٩	احتلال يافا	٢١	مقدمات الحملة وأسبابها
٣٠	المصريون فى يافا		احتياطات نابليون وسياسته إزاء الشعب المصرى
٣٢	حصار عكا والارتداد عنها	٢٤	اجتماع نابليون بأعضاء الديوان
٣٥	خسائر الفرنسيين فى الحملة على سورية	٢٦	الاحتفال برؤية رمضان
٣٦	موقف نابليون بعد هزيمة عكا	٢٧	سير الحملة
٣٨	انسحاب الجيش الفرنسى إلى مصر	٢٨	احتلال العريش
		٢٩	

الفصل الثالث

٤١ الحالة فى مصر أثناء الحملة على سورية

٤٣	احتفال الفرنسيين بانتصاراتهم	٤١	حالة الشعب النفسية
٤٣	حالة القاهرة فى شهر فبراير سنة ١٧٩٩	٤٢	مركز الديوان

٥٢٥

٥٢	رواية الجبرتي	٤٥	بوادر الثورة في الأقاليم
٥٣	إخماد الثورة	٤٥	الثورة في الشرقية
٥٣	معركة كفور نجم	٤٧	واقعة بردين
٥٤	إحراق ميت غمر	٤٨	ثورة أمير الحج
٥٤	الثورة في غرب الدلتا	٤٩	رواية الجبرتي
٥٦	الثورة في البحيرة	٤٩	امتداد الثورة
٥٨	معركة سنهور	٥٠	رواية الجبرتي
٥٨	احتلال الفرنسيين دمنهور	٥١	خطورة الثورة
٥٩	النهب والفظائع في دمنهور	٥١	عزل أمير الحج

الفصل الرابع

سياسة نابليون في مصر

٦١	بعد عودته من سورية	٦١	عودة نابليون إلى القاهرة
٦٩	مقتل الجنرال دومارتان	٦٢	منشور أعضاء الديوان
٧٠	نزول الجنود العثمانية في أبو قير	٦٢	تغيير نظام القضاء وانتخاب قاضي
٧٠	احتلال الأتراك قلعة أبو قير	٦٣	فضاة مصر
٧١	تعليمات نابليون	٦٦	عود إلى المجمع العلبي
٧٣	معركة أبو قير البرية	٦٦	خرطة مصر (١)
٧٤	حصار قلعة أبو قير	٦٧	اكتشاف الآثار المصرية القديمة
٧٦	رواية الجبرتي عن معركة أبو قير	٦٨	الموقف السياسي وتجدد القتال
٧٧	حالة الأفسكار في القاهرة والأقاليم		
٨١	رجوع نابليون إلى القاهرة		

الفصل الخامس

اضطراب الأحوال في فرنسا ورحيل نابليون ٨٣

ص	رأى نابليون في الجلاء عن مصر ٩٣	٨٦	الاستعداد للرحيل
٩٣	رأيه في حالة مصر الداخلية	٨٧	سفر نابليون من القاهرة
٩٤	حصون مصر	٨٨	عرض الصلح على تركيا
٩٤	الإدارة المالية ومشروعات أخرى	٨٩	من القاهرة إلى الاسكندرية
٩٥	ختام الرسالة	٩٠	رسالة نابليون إلى الديوان
٩٦	إفلاق السفن	٩١	رسالته إلى الجيش
٩٧	الاحتفال بوفاء النيل بعد سفر نابليون	٩١	رسالته إلى الجنرال كليبر عن الحالة في مصر

الفصل السادس

قيادة الجنرال كليبر ٩٩

١١٠	حقيقة الموقف الحربى فى مصر	٩٩	شخصية كليبر
١١٢	الحالة المالية والاقتصادية	٩٩	الجلفاء بين كليبر و نابليون
١١٨	حالة الشعب النفسية		موقف كليبر بعد إسناد القيادة العامة
	مساعى كليبر فى عقد الصلح ورأيه فى	١٠٣	إليه
١١٩	مركز مصر السياسى	١٠٥	مقابلته لأعضاء الديوان
	تجدد القتال وهزيمة الأتراك فى	١٠٧	أعضاء الديوان فى عهد كليبر
١٢١	عزبة البرج	١٠٧	التقسيم الإدارى للديريات
١٢٢	أعمال كليبر العلنية	١٠٨	الحالة فى القاهرة والأقاليم

الفصل السابع

معاهدة العريش ١٢٣

١٢٦	المجلس الحربى الفرنسى لإقرار الصلح	١٢٤	مفاوضات الصلح فى دمياط وغزة
١٢٨	التوقيع على المعاهدة	١٢٥	زحف الجيش العثمانى واحتلال قلعة العريش

صفحة		صفحة	
١٣١	الاستعداد للجلاء	١٢٨	شروط المعاهدة
١٣٢	مظالم الحكم التركي	١٣٠	نظرة في معاهدة العريش

الفصل الثامن

١٣٥	نقض المعاهدة ومعركة عين شمس		
١٤٠	رواية الجبرتي عن معركة عين شمس	١٣٥	نقض الانجليز للمعاهدة
		١٣٧	معركة عين شمس

الفصل التاسع

١٤١	ثورة القاهرة الثانية		
١٦١	الوساطة في الصلح واخفاؤها	١٤٢	بدء الثورة
١٦٣	مأساة بولاق	١٤٣	هجوم الثوار على معسكر الفرنسيين
١٦٦	الهجوم على مواقع الثوار	١٤٥	اشتداد الثورة
١٦٦	فظائع الفرنسيين في إخماد الثورة	١٤٧	اعتداءات يوسف لها
١٦٨	المفاوضة في التسليم	١٤٨	وصول الجنرال كليبر
١٦٩	عودة السلطة إلى الفرنسيين	١٤٩	خطة كليبر في إخماد الثورة
	بعد إخماد الثورة — غرامات فادحة	١٥٠	إخضاع الوجه البحري
١٧١	اعتقال واضطاد	١٥١	الانفاق مع مراد بك
١٧٣	اضطهاد الفرنسيين للسيد السادات	١٥٦	معاهدة الصلح بين كليبر ومراد بك
١٧٧	موقف كليبر بعد إخماد ثورة القاهرة	١٥٩	إخماد ثورة القاهرة

الفصل العاشر

١٧٩	مقتل الجنرال كليبر		
١٨٢	التبض على القاتل واعترافاته	١٧٩	تفاصيل الواقعة
١٨٤	قضية مقتل كليبر	١٨١	رواية الجبرتي

صفحة		صفحة	
١٨٩	الحكم	١٨٤	تأليف المحكمة العسكرية
١٩٠	جنازة كبير	١٨٥	التحقيق مع المتهمين
١٩٢	إفقال الأزهر	١٨٨	المحاكمة

الفصل الحادى عشر

قيادة الجنرال منو

٢٠٩	مشروعات منو	١٩٣	شخصية منو
	استعداد الإنجليز والأتراك للزحف	١٩٥	سياسة منو إزاء الجيش الفرنسى
٢١١	على مصر	١٩٧	مسألة إسلام منو وزواجه
٢١١	سياسة انجلترا إزاء مصر	١٩٩	سياسة منو إزاء المصريين
	مساعى نابليون فى إمداد الحملة	١٩٩	ضرائب واناوات فادحة
٢١٢	الفرنسية	٢٠٠	نهب وإرهاق وتخريب
٢١٥	موقف منو	٢٠٤	إعادة الديون
	وصول الحملة الانجليزية العثمانية إلى	٢٠٤	تأليف الديوان
٢١٥	أبو قير	٢٠٥	موظفو الديوان
٢١٦	نزول الإنجليز إلى البر	٢٠٦	سلسلة التاريخ
٢١٧	معركة سيدى جابر	٢٠٦	دار الديون
٢١٩	ارتباك الجنرال منو	٢٠٦	وصف لإحدى جلسات الديوان
٢١٩	حالة الأفكار فى القاهرة	٢٠٧	اختصاص الديوان
٢٢٢	اعتقاد واضطهاد		

الفصل الثانى عشر

هزيمة الفرنسيين وجلاؤهم عن مصر

٢٢٥	استطراد إلى قلعة رشيد وأهميتها	٢٢٥	معركة كانوب
٢٢٩	التاريخية	٢٢٩	احتلال رشيد

صفحة

صفحة

٢٤١	عن مصر	٢٣١	قطع سداً بوقير وعزلة الإسكندرية
٢٤٢	توقيع اتفاقية الجلاء	٢٣٣	معركة الرحمانية والزحف على القاهرة
٢٤٣	إطلاق سراح المعتقلين	٢٣٤	انتقام منو من خصومه
٢٤٤	آخر جلسة للديوان	٢٣٥	رواية الجبرتي
٢٤٥	خلاصة تاريخ الديوان		زحف الجيش العثماني — معركة
٢٤٦	جلاء الفرنسيين عن القاهرة	٢٣٥	الزوامل
٢٤٧	موقف منو في الإسكندرية	٢٣٦	تخرج موقف الفرنسيين في القاهرة
٢٤٩	المفاوضة في الجلاء	٢٣٦	موت مراد بك
٢٥٠	اتفاقية الجلاء	٢٣٧	انتشار الوباء
٢٥١	رواية الجبرتي	٢٣٨	اجتماع الجنرال بليار بأعضاء الديوان
٢٥١	جلاء الفرنسيين عن الإسكندرية	٢٣٩	تقدم الحلفاء

الفصل الثالث عشر

نتائج ظهور العامل القومي

٢٥٣

على مسرح الحوادث السياسية

٢٧٠	الشيخ سليمان الفيومي		إحالة السياسية في مصر بعد جلاء
٢٧٢	الشيخ مصطفى الصاوي	٢٥٤	الفرنسيين
٢٧٣	الشيخ محمد المهدي	٢٥٤	الأتراك
٢٧٨	السيد أحمد المحروفي	٢٥٥	الإنجليز
٢٨٣	ظهور محمد علي	٢٥٥	المماليك
٢٨٧	الصراع بين القوات الثلاث	٢٥٧	العامل القومي
٢٨٧	تعيين خسرو باشا والياً لمصر	٢٥٩	قادة الشعب وزعماءه
٢٨٨	مؤامرة الأتراك على المماليك	٢٥٩	السيد عمر مكرم
٢٨٩	رواية الجبرتي عن مؤامرة الإسكندرية	٢٦٢	السيد محمد السادات
٢٩٠	مؤامرة القاهرة	٢٦٥	الشيخ عبد الله الشرفاوي
٢٩١	رواية الجبرتي	٢٦٩	الشيخ محمد الأمير

صفحة

٣١٤	قطع سد أبو قير
٣١٥	مقتل على باشا الجزائرلى
٣١٦	موقف محمد على
	عودة محمد بك الألفى من لندن وفشل
٣١٦	خطته السياسة
٣٢٠	ثورة الشعب على المماليك
٣٢٥	ثورة الشعب على الوالى التركى
٣٢٥	الحالة السياسية فى القاهرة
٣٢٦	ولاية خورشيد باشا
	سوء سياسة خورشيد باشا ونفوذ
٣٢٨	العلماء
٣٢٨	مقدمات الثورة
٣٢٩	فضائح الجنود الدلاة وهياج الشعب
٣٣٠	رجوع محمد على إلى القاهرة
٣٣١	أيام الثورة
	تعيين محمد على والياً لجدده
٣٣٣	ومحاولة لإبعاده عن مصر
٣٣٤	اجتماع زعماء الشعب ومطالبهم
	خلع خورشيد باشا والمناداة بمحمد
٣٣٦	على والياً لمصر
٣٣٨	القتال بين الشعب والوالى التركى
٣٤٠	عمر مكرم روح الحركة
٣٤٨	ختام الثورة

صفحة

٢٩٢	تغير وقتى فى وجهة النظر الإنجليزىة
٢٩٣	استتجاد المماليك بنابليون وإخفاقهم
٢٩٤	جلاء الإنجليز عن الجزيرة
٢٩٥	الحرب بين الأتراك والمماليك
٢٩٦	هزيمة الأتراك فى هو
٢٩٧	معركة دمنهور
٢٩٨	رواية الجبرتى
	جلاء الإنجليز عن مصر ورحيلهم
٢٩٩	عن الاسكندرية
٢٩٩	حضور السكولونل سباسة تيانى إلى مصر
٣٠١	موقف المماليك بعد جلاء الإنجليز
٣٠٣	تجدد الحرب بين المماليك والأتراك
٣٠٣	احتلال المماليك المنيا
٣٠٥	ثورة الجنود على الوالى
٣٠٧	نعمين طاهر باشا قائممقاماً ثم مقتله
٣٠٧	مظالم طاهر باشا
٣٠٩	مقتل طاهر باشا
٣٠٩	تعيين أحمد باشا
٣٠٩	تحالف محمد على والمماليك
٣١١	اعتقال خمرو باشا
٣١١	تعيين على باشا الجزائرلى والياً
٣١٢	موقف محمد على
٣١٣	حضرر المسيو ماسيو داسيس

الفصل الرابع عشر

وثائق تاريخية

- وثيقة رقم ١ - منشور نابليون بإعادة الديوان ... ٣٥٠
- وثيقة رقم ٢ - منشور الديوان الخصوصى إلى الشعب لمناسبة إعادة الديوان ... ٣٥٠
- وثيقة رقم ٣ - منشور نابليون إلى أعضاء الديوان عن انتخاب قاضى قضاة مصر ... ٣٥١
- (١) نص المنشور كما عربناه عن الأصل الفرنسى ... ٣٥١
- (٢) نص المنشور كما عربته ترجمة نابليون ... ٣٥٣
- وثيقة رقم ٤ - معاهدة العريش ... ٣٥٤
- وثيقة رقم ٥ - معاهدة الصالح بين الجنرال كليبر ومراد بك ... ٣٦٠
- وثيقة رقم ٦ - وثيقة زواج الجنرال منو بالسيدة زبيدة المصرية ... ٣٦٢
- عقد الاتفاق بين منو وزوجته ... ٣٦٤
- وثيقة رقم ٧ - معاهدة الجلاء عن مصر - أبرمها الجنرال بليار قائد الجيش الفرنسى فى القاهرة ... ٣٦٦
- وثيقة رقم ٨ - معاهدة الجلاء عن الإسكندرية ... ٣٧٣
- تصويبات ... ٣٨١
- فهرست الجزء الثانى ... ٣٨٢
- فهرست الخرائط والرسوم ... ٣٨٩

فهرست الخرائط والرسوم

صفحة

٤٦	بين بلبس والصالحية
٤٦	مصطفى بك أمير الحج
٥٦	بين رشيد وشبراخيت (تخطيط سنة ١٨٠٠)
٧٥	بين الإسكندرية وأبو قير — (تخطيط سنة ١٨٠١)
١٣٧	بين القاهرة وبلبس (تخطيط سنة ١٨٠٠)
١٤٤	مصر كرك الفرنسيين بالأزبكية سنة ١٨٠٠
٢٠٣	بركة الفيصل بالقاهرة في أواخر القرن الثامن عشر
٢١٨	خرطة معركة سسيدي جابر
٢٢٨	خرطة معركة كانوب
٢٣٨	سراي عثمان بك الطنبورجي خليفة مراد بك بالقاهرة
٢٦٠	قادة الشعب وزعماءه في فجر النهضة القومية
٢٨٥	محمد علي باشا
٣٠٤	المنيا كما كانت في أوائل القرن التاسع عشر

للمؤلف

حقوق الشعب

كتاب وضعناه سنة ١٩١٢ ، يتضمن شرح المبادئ والنظريات والقواعد الدستورية وحقوق الانسان في قالب محاضرات لتعليم الشعب حقوقه .

نقابات التعاون الزراعية

كتاب بسطنا فيه تاريخ التعاون الزراعى ومنشآته ونظمه فى أوروبا ، والثمرات التى عادت منه على البلاد الأوروبية . وتناولنا فيه نشأة التعاون فى مصر وتاريخه ونظامه ونقائمه ومنشآته ومزاياه وعلاقته بالنهضة الاقتصادية والاجتماعية طبع سنة ١٩١٤

كتابات الجمعيات الوطنية

يتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات القومية فى طائفة من البلدان ، مع شرح أصول الدساتير والنظم البرلمانية فيها ، والمقارنة بينها ، طبع سنة ١٩٢٢

تاريخ الحركة القومية

وتطور نظام الحكم فى مصر

الجزء الاول : يتضمن ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث ، وبيان الدور الاول من أدوارها ، وهو عصر المقاومة الاهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر ، وتاريخ مصر القومى فى هذا العهد

الجزء الثانى : من إعادة الديوان فى عهد نابليون إلى انتهاء الحملة الفرنسية ، ومن جلاء الفرنسيين إلى ارتقاء محمد على أريكه مصر بإرادة الشعب

عصر محمد على

يتناول تاريخ مصر القومى فى عهد محمد على

عصر اسماعيل

الجزء الأول : يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد إسماعيل

الجزء الثاني : وفيه ختام الكلام عن عهد إسماعيل

الثورة العراقية

والاحتلال — لال الانجليزى

مصر والسودان

في أوائل عهد الاحتلال

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٨٩٢

مصطفى كامل

باعث الحركة الوطنية

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ الى سنة ١٩٠٨

محمد فريد

رمز الإخلاص والتضحية

تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٠٨ الى سنة ١٩١٩

ثورة سنة ١٩١٩

تاريخ مصر القومى من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩٢١

الجزء الأول : يشتمل على شرح حالة مصر وحوادثها التاريخية أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) وبيان الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة ، وتطور الحوادث من بعد انتهاء الحرب إلى شهبوب الثورة في مارس سنة ١٩١٩ ، ثم وقائع الثورة في القاهرة والأقاليم

الجزء الثاني : وفيه الكلام عن مهادنة الثورة ، واستمرارها . ومحاولات الثورة ، ولجنة مانر والحوادث التي لا يستها ، ومفاوضات مانر ، واستشارة الأمة في مشروع ملنر ، والتبليغ البريطاني بأن الحماية علاقة غير مرضية ، ونتائج الثورة في حياة مصر القومية

في أعقاب الثورة

(ثورة سنة ١٩١٩)

- الجزء الأول : تاريخ مصر القومي من أبريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة «سعد زغلول» -
في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧
- الجزء الثاني : تاريخ مصر القومي من وفاة سعد زغلول سنة ١٩٢٧ إلى وفاة الملك
فؤاد سنة ١٩٣٦
- الجزء الثالث : تاريخ مصر القومي من ولاية فاروق عرش مصر في ٦ مايو
سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٥١

مذكراتي

١٨٨٩ — ١٩٥١

خواطري ومشاهداتي في الحياة

شعراء الوطنية في مصر

تراجعهم . وشعرهم الوطني . والمناسبات التي نظموا فيها قصائدهم

أربعة عشر عاما في البرلمان

بمجموعة أعمال وأقوال في البرلمان . في مجلس النواب سنة ١٩٢٤ — ١٩٢٥
وفي مجلس الشيوخ من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٥١

م. السعادة
بمصر.

962

R 136A

V. 2

C. 3

J. Lib.

10 DEC 1985

9 Mar 65

JAFET LIB.

1 JUN 1977

8 AUG 1974

J. Lib.

1 DEC 1985

J. Lib.

~~14 JUN 64~~

~~14 JUN 64~~

~~14 JUN 64~~

12 Nov 64

JAFET LIB.

1 JUN 1978

1 Oct 66

1 Feb 67

12 FEB 1986

12 AUG 1988

JAFET LIB.

8 FEB 1978

الرافعي، عبد الرحمن
تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الح

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01055447

DATE DUE

